الدكتورة : ناديا خوست

شـــهداء وعشـــــــاق
فـي بـــلاد الشـــام

- روايـــــة -

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنان: وائل صيداوي

❑❑

إلى مقاومي جنوب لبنان، إلى سياسييه، إلى سكانه،
إلى اللبنانيين الذين تحملوا الاحتلال اثنتين وعشرين سنة،
إلى لبنان، ابن الحضارة والأناقة والعراقة، الذي يختتم بانتصاره الكبير على المحتلين، نهاية القرن المهزومة.

\\\

تفرج قدري على أنواع الورد التي زرعها في حديقة البلدية. أتى ببعضها من دمشق، وببعضها من بيروت. هذه الوردة السوداء هدية الألمان. وهذه ذات الخدود الوردية من بيروت. وتلك الصفراء قلمت لتكون كشجيرة. وهناك البيضاء والحمراء. هذه ذات عطر وتلك ذات شكل. من هذه المقاعد يستمتع الجالس بها. نعم، أزهو بأن معاش البستاني عندي ثماني ليرات! والقائمقام يأخذ 12 ليرة! من موارد الحمامات اشترى قدري موتور كهرباء من الألمان لطبرية، فأضاءها من الخامسة حتى منتصف الليل. مدّ أنابيب الماء من النبع إلى الحنفيات. إحداها قرب بابه يسميها الناس نبع قدري. يعترف بأن حارة اليهود وسخة. رأى وهو في طريقه إلى البحرة امرأة ترمي وسخ ابنها في الطريق. لكن هل يستطيع أن يكون حارسا على بيوت طبرية كلها؟!

لماذا يستعيد قدري حياته؟ ليشعر بالرضا؟ على بعد نصف ساعة قرية المجدل. مشى إليها مستمتعا بالطريق. هذه السعادة لاتباع! لذلك رفض أن يبيع بيته وبستانه بعشرة آلاف ليرة للبرادعي. يعرف أن البرادعي إنكليزي قد يبيعها لليهود؟ ولأن البيت الذي رتبه والبستان الذي زرعه لا يباع! فكر في البرادعي. ربته أمه في بيت أهلها. أهلها مكّارة ينقلون الناس على الحمير بين طبرية المنخفضة وصفد المرتفعة. يتنقل الأكابر بالسيارة، والرجال بالخيل، وخلق الله على الحمير. يربط المكّار الرجل المسنّ أو الطفل بالشّملة أو الشرشف إلى الحمار، وعلى بركة الله! اولئك أهل البرادعي. لكنه لم يصبح مكارا. زار المبشرون بيوت الأغنياء فدونهم لايمكن أن يقيموا علاقات بالبلد. وزاروا بيوت الفقراء فكسبوا بعضها بالهدايا والمساعدة. مس فورد مبشرة في طبرية مثل مس نيوتون في حيفا. رأت مس فورد البرادعي الفقير، كسته وعلمته في المدرسة، ثم أرسلته إلى السلطاني في بيروت مقابل الباشورة. وعندما ضربه أحد الأولاد نقلته إلى مدرسة أخرى. ثم درس الحقوق في بيروت. وهاهو أفندي يعرض أن يشتري بيتي وبستاني! كبرت غرسة المبشرين الإنكليز!

لكن للتفكير في ما سيؤرقه وقت! وهل رغبة البرادعي في شراء بيته وبستانه

بعيدة عن رغبة الصهيونيين في الأراضي؟! لكن قدري من هواة السعادة الموهوبين بالانتباه إلى ما في اليد! فلينصرف في هذه البرهة إلى شعوره بأنه وسيم، ذو مركز، ذو مال، تحبه النساء! ينتبه قدري إلى الكأس التي يشربها، والطريق الذي يمشيه، والشجرة التي يراها، والزهرة التي يشمها، وإلى شامة المرأة التي يحبها أو رقة بشرتها، أو نعومة شعرها. ويستمتع بذلك مرة أخرى بمزاج رائق عندما يتذكره. يستطيع أن يقول إن طعم الزعتر يبقى في فمه زمنا، وأنه يستحضر نكهة كأس الليمون. لذلك يقدّر كم تفقد فاطمة من الحياة وهي تتأمل حزنها.

اسمعي يا فاطمة هذه الحكاية التي أتيت بها من حيفا: أولاد ضيفة صيادون يخرجون بالفلوكة كل يوم إلى رزقهم. سمعوا أمهم ذات صباح تدعو الله "السماء تمطر لكم، والأرض تنبع لكم"! قصدت لهم الخير! لكن السماء سكبت المطر في ذلك اليوم، وبدا البحر كالنبع فكادوا يغرقون. لاموها: استجاب الله دعاءك! غيّريه يامّا! غيّرته فقالت: "إلهي، تكونوا ماشين يكفت عليكم"! ظل المطر يهطل. فرجوها أن تسكت! شكتهم لي: منعوني من الدعاء لهم!

ابتسمت فاطمة لأن قدري يحاول أن يبعدها عن حزنها. ينتبه الناس إلى مرض الجسم! والروح؟ روحي مريضة يا قدري لكني لا أستطيع أن أشكو. أنا أسيرة فاطمة التي عرفتموها. لا أملك أن أفجعكم بها! وليتني أتحرر منها لأبكي مثل أية امرأة أخرى!

قبلت فاطمة دعوة عباس أفندي إلى الغداء. ستحاول أن تكون ظل المرأة التي استقبلته في حيفا، ومدت له الغطاء المطرز على طاولة قوائمها ملبّسة بالفضة! يتخفى عباس أفندي بالليل ليساعد الفقراء. ولا يفوت زيارة الوجهاء إذا مرضوا أو زوجوا أولادهم، ويحضر مناسبات الحداد. بنى لنفسه ضريحا في الكرمل يعرف أنه سيصبح مزارا للبهائيين في العالم، مثل قبر أبيه في عكا. لكن فاطمة لا تريد أن تفكر في أنه يتوهم نفسه المسيح العائد. ولا في أنه يفتح، بوحدة الأديان، بوابة المسيحيين والمسلمين لليهود.

سافرت فاطمة مع قدري وسعيد إلى عكا، ودخلت بيته الذي يسميه الناس بيت العجم. جلست إلى طاولة الطعام. في أي زمن كانت تنشر على السهرة الأحاديث وتستمتع بها؟! تنتظر الآن أن تنتهي من الطعام منذ بدأ! وتنتظر العودة منذ دخلت! تريد أن تنجز واجبا فتفرح قدري وسعيدا، وتشعر عباس أفندي بأنها غير مهزومة!

حول الطاولة نساء ورجال بهائيون. نساء أحببنها ورجال عرفتهم. من النساء

زهية العجم ذات العينين السوداوين سوادا لا نعرفه في بلادنا. تفوح منها العطور ويبرق عليها عقد فارسي. الصحون على الطاولة مقابل الكراسي. الشوكات والسكاكين من الفضة. يضيق سعيد بجوعه. ها قد بدأنا! ارتفعت الشوكات عندما رفع عباس أفندي شوكته. ونزلت عندما أنزلها. لكن سعيدا نجح في أن يتناول لقيمات في المرة التي تناول فيها عباس أفندي واحدة. هل تبتسم فاطمة أم تخجل به! سيضيف عباس أفندي هذا إلى ما يلوم سعيدا عليه! أينسى سعيد أن عباس أفندي لامه عندما خرج إليه بالبيجاما في حيفا مع أنه كان بعد صغيرا: هل بيننا كلفة مرفوعة؟ هل أنا في عمرك؟ لا يخرج الولد المهذب من غرفته بالبيجاما حتى أمام أمه وأبيه! كبر سعيد ويستطيع أن يضبط اليوم نفسه بالأصول. لكنه يقصد أن يداعب هيبة عباس أفندي. منذ أيام قال لفاطمة بعد عودته من بيروت مع صدقي الطبري: تغطي البهائية الصهيونية! لذلك شجع السلطان عبد الحميد الشاذلية مقابلها!

لكن فاطمة لا تريد أن تفكر في ذلك الآن! فعباس أفندي ليس هذا الحاضر مقابلها! حوله أطياف يوسف الذي كان يستقبله بلباقة ويقابل هداياه بأخرى. ويفهم العلاقات التي يريدها عباس أفندي فيقبلها لكنه لا يتورط في أهدافها. ويحدث فاطمة عن البهائية التي تمتد في العالم كدين آخر. يطرق عباس أفندي الباب على المحتاج فإذا سأل: من؟ رد: عبد الله! وقدم له مالا: هذا من فضل الله! أثمر في الناس ماله وحديثه. وربما هيأته، جبته البيضاء وذقنه.

تذكرت فاطمة طقم السفرة الذي أهداه لها ذات يوم، وأعجبها أن صحونه في شكل سمكة. للفقراء المساعدة، وللوجهاء الهدايا. لكن أين ذلك يا فاطمة؟ أتقول كالعاجز لا أمان للدنيا، هي التي رفضت من كبريائها الشكوى، وقالت لا تثقلوا على السماء بهموم الأرض؟

تختلف أفكار السعيد عن أفكار الشقي يا فاطمة! لا يقبل كبرياؤك أن تعيشي في بيت ليس بيتك، ولو ضيفة مدللة. ويبدو لك أن الموت لا يقدّر بنهاية الحياة فقط، بل بنهاية مسار لا يستطيع الإنسان أن يزيد فيه. فيظن أن حياته أصبحت استمرارا مملا ومخجلا!

قال لها قدري في الطريق: تتمنى المرأة أن يكبر أولادها كي تصبح حرة. سافري إلى الشام! ارمي الهم يا فاطمة واستمتعي بحريتك! حريتها مم وممن؟ ماذا يفعل بالحرية إنسان عار ضيع حتى ما يذكره بحياته الماضية، وليس له مشروع لحياة قادمة؟ لا تستطيع أن تعمّر بيتا جديدا وتشيّد أسرة! وليست ممن يقبل أن

يبقى زائرا! نعم، ينقصها المشروع! وليست بها رغبة كي تجده! كبر الأولاد وسعاد لم تعد صغيرة. لا تريد أن تفكر بمسؤوليتها عنها، أو عن آخرين! تتمنى أن تهرب من فاطمة التي يأسرها بها من عرفها! فاطمة الجميلة المتزنة والسعيدة! لكنها لا تجسر على الهرب. استسلمت للكآبة فجلست صامتة قرب النافذة تتأمل بحيرة طبرية. هل يتبين قدري كآبتها، أم وفقت في أن تستر بالصمت موتها الهادئ؟

قدم لها قدري فنجان قهوة المساء: سافري يا فاطمة إلى الشام! ستفرح بك نفيسة وخالد آغا! حمت نفسها من قلقه عليها: سنفكر في ذلك يا قدري! لو تستطيع أن تقول له إننا حتى عندما نضيق بأولادنا وواجباتنا، نؤكد بذلك الضيق أن الحياة تفيض علينا بأكثر مما نستوعبه! لكني دون ذلك! دون واجبات نحو الأولاد والأصحاب. برّدت علاقاتي بالناس. وهل ذلك غير قطع العلاقة بالحياة؟ يكتمل زمن بعض الناس بالسعادة، ويكتمل لبعضهم بالموت. زمني اكتمل. بقي أن ينهيه حدث، لأنه لا يليق بفاطمة أن تنهيه بنفسها! فالمسؤولية الوحيدة الباقية هي مسؤوليتي عن فاطمة التي تحبون أن تتذكروها! يجب ألا أخونها!

لمحت فاطمة شعرة بيضاء في مفرقها وهي ترتب شعرها قبل أن تسافر إلى عباس أفندي في عكا. لو رأتها في وقت آخر لابتسمت. ولبقي في سمعها صوت يوسف يقول لها: أصبحت أجمل مما كنت يا فاطمة! ولعبّرت بالاعتداد عن فرحها بحبه وبحياتها. لكن الشعرة البيضاء الآن تؤكد لها انتهى زمنك، يا فاطمة! اخرجي! فتنسى أن الأجيال لا تنضج دون حراسة السابقين عليها. وأن الشعرة البيضاء لا تجرح شباب القامة. قالت لقدري كأنها تداعبه: الجو معبأ بالحرب، ومع ذلك تريدني أن أسافر؟ نعم، يا فاطمة! لو تعرف ما به! فقد يكون فرحه بحديقة البلدية وبملابسه وحياته فرح من يريد أن يؤكد لنفسه بأنها حقيقة عاشها، لأنه يخاف عليها. قالت له: تؤشر الحروب إلى صفحة تطوى! تقصد أنها من هذه الصفحة؟ سهل أن تقول لنفسها ذلك في هدوء، معترفة بأنها عاشت زمنا أكثر سعة من حياتها، لكن هل تعترف في يسر بأن لاحق لها في أن توجد بعده؟ هل تقبل ذلك في هدوء لو لم تكن قد خلعت شيئا فشيئا رغبتها في الملابس والماء العذب ونسيم الخريف وعبق التراب في المطر وسحر الليالي المقمرة؟ سترت روحها، وقالت: قد يكون حظنا يا قدري أننا عشنا زمنا حتى عتبته الأخيرة! يا فاطمة مازال علينا أن نعيش. وكان ذلك صدقا له لا لها!

بعد أيام، في آب سنة 1914 نادى المنادون بالأبواق والطبول في الأسواق معلنين النفير العام، طالبين من كل رجل بين العشرين والأربعين أن يسجل نفسه.

وعلق على الجدران أمر من الإدارة العرفية بمراجعة دوائر التجنيد، ينذر المتخلفين بمحاكمة عسكرية. فتراكض الناس! إلى هذا الحد صدقت نبوءة فاطمة؟ تمنى قدري ألا تصدق بقيتها!

يبدأ الحزن كبيرا ثم يصغر؟ لم يصغر حزن فاطمة على يوسف لكنه استسلم. تعتّق. قالت لشفيقة: صار وقت "ردّة الرجل"! اذهبوا إلى بيت منور لتأتوا بها! لم تقل: سأذهب معكم! ولم يسألوها لماذا استبعدت نفسها. من يجرؤ أن يمس حدادها! قدّرت أن زيارة منور لبيت أهلها حانت. فحتى بهاء، قريبها، يجب أن يفهم أن ابنتها مسنودة بأسرتها! لكن فاطمة أخرى بقيت مثبتة قرب النافذة المطلة على طبرية، كالغريبة عما حولها.

عرف قدري أن الدولة دخلت الحرب العامة وقت وصلت شفيقة وفاطمة اليونس وسعاد والعربجي إلى بيت منور. فأرسل البستاني ليبلغهن: دخلنا الحرب! ارجعن حالا!

حظ منور؟! لن تعود إلى بيت قدري للحفاوة بها. ولن يسألها أحد عن زواجها. ما أعجب الزمان! هي المدللة ذهبت إلى بيت زوجها دون عرس. ولا حفاوة بها في بيت قدري في "ردة الرجل" تعوضها عن عرسها المفقود!

ما مصير بهاء في الحرب؟ وهل ستبقى منور معه أم ستعود إلى بيت خالها؟ عاشت مع أهلها أكثر مما عاشت معه، ولذلك يجب أن تعود إليهم! كادت تقول لشفيقة: انتظري! لكن شفيقة قالت لها وهي تخرج: ابقي مع زوجك، حتى تعرفي أين ستكون أراضيه!

قرر خالد آغا ما يجب! فوصلت برقية منه إلى بهاء: احضر حالا! قدم نفسك للدفاع عن الدولة. لا تنتظر أن تطلب! غضبت شفيقة: يظن خالد آغا أن هذه الحرب كحروبه القديمة؟! لا يفهم أنها حرب عامة! يظن أن ابنه بهاء حر في أن يترك منور متى شاء كما كان هو يترك زهرة خانم ثم رابية خانم إلى الحرب؟ مجنون، خرف! وضعت فاطمة كفها على فمها كأنها هي التي قالت تلك الكلمات. فمن يجسر أن يقول ذلك عن خالد آغا! لم تفكر شفيقة بأن نوري شاب يمكن أن يساق إلى الحرب، وأن سعيدا مثله وإن كان يدرس في بيروت!

أتى بهاء إلى بيت قدري وفي جيبه تلغراف أبيه. جلس قرب فاطمة وتحدثا. لم تقترب منهما حتى شفيقة. هذا وقت مصيبة جديدة وفاطمة لم تشف بعد مما

سبقتها! لم تستعجل شفيقة معرفة قرار بهاء. تستعجل فقط معرفة الأفراح! وأين هي اليوم!

عرض بهاء لفاطمة طلب أبيه. سألها هل يترك منور في طبرية أم يأخذها معه الى الشام. في الشام أين ستنزلها يا بهاء؟ عند رابية خانم؟! أم عند نرجس؟ يمكن أن تنزل في بيت نفيسة ولكن هل أنت باق في دمشق؟ إذا لم أبق عادت إلى بيت خالها! قالت شفيقة: لو سمعتكما منور لضربت الأرض بقدمها وقررت أن تبقى في بيت خالها! تنهدت فاطمة: لا نقرر نحن إلا التفاصيل يا ست شفيقة! في الأيام الهنيّة فقط يرتب الإنسان مصيره!

ساعدت فاطمة اليونس منور في ترتيب حقيبتها. ماذا تبقي؟ ماذا تأخذ؟ من يعرف كم ستغيب في الشام! سيقرر القدر فقط ذلك. لكن الشباب رائع! لا تحمل منور الهم. تنظر إلى بيتها على سور طبرية، تطل من النافذة على البحيرة، وتبتسم. من هنا كانت تدلي للصيادين سلة يضعون فيها السمك الطازج، ترفع السلة وتأخذ منها السمك وتضع فيها ثمنه! كانت الشمس تلون البحيرة، والنهار والليل ونجوم السماء وقمر الليل تهبها تجليات متنوعة فتطل منور مرات عليها لترى وجوهها. والآن سترفع يدها لكل ذلك، تحية!

لم تدمع عينا منور عندما ودعت أمها. لم تذق بعد أزمنة الفراق. نوري؟ يا حبيبي! وقفت على رؤوس أصابعها وقبلته. كأنها مسافرة في نزهة! لم تقدّر بعد أن موت أبيها كان فقط الحزن الأول في حياتها. من لم يذق الأحزان لا يتوجس منها!

بعد سفر منور بيوم واحد جلس قدري وقت الغداء دون أن يتكلم. مهموم؟ لم تسأله فاطمة ولم تسأله شفيقة ما بك! بعد الطعام سيتكلم. في الغرفة التي تطل على بحرة طبرية بقي الكبار فقط: فاطمة وشفيقة ونوري، قدري واقف ووجهه إلى النافذة. لديك ما تقوله يا قدري، فما هو؟ لا يسرّ! وهل في هذه الأيام ما يسرّ؟ من يتخلف عن العسكرية "فراري" عقابه الشنق. يا نوري يجب أن تسلّم نفسك!

لم يتحرك أحد. هل كانوا يتوقعون ذلك؟ أزاحت فاطمة نظرتها عن قدري. ذلك كثير يا ربي! كثير! تساءل نوري: أسلّم نفسي؟ لأصبح عسكريا في جيش لا أحبه؟ لأطيع ضباطا أتراكا؟ لأرحّل في حرب لم يقررها العرب ولا مصلحة لهم فيها؟ أقاتل الإنكليز لحساب الألمان؟ فليحارب الإتحاديون الذين أهانوا العرب في مجلس المبعوثين! يقول نوري ذلك لقدري الذي كان في مجلس المبعوثين ورأى مرارة شكري العسلي منه؟ من سألنا رأينا يا نوري وقت أعلنت الحرب! لكن أين

المفر؟! يا خالي، سأطلع لعند البدو! سيطلبونك يا نوري! الإنسان عندنا ليس مهما إلا عندما يخرج على القانون! نظر نوري إليه عاتبا. يخاف خالي على نفسه! قال: لماذا لم يعلن النفير وقت حرب الطليان؟ ليسلموا طرابلس! يا نوري يجب أن تسافر إلى الشام، محل نفوسك، وتسلّم نفسك! وسأحاول أن أنقلك إلى طبرية! قالت فاطمة كأنها ليست هي التي تتكلم: يا نوري، اذهب إلى الشام..

-يمّا !

-إذا كان هناك بدل سندفعه !

تطلب منه أمه أن يسلّم نفسه؟ فاطمة التي جلست إليه في الليل عندما عاد موجوعا من دمشق بعد شنق الدروز! فاطمة التي انتظرت مولده سنوات طويلة واحتفت به عندما ولد! ركّب أبوه درابزينات للنوافذ خوفا عليه! اصطحبه معه في زياراته، وفرح به وهو يستقبل ضيوفه في "الديوان"! ألم تزهو فاطمة بطوله وهو يكبر تحت عينيها؟ ألم تبتسم كلما وقف الى جانبها: صرت أطول مني يا نوري! كيف تثنيه إذن عن الهرب من العسكرية، وترجح رأي أخيها قدري؟ لماذا لا توافق على فراره إلى البدو؟ يا نوري، يا حبيبي، لديك من العقل ما توزع منه على الأسرة كلها! فكر! هل سيفلت حتى البدو من العسكرية؟ وكيف ستعيش عند البدو؟ ماذا تشتغل عندهم؟ يوم تصل الدوريات إلى البدو ستكون فراريا! لن تقتل كما قتل اسماعيل دفاعا عن الدولة، بل لأنك فراري! في الأسرة حتى اليوم لا يوجد فراري!

عبرت منور وبهاء بحيرة طبرية، وركبا القطار من محطة سمخ إلى دمشق. استراحا في غرفة مدير المحطة، وحضرا "السلاملك" لعبد الرحمن باشا اليوسف. كان راجعا من أراضيه في البطيحة. في وداعه عسكر وطبول وأبواق. رأته منور، يلبس طقما فوقه عباءة. في دمشق تفرجت مرة أخرى على "السلاملك". وركب عبد الرحمن باشا عربته السوداء التي تجرها الخيل.

عبرت منور وبهاء ساحة المرجة، والبحصة، ثم صعدا في جوزة الحدباء إلى وسط سوقساروجا وعبرا حمام الجوزة والمقهى. مرا في طريقهما إلى بيت خالد آغا ببيت نرجس. هاهو النهر الذي يجري في عتمة الحارة، يعبر باحات البيوت، ويظهر في ساقية بيت خالد آغا وبحرته ويجري منها إلى ساقية نفيسة وبحرتها ويستمر بعدها. ألم تصل إليهما الورود التي أرسلتها جارة إلى جارتها أو محب إلى محبوبته؟

نزلت منور مع بهاء في البيت الذي قدمه خالد آغا لابنه، مقابل شجرة الكينا التي زرعها. في حارة صغيرة فيها ثلاثة بيوت فقط تغلق بباب يفصلها عن حارة قولي، أحدها بيت خالد آغا. جاءت نرجس من حارة النهر على بعد خطوتين وسلمت على منور. عانقتها وقبلتها: تقبريني ما أحلاك! ضرتان؟! بينهما قرابة، خبز وملح ونزهات وسنوات! حرص بهاء أن يكون متزنا وعابسا وقت دخلت نرجس لتسلم عليهما. شكرها لأنها أتت لتطمئن على أقربائها. قال لها: عينك على منور في غيابي، يا نرجس خانم! قلب صفحة الماضي ولا عودة إليه أبدا. تعرف ذلك نرجس ولاتبالي بذلك منور! لكنها راقبته وقالت بينها وبين نفسها: يضع وصية علي؟ أطرق. لا تغشه قوة الشباب المندفع فيها، فهو يحملها ما يثقل حتى من في عمر نرجس. ولكن يا للغرابة! يوصي بها زوجته القديمة! وبذلك يبين أن نرجس قريبة منه إلى حد أنه يأتمنها على زوجته المحبوبة! هل تدرك منور أن علاقته بنرجس تغيرت لكنها عميقة عمقا لا يقدره أي منهما؟ وأن ذلك لنرجس هدية كبرى تمحو ورقة الطلاق التي وصلتها منه من طبرية؟ من يستطيع أن يمحو علاقة بين رجل وامرأة ناما في فراش واحد، ولقيا الليل والفجر معا؟ كل ما

مزقاه لأنه كان ثقيلا وهما معا، يختلسان إليه النظر في السرّ الآن. وكلما نظرا إليه توهما فيه فتنة لم ينتبها إليها. كلما تأملاه عمّقا الحفرة التي يخبئانه فيها ونسجا بذلك صلة سرية بينهما. ومنور الشابة التي تصغر كلا منهما تنظر إليهما في براءة المنتصرين الذين لا يفهمون أن انتصارهم ليس بعد مستقرا.

في تلك الليلة قالت منور لبهاء: هذه الحارة التي يغلق بابها في المساء ويفتح في الصباح سجن. سأنتقل إلى بيت عمتي نفيسة مقابل الشامية! تأملها بهاء وأحرقته الغيرة. منها؟ عليها؟ لا يدري! بدت بريئة وصافية عندما استمعت إلى خالد آغا وهو يقدم لهما بيتا قربه، وعندما أوصى بهاء نرجسا بها! لكنها قررت لنفسها غير ما يريدان ولم تترك لهما أن يرفضا رغبتها! بعد سفر بهاء في حملة الترعة ستنتقل منور إلى بيت نفيسة.

وفي تلك الليلة عانقها بهاء. لمس شعرها وخديها. خائف عليها؟ قدرت له ذلك. وبهذه العاطفة من العواطف التي كبحتها كبرت منور في ذلك اليوم. أينضجنا القلق والخوف على المحبوبين وليالي الأرق التي نكتمها، كشمس آب القاسية التي تنضج العنب! فهمت منور تلك الليلة ما لم يستطع بهاء أن يقوله. غيرته على صبية يتركها في أيام الحرب، لا يريد لها الحزن، لكنه يتمنى ألا تتزوج بعده إذا مات.

هل كان بيت قدري واقفا على شعرة؟ هل السعادة والصحة والهناء التي أسسها قدري قائمة على ملح؟ قالت له شفيقة: طبرية كلها واقفة على شعرة! حرب عامة، هذا قليل يا قدري؟! بيتنا مثل بيوت العباد! دخلته الحمة الراجعة كما دخلتها. أنت تعرف ذلك أكثر مني!

مرضت بها فاطمة وسعاد معا! قاومت فاطمة الحمى ثم انهارت. قالت لشفيقة: عينك على سعاد، وأغمضت عينيها كأنها لم تعد موجودة. جلس قدري قربهما: يا شفيقة كيف نستطيع أنا وأنت ألا نمرض؟ اشرب يا أخي ليمونا! هاتي! قبل كل ما تقوله أخته!

في دمشق قيل لنوري عد بعد أسبوع. فرجع إلى طبرية. استقبله قدري. أين أمي؟ اجلس يا نوري، اجلس! أصبحنا ثلاثة أصحاء! لا تقترب من المرضى كي نبقى ثلاثة! شفيقة لا تكفي وحدها! لا تحمل هما يا نوري، لكن انتبه! لا تقترب من فاطمة وسعاد! لا يقترب منهما؟! وجدهما غافيتين. وأمه تهذي. هذه فاطمة؟ حتى يوم كانت حزينة كانت كالملكة. لديه أسبوع ليفكر فيها! ليفهم أنه لم يحبها لأنها أمه فقط، بل لأنها فاطمة النادرة، فاطمة التي تشبه نجمة مضيئة، فاطمة مركز الجلسة ومركز النظر في صمتها وكلامها! أمسك يدها. في إصبعها خاتم كان يعجبه: ماسة تتوسط دوائر من أحجار قاتمة. الآن يفهم لماذا أحب ذلك الخاتم. وربما يفهم لماذا أهداه لها يوسف. هي الماسة في وسط من يحيط بها! كل من يحيط بها!

فتحت عينيها لكنه لم يشعر بأنها رأته. كانت تحاكم نفسها. تتصور أنها ضحت بابنتها منور. تمتمت. فقرّب أذنه من فمها. خيل إليه أنها قالت: جميلة وصغيرة قصفتها بالزواج؟ سمحت بزواجها لتطمئن عليها؟ لتتخلص من همها؟ تموت قلقة على أولادها! لولا الحرب لربما انشغلت بسعادة منور وبحبها بهاء، في بيت على سور طبرية، يدخل الموج شرفته ويتدفق على درجاته، ويبلل سجاد الصالة. تطل منور على البحرة التي تحبها. كذب نوري كما يكذب كل من يتمنى الراحة لمحتضر: اطمئني يمّا! همست: كيف؟ كيف؟ سمع نوري فقط تساؤلها

وفهم أنها تتعذب. قلقة على منور؟ شابة، والشباب أقوى منك يا فاطمة! لم يعتّق عذابهم بعد. ستبهر منور أصحاب بهاء وسيخطبها منه إحسان بك، القائمقام الذي ظنها قريبته! ستتفتح امرأة قوية فلاتتشغلي بها! رأى نوري دموعا تسيل على خدي فاطمة. وضع يده على جبينها، لمس خديها، تبين نعومة بشرتها، ربت على كفيها. نسي سعاد النائمة في الغرفة نفسها، الغائبة أيضا. ماذا يفعل قدري؟ هل يمنعه؟ استدار عنه وخرج من الغرفة. يمّا، هل جئت لأودعك؟ يمّا، عيشي! بكى وانحنى على يديها وغمرهما بدمعه. لا تستعاض الأم! ومحظوظ من كانت له أم مثلها!

ماتت فاطمة دون أن تنتبه إلى موتها، ودون أن ينتبه إلى ذلك أحد ممن حولها، حتى نوري. كأنها انسحبت على رؤوس أصابعها خائفة أن تزعج الحاضرين! نادى قدري وشفيقة. نعم ماتت! هل تصور أن الدنيا ستنفجر إذا ماتت فاطمة؟ تصور قدري أيضا أن الأرض يجب أن تزلزل زلزالها. وربما تصور تورنس أن عاصفة ستهب وتقتلع شجر طبرية. لكن شفيقة هزت رأسها. تعرف أن موت المحبوبين قد يمر دون صوت كأنه حفيف ثوب أبيض في الممر. وأن صخب الحرب والخوف الكبير تمنع حتى الدموع على المحبوبين. لو كانت البلاد هادئة لكان موت فاطمة في مركزها! لكن موتها في أول الحرب من كارثة عامة. قالت شفيقة لنفسها: استراحت! وبكى البستاني لكنه قال في نفسه: محظوظة. تركت الهمّ على من بقي! وأنساهم الحزن على فاطمة أن نوري يجب أن يسرع إلى الشام ليساق!

خرج قدري مكسورا من الغرفة التي ترك فيها فاطمة. ذهل وقت فهم أنها ماتت. ثم وضع وجهه على يدها المستريحة على السرير إلى جانبها وبقي زمنا ساكنا، ثم بدأ يرتفع ويهبط وهو ينشج. فأخرج نوري شفيقة من الغرفة وتبعها. فليبح قدري لها بأنه فقد قطعة من روحه! لو فقد شفيقة لما شعر بمثل ذلك الحزن. ولم يغضبها ذلك. لم يجلس إلى شفيقة في غرفة مغلقة ليحدثها عن همومه بين عرب ضعفاء ويهود يتزايدون ليبلعوا المدينة. وربما باح لفاطمة بهموم أخرى أيضا، بحب خطف قلبه، بهوى امرأة عرف أنه لن يبقى معها لكنه أحس بأنه سيفقد عمره إذا لم يعش معها ويتسرب في روحها! كانت النظرة تكفي لتعرف فاطمة ما يريد أو يعرف ما تريد. كان يكمل الكلمة التي تبدأ بها. وتكفي حركة تهمّ بها حتى ينهض ليستكملها. ولم يكن ذلك يضايق شفيقة بل كان يبهجها.

مرض نوري بالحمة الراجعة بعد موت فاطمة. رأى سعاد تصحو وتسأل عن

أمها. وسمع شفيقة تقول لها: الحمد لله على السلامة! أمك؟ أرسلناها إلى الضيعة لتسترد صحتها! ثم غاب.

خلال هذيان نوري سهر قدري عليه. ولاحظت شفيقة أن ظهر قدري انحنى منذ موت فاطمة. قال لها: ربما كان يجب أن أتركه يهرب إلى البدو! لا، يا قدري لا تدع حكمتك! هذه حرب عامة لن يهرب منها حتى البدو! سيغنون عن أبي الجديلة والخوف من الريح الشرقية والهزيمة! لن تبقى الدنيا كبيرة! سيصل الألمان إلى الصحراء. فأين يختبئ البدو؟! ومن يصدق أن نوري بدوي مثلهم؟ ومن يضمن أن البدو لن يسلموه؟

صحا نوري وشفيقة تلمس رأسه. وعى أنه ضعيف، واهن، لكنه شعر بأن مرضه انتهى. لا يستطيع أن يقف على قدميه، لكنه يشعر برغبة في النهوض. يحاول أن يشرب كأس عصير الليمون كله، فلا يستطيع. لكنه يشعر برغبة في أن يشربه كله. لا يستطيع بعد أن يتناول شوربا الخضار التي يمد قدري يده بها، لكنه ينظر إلى قطع الجزر والبطاطا والبقدونس راغبا فيها. برقت عينا قدري: شفيت! نوري شفي، يا شفيقة! نظر نوري إلى قدري. يرسله إلى الموت ويساعده على النجاة منه؟ قال له: يا خالي، أتعبتك! سهر قدري هذه الليالي عليه وعلى سعاد. وعوضها بالدلال عن غياب فاطمة. كان يخيل لنوري أن العواطف ذات لونين فقط. وهاهو واحد من بلاد تتهيأ للحرب، فيها هو وقدري معا. نوري الشاب، وقدري السياسي، عضو مجلس المبعوثين، الساهر على طبرية، صهر عائلة الطبري، المضيف الذي نزل عنده رجال بيروت ودمشق والضباط الألبان ورجال الدولة. تدفعهما رياح واحدة. استدار قدري إلى بحيرة طبرية، وشعر نوري بالشفقة عليه.

نادت شفيقة: يا سعاد! شفي أخوك! شفي! ودخلت سعاد بثوب سماوي، شعرها الذهبي خواتم على كتفيها. أبقتها شفيقة على بعد منه. عرف وهنه عندما أراد أن ينهض ليطمئنها إلى شفائه. عنيت به شفيقة بعد المرض كأنه ولد صغير. اشرب هذه الشوربا! كل هذا السمك، السمك خفيف! اشرب الليمون، قال تورنس يجب أن تشرب كثيرا من السوائل! ابتسم ساخرا يوم وقف على قدميه: تقويني كي أذهب إلى الحرب؟! ردت عليه بقسوة المحب: اسمع يا نوري! لا أحد اليوم دون مصيبة تفيض عنه. لكن ما بعد الشدّة إلا الفرج! ستمضي الحرب! فكر بسعاد وستعيش حتى تراها في بيتها. سأكون لها الأم والأب حتى تعود! الله يعين الناس الذين لا سند لهم وليست عندهم خميرة للأيام السوداء!

يصعب يا نوري أن تصنف عواطفك بادئا من حوارك مع خالك عن العسكرية! يصعب أن تصبغها بالأبيض أو الأسود! ففيها الألوان كلها. من تستمر حياتهم معا، تلوّن كل حادثة علاقتهم وتنقلها من عتبة إلى عتبة. وهم المذنبون إذا أصبحت الألوان كلها قاتمة.

رحل نوري إلى دمشق، وشغل قدري نفسه بسعاد. يطلب المغفرة بها؟ أم يستعيد بها فاطمة! يسألها بعد المدرسة ماذا تعلمت. الرياضيات؟ الإنكليزي؟ القرآن؟ معلمتها من دمشق. اكتبي لأرى خطك الجميل! يصرف ساعات على سعاد وأبناؤه يتفرجون عليه. ويلتقطون ما تتعلمه منه. ينتبه أحيانا لابنيه اللذين يجلسان مستمعين. ويوجه إليهما كلامه أحيانا. يبدأ الدرس لسعاد ثم يصبح لهما أيضا. لكنهما يفهمان أن سعاد هي المفضلة. وسيظل يهتم بها حتى ينشغل بالاجتماعات والمؤتمرات ثم يكلفه هربرت صموئيل "بالاستعفاء" من وظيفته، فيترك نفسه في الأيام الأخيرة لعاصفة كبحها في قلبه أزمنة طويلة.

وصل نوري إلى دمشق متأخرا أسبوعين عن الموعد الذي يجب أن يساق فيه. لم ينظر إلى رتبة العسكري الذي قال له: فراري! رد: فراري؟ أتيت إليكم على قدمي!

صرخت نرجس: يا ست نفيسة، اركضي! يا منور، اركضي! أخذوا نوري ليشنقوه! ركضتا وراء نرجس في حارة قولي، عبرتا جوزة الحدباء، والبحصة، وخرجتا إلى المرجة! زاحمن الناس. هذا يوم القيامة! دفعت نرجس الناس، وانسلت خلفها منور ونفيسة. رأته نرجس. هذا هو، أركبوه في العربة! ركضتا نحو العربة. تكادان تمسكان بها. رآهما نوري. ساحة المرجة مرة أخرى! هل هو الذي سيعلق على المشنقة هذه المرة لا ذوقان الأطرش؟ تدافعت في نافذة العربة الرؤوس. المظلوم ضئيل، لا يبالي أحد بموته وحياته! نوري هذا الرأس الصغير الذي يظهر ويغيب في نافذة صغيرة! صرخت منور: يا خيّي، يا نوري! لكن نرجس فقط سمعتها. ضاع صوتها في الدويّ.

لحق خيّال بالعربة فتوقفت برهة ثم استدارت. وعادت منور ونرجس تركضان خلفها. وقفت العربة عند دار المشيرية، قرب سوق الحميدية. نزل منها عدد من الشباب لم تتصور منور أنها تتسع له. بينهم نوري. صرخت وارتفع صوتها فوق الأصوات! سألت نرجس رجلا: أخي الله يوفقك، ماذا سيفعلون بهم؟ كل واحد منهم يعامل بما يناسبه! أخي خذ خمسة مجيدي واسأل عن نوري! في أي زمن بدأ أهل المعتقلين يخلعون أقراطهم ويخرجون مدخراتهم لينقذوا الولد العزيز؟ في

أي زمن من أزمنة البشرية فهم الظالمون أن السيف الذي يرفعونه يحمل لهم الذهب؟ في أي زمن بدأ الإنسان يعرف أن الدموع تشترى وتباع؟ وأن ثمن اللقاء بالعزيز والنظرة إليه تساوي الذهب؟

اطمئني يا أختي! يسجلون نوري! زغردت نرجس. عندئذ شعرت منور بأنها ستقع على الأرض من الضعف. وبأنها تلهث ولا تجد الهواء لتتنفس!

عاد نوري إلى بيت نفيسة. بعد ساعة فتح خالد آغا الباب محتقن الوجه. صعاليك! صغار! مثلهم يستطيع أن يدافع عن دولة في حرب عامة؟! يا نوري، سأطلبك! اقبل! هل يفعل ذلك لأجل فاطمة العزيزة عليه؟ ربما، لأنه لم يسمح لبهاء أن يتخلف عن الجبهة! لا، يا خالد آغا! لا! لو استطعت لخرجت إلى البدو! ذلك فقط ما أستطيع أن أفعله. غير ذلك لا! يا نوري كن عاقلا! هذه حرب عامة! لا، لا أستطيع! نعم، لا يستطيع أن يجلس عند رابية خانم كالحاجب. قال لا وهو يشعر بأنه ليس هو الذي يجيب، بل نوري آخر. هو المنهك يريد الآن أن ينام ليهرب من هذا اليوم ومن الغد. قالت نفيسة: كل قبل أن تنام! يشعر بثقل في جفنيه، ويرى منور تنظر إليه دهشة! من يمكن أن يشعر بالنعاس بعد ما حدث اليوم، يا عمتي؟ أظن أني لن أستطيع النوم عشر ليال! لعله إذن يهرب بالنوم، يا منور! حدقت منور في يديها وقلبتهما: هادئتان! ومع ذلك ترتجف! قالت لها نفيسة: قومي إلى الحمام. اغسلي هذا اليوم عنك! كلفتها نجاة نوري خمس عثمانيات. ستلجأ إلى الذهب! فهل ستنتصر الدولة التي تباع وتشترى فيها حياة إنسان؟! لو عرفت منور ما بها لاقترحت عليها أن تدخل قبلها الحمام لتغسل عنها القرف من الدولة والخوف على البلاد !

كان غضب خالد آغا على جر نوري كفراري تفصيلا من غضب واسع. جلس في مقهى سوقساروجا. قدم له الشاي مرات. بردت الكؤوس ولم يتناولها. جلس صاحب المقهى إليه: خالد آغا، لم يعجبك شاينا؟ رد: الأوضاع هي التي لا تعجبني! ابتسم صاحب المقهى: تعجب من يا خالد آغا؟! رنت كلماته في المقهى. لكن الجالسين لم يلتفتوا عن طاولات الزهر. لا هم ولا هو يستطيعون أن يغيروا القدر الآن! في الحروب السابقة كان خالد آغا يدافع عن وحدة الدولة. هذه الحرب ستقسّمها! قال: هذه الحرب خيانة عظمى! ولكن هل يمكن الهرب منها؟

لم يجهل أصحاب خالد آغا أنه قصد الإتحاديين. هذا المطر من ذلك الغيم! سالونيك مركز المحافل الماسونية! لا تقولوا إن الاتحاديين قصدوها لأنها بعيدة عن عيون السلطان فقط، قولوا الحقيقة الأخرى: بدأت المجموعة التي حملت المصائب إلى الدولة، من حضن المحامي اليهودي قراصو الذي أسس في سالونيك محفلا ايطاليا، اجتمعت فيه جمعية طلعت السرية! يدان السلطان إذا راقبها، ولايدان السفير الأمريكي في تركيا اوسكار شتراوس الذي يحميها! من هو؟ غني، لإخوته في نيويورك مخازن ماسي وأبراهام وشتراوس! فهم شتراوس أن قراصو جمع بين الصهيونية وبين الاتحاد والترقي. لذلك سمى بعض الإنكليز جمعية الاتحاد والترقي "جمعية يهودية". شعارها شعار محفل قراصو الماسوني، أخوة مساواة حرية. أجمعت أطراف متنوعة: مبعوثو العرب الوطنيون، والمبعوثون الأتراك الوطنيون، وتقارير الإنكليز على أن تركيا الفتاة يقودها يهوديان هما طلعت وجاويد.

في تلك الأيام من سنة 1914 قتل أصحاب أنور وزير الحربية ناظم باشا ونطّ أنور إلى مكانه. تزوج قريبة السلطان وانتقل إلى القصر. قبض جمال باشا على استنبول، وقبض خليل بك على مجلس المبعوثين، وجاويد على وزارة المالية، وطلعت على وزارة الداخلية! الأمير سعيد حليم وزير خارجية لا وزن له. فهل تجهلون من قرر دخول الدولة العثمانية الحرب؟

كان خالد آغا يتصور أن كل ماعاشه قرره هو. القدر؟ هو القدر! لم ينتبه

إلى أنه دفع إلى الحروب التي خاضها. وأنه نجا منها صدفة. لكنه الآن محمول على قدر غريب. أسير يجر من عنقه. لم يقدّر حتى وهو يتهم الإتحاديين في سنة الحرية أن الدولة يمكن أن تنهار في بساطة. والآن يرى دمار كل ما دافع عنه. لا قيمة لاندفاعه في المعارك! لا قيمة لشجاعته وإخلاصه وحماسته! هل يتبين من يراه المرارة التي تمنعه من رشف كأس الشاي الذي قدمه له صاحب المقهى؟ هل يستطيع هؤلاء الذين يحيطون به أن يخمّنوا هول أن يبدو منتصبا على أمجاده، مثبتا على نبوءاته، وهو حزين وحيد مؤمن بأن لا قيمة ولا صوت ولا قرار له؟ هل خمّن صديقه أبو بديع ذلك؟ قال له أمس: يا خالد آغا، هذا زمن لا تسأل فيه الشعوب عن رأيها! يقرر لها مصيرها! رد خالد آغا: صحيح، لا يؤخذ حتى برأي مجلس الوزراء والصدر الأعظم! فتصور يا أبا بديع هول أن تقرر مجموعة من شباب حمقى مصير دولة كبيرة كالدولة العثمانية! ولكن هل يعي أبو بديع حقا هول أن يشعر رجل مثل خالد آغا بأنه من زمن تطوى الآن آخر صفحاته؟ لا تطوى الدولة العثمانية، نطوى نحن يا أبا بديع! لا أحد يرغب في خبرتنا وحكمتنا. وبعد الحرب، إذا عشنا، سنكون رموز عصر لا يرغب أحد في أن يتذكره!

أصغى إليه أبو بديع، وسمع الجالسون حول الطاولة المجاورة له مرارة لم يألفوها في صوته. قدّر خالد آغا أن باحة المقهى صمتت كأنها تستمع إليه. وبدا كأن شجرة التين التي تظلل الباحة حبست أنفاسها. سأل نفسه: هل العمر هو السبب يا خالد؟ وانتبه إلى أنه يتصور نفسه شابا كأنه ما يزال ذلك الرجل في الصورة المعلقة على الحائط. يوم تحدث الاتحاديون عن التجديد كأنه تغيير أجيال قال خالد آغا: الموقف والخبرة، لا الجيل! لكنه الآن يهمس لنفسه: الدنيا هي التي تعطي الشباب والشيخوخة! أمس وقف ابن الجيران الصغير قرب خالد آغا. تفرج على صورته المعلقة على الحائط وقال: يا عمي، كنت جميلا! كنت؟! نظر خالد آغا إلى صورته. شاربان منتصبان، قامة مشدودة، كتفان عريضان. تنحى عن الصورة ونظر إلى المرآة! لم يتهدل! لم ينحن ظهره! لكن أين الشباب؟ لا، ليس ذلك يا خالد آغا! همتك همة الشباب. لكنك رميت مثل قشرة برتقال! دنيا تافهة ومنافقة لا مكان لك فيها! أغمض عينيه. ليس ذاك فقط! الناس.. في الناس خراب!

قال أبو بديع: نعم يا خالد آغا، يقرر لنا مصيرنا! رد ساخرا: هل تتصور يا أبا بديع أن وضع عثمان باشا في مصر أحسن من وضعي هنا؟ من سأله رأيه

في فصل مصر عن الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة؟ شغله قصره في المهاجرين عندنا، جرحنا كرامته عندما داعبناه فقلنا له لا تشغل بالك به، نقبله كما هو! فهل يستطيع أن يقول كلمة عن الحرب التي يجمع فيها الإنكليز المصريين والهنود ليحاربونا؟ ستكون القنال جبهة. ومن هناك؟ الإنكليز فقط؟ العرب! من يمد الطرقات للإنكليز؟ المصريون! بالضرب والسخرة!

أمر أنور القادرين كلهم أن يلتحقوا بالجيش فورا حاملين معهم زاد ثلاثة أيام. تدفقوا إلى المكاتب فلم تستوعبهم، لذلك طلب من نوري أن ينصرف ويعود بعد أسبوع. الآخرون صرفوا زادهم وهرب كثيرون فرارية. سحب الرجال والدواب، البقر والحمير والخيول والثيران من الريف. كارثة! قل القمح. ومراقبة التموين طريق إلى السطوة والقوة والثروة. قطع الإنكليز والروس والفرنسيون طريق البحر. فارتفعت الأسعار. وسترى يا أبا بديع الجوع في البلاد! لذلك قلت الحرب خيانة عظمى! لكنها وقعت. فيجب أن نحارب فيها! تأمله أبو بديع وكاد يسأله: تقبل أن يحارب ابنك بأوامر أنور وأنت تعرف أن فون ساندرز، مستشار البعثة الألمانية، لايحترم مؤهلاته العسكرية؟!

رتب جمال باشا قائد الجيش الرابع في سوريا وفلسطين الهجوم على مصر من قنال السويس في 15 كانون الأول. حفر المهندس الألماني كريس فون كريسنشتاين آبار ماء على الطريق إلى الترعة. والطقس مناسب للحرب! لكن الحرب خيانة عظمى! قال خالد آغا: لكنها وقعت. يجب أن نحارب!

كان أنور باشا، القائد الأعلى للقوات العثمانية، غارقا في أحلامه باختراق روسيا من القفقاس للوصول إلى الهند عبر أفغانستان. غير مبال بجبال القفقاس وحصونها وثلجها وأنهارها. فقاد كالفاتحين القدماء الجيش الثالث في 6 كانون الأول في الهجوم على روسيا، وتاه في الممرات الجبلية وفقد تسعين بالمائة من عسكره. وفي رمال الصحراء قاد رفيقه الحملة على القنال.

كان خالد آغا قد قال لبهاء: خذ البيت الصغير! مقابله شجرة الكينا التي زرعتها بيدي. ستؤرق منور فيه فقط العصافير التي تعشش في شجرة الكينا! انتبه إلى رقة أبيه التي لم يصادفها فيه من قبل. ورأى منور تفحص نباتات أرض الدار كما فحصت الغرف والمطبخ. خمّن أنها تشعر بالغربة عن بيت لم تختره. دمشق نفسها ليست دمشق التي كانت تزورها مع أمها وإخوتها!

في ذلك الصباح خرج بهاء من البيت. توقف برهة تحت شجرة الكينا. في طريقه إلى محطة القطار انحرف إلى حارة النهر وطرق باب نرجس. سمع صوتها

وراء الباب: مين؟ كاد يتراجع. رد: أنا! امتد صمت من الثلج. ثم فتحت نرجس الباب. ظهرت له دون غطاء على الرأس. تعلن له أنه مازال زوجها؟ ترحيبها الحار كما ألفه! يا أهلا وسهلا! قدمته عليها إلى الغرفة. رأى الكراسي والخزانة والستائر نفسها. فوق البيرو الصدف في صدر الغرفة بين كازين من الزجاج الزهري رأى صورته. جاء يودعها؟ غصت عندما أوصاها بمنور. لكن الضوء بقي على وجهها. قالت: طلبك أمر، بهاء بك! تكرم! بعيوني!

في فجر 3 شباط والسماء معتمة بعد، أمر جمال باشا بالهجوم على القنال. فتح الإنكليز نارهم من الضفة الأخرى فقتل عشرة بالمائة من الجنود العثمانيين. كتب صديق لسايكس في ترفع عنصري: خطة العثمانيين أن يشعلوا النار في الجمال فتركض إلى القنال لتطفئ نارها فيجتازون عليها القنال!

وصل قدري فجأة إلى دمشق. نزع ربطة عنقه السوداء وهو بعد في القطار. لم يجد مكانا في فندق فيكتوريا فنزل في فندق داماسكوس بالاس. قال لنفيسة: يعج الفندق بالضباط! فعاتبته: بيتي سيّاح نيّاح، لا تنزل فيه؟! وتقول إنك أتيت لتطمئن علي وعلى منور! لكن ما بك يا قدري؟ تكدرت ملامحه. وأدهشه أن يقول في بساطة: ماتت فاطمة! رفعت نفيسة كفها إلى خدها. غصت بريقها. لا تنقلي الخبر الآن لمنور أو لخالد آغا! تكفيهما الحرب! ولا تؤاخذيني لأني لن أتغدى في بيتك! يجب أن ألتقي أصحابا أتى بعضهم من بيروت!

فوّت قدري وداع نوري لكنه اطمأن على منور. وطلب خالد آغا في المقهى. وجده جالسا يحدق في الطاولة، غارقا في حواره الطويل مع نفسه. أهذا هو الرجل الذي كان يبهر قدري بعنفوانه؟ وقف برهة كأنه يتابع عتبه. تشعر بأنك وحيد بين أصحابك يا خالد آغا؟ نعم، نعم، يرون البلاد كما تبدو لهم، وأرى ما وراء ذلك! فيستسلمون لسعادتهم أو لحزنهم كحدث محدود، وأتنبأ بالكوارث فأضيّع الغفوة قبلها! وأفقد الحلو الذي يتذوقونه! وأستبقهم إلى المرّ الذي يستبعدونه! آه، لا يستطيع أن يكون إلا كما هو! لماذا لم يفحص نفسه قبل اليوم؟ حتى سنة الحرية كان يتصور أنه يجد الدنيا في الصباح كما تركها في المساء!

مشى قدري إليه وسعل لينبهه. رفع خالد آغا رأسه وهبّ واقفا: أهلا، أهلا! أتيت والدنيا تفور! يطمئن على منور ونفيسة وعلى الشام! لماذا لم تكلّفنا بذلك يا قدري! لكن لا تطلب منا أن نطمئنك على دمشق! كأنك يا خالد آغا، تجعلني، وأنت تستقبلني، في موقف الوداع! اجلس! نعم، في وداع زمن يا قدري!

ساحا في الأمس. تذكر خالد آغا استنبول وأشفق عليها. مدينة جميلة ذات ذوق وحضارة! استنبول على سبعة تلال، على خليج كأنه صمم ليكون مرفأها، سكانها الآن مليون إنسان، تضيئها الكهرباء منذ سنة 1912. لم يكن يملّ من تأمل القرن الذهبي! شماله بيرا الاوروبية التي تفرج في مسارحها الثلاثة على مسرحيات قدمتها فرق فرنسية. هل تنسى يا قدري أننا تغدينا وتعشينا في فندق بيرا بالاس؟ لا تؤاخذني يا قدري، لكن عندما كان يجتمع أصحابك السياسيون

والضباط العرب في استنبول كانوا يظنون أنهم يملكونها! وأنت يا خالد آغا هل كنت تجهل وأنت تستمتع بغدائك في فندق بيرا بالاس أن الدولة مرهونة؟ ينظم شرطتها الضابط الإنكليزي ديديس. وفي الجيش بعثة عسكرية ألمانية وبعثة إنكليزية. نقر خالد آغا الطاولة بأصابعه مرات: لكن الاتحاديين دفعوا البلاد آخر خطوة إلى الهاوية! تذكر طلعت: لم أحبه أبدا. نفرت منه منذ رأيته في سالونيك: شعر كثيف أسود، وحاجبان كثيفان، وأنف معقوف، ماسوني كان موظفا في البريد. يا قدري، مشروع الاتحاديين الظاهر تحديث الدولة. تخرّب الدول بالمشاريع العظيمة! في بلادنا سكك حديدية وبريد وتلغراف وتلفونات. في استنبول 110 سيارات وفي بقية البلاد خارجها 77 سيارة. نتنقل بالخيل والعربات والقطارات والبواخر. ليس خطأ أن نتقدم إلى مستوى أوربا، لكن كيف؟ يمسك الاوروبيون بمصلحة الديون، فيراقبون الدخل. فهل هؤلاء سيساعدوننا على التقدم؟! قال قدري: الحرب الآن كبرى الكبائر! ما رأيك في أن نمشي خارج المقهى؟ التفت إليه خالد آغا! سنمشي إلى حديقة الأمة. لكن قل ما تريد هنا أيضا! لا يوجد من يتنصت! أعرف كل من في المقهى!

يوم أوصت الدولة ببناء بوارج حربية في إنكلترا تبرعت شفيقة بسوارين من الذهب. وأجبر خالد آغا زوجته رابية خانم أن تتبرع للأسطول، كنساء دمشق، فتبرعت بسوار ذهبي مرصع بالألماس. وتبرعت نفيسة بقرطيها الألماس. انتهى بناء الرشادية والسلطان عثمان الأول. لكن تشرتشل أمير البحرية أمر بمصادرتهما. مع أن الحرب لم تعلن بعد. هل عرف أن مفاوضات سرية عقدت في أواخر تموز في استنبول بين الصدر الأعظم ووزير الخارجية سعيد حليم، وطلعت وزير الداخلية، وأنور باشا وزير الحرب، بعد الإنذار النمساوي الهنغاري لصربيا؟ كانت سرية حتى عن جمال باشا وعن اللجنة المركزية للاتحاديين! بعد التوقيع سرا على الاتفاق مع الألمان أعلن الصدر الأعظم التعبئة العامة مع بقاء الدولة على الحياد.

على هامان يا فرعون؟ لا يملك خالد آغا معرفة الأسرار. لكنه يملك الحدس. قال لقدري: سجّل في الثكنات من وقعت عليه القرعة في بيروت ودمشق لأن الاتحاديين اتفقوا على الدخول في الحرب!

صحيح يا خالد آغا! وصلني من استنبول خبر عن اجتماع سري بين أنور والسفير الألماني في أول آب. طلب رئيس البعثة الألمانية ليمان فون سندرس أن تبحر البارجتان الألمانيتان بريسلاو وغوبين إلى البحر الأسود. وأبحرتا!

خمّنت يا قدري، دون أن تصلني أخبار، أن الاتحاديين وقعوا اتفاقية مع ألمانيا. لولا ذلك لما وصلت البارجتان الألمانيتان! فسألني صاحبي أبو بديع: ألسنا مع الألمان على كل حال؟ ألم يمدوا سكة الحديد إلى الحجاز، ألم نستقبل في دمشق غليوم ونحتفل بزيارته الأموي وبإكليل البرونز الذي أهداه لضريح صلاح الدين؟ فقلت له يا ليته لم يزر الأموي! أهدانا إكليلا من البرونز يمكننا أن نصنع مثله، وانتقى من خزنة الأموي مخطوطات كتبت على الرقّ! يا قدري، تهمنا مصلحة البلاد! وهي ألا ندخل الحرب. لكن كيف يوقعون اتفاقية ويتفادون الحرب؟! تأمله قدري. هل فهم أيضا سبب وحدة رجل لا يرقى أصحابه إلى ما يستشفه؟! ألم يشعر قدري أحيانا بمثل تلك الوحدة؟ فماذا يقول خالد آغا الذي تميز بمزاج حار؟ وهل يستطيع قدري أن يرويه بالانحياز إليه وهما يستعيدان الأحداث؟ كم يحتاج خالد آغا أن يسمع من شخص آخر أنه يقدره ويفهمه ويوافقه!

احتجت إنكلترا لأن حركة البارجتين الألمانيتين تلغي حياد الدولة العثمانية. فاتفق الصدر الأعظم مع ألمانيا أن يعلن عن شرائهما. في منتصف آب تسلمهما جمال باشا وزير البحرية. استبقي طاقمهما وبحارتهما الألمان. أرأيت يا قدري؟ ذلك مدّ فقط الوقت الذي فصلنا عن الحرب! لذلك لم أر مظاهرات طلاب المدارس الذين احتجوا على حجز إنكلترا السفينتين العثمانيتين، إلا في هذا السياق، مع أنه عاطفة طيبة.

انتظرنا الاصطدام الذي سيكون حجة للحرب. صرنا نبكر إلى المقهى. اختفى الشباب الذين وقعت عليهم القرعة! اختفت الحمير والبغال والجمال والخيول التي صادرتها الدولة! لم تعد دمشق المدينة التي نعرفها! غيّرها الاستعداد للحرب! لم تكن الحرب أعلنت بعد لكنهم كانوا يحضّرونها: أوقف الإنكليز طوربيدا عليه ألمان: دليل على خرق الدولة العثمانية الحياد! فأغلق أنور المضيق وزرع الألغام البحرية. كأن الدولة العثمانية ألغت الاتفاقيات الدولية التي تفرض أن يبقى الممر المائي مفتوحا!

قال له قدري: تؤكد الأخبار التي وصلتني من استنبول أن كل ما استنتجته صحيح، يا خالد آغا! أغلق أنور الدردنيل في أواخر أيلول دون استشارة رفاقه! ثم كسب طلعت، ورئيس مجلس النواب خليل بك، وأعلنوا للألمان أن الأميرال سوشون يمكن أن يهاجم روسيا إذا قدمت ألمانيا مليوني ليرة ذهبية لدعم الجيش. أرسلت ألمانيا المال في أواخر تشرين. وضربت بريسلاو وغوبين روسيا. طلبت

الوزارة والصدر الأعظم من أنور أن يأمر سوشون بمنع القصف. بعد اجتماعات وانقسامات صدر القرار: يجب الاعتذار لروسيا! لكن أنور تدخل في صياغة نص الاعتذار! فدسّ فيه: روسيا مسؤولة عن الهجوم! فرفضه القيصر الروسي وأعلن الحرب في 2 تشرين الثاني. في 3 تشرين الثاني أمر تشرتشل بقصف قلاع الدردنيل.

استقام ظهر خالد آغا، ولم يعد يحدق في الطاولة. انتعش. وفي ساعة عاد إلى مكانه وزمانه! هل تضاءلت المصائب؟ بل جلتها الأسرار التي كشفها له قدري، وبحثاها كرجلين كبيرين! تنهد خالد آغا. ماأقسى أن يعاشر الرجل من ليس في قامته!

لم يفكر قدري وخالد آغا المشغولان بالدولة في بهاء ونوري! وانشغل قدري بأصحابه مع أنه أتى من طبرية ليطمئن على منور. أبو بديع هو الذي قال: آه يا خالد آغا، لماذا أرسلت لبهاء في طبرية تلغرافا تطلب منه أن يلتحق بالعسكر؟! فرض هذه الحرب أنور وجمال وطلعت، وتعرف أن أهل سورية لم يرحبوا بها! فلماذا ترسل ابنك إليها؟ التفت إليه خالد آغا ونظر إليه كمن ينظر إلى فتى. قال: لن نحمي بلادنا إلا إذا انتصرت الدولة! يذهب أنور وجمال وطلعت، لكن الدولة يجب أن تبقى! نظر أبو بديع إليه وقال لنفسه: يا حزني عليك يا خالد آغا! لا ترى أن الشباب يفرّون كيلا يساقوا إلى الحرب! قال خالد آغا: انتقل كثير من أهل بيروت إلى دمشق خوفا من قصف الساحل. انتقلت حتى بعض الجرائد البيروتية إلى دمشق! تأمله أبو بديع: يفخر بذلك؟ سدد خالد آغا إليه نظره كمن يخترقه: إذا هزمت الدولة اقتسمت! فهمت يا أبا بديع لماذا يجب أن ندافع عنها؟ عنها لاعن أنور وجمال وطلعت!

عاد قدري إلى طبرية. وعاد خالد آغا إلى وحدته. لم يحضر الاستعراض العسكري. ابتعد عن الشوارع ومشى في الحارات. عبر العقيبة والعمارة والشاغور، وصل إلى الميدان، ثم عاد عابرا باب توما والقيمرية. وقف طويلا أمام الأموي. هل تطلب قوة قاهرة ترد القدر؟ يا لسعادة المؤمن الذي يقبل ما كتب له في لوح الغيب! لاب خالد آغا حتى الليل في الحارات. لكنه لم يستطع أن يبلع مرارة يقينه بأن الدولة ستهزم.

خيل لأبي بديع أن خالد آغا يعرف معلومات خفية عنه. ألم يهتم بمسألة علي المصري الذي اعتقله أنور؟ قال إنه يعرفه، وإن قلبه مع الدولة لامع الإنكليز، وإن مصر أنقذته من الإعدام لا هم! أليست الرسالة التي سلمها قدري

لخالد آغا من علي المصري، أو ممن مثله؟

يحتل الإنكليز مصر. ولا طريق إليها. مع ذلك وصلت عبر لبنان رسالة إلى خالد آغا من أخيه في مصر! يطلب فيها فقط أن يطمئن عنه؟ تأوه خالد آغا. هل يكتشف الآن فقط أن عقل أبي بديع صغير؟ كم تأخر في اكتشافه! كيف يلح رجل عاقل في معرفة ما كتبه رجل لرجل آخر في رسالة؟! أوصل قدري لخالد آغا عندما خرجا من المقهى، المعلومات التي قدر عثمان باشا أنها لا يجوز أن تكتب. في القاهرة الآن مكتب إنكليزي للشؤون العربية. فيه رجال مخابرات، وينغيت الذي حكم السودان، وكلايتون الذي رافق كتشنر في السودان. وستورز. يقترحون كالفرنسيين ضم الولايات السورية. تتناول المباحثات الفرنسية الإنكليزية مصير سوريا. واعرف يا خالد آغا أن الأمير عبد الله التقى برجال المكتب. وقابل مرة أخرى ستورز.

فكر خالد آغا في الأخبار التي نقلها له قدري وهما يمشيان في حديقة الأمة. لكن ماذا تفيد هذه المعلومات قائدا دون جيش؟! تطلب يا عثمان باشا أن نطمئنك على صحتنا وأنت تطمئننا إلى أن بلادنا ستحتل؟ لم يحمّل خالد آغا قدري الذي يعرف الرجل الذي سيعود من بيروت إلى مصر، رسالة لأخيه. قال له: سيعرف أحوالنا من أخبار الحرب! ولم يطلب أن يشكر عثمان باشا على المعلومات التي نقلها إليه. ما الفرق بين أن يقترح كلايتون أو أن يقترح ستورز مباحثات مع أمير مكة؟ في دمشق الجيش الثامن! ودخلها الجيش الرابع! لم يرحب السوريون بالحرب لكنهم سيشتركون مع ليمان فون ساندرس رئيس البعثة الألمانية في معركة الدردنيل! مقابلهم هاميلتون الإنكليزي وغورو قائد القوات الفرنسية! سيقتل بعض العرب في معارك جناق قلعة! وسيجرح غورو وينقل بباخرة إلى فرنسا. لكن وراء كل هؤلاء رجال آخرون لن يموتوا في الحرب ولن يشتركوا فيها. سيغتنون من التزام الأعمال العسكرية ومن تموين الجيش. سيخزنون الحبوب وسيبيعونها وقت الجوع بسعر الذهب. وسيخلطون الطحين بالتراب. حجزت لجنة التكليف بضائع لا ضرورة لحجزها! سيفتقر أصحابها وسيغتني من يبيعها! وكيف سيفلح الفلاحون ويزرعون دون أبقار وحمير وبغال؟ سيأتي الفقر والجوع! وماذا يفهم رجل كأبي بديع من كل ذلك؟!

قدر الإنكليز أن دخول تركيا الحرب يعني تقسيم الدولة العثمانية. كتشنر المنتصر في الخرطوم، حاكم مصر، وزير حرب إنكلترا، اختار مكماهون ليمثله في مصر كمبعوث رفيع. في صيف 1914 اتصل كيتشنر بستورز وطلب أن يسأل الأمير عبد الله: في الحرب ستكون الحجاز مع أم ضد بريطانيا؟ قال خالد آغا: يعرف الإنكليز أن العرب أكثر من نصف سكان الدولة العثمانية، وأنهم يطلبون الاستقلال والمساواة بين عناصر الدولة ولا يريدون خرابها. لذلك سيخرجونهم من الحرب بالوعود! وسترى ياأبا بديع كيف سندفع ثمن اتصالات الشريف حسين بالإنكليز!

لنجدة روسيا قرر كتشنر الهجوم على الدردنيل. دخلت البوارج البريطانية إلى الدردنيل في 14 شباط 1915. هدف الإنكليز خط من اسكندرون إلى العراق والخليج لحماية الطريق إلى الهند. سلم أنور قيادة الدردنيل لفون ساندرز، ومصطفى كمال. في نيسان 1915 أرسل تشرتشل لاحتلال غاليبولي سفينتين حربيتين، وطائرات استكشاف، وكاسحات ألغام، ستين قطعة بحرية بدأت عملياتها في 19 شباط. قاومهم مصطفى كمال. غاليبولي مصيدة! أطلق الأتراك ألغاما على سطح الماء. ساعدتهم صخور شبه الجزيرة، والبسالة.

أكثر المحاربين العثمانيين في غاليبولي من العرب. الفرقة التي أرسلها جمال باشا من دمشق! طلب هاميلتون قائد الجيوش في غاليبولي من مكماهون أن يلبي مطالب العرب ليخرجهم من الساحة. وسيقول مكماهون فيما بعد: "ترك لي أمر الحركة العربية وكان ذلك تاريخا سيئا في حياتي. كان ذلك مسألة عسكرية.. بدأ ذلك من طلب هاميلتون في غاليبولي.. رجاني المكتب الخارجي أن أتخذ خطوات فورية لأخرج العرب من الحرب.. كانت أكثر القوات العثمانية في غاليبولي ومابين النهرين من العرب". انتصر العثمانيون في الدردنيل! اعتبر لويد جورج أن تشرتشل مسؤول عن الهزيمة. لكن العرب لا يزالون ضرورة في الحرب!

في شتاء 1915–1916 بعد انسحاب الحلفاء من غاليبولي عاد مارك سايكس من رحلة في البلقان والهند ومصر والشرق هدفها: ماذا يصنع بالشرق

الأوسط بعد هزيمة الدولة العثمانية. مارك سايكس شاب غني، رحل وهو بعد في السابعة من عمره، مع أبيه إلى الشرق، درس في كمبردج، بقي في سفارة استنبول أربع سنوات، عضو في مجلس العموم البريطاني، رسام كاريكاتور، تجول في تركيا ونشر مقالات عن رحلاته. في 1915 أصبح في مكتب الحرب. هو الذي يقترح البدائل والتسويات ومصير الدولة العثمانية! قابل ستورز وكلايتون في مصر. رأيهما: أن تصبح سورية الطبيعية إنكليزية ويعوض على الفرنسيين! ما رأي سايكس؟ أي كاريكاتور سيعده للأرض العربية؟

في مذكرة هرتزل وكتشنر: حان الوقت لتقسيم الدولة العثمانية وليؤخذ قسم منها! لفلسطين مكان في المساومات السياسية البريطانية! رد ستورز: امتداد روسيا إلى جنوب سوريا سيء للإنكليز. أفضل منه امتداد الفرنسيين من لبنان. والأفضل دولة أخرى في فلسطين غير مسلحة. دولة يهودية فكرة جذابة، لكن اليهود قلة في فلسطين. اقترح ستورز: إلحاق فلسطين بمصر.

قال خالد آغا: سيتقاتل الحلفاء علينا. سترى، يا أبا بديع، كيف سيفرقون مدننا في خرائطهم! قد يقسمون مدينة واحدة إلى نصفين! في آذار 1915 اقترح ستورز أن يحكم كتشنر دولة تمتد من السودان وعدن إلى اسكندرونة فيكون العرب في اتحاد يحكمه الإنكليز من القاهرة. فلتنس فرنسا مطامعها في سوريا ولتأخذ بدلا من ذلك مزيدا من شمال افريقية! يمكن الاعتراف بنفوذ فرنسا الروحي في جبل لبنان، فقط! كتبت غرترولد بل الرحالة المعروفة المختصة بالبلاد العربية: لا يستطيع العرب أن يحكموا أنفسهم! معنى الاستقلال العربي للإنكليز هو الاستقلال عن الحكومة العثمانية!

كلايتون رئيس المخابرات في مصر موافق على جر الخلافة إلى الجزيرة العربية! وينغيت الذي يجيد اللغة العربية، ويعرف جميع الأسرار أو يمكن أن يستنتجها، وكلايتون خبيران في شؤون الشرق الأوسط! يمكن أن يقترحا شكل البلاد بعد الحرب! كتشنر ومعاونوه يرون أنهم إذا أمسكوا بالخليفة أمّنوا جر المسلمين إليهم. فما أخطر أن يرى مسلمو الهند ومصر والخرطوم أن الخليفة مع الألمان، ففي جيش كتشنر ملايين المسلمين الهنود! لذلك لابد من شراء الخلافة!

قابل الأمير عبد الله كتشنر وستورز في سنة 1913 وسنة 1914 متسائلا: هل تدعم إنكلترا ثورة أبيه إذا أعلنت؟ يعرف ستورز أن الجيش العثماني سيعتمد على الجمال في هجومه على القنال. والجمال من الحجاز. يمكن أن يمنع أمير مكة عبد الله الجمّالين من تأمينها! لابد من جهاز يجمع المعلومات ويرتب

الاجتهادات! اقترح سايكس في نهاية 1915 المكتب العربي في القاهرة. عدل كتشنر الاقتراح: شرط أن يكون من قسم المخابرات الإنكليزية في القاهرة. مدير المكتب كلايتون. اقترح كلايتون دافيد هوغارت الباحث في الآثار من اوكسفورد، الذي خدم في مخابرات البحرية. دعا هوغارت لورنس الذي عمل عنده في متحف أشموليان في اكسفورد. اشتغل لورنس في الحفريات، وكان نصف عمله تنقيبا ونصفه تجسسا. يتكلم لورنس العربية لكنه لا يتقنها. سيكون رفيق حياته سائق حمار اسمه سالم أحمد. ويقال إنه سيصطفي جنديا اسكتلنديا كي يجلده. ولكن ما أهمية ذلك! ستكون مهمته مراقبة الحركة العربية. وسيختار فيصلا لأنه "طويل رشيق ونشيط، جميل المشية جدا، في رأسه وكتفيه هيبة ملكية". سيختاره لأنه يمكن أن يؤثر فيه؟ يختاره؟ يبالغ في قوته! فسياسيو الشام هم الذين اختاروا فيصلا منذ نزل في مزرعة آل البكري وانتسب إلى جمعية الفتاة! مشروع كلايتون وونغيت: نفوذ بريطانيا على العالم العربي. لكن لا يمكن استبعاد الفرنسيين من الساحل السوري. أما الداخل السوري فليتنازل الفرنسيون عنه! دمشق تتصل بالحجاز وبحلب وحمص وحماة. خطوطها الحديدية مهمة اقتصاديا وعسكريا. العرب مفتاح النصر!

هؤلاء هم صناع السياسة البريطانية لما سيسمى الشرق الأوسط. في القمة: كيتشنر وممثله مارك سايكس. وجورج لويد صديق سايكس .

قال خالد آغا لأبي بديع: ينضج مشروع يسقيه طرفان: التذمر العربي، وشراسة جمال باشا. يحب فيصل الأتراك ويكره الإنكليز! يحذر عزيز علي المصري من الصراع مع الأتراك في الحرب! يرغب رجال الحركة العربية في وحدة الدولة العثمانية! لكن ظلم الإتحاديين ومراوغة الإنكليز سيكسران هذه الدولة. وسيربط الغرب المنتصر أجزاءها جزءا، جزءا! يحدث ذلك بسرعة!

وقت توقف فيصل في دمشق في آذار 1915 قيل له إن ثلاثة جيوش عثمانية ذات أكثرية عربية مستعدة للثورة. لكن جمعية الفتاة تفضل حكم المسلم التركي على الاوربي. بعد عودة فيصل من مقابلة الصدر الأعظم، إلى دمشق في أيار 1915 وجد غير ذلك! كشف جمال باشا التنظيم السري وفرّق الكتائب العربية، لذلك لا يمكن البدء من دمشق! وضع رجال الفتاة السوريون بروتوكول دمشق عن الدولة التي يريدونها وطلبوا من الحسين إعلان الثورة. بلغ ذلك البروتوكول للمكتب العربي في القاهرة. هنا الخطأ الكبير، يا أبا بديع! يا خالد آغا، لم نعد أنا وأنت نتحدث إلا عن الحرب والدولة! يا أبا بديع، من يتحدث عن

غير ذلك في هذه الأيام؟

فكر خالد آغا بفلسطين. خمّن: سيكثر فيها اليهود! لكنه لم يخمّن ما عرفه خلال الحرب يوم كشف الروس، بعد الثورة البلشفية، المعاهدات السرية التي اشتركوا فيها. كانت بلاده منشورة على طاولات سرية. قبل أن يذهب سايكس إلى روسيا ليعرض الاتفاقية نبهه رئيس المخابرات هول إلى اليهود: "لهم مصالح مادية وسياسية قوية تتناول مستقبل فلسطين". اتصل سايكس بهربرت صموئيل اليهودي سكرتير الوزارة فعرفه بالحاخام غاستر. قال: "فتح عيني فعرفت ماهي الصهيونية". اقترح سايكس إنشاء المكتب العربي بالقاهرة، والاتصال بالعرب. فولدت محادثات مكماهون الحسين. كتب وينغيت: "أخشى أن أكون تركت انطباعا بأني أؤمن بخلق مملكة عربية قوية يحكمها الشريف. طبعا هذا بعيد جدا عن فكري، ولكن ناسبني وناسبنا جميعا أن نعطي مثل هذا الانطباع لقادة الحركة العربية، وغطتنا تماما مراسلات مكماهون الحسين لتظهر أننا مخلصون في سلوكنا نحو العرب".

أوفدت فرنسا بيكو إلى لندن ليفاوض سايكس. بيكو المدافع عن السياسة الاستعمارية الفرنسية، إبن مؤسس جمعية إفريقية الفرنسية، أخا خازن جمعية آسيا الفرنسية. بطل ماسمي "الحزب السوري" في السياسة الفرنسية: سورية وفلسطين وحدة أسسها الفرنسيون أيام الحروب الصليبية. هل يتفق مع سايكس؟ لم لا؟ قال سايكس: "ليست لدى العرب روح قومية كما نفهمها ولكن لديهم شعور بالكبرياء القبلية. لذلك يجب أن يقنعوا باتحاد دولة تتكلم العربية بقيادة أمير عربي".

سمي نوري "صندوق أميني" على الأرزاق، ورحل مع الهجانة إلى العراق. لم تستطع نفيسة أن تتبينه! كنت أظن أني أستطيع أن أميزه من ألف إنسان، لكنه غاب عني بين العسكر! ربما غابت عني حتى الشام! صارت دمشق مدينة تسافر منها الجيوش إلى الجبهات! وتغير الناس! لا حديث لهم إلا عن الحرب. لايعرف أحد أين ستكون أرض ابنه! أحمد ربي لأني دون صبيان! سألتها منور: ونوري؟ وخزتها نفيسة بنظرها. تضع منور إصبعها في الجرح وتحركه! لم تسمح نفيسة لمنور بأن تودع نوري لأنها صبية. هي التي ودعته وبلعت مرارة الوداع. فما ضرورة هذه الوخزة يا منور خانم؟ تركتها ونزلت إلى أرض الدار.

تفرجت عليها منور من الداور. عمتي، غاضبة؟ نعم، غاضبة! طيش الشباب أحمق! فهل تستطيع منور الشابة أن تفهم ما بين نوري ونفيسة؟! كانت منور في حضن أمها في حيفا عندما راقبت نفيسة حزن نوري يوم إعدام الدروز فخافت عليه واستدعت أهله ليبعدوه عن دمشق! وهي التي استقبلته يوم أتى من طبرية وسلم نفسه للعسكرية! كان ثقيل القلب. سهرا معا، ثم صعدا إلى السطح ليتفرجا على الفجر. كان يجب أن نستمتع بالأيام القديمة، يا نوري، أكثر مما استمتعنا بها، لو عرفنا أن الحرب ستكون يوما على الباب! رفع نوري نظرته إليها، ورأت فيها الحزن على أمه وإخوته وعلى الحياة. سعيد في بيروت الآن، لكن خالي قدري سيدبره عنده! قالت له: سأتصل بقدري وأطمئن على أهلك! تعده؟ يا عمتي لا يملك إنسان أن يعد آخر، اليوم! صارت الطرقات القديمة للحرب! للعسكر المبتعدين عن بلادهم، وليست لسؤال الأقارب عن الأهل. بدّلت الحرب البلاد! كدت لا أعرف الطريق بين طبرية ودمشق ولا أعرف القطار!

فهمت نفيسة ما قاله دون أن يقول كلمة. هزت رأسها. لكن هل تستطيع ألا تعده وهو يساق في الصباح إلى الجبهة التي قررت له؟ أخذوه هجانا إلى العراق، وأخذوا بهاء إلى الترعة. واحد في الشرق والآخر في غرب الجنوب! ويا طالب الترياق من العراق! فكيف تصل إليه؟ تصل؟ لا أحد يصل إلى أحد في الحرب! صادروا الدواب، ولن يصل حتى الفلاح إلى قريته في الغوطة! خبأ بعض

الفلاحين الدواب، ولكن من يستطيع أن يخبئ الجمال؟ صدق نوري، لم تبق إلا الصحراء! لا، قال قدري الصحراء لم تعد آمنة! تكشف الطائرات كل شيء. هذه ليست الطائرات التي استقبلها الناس في مرجة الحشيش وحزنوا لأنها سقطت فوق طبرية! هذه طائرات تنشر الخوف، وإذا سقطت لا يشيّع طياروها كالذين شيعهم أهل دمشق ودفنوهم قرب ضريح صلاح الدين!

خذ يا نوري، المال أمان في الغربة! لا تقل سيطعمونك! يا عمتي، تحشين جيوبي بالذهب، والمال خطر! لا تنسي أني "أرزاق أميني"! قالت: أسلّحك يا نوري! الذهب أمضى من الحديد! آه، يا عمتي! هل ينجد الذهب من يساق إلى حرب لم يستشر فيها؟! صوت من هذا؟ اسماعيل؟ مرة أخرى اسماعيل واليمن؟! طمأنته: العراق بعيد. الخطر ليس هناك بل في الترعة! يا عمتي هذه حرب عامة. تصل الطائرات إلى كل مكان. العراق طريق الهند! لكن لا تخافي علي!

في آخر لياليه في بيت نفيسة، فتح نافذة الغرفة. شعرت بذلك فنهضت. رأت القمر في السماء مقابل النافذة تماما. والسماء مغمورة بضوئه. وشجرة النارنج في طرف النافذة كأنها تنحّت للقمر دون أن تتنازل عنه. وقف نوري زمنا، كأنه يجمع عبق أوراق الليمون والنارنج، وظلال زخارف إفريز السطح. عبر مسرعا حياته في دمشق. كان يأوي إلى هذه الغرفة بعد السهرة عند شكري العسلي أو في المقاهي أو في مسرح زهرة دمشق. تذكر المدرسة واستعرض وجوه أصحابه، وحاول أن يعدّهم. مشى في الطرقات إلى الأموي، إلى الصالحية، إلى ساحة المرجة. تفرج على ذوقان الأطرش مرة أخرى، ركب القطار مع أهله. ثم اختلطت حيفا بطبرية بدمشق، فأطرق. كانت الصور الأولى واضحة، حتى خاف من وضوحها. هل تودّع هذا البيت يا نوري، أم دمشق، أم.. لا يجرؤ على قول الكلمة. لكن قلبه ثقيل. لو يهرب من هذه الحرب! ولكن يا عجبا! لا يشعر بأنه قادر على التفكير في الهرب. كأنه أسلم نفسه لمصير سيق في مجراه! وذلك المجرى مثل نهر دون ماء، مرتفع الضفتين ولا مجال لأن يخرج منه. لا مجال إلا أن ينحدر معه إلى نهايته. وشعر بأنه يعرف النهاية. نعم يعرفها! بل يتبين أنه عندما قال لخاله سأهرب إلى البدو، إنما قال ذلك لأنه يعرفها، ويراها: الموت في أرض غريبة! لا تقل ذلك يا نوري! كل من يسافر سفرا لا يريده يقول لنفسه إنه لن يعود منه، ويعود! لن يحدث ما تتوقعه! جميع الرجال الذي ينامون في بيوتهم الليلة آخر مرة يشعرون بما تشعر به! هل تتوقع أن يرقصوا وهم يعرفون أنهم سيمشون في الصباح في الطريق إلى الحرب في العراق؟!

وجدت نفيسة صورة يبدو فيها نوري مع أصحابه في باحة كبيرة، فوضعتها على طرف مرآة الخزانة. صار نوري موضوع أحاديثها: عقله، أخلاقه، حكمته في عمر مبكر. تذكرت تفاصيله، حزنه الذي أطلعها عليه في أيام حرب حوران، واليوم الذي لمحت على وجهه النشوة بالشراب بعد سهرة تأخر فيها. ضيع مفتاحه ففتحت له الباب. فكرت في ما لم يخطر لها سابقا: هل كانت لديه فتاة يحبها؟ ودهشت لأنها لم تفكر في ذلك قبل اليوم. نعم، أيمكن ألا تكون لديه فتاة يحبها وتحبه؟ أيمكن أن يكون مضى إلى الحرب دون أن يعرف امرأة؟ من هي تلك المرأة التي قد يكون أحبها؟ ليتها تعرفها لتزورها، لتجلس معها وتتحدثان معا عن نوري، وتستدين منها التفاصيل التي تجهلها نفيسة وتعرفها الفتاة!

وصلت من نوري رسالة إلى نفيسة. كتب فيها أنه جريح. أصيبت رجله اليسرى. "لكن لا تخافي علي يا عمتي! ما أهمية ساق الإنسان إذا كان رأسه سليما! أتذكّر حوارنا في الليلة الأخيرة قبل سفري. ولذلك أطلب منك عشر ليرات"! أما قلت لك يا نوري، المال أمان؟ قرأت الرسالة حتى حفظتها. وأخفتها في خزانتها كيلا تراها منور.

زارت نفيسة خالد آغا. سألته عن المعارك في العراق. فحصها بنظرته. وصلها خبر من نوري إذن! ناولته الرسالة. يا نفيسة خانم، لا تقلقي عليه! يا خالد آغا، من يملك أن يطمئن آخر في الحرب؟! فلنتقاسم القلق! صمت. لكن الصمت بينهما لم يكن ثقيلا. هل استعاد حروبه القديمة باحثا فيها عن النجاة لنوري؟ هل انتبه لأول مرة إلى من يتركهم المحاربون وراءهم؟ أم استسلم لاكتشافه امرأة تشاركه هواجسه؟ أيتوقع أن هذه المرأة ستكون امرأة حياته!

بعد تلك الرسالة لم يصل أي خبر آخر عن نوري. انتظر خالد آغا نفيسة أسابيع. وأتت إليه. رأى من الفرنكة قامتها الرشيقة الملفوفة بالملاءة. جلس مقابلها. يا لمهارتها في كبح قلقها! قالت له: تلك كانت آخر رسائل نوري! كذب، وعرفت أنه يكذب: أنا الذي دخل المعارك أقول لك يا نفيسة خانم، لا وقت في الحرب للتفكير في الأهل! مع ذلك ربما كتب لك رسالة ضاعت في هذه الفوضى! اتفقا أن تبقى منور جاهلة حديثهما. شربت نفيسة القهوة التي قدمتها لهما رابية خانم، وانصرفت. وصعد خالد آغا إلى الفرنكة. بقي أمام سماء تعتم. لم يشعل الضوء. هل كان يفكر في نوري فقط أم كان يستعيد نفيسة؟

استمر نوري في الحياة في حوار نفيسة وخالد آغا. لن تعرف نفيسة إلا فيما بعد أن نوري قتل مع صديقه لطفي الياسين الذي أتى معه من طبرية، في قصف

جوي إنكليزي بالطائرات!

في 15 كانون الأول 1914 وصلت راية النبي إلى دمشق بالقطار بعد إعلان الجهاد الأكبر. استقبلها جمال باشا وكبار رجال الجيش وجموع من الناس في المحطة. أخذت نرجس موقعا تتفرج منه على الاستقبال، ومع ذلك ظلت تقول لمن أمامها: رأسك يا ابني! كتفك، الله يرضى عليك! حتى صارت في مقدمة المتفرجين. رأت حرس الشرف يحيي الراية وجمال باشا يركع ويقبل طرفها. ثم مشت قرب الموكب الذي تتقدمه الموسيقى. قالت في ذلك المساء لصاحباتها: احتفال عظيم، عظيم! يأخذ العقل! ستنقل الراية إلى القدس لتحرض الناس على الجهاد. لكن يقال إن هذه ليست راية النبي بل قطعة من قماش الكعبة!

تفرجت نرجس أيضا على استقبال جمال باشا والقوات التي وصلت من استنبول. زينات، خطابات، قصائد، رايات، ذبائح! قالت: يوم لا مثيل له! يقال، أحسن من الاستقبالات التي رآها جمال باشا في حمص وحلب! نزل الضباط في اوتيل داماسكوس بالاس!

يومذاك ترك بهاء منور وأغلق الباب فاختفى وجهها الأبيض. لم تبك في وداعه لكن وجهها تورد. وقف أمام الباب المغلق كأنه يتوقع أن تفتحه. نظر إلى شجرة الكينا الباسقة. محظوظة لأنها ثابتة في مكانها! غرد شحرور، فبحث بنظره عنه: محظوظ أنت أيضا! لا يعرف بهاء الحرب. يراها من أمجاد أبيه، ولا يطمح إلى أوسمته. ألا يكفينا الأميرالاي اسماعيل؟! كان يحلم بالسفر إلى مصر التي حدثته عنها منور. مصر الآن الطرف العدو! هكذا يذهب إليها! ما تزال منور عروسا، ويتركها إلى حرب لا يعرف إن كان سيعود منها! آه، لا يستطيع أن يبوح بما يشعر به، يكتمه كيلا يقال خائن أو جبان!

دخل إلى بيت خالد آغا في صدر الحارة. رآه منتصبا في وسط أرض الدار كأنه يتوقعه! وقف أمامه صامتا. يعرف خالد آغا لماذا جاء ابنه. فماذا يقول له: جئت أودعك! انتبه بهاء في الصمت إلى أرض الدار الهادئة، إلى شجرة الرمان في طرفها، إلى البركة التي ينساب ماؤها. تتركه كلها يرحل هكذا؟! قال خالد آغا: رموا الدولة في الحرب! في كلمات أبيه مرارة. هذا ليس خالد آغا الذي يعرفه! هذا

رجل يقف في مأتم أكبر من مأتم أبنائه! انقبض قلب بهاء. أنا مسافر في حملة لا يعرف أحد مصيرها. لكن كونوا أنتم الباقون هنا على الأقل في خير! قال خالد آغا: أخوك مر بي قبلك! يذهب مثلك في حملة الترعة! سأله بهاء: الترعة؟ وسمع سؤاله باهتا. هز خالد آغا رأسه. لم يبق شيء يستوقف بهاء! يجب أن يخرج مسرعا!

بعد مروره بنرجس، مشى في الطريق التي مشى فيها اسماعيل في سوقساروجا آخر مرة. نزل من جوزة الحدباء نفسها. وصل إلى ساحة المرجة. التفت. هل سيعود؟ منذ خرج من سوقساروجا صار واحدا من آلاف في حملة.

في ذلك المساء جلس أبو بديع إلى خالد آغا واسترق النظر إليه. يتجلد! كأنما يظهر الجرح المفتوح في قلب خالد آغا منذ انتحار شهاب! بخالد آغا يفهم حقيقة في حياته نفسها: تبقى الهزائم التي نعيشها كأننا لا نلتفت إليها، محفوظة لنا حتى يبدأ أول وهن في القلب، وأول انحناءة في الظهر، عندئذ تتساقط علينا! راقب خالد آغا وهو يتحدث لمن حوله في المقهى عن الترعة والحملة. وخاف عليه من جبروته. بدا له خالد آغا مسجونا في مكان ضيق عليه. بدا وحيدا لا أحد له. وشعر بحزن عليه. نتحمل أن يبكي أي رجل في سوقساروجا، لكن الضعف محرم على خالد آغا! بأي ثبات يستقوي أهل الحارة إذا انحنى هو؟

حكى خالد آغا لمن حوله في المقهى عن قناة السويس التي فتحت في أيام الفراعنة في سنة 1200 قبل الميلاد. وردمت في أيام العباسيين. عن دوليسبس قنصل فرنسا في مصر. كان يجب أن تكون القناة مصدر خير لمصر فكانت مصدر شر. أخذت إنكلترا حصة الخديوي اسماعيل فأصبحت المالكة الكبرى للقنال. رسم خالد آغا للجالسين معه القنال بملعقة الشاي على الطاولة. طولها بين البحر الأحمر والبحر الأبيض 161 كيلومترا. متوسط عمقها 11 مترا. أضيق منطقة فيها 38 مترا. فيها بحيرات كبيرة مثل بحيرة التمساح والمنزلة. هل يقول لهم مايشعر به: توجد منطقتان سهلتا العبور هما طوسم والقنطرة. من هناك قد تعبر الحملة!

قبل القناة يا خالد آغا سيناء! كيف سيقطعون الصحراء؟ صمت خالد آغا. يشغل نفسه بالماء وينسى الرمال! عرض سيناء 150 كيلومترا. في شمالها صحراء، في الوسط وديان صخرية وجبل، وفي الجنوب صحراء. ففي أيها سيضيعون؟

قال خالد آغا لنفسه: إلى مصر طريقان: طريق القوافل: غزة القنطرة، وطريق

الحج: العقبة السويس. في أي منهما ستمشي الحملة؟ في كليهما! قال كأنه يطمئن المستمعين إليه: لا تنسوا سكة حديد الحجاز التي تبرع بها المسلمون! كانت للحجاج، والآن ستكون الحرب عليها! منها فرع من درعا إلى سمخ فبيسان فالعفولة فحيفا. وفرع إلى بئر السبع وإلى خان يونس فالعريش. من محطة حيدر باشا في استنبول يمكن أن تصل النجدة! النجدة؟ اسكت يا خالد آغا! الحملة من أهل البلد!

همس أبو بديع: يا خالد آغا، لا يؤمن الناس بالدعوة إلى الجهاد التي أعلنها شيخ الإسلام! يسخرون منه. حليف مسيحي وآخر عدو؟! ياأبا بديع تسألني؟! أقول لك: يغطون السماوات بالقباوات! أعلنت التعبئة العامة في 2 آب مع أن الدولة كما قالوا على الحياد. يغطونها بفتوى شيخ الإسلام كما غطوا بالفتوى خلع السلطان. تعرف رأيي في شيخ الإسلام! وفي الجرائد التي تحض على الجهاد! مصطفى كمال طلب حياد الدولة في الحرب. يا خالد آغا نشروا أن شريف مكة أعلن الجهاد. تصدقهم يا أبا بديع؟ لشريف مكة موال آخر!

لا يجهل خالد آغا أن كل شيء مرتب لتدخل تركيا الحرب. في 11 تشرين الثاني 1914 أعلن شيخ الإسلام في استنبول الجهاد. في 16 تشرين الثاني وصلت القوات الهندية إلى السويس. صدفة؟ ستكون الحرب على بلادنا! لكن من يقود الحملة؟ الضباط الاتحاديون الذين لا يحترمهم خالد آغا! وكل شيء واضح من البداية. قصف طراد إنكليزي اسكندرونة. قصفت مدرعة فرنسية العريش. ومدرعة فرنسية مدينة بانياس! قال خالد آغا: لن نعتمد على الخطة العسكرية بل على شهامة جنودنا! نظر إليه أبو بديع: لا تظلمهم ياخالد آغا!

في أول الحملة كل شيء تمام! أرسل عبد الرحمن باشا اليوسف متطوعي الأكراد. وأرسل شكيب أرسلان متطوعي الدروز. ووعد الشريف حسين بأن يرسل متطوعين مع أحد أبنائه. انساق بهاء مع الجماعة. شعر بالغمّ لكنه قال: ندافع عن الدولة! وقت عزفت الموسيقى ودق الطبل والعسكر يصعدون إلى القطار قال: لن نهزم! قصد سنعود سالمين! خرجت البلد كلها لتودع الحملة! احتفال مهيب! وقت تحركت الجمال مع حمولتها العسكرية بين المحطة وبين الثكنة التهبت حماسة الناس. يوم مشهود!

كل شيء تمام! في 6 أيلول 1914 نقل الفيلق الثاني عشر من العراق إلى سورية، وأسس الجيش الرابع. قائده جمال باشا ناظر البحرية. وقت الحملة جيد. شتاء. الآبار محفورة على الطريق! الجمال جاهزة لنقل الماء والمؤونة! يسرون

ليلا ويستريحون نهارا. إعداد الحملة جيد. لا أحد زائد في الجيش إلا الأئمة. الجراية اليومية للفرد 600 غراما من البقسماط، 150 غراما من الزيتون والتمر، 9 غرامات من الشاي، زمزمية ماء، ملح، نظارات شمسية. حمولة الضابط خمسة كيلوغرامات. لا خيام! الخيام للجرحى فقط. مقر مفتشية الصحراء في بئر السبع التي تبعد ثلاثين كيلومترا تقريبا عن غزة. المحطات على امتداد طريق بئر السبع الاسماعيلية، 25 كيلومترا بين محطة وأخرى. في كل محطة مقر إداري ونقطة ماء ومركز إسعاف طبي ومنارة تهدي ليلا. كتائب هجانة فيها زمر مؤونة وزمر إسقاء. استطلعت مصادر الماء. أعدت زمر إسقاء طارئة. إجراءات صارمة: إعدام الجندي الذي يتخلف عن السير دون إذن. كل شيء تمام!

في الطريق لا يفكر بهاء في منور ودمشق. ينتبه إلى من حوله، إلى ماحوله، ويستبعد التساؤل عما سيحدث. قابله في القدس برد يقص المسمار. لكن ذلك كان أقل قسوة من الصحراء. مشت الحملة في الطريق الفاصل بين الصحراء الرملية والصخور. الطريق لين. ولكن تقنين الماء شديد. لا يغسل يديه بالماء إلا القائد العام. ما أقسى الصحراء! لمعان الشمس على الرمال يخطف البصر. الشمس القاسية في النهار والبرد القاسي في الليل. الحياة والموت احتمالان متساويان! لمن كلمات جمال باشا في حملة الترعة؟ له؟! كلمات جمال باشا من مستلزمات الحرب! "أيها الجنود، إن الصحارى القاحلة لتمتد من ورائكم، والعدو الجبان يقف أمامكم، ومصر الخصبة خلف هذا العدو، وهي مشتاقة إلى الترحيب بكم. فإن ترددتم فلن يكون نصيبكم إلا الموت. فإلى الأمام، فإن الجنة أمامكم"! الجنة؟ أن يعود سالما من هذه الحملة! سيحارب الإنكليز فقط؟ أم المصريين والمسلمين الهنود؟! يبلع غصته ويغمض عينيه.

في 15 كانون الثاني 1915 وصل بهاء مع الحملة إلى خط بئر السبع العقبة. الخط الذي يفصل الدولة العثمانية عن الإنكليز خليج العقبة. سمع بهاء الطائرت الإنكليزية والفرنسية. رأى العدو أول مرة. همس: تكشف مواقعنا! بدأت الحرب! جمال باشا نفسه هنا!

تجمع العثمانيون على بعد عشرة كيلومترات من القناة. الخطة: الهجوم بثلاثة أنساق. في المحور الشمالي الساحلي فوجا مشاة وبطارية مدفعية. في المحور الجنوبي فوجا مشاة وكتيبة خيالة الفرقة 22. في المحور الأوسط تعبر القناة سبعة أفواج مشاة، وخمس بطاريات مدفعية، كتيبة الهندسة، قطار الجسر، ولواء الهجانة. انطلقت قوات المحور الشمالي من خان يونس ومن بئر السبع، وقوات

المحور الجنوبي من معان، تبعتها فرقة المشاة على المحور الأوسط. في يومي 26 و27 كانون الثاني 1915 للتضليل هاجم الرتل الشمالي منطقة القنطرة، والرتل الجنوبي منطقة الكوبري شمال السويس. من الرتل الجنوبي بهاء. حظ سيء! يوم 2 شباط هبت عاصفة رملية أخرت معدات التجسير وأربكت الاتصالات الهاتفية وكان لواء المشاة يقوم بالهجوم وهدفه الاسماعيلية. عاصفة رملية مجنونة، لايرى الواحد رفيقه على بعد متر! أغلق بهاء فمه جيدا ومع ذلك شعر بالرمال تحت لسانه. انتهت الزوبعة فجأة. ومشى بهاء. فجأة بدت القناة! ماء بعد الصحراء والرمال! كاد يبكي. رأى السفن في الماء. تجري الحياة، لا تبالي بما عانيناه في الصحراء. قال لنفسه: كي تجعل الإنسان قشة ارمه في الحرب! ينكفئ بهاء في حفرته الرملية كلما غمرت الأنوار الكشافة موقعه. ويمتد صمت الصحراء. ينتظر الجنود المعركة، ومع ذلك غفوا. يعرف الآن الخطة: احتلال الماء! فجأة وصل مراسل أعلن: عبرت الزوارق الأولى القناة! فتح بهاء عينيه جيدا. الضباب يستر الضفة الأخرى.

في جنوب بحيرة التمساح منطقة الهجوم الرئيسي، مدت سرية التحصين السادسة جسرا معدنيا عائما وأنزلت القوارب. اندفعت الموجة الاولى لعبور القناة، 600 جندي بينهم أخو بهاء. حاولت إنزال الزوارق الخشب. فتح الإنكليز نارهم عليها. قتل الجنود في الزوارق. حاول الضباط سحب الزوارق، لكنها غرقت في ظلام الماء ملأى بالقتلى والجرحى. من القتلى أخو بهاء. استعمل الإنكليز الكشافات وصادوا الفرقة 25. العرب هم الفرقة 25. يوم 3 شباط عقد مؤتمر في مقر الجيش الرابع بحث الموقف فقرر الانسحاب. يستحيل عبور القناة! غرقت الزوارق! فشلت خطة فون كريس. انسحبت القوات في ليلة 3–4 شباط. انسحبت مسرعة. سارت في الليل، واستعدّت في النهار لهجوم محتمل. كسب العثمانيون شرفين: اجتياز الصحراء في مهارة، والانسحاب منها في مهارة. لكن سبعة آلاف جمل ماتت من التعب والعطش خلال الانسحاب. كم كانت الجمال التي سخر منها صديق سايكس مفيدة وصبورة! كان التقنين في المياه صارما فلم يسمح لها بالشرب. ماتت ظامئة والماء فوق ظهورها محمول!

تمنى بهاء أن يغسل وجهه. من الغبار؟ بل مما رآه! تمنى أن يغسل عينيه من جثث الجنود في الماء. وجثثهم في الزوارق. وجثثهم على الرمل. والجرحى الذين نقلوا في محفات على الجمال ومات بعضهم في الطريق. لا يعرف بعد أن منهم أخاه!

تساءل بهاء عن العدو؟ رآه عبر القنال! كان الإنكليز جاهزين على الضفة المقابلة: فرقة هندية وفرقة اوسترالية. خط الدفاع الإنكليزي الأول يوازي القناة، شرقها على بعد 10 كم، والخط الثاني على بعد 5 كم، والخط الثالث على الضفة الشرقية. مدت خطوط حديدية خفيفة، أنابيب مياه، خنادق، طرقات أنجزها آلاف العمال المصريين. أنجزوها كي يقتل أحد أبناء خالد آغا! سدد الرصاص من بلد عثمان باشا وقتل ابن أخيه!

تقرير العثمانيين عن معركة الترعة: نصبت الجسور عند الإسماعيلية لكن الطرادات الإنكليزية فتحت النارعليها. تقرير الإنكليز: 1100 قتيل عثماني و800 أسير! أخو بهاء من اولئك.

نفذت نرجس وصية بهاء. طرقت باب نفيسة في الصباح: الفرجة اليوم في القشلة على جمال باشا الذي سيلحق حملة الترعة! روت لنفيسة ومنور ما سيكون هناك. سيحتشد الخلق من القشلة الحميدية حتى مستشفى الغرباء. لكن نرجس بلهجتها الرقيقة ولغتها المسايرة ستشق لنفسها ولمنور الطريق إلى الصدر. سيخرج عبد الرحمن باشا اليوسف من باب القشلة مع جمال باشا فتعزف الموسيقى ويؤدى "السلاملك". وسيركبان العربة أمام الناس! ابتسمت منور: رويت كل شيء يا نرجس خانم فماعاد للفرجة ضرورة. أيدتها نفيسة: زحمة وعسكر! من يخفف عقله تتعب رجلاه! ردت نرجس: أحسن من القعدة في البيت ووجهي في وجه الحائط!

يجب أن تجد لمنور فرجة أخرى إذن! اقترحت السيران في بستان الكركة. من يرفضه؟! الطقس حلو مشمس كأنه هارب من الربيع! قالت نفيسة: سأحضّر لكن صفيحة.

يبدأ البستان من أطراف سوقساروجا. حملت الصبايا سلال الطعام والشراشف والبسط الرقيقة. مشين مجموعة كبيرة يلبسن "البريلين" والملاءات، تسدل الشابات منهن المنديل على وجوههن وتكشفه المسنات. تدل أحذيتهن القديمة فقط إلى أنهن ذاهبات إلى بستان! منور فقط من الصبايا كاشفة الوجه. تغرس دبوس الألماس في الملاءة! لم تجد دبوسا يثبت فجّتي "البريلين" غيره؟! مسكين يا بهاء! قالت لها نرجس: تقبريني، غطي وجهك! لماذا؟ أمشي هكذا في فلسطين!

بدا لمنور أنها تنتبه لأول مرة إلى لهجة نرجس الشامية. تستطيع هذه المرأة التي تتقن اللغة التركية باللهجة الاستنبولية، أن تمطّ الكلمات وتصوغ لهجة شامية عميقة، ذات موسيقى رقيقة. لكل كلمة رد أو تعليق كأن حركات الإنسان كلها محسوبة ومدروسة. يثير ذلك سخرية منور، ولن تتذوقها إلا متأخرة، عندما تؤهلها الحكمة لتأمل المراوغة المغرية فيها، والتقاط الرقة التي صقلتها مدينة عريقة، والتهذيب الذي لا يؤشر فقط إلى حضارة بل إلى التقيّة في عصور متنوعة. ستتأمل فيما بعد ما قلدته ساخرة: "تشكلي آسي"! وستفهم يوم موت زوجها وابنها رغبة المحب في ألا يكون الشاهد على موت المحبوب، وأمنيته أن يضعوا هم

الآس على قبره، لا هو!

بستان الكركة أشجار كثيفة من الجوز والمشمش والتوت بينها فسحات للخضار. عبرت النساء جسرا فوق نهر، ووصلن إلى فسحة بستان. يجري الماء في السواقي حوله ويروي شجر الجوز والحور. دور هذا البستان في السقاية اليوم! وقفت منور على طرف الساقية، رأت نباتا أخضر نضرا على طرفي الماء الصافي. قالت لها نرجس: هذه إرّة، كليها ولا تخافي! في البستان خضار. هذا وقت السبانخ. لو كنت هنا وقت الفول لذقت الرز بالفول الذي نطبخه في البستان! ولقطفت وقت الباذنجان حباته التي شبعت من الماء! حملنا المدّة في أيام الفول وفرشناها. وحمل لنا البستاني مخدات استندنا إليها. ضحكنا يومها، وغنينا. "يا لطيف شو انبسطنا يومها! يا لطيف شو انبسطنا"!

-تقبريني، لا تحطي الحزن بالجرن! نصف رجال البلد في الحرب! قومي! مقدمة الدعوة إلى الغناء. أهكذا يقاومن الحرب، وهكذا قاومت مدينة أزمنتها المعتمة لتبقى حية؟

كأن هؤلاء النساء لا يعشن على ضفة الحرب! ألم يكنّ أمس في الفرجة على جمال باشا وعبد الرحمن باشا اليوسف؟ هل يتصورن أن الحرب موسيقى واستعراض؟ عندما جلست منور على "المدّة" معهن اكتشفت أن لكل منهن رجلا سيق في القرعة. حاولت أن تقرأ روحهن. كن مستسلمات للفرح بالبستان. شعرت هي أيضا بسلطة البستان عندما استدارت عنهن إليه. في تلك البرهة بدا لها أنها تفهم شيئا لم تنتبه إليه في هذه المدينة التي تخرج دائما إلى البساتين لتبعد عنها الغمّ. يقاومن القلق بالسيران! كأنهن روح مدينة تتمرد على الموت!

بانت ثياب البيت القطنية تحت الملاءات. انتبهت منور إلى ألوانها البيضاء والزرقاء والخضراء والبنفسجية. لم تكن زاهية كثياب الفلاحين. امرأة واحدة منهن فقط كانت تلبس ثوبا بلون زهر الرمان. استسلمت منور للبستان وبدت لها ملابس النساء مناسبة لتلك الخضرة. أخرجت نرجس دفّا مطعما بالصدف. من ستغني؟ تدّعي واحدة أن صوتها سيجعلهن يهربن، وتقول الثانية ضاحكة إنه سبب هجر زوجها، فتعلق أخرى: الصوت حظ كالزواج! فتقول نرجس: لو كان حظا لاستبقت تفيدة خانم زوجها! هكذا اتفقن أن تبدأ تفيدة الغناء. حاولت منور أن تتذكرها. رأتها عند مكرم أم عند نفيسة؟ لا، عند رابية خانم! غنت تفيدة خانم. وذهلت منور. كانت تؤمن بأن صوت سعيد أحلى الأصوات. هذا أحلى منه! رخيم، فيه بحة آسرة وحنان. خرج البستاني وزوجته وأولاده من بيتهم في طرف البستان واستمعوا

إليه. غنت تفيدة أغنية أخرى عن الأزرق "الماوي". وكانت منور تلبس ذلك اللون! واكبت النساء تفيدة في مقاطع من الأغنية حيث خفضت صوتها ففهمن أنها تطلبهن. تمايلن وهن يغنين، ورفعت منور رأسها إلى الشجر. لم تعش مثل هذا اليوم في فلسطين! كم أمامها من الأيام التي لم تعش مثلها، بفرحها وحزنها؟ أتبدأ الحياة حيث نظنها اكتملت! محظوظ من تكون حياته دون بوابة تغلقها!

نقرت نرجس الدفّ بمهارة فلم تغمر به الغناء، بل زينته، وبالدف أشارت للنساء إلى دورهن في المواكبة. ثم وضعت الدفّ إلى جانبها مقدّرة أن الوقت حان للغداء قبل أن تبرد الصفيحة! "تقبروني، ما فتح قابليتكم البستان"؟ ردت امرأة: فتحها صوت تفيدة خانم والبستان فهل سيكفينا الغداء! ضحكت النساء أكثر مما تتحمله تلك الإشارة. فقالت منور لنفسها: عند الشاميات لكل كلمة عشر معان!

نشرت تفيدة شرشفا أبيض مطرزا بزهور صفراء وحمراء، وضعت عليه صحون حبات مخلل اللّفت والفليفلة والخيار، والفجل. في الوسط وضعت نرجس صينية فيها أقراص الصفيحة وصفّت الكؤوس. وضعت امرأة أخرى طنجرة فيها يلنجي ورق العنب مع الجانرك. دلل بعض النساء البعض الآخر بأقراص الصفيحة والمخلل: "خذي من يدي! والله إلا تاخدي أنت أولا"! صبت نرجس كؤوس اللبن، وعندما انسكب أحدها ضحكن: "قلبك مليان مني يانرجس خانم"؟ يجعلن حتى مايثير الارتباك مثيرا للمرح!

بعد الغداء استلقين مستمتعات بالشمس. ضحكن كأنهن يتزاحمن. وضعت تفيدة رأسها على ساق نرجس: يا الله تقبريني احكي لنا رواية! بقيت نرجس مستندة إلى شجرة مشمش، وحكت لهن قصة قالت إنها من روايات خالدة أديب. خالدة أديب؟ لا تعرفين الكاتبة التركية المشهورة! لا، لم تسمع منور بها! تفرجت عليهن وهن مفتوحات العيون على الشجر فوقهن. خطر لمنور أن تتسلق الشجر في حيفا، لكن لم يخطر لها أن تستلقي لتملأ عينيها بالشجرة كلها!

هل اكتشفت وجوه نرجس التي تجهلها؟ السحر الذي أمسكت به بهاء مع أنها أكبر منه وليست جميلة؟ تأملت مهارتها في الحديث، تهذيبها الدمشقي الذي يصر أن يظهر التواضع والعناية بالحاضرين. في طفولتها عرفت مهارات نرجس الأخرى: طعامها التركي والدمشقي. وشغل الإبرة الدقيق الذي تخترع فيه أشكالا غريبة، وتبيعه غاليا.

لا يعترض الرجال على سيران النساء أو سهراتهن ولا يقتربن منها. فالمجموعة محصنة. بقين في البستان حتى المساء. نهضت منور بعد الغداء

وتجولت في البستان. وقفت على طرف الساقية وتأملت العدّان، وتحدثت مع البستاني. يوم الثلاثاء دوره في السقاية. يفتح هذه القطعة من المعدن فيتدفق الماء من الساقية إلى بستانه. يعرف كل من الفلاحين دوره وحصته! قانون غوطة دمشق! لكل بستان، لكل بيت، لكل حمام وجامع، حصة مقدرة من الماء. ألم تسمع منور قفز الماء في طوالع الحارات؟

من بعد تأملت نرجس منور التي أحبها بهاء لا منور بنت فاطمة! صبية، متوردة الوجه، تريد أن تفهم ما تراه. لا تهاب الاقتراب من صاحب البستان ولا يخطر لها أن يساء بها الظن. لا تتردد في الجهر بما تراه، ولا تخجل به. قالت لنفسها: صبية حلوة لكن سيقلّمها الزمن! فهل ستضيف الحكمة سحرا إلى كبريائها أم ستخبو، دون أن تكسب اللباقة التي وهبتها نساء دمشق؟ تحاول أن تخمن ما سحر بهاء فيها؟ أليس هو ما تنتبه إليه نرجس الآن؟ لا! يوجد شيء آخر لا يعرفه إلا الرجل الذي يبقى مع امرأته في غرفة مغلقة. قد تكشف النساء عن علاقاتهن برجالهن، مزهوات أو شاكيات، لكن نرجس تعرف أنهن حتى في بوحهن يخفين الجوهر. يبحن بالشقاء لكنهن لا يبحن أبدا بتفاصيل السعادة! صمتت منور عندما مست النساء العلاقة برجالهن. ابتعدت عنهن إلى البستاني لتكلمه. وفهمت نرجس أن منور ستبقي حتى الموت علاقتها ببهاء سرا. لن يرى فيما بعد حتى ابنها وابنتها إلا ما أنضجته العشرة الطويلة بينهما من الاتفاق. وسيحاران متسائلين هل ذلك قمة العشق أم وصول الحب إلى الصداقة!

عند الجسر الخشبي فوق النهر ومنور تهمّ بأن تثبت فجتيّ "البيريلين" بدبوس الألماس افتقدته. عادت النساء معها ليبحثن عنه. لم يجدنه. قالت نرجس لنفسها: حدسي صحيح! من يخرج إلى بستان الكركة بدبوس ألماس؟! لكنها قالت لمنور: فداك، تقبريني! سنفتح المندل ونجده! المندل؟ يا نرجس خانم، لا ينقصني إلا هذا!

عادت منور إلى بيت نفيسة واستلقت متعبة من الفرح. تستطيع أن تمد يدها من النافذة وتلمس أغصان شجرة النارنج! غمرها هدوء البيت. هل تؤنسها أطياف الذين نزلوا معها هنا في أيام السعادة؟ أتفهم منور في هذه البرهة أن الحاضر يمسك بيد الماضي فيصبح ماضيا على حافة البرهة التي يتوهج فيها؟ وأن الأطياف لاتؤنس فقط بل تحزن؟

سألتها نفيسة: حزينة على الدبوس؟ قد يكون سبب أساها أنها فقدت شيئا. ولكن أهو دبوس الألماس، أم بهاء، أم أطياف الأحياء الذين وعت الآن بأنها

فقدتهم؟ قالت نفيسة: فداك! عندي شبيهه، خذيه! لا، يا عمتي! لا يستعاض عن شيء بآخر! سألتها نفيسة: ماذا قلت؟ لاشيء، لاشيء! لكن البحران لا يمسك بمنور زمنا طويلا. قالت لعمتها وهما حول صينية العشاء: سأبحث عن الدبوس وسأجده! وفهمت نفيسة أن منور لا تقصد الدبوس، بل تقصد الانتصار على الهزيمة. قالت لها: لا تذهبي إلى بستان الكركة وحدك! خذي مرجانة ونرجس معك!

مشت منور معهما الخطوات التي مشتها في البستان. توقفت عند الجسر الخشبي على النهر، وصلت إلى الشجرة التي استندت إليها نرجس وهي تحكي الرواية، قصدت الساقية حيث وقفت مع الفلاح. ثم عادت إلى مكانها ولمست التراب. تألق وجهها: هاهو! رفعته بين أصابعها، ثم غرسته في "البيريلين". هل فهمت يا نرجس بماذا تسحر منور بهاء؟

قالت نرجس: يجتمع في بستان الكركة يوم الجمعة خلق كثير. يكفيه أهل سوقساروجا! مروا بعدنا، ولم يره أحد منهم؟! روت منور لنفيسة: أوقفتني نرجس خانم عندما وجدت الدبوس، قرأت آية من القرآن ونفختها علي! لم تتذكرها قبل أن نجد الدبوس، بل أرادتني أن أذهب معها لنفتح المندل! ردت نفيسة: "خذي كل واحد على قدّ عقله"! فتأملتها منور. وكأنها تذكرت الآن فقط أن عمتها شامية أيضا! نسلخ يا منور من نحبهم عن تراث مدنهم وعشائرهم ونرفع حولهم أسوار الحب ونوصدها عليهم، لذلك قد يفجعوننا عندما يستعيدون أمكنتهم الحقيقية! لن تفكري في هذا العمر بالأسرة التي جاؤوا منها، وما شربوه مع الحليب في بيوتهم! ستفاجئين بذلك فيما بعد، عندما تفهمين أن كلا منا يحاول أن ينتقي ما يحفظه وهو يصوغ نفسه كجمهورية مستقلة، متوهما أنه متقدم على من حوله لكنه رسولهم الفريد إلى ما يعجزون عن الوصول إليه!

لم تلاحظ نفيسة قلقا على منور بعد سوق بهاء إلى الترعة. تطفئ النور في غرفتها مبكرة، وفي الصباح تبدو نضرة كمن نام الليل كله. يا ويلي، لا تعرف المسكينة أن أمها ماتت! ولا تستطيع نفيسة أن تبالغ في تدليلها كيلا تثير شكها! علمتها الطبخ الشامي. رحم الله فاطمة، كم دللتها، فلم تعلمها كيف تطبخ أكل بلدها! أصغت منور إلى نفيسة وهي تعلمها الطبخ، لكنها بقيت لا تهدأ بين السطح وبين أرض الدار!

لم تصل من بهاء أية رسالة. فسعت نفيسة وحدها، لابسة ملاءة عتيقة، لتعرف أخبار حملة الترعة وأسماء القتلى والجرحى. ثم بلغت منور بأن الرجال في الطريق إلى دمشق.

زينت دمشق لاستقبال الراجعين من الحملة. رايات وحبال أنوار كهربائية وأغصان كينا. موسيقى وطبول وخطابات. قال جمال باشا، هذه تجربة لعبور الترعة في الحملة القادمة. أشهد أن العرب حاربوا في حماسة وشجاعة! أخفى بهاء نفسه بين العسكر. هل يصدق هؤلاء المستقبلون أننا انتصرنا في الترعة؟ لو كان النصر حقيقيا لكان الاستقبال رزينا! فحتى النصر وراءه قتلى وأسرى! ابتعد بهاء عن الموسيقى والخطابات، واستعاد في الطريق الخالي أغنية سمع بدويا يتمتم بها في الليل في حملة الترعة: يا عسكري يا بو الجديلة، خايف عليك من الكسيرة. يا عسكري يا بو الشوارب، يوم الشراقي لا تحارب. يوم المعارك، تزعق الحمرية، والرصاص يضرب، والشباب مرمية.

لكن طريق العودة من الترعة لم يكن كالطريق إليها! لا موسيقى ولا احتفالات! لا أوهام بأن النجاة في القنال، ولا أمجاد "لفاتح مصر"! قبيل الهجوم اعتمد القائد على الإغراء، وليس لذلك خبزا عند بهاء! اعتمد المشايخ الذين رافقوا الجيش على أن القتيل شهيد لأنه يقاتل الكفار، وليس لذلك خبزا عنده! فهل الألمان الذين يقودون الجيش مسلمون؟! في طريق العودة تمنى أن يروي عطشه، تمنى أن يغتسل، واستسلم للحلم بالماء. خيل إليه أنه يسمع نافورة بيت نفيسة، ويلمس ماء الساقية في أرض الدار ويصيد منها ورودا وحبات مشمش. تذكر

حتى "بيت الماء" الذي يتدفق فيه الماء من أنبوب مفتوح على جرن. عندما يصل، سيقف أمام الفيجة في سوقساروجا ويضغط اليد فيتدفق ماء الفيجة البارد، وسينحني ويغمر وجهه بالماء! لا يريد أن يقصد منور في بيت نفيسة قبل أن يغتسل وينام. سيغتسل بنهر من الماء! الشوق؟ يعرف من يعبر الصحراء أن الحب يطلب الراحة والنظافة والشبع! احتضن الحلم بمنور وهو يستلقي على ثنيات الرمل، مختبئا من كشافات الإنكليز. لكنه لا يتمنى أن يراها إلا بعد أن يكون جاهزا للقاء!

تلكأ كي يدخل إلى سوقساروجا في العتمة. يشعر بالذنب لأنه حي؟ يخجل لأنه رجع سالما؟ يريد أن يجلس في المقهى ويروي كيف كانت الحملة؟ لا! في فمه مرارة. وفي الحرب لا يسمح بالكلام إلا عن الانتصارات! يشعر بالخجل لأنه يعيش. ويشعر بفرح مجنون لأنه حي. عاش صدفة! تردد أمام بيت نفيسة. ثم استدار إلى بيت خالد آغا.

نظر إليه أبوه من المشرقة. وقف كل منهما صامتا في مكانه. ثم أطرق بهاء، وبقي مطرقا حتى نزل خالد آغا إليه. سيسأله عن أخيه؟ رفع بهاء رأسه وقال: الموت سريع جدا. كالحياة! وأكمل لنفسه: الحياة حتى في أوجها هشة، وخاطفة! كأن عينا خالد آغا اتسعتا فأبعد نظره عنه. نفّذ ولداك، يا خالد آغا، رغبتك في الدفاع عن الدولة! كان ذلك عبثا! هل تفهم الآن أن مشروعك انتهى؟

لن يسأل خالد آغا بهاء عن ابنه الآخر! سيعرف الحقيقة بنفسه بعد إحصاء الجرحى والأسرى والقتلى والعائدين! أشار إلى الحمام. نظف نفسك من الطريق يابهاء! فلتذهب إلى بيتك نظيفا!

رأته منور من الخصّ. نزلت راكضة. فتحت الباب قبل أن يدقه بالسقّاطة. عندما رآها أمامه نضرة نظيفة تبين كم هو متعب. وخيل له وهو يراها لاهثة أنه سمع قفزها على الدرج الخشبي ثم على الدرج الحجري. زغردت نفيسة من الداور: يا مائة أهلا وسهلا! الحمد لله على السلامة! وساقته إلى الطاولة. وتأملته وهو يأكل. همست لمنور: يا حسرتي! تعب من البقسماط! أخرجت له من خزانتها المناشف المقصبة ليستحم بعد العشاء. قرب مدفأة الحطب الخضراء تابع بهاء الأشكال التي رسمها اللهب على الجدار. قال: رأينا الجراد سحابات.. سار القطار ببطء كيلا يتزحلق على بقايا الجراد.. ارتجفنا من البرد.. تركنا في مستشفى في الطريق خمسين جريحا من حملة الترعة.. رأيت جمال باشا يعود والخيالة أمامه ووراءه. نظرت منور إليه متسائلة: أهذا ما يستطيع أن يقوله؟ ماذا جرى له؟ أطرق. فقالت نفيسة: المهم

سلامتك! قم استرح! نم وانس كل شيء!

في المطبخ وضعت نفيسة إصبعها على فمها: يا مرجانة يبدو أن أخا بهاء بقي هناك! لكن لا تفتحي سيرته حتى نعرف اليقين! هل تتذكرين المشط الذي تحبه منور؟ كان هديته من الحجاز!

أرسل خالد آغا، عندما قدر أن بهاء استراح، صبيا يسأل: هل يتشرف بزيارة نفيسة خانم، أم يستقدم بهاء إليه؟ ابتسمت نفيسة للصبي: فليشرّفنا! لا يريح خالد آغا أو بهاء أن يلتقيا ورابية خانم تنظر إليهما عن بعد! ألا يحتاج، أيضا، أن تشاركه نفيسة فرحه بابن سالم، وحزنه على ابن مفقود؟

اجتهد بهاء ليمسك بزمام نفسه وهو يحكي عن حملة الترعة! أليست الحملة دفاعا عن الوطن في رأي أبيه! لم يخف على خالد آغا دوران بهاء في أحزان يكتمها! فوران خالد آغا؟ لا يشعر به غير نفيسة! فتداريه بمسند تقدمه له، وبقهوة تركية وضعت فيها الهيل، وكأس من الماء معطر بماء الزهر. فيتناول ما تقدمه له منتبها إلى عنايتها به وهو يكتم فرحه وشقاءه. راقب بهاء ذلك بعينين نصف مغمضتين. لكنه صحا عندما رمى خالد آغا كلمة سريعة وسط الحديث: تلزم للحرب نفوس قوية! التفتت إليه نفيسة. يا للمكابرة! أتغطي بها حزنك يا خالد آغا؟ فهمها إبن الكحال فتناول الحديث وجره إلى التجارة. وشجعته على ذلك نفيسة كي يشغل خالد آغا عن نفسه. وكان بهاء يتمنى أن ينام في فراش طري. وعيناه تضيقان وهو يجهد ليستمع إلى من حوله.

غفا قبل أن ينتبه إلى ذلك أو تنتبه إليه منور. فوضعت كفها تحت خدها وتأملته. ما أبعده عن البطل الذي أجّل نصره في الترعة إلى حملة قادمة! فتح عينيه. هل شعر بنظرتها؟ لمست وجهه وربتت عليه. جلس وبدأ يحكي لها. ملأ الغرفة بالقطارات والمشي والموسيقى والعاصفة. وواكبت كلامه بالصور التي تخيلتها. ودّعت دمشق العسكر في حماسة، حتى تمنى الباقون الرحيل! حاول أن يجعلها تبتسم، ونجح في البداية فقط. سار القطار إلى القدس. سبقه الأمير شكيب أرسلان إلى معان، وخيالة عبد الرحمن اليوسف، وخيالة الشركس.. ساروا إلى قلعة النخل، دون جمال. ولم يصلوا إلى القناة! نحن وصلنا!

حمل بهاء كالضباط، خمسة كيلوات فقط. نام تحت السماء فالخيام للمرضى فقط. أكل جرايته اليومية من البقسماط والتمر وشرب من الشاي. حملت الجمال الماء والأرزاق. مشينا قافلة من العسكر والدواب، ليست كقوافل التجار القدماء الذين يحملون الحرير واللؤلؤ والتوابل! لكن لعلنا سرنا مثلها. ففي الصحراء يبدأ

السير في الساعة الرابعة! استرحنا في السابعة. سمحوا للنفر بأن يحلّ أربعة أزرار من السترة خلال السير! سكنّا في النهار.

ودّعونا في القدس بالموسيقى، وسرنا إلى بئر السبع. بعد القدس جنائن وكروم وأديرة بيت لحم، والخليل. الليل في بئر السبع. إلى جانب الهلال كوكب برّاق أنست به. لعله الزهرة ولعله المشتري! بعد بئر السبع الصحراء. شوك، زوابع الرمل، وريح السموم. تركنا دمشق في أول كانون الثاني. ومع ذلك كانت الحرارة في النهار 54 درجة وفي الليل صفرا. والنور يعمي العيون. سرنا، في المقدمة الضباط ثم الفرسان، إلى محطة فيها بئر. طعامنا زيتون وتمر وجرعة من البئر. خيّمنا في وادي العريش. احتضرت بعض الجمال. وجدنا صهريج ماء فيه ديدان فمنع رئيس الصحة الشرب. السقاية للخيل فقط لا للجمال. لكن ما أجمل شمس الأصيل على الصخور! صحراء واسعة ونحن فيها ذرات قاتمة. ما أسهل أن يطمرنا الرمل! فهمت وجد من يترنح بين الحياة والموت! سحبت الدواب الجسور في الصحراء. طبخنا جملا. تألقت القناة. فيها سفن. مرت علينا كشافات الإنكليز. نمنا في الرمال اللينة حتى أيقظتنا الطائرات في الصباح. قال القائد للعسكر: الماء والنجاة في القنال فقط! ووعد الشهداء بأن أولادهم آمنون بالمال والضياع! أرعشتني تلك الخطبة! لعل أسعدنا من كان يؤمن بأن حملة الترعة جهاد مقدس!

ضاع الهجوم بالمباغتة، بين الإسماعيلية وبحيرة التمساح! مع ذلك للتعارف شارة بيضاء على الساعد! لا كلام ولا تدخين! تحدث فون كرايس إلى الضباط والشمس تغرب، وتحدث الأئمة إلى العسكر. وتساءلت هل سأراك يا منور أم ستصبحين أرملتي. ندمت لأني تزوجتك! وضعت منور كفها على فمه. أمسك بكفها وأزاحها. تذكرت كلمتك: البحر غدار! الصحراء غدارة أكثر من البحر! كان الجو ساكنا بعد الغداء. فجأة ثارت عاصفة أدخلت الرمل إلى أنوفنا وعيوننا. قلت للضابط الذي يمشي معي: سجل أننا في الثاني من شباط كدنا نغرق في الرمل، وولدنا اليوم! رد: أسجل أن يوم الوفاة هو يوم الميلاد! سكنت العاصفة فجأة، وبدأت ليلة لطيفة مليئة بالنجوم. مرت فوقنا الأنوار الكشافة ووصل إلينا صوت الرشاشات. كانت المجموعة الأولى قد عبرت القنال التي سترها ضباب خفيف. أغرقت الرشاشات الزورق الأول. سلم الثاني، وغرق الثالث. لكن كيف ينزل الجند على ضفة عالية؟ غرقوا مع بطولاتهم. عبرت سريتان، وارتفع التكبير ثم خمد. بقيت الحرب حتى الليل. كانت الطائرات ترشد الطرّادات فتقصفنا. رأيت جمال باشا مطرقا وفون كرايس صامتا. قرر فرانكنبرغ: يجب الانسحاب فورا لإنقاذ

التجريدة! قال كرايس: القنال ولو فنيت التجريدة! رد القائد: لا أضحي بها! كانت العودة صعبة في الظلام لكن الكشافات حددت مكان القنال فتجنبناها. مشينا في التيه.

صادفنا صهريج ماء يحرسه العسكر. فهل أجرؤ على طلب ملء راحتي لأغسل وجهي ويدي؟ هلك سبعة آلاف جمل من العطش، ونجت التجريدة. في بئر السبع رأيت أرضا مخضرة. رأيت بيوتا وشجرا. صحت كالضائعين: نجونا من التيه!

انحنى بهاء على نفسه وبكى. مدت منور ذراعها لتكشف وجهه، ثم تركته يبكي حتى يفرغ دموعه. غسل جسمه بالماء، فليغسل روحه بالدموع! لكن ماذا يبكيه؟ الهزيمة أم موت الرجال في القنال؟ الجمال التي رآها تحتضر بعد أن حملت لهم الماء والأرزاق؟ هل قليل موت سبعة آلاف جمل؟! جمال ذات عيون جميلة وديعة! بكى بهاء لأنه ضائع في صحراء أخرى، ليست الصحراء التي تحدث عنها! أبكته الدنيا التي وجد نفسه فيها! بينه وبين الأنفار مسافات تبينها هو الرقيق القلب كأخيه شهاب، ورفضها! لكنه خاف أن يستنتج أيضا أنه لا يستطيع أن يتحمل أن يكون نفرا! لماذا كان عليه أن يدخل تجربة الحرب ليكتشف شجاعته وضعف قلبه؟ يرمى الناس في التجارب القاسية لنكتشفهم! ما ضرورة ذلك؟ في الصحراء كان واحدا من المجموعة فلم يفكر في الموت، لكنه يشعر الآن كم كان قريبا منه! كان يمكن أن يكون كالجرحى الذين حملوهم من مكان إلى مكان. وربما أبكاه أمر آخر يخمنه ويخشى أن يتساءل عنه: موت أخيه. لا يستطيع أن يعانق منور رغم شوقه إليها! فهل تستطيع أن تفهمه وهي في هذا العمر؟

انتبهت منور إلى أنه تحاشى أن يعانقها. لكن ذلك لا يعني أنه لا يحبها، بل يعني شيئا آخر تعجز عن فهمه الآن. لولا ذلك لما روى لها ما حجبه عن أبيه وعن نفيسة، ولما بكى أمامها. هل قدّر لها أن تفكر في هذا العمر المبكر في العلاقات بين رجل وامرأة يحتاج كل منهما إلى الآخر، لكنه يعجز عن القرب منه! ستفهم ذلك في مداه فيما بعد، عندما تبعدها عنه صرخات الجائعين وأمر آخر! يشترط اللقاء بين رجل وامرأة، إذا كانا إنسانين، صفاء الروح والسلام مع النفس! وما أبعد ذلك عن بهاء المثقل بالعتمة!

في الصباح وقفت منور أمام النافذة وبهاء بعد نائم. وأنت يا نوري، في أية أرض أصبحت؟ هل تحوم فوقك طائرة بريطانية كتلك التي حامت فوق بهاء؟

تماسكي يا منور لتسندي رجلين، واحدا هنا والآخر في حرب العراق!

كم الجبهات البعيدة قريبة من المخادع إذن! في 18 آذار 1915 سحبت من فلسطين قوات لترد الإنزال في غاليبولي واقتحام الدردنيل. وسيفرح منور أن بهاء ليس منها! في سنة 1916 سيستسلم تاونسند للعثمانيين في الكوت، وستظن شفيقة أن هزيمته خلّصت نوري! لكن نوري المقتول لن يحتفل بذلك النصر الصغير! سينزل أنور باشا إلى فلسطين ليدرس حملة ثانية على القنال فهل يستطيع قدري أن يرحب به لأن نصره سيخلص أحباءه من الحرب؟ في 5 حزيران سنة 1916 ستعلن الثورة العربية فهل سينحاز إليها قدري أم سيكون كعزيز علي المصري الذي رفض تدخل الإنكليز؟ هل يقبل أن يقود الحملة على العثمانيين جواسيس مثل لورنس، وستورز، ووينغيت؟ أم يترك مصير البلاد لجمال باشا وطلعت وأنور؟! أيهما يختار؟

هل يدفع العجز الأصدقاء إلى الفراق كما يدفعهم إلى الاجتماع؟ يطلب من بقي من رجال سوقساروجا الآخر في المقهى ويأنس به كأنه يستعيض به عن الأبناء الذين رحلوا إلى الجبهات وعن القتلى الذين لم تصل أخبار موتهم بعد. فلماذا يختلف صديقان؟

تعيش يا خالد آغا عمرا مع إنسان، وأنت تظن أنه ظلّك. فتكتشف فجأة أن له رأيا وفكرا وفيه جموح! فهل أنت حزين لأنك ألفت أن أبا بديع مستمع موافق دائما على كلامك، ففوجئت بالنقيض؟ هل تسترقّه لأنك دافعت عنه في حي العقيبة؟ اعترف بأن ما بينكما مثل ما بين الرائد وتلميذه! اعترف بأنك حتى وأنت تتظاهر بأنك معتكف لأن الاتحاديين يحكمون البلد، تطلب أن يلبس أبو بديع الثوب الذي تفصّله له! سبب خيبتك أنه لم يعد تلميذا لك.

كبحت هيبة خالد آغا المنافقين. فامتنعوا عن احتفالات الاتحاديين. لكن ما الفائدة؟ لم يؤسس في الحي ما يستمر دونه. هاهو أبو بديع، أقرب الأصحاب إليه، أقرب مريديه، يخونه! تطلب يا خالد آغا رجالا كبارا، فتتبين ضعف أصحابك! حلمك يا خالد آغا، حلمك!

اقترب خالد آغا يومذاك من المقهى فسمع صوت أبي بديع، فتوقف. منذ متى كان لأبي بديع هذا الصوت الصدّاح؟! يتحدث عن سياسة الاتحاديين. لم نعرف أنه كان فرحا بانتخابات 1914! تراجعت الحكومة عن دعم المرشحين المؤيدين لها يومذاك ورجحت العروبيين. دعمت عبد الفتاح السعدي في عكا أمام أسعد الشقيري. اختارت لمجلس الأعيان يوسف سرسق، ومحمد بيهم، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد الرحمن اليوسف. انتخب الأمير علي عبد القادر الجزائري رئيسا للمجلس الجديد. في الوزارة سليمان البستاني وزير التجارة والزراعة. شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي مفتشان، الإنكليزي إلى بورصة، والعسلي إلى حلب. سمح لعزت باشا العابد بالعودة إلى دمشق ليدير أملاكه! قابل جمال باشا وطلعت الزعماء العرب، والنتيجة: ستشترط معرفة الموظفين الأتراك اللغة العربية، وسيرجح العرب في الوظائف في البلاد العربية. لكن لابد من فترة انتقالية!

لمح بعض الجالسين في المقهى خالد آغا. فقال لنفسه: كفى، وصمت! دخل خالد آغا فلبد أبو بديع. قال له: أكمل، أكمل، نوّرنا بما تعرف! صمت أبو بديع. إذن، "كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا"! وخزه بنظرته. لكن نظرته رقّت. هل ينتبه الآن فقط إلى رغبة رجل هادئ مثل أبي بديع في أن يتفادى المصائب بالايمان بالوهم؟ روى الكذب ليرسخه في نفسه! بدأ خالد آغا يومذاك مما رواه أبو بديع: كل ذلك صحيح. لأن الحكومة أرادت جمع المسلمين والعرب للحرب. استندت إلى جامعة الدين لتضعف السياسيين وتحيّد المقاومة العربية. قوّت المراقبة الدينية في الثكنات! سرح أنور منذ استلم وزارة الحرب ثلاثمائة ضابط عربي، تسعون منهم من دمشق. وهل نسيتم محاكمة عزيز علي المصري والحكم عليه بالإعدام؟ هذا ما واكب الأمجاد التي تحدث عنها أبو بديع! وقعت الحكومة اتفاقية مع ألمانيا في آب ودخلت الحرب في تشرين. حلت الجمعية العامة للاتحاديين وصارت السلطة في يد الثالوث! وهو الذي يقرر لمجلس الوزراء! هكذا بدأت لعبة الاتحاديين بالدين! أرسلوا وهيبا ليصفي نفوذ الحسين في الحجاز، لكنهم كانوا يحتاجون الدعوة إلى الجهاد من الحسين لتكون الحرب جهادا مقدسا!

لماذا طلبت إذن يا خالد آغا من بهاء أن يتطوع في حملة الترعة! حرمت ابنك من حقه في مالك لتبقيه لأولاد رابية خانم. فلماذا ترسله إلى موت ممكن؟ كان يجب أن تتركه في طبرية مع منور! فجعت بي يا خالد آغا؟ وأنا فجعت بك! ولكن هل يجسر أن يقول ذلك له! قال: لعب الاتحاديون لعبة الدين إذن! أرادوا أن تكون حملة الترعة حملة إسلامية، قاد عبد الرحمن اليوسف فيها الأكراد، والشركس علي بك، والدروز شكيب أرسلان، وقادهم جميعا جمال باشا! فلماذا كان يجب أن يتطوع فيها بهاء؟

يبدو أن لسان أبي بديع سبقه! لم ير أحد خالد آغا مشتعلا كالنار كما رآه وقتئذ. لم يجسر أحد، حتى يوم انتحار شهاب، أن يمس بيته فكيف سمح أبو بديع لنفسه بذلك! لأنه صاحبه؟! لا تنهار البلاد فقط، بل ينهار الناس أيضا يا أبا بديع! لست مضطرا للسقوط إذا سقطت أحزاب وجماعات! افهم أننا لا نحارب في الترعة لنضع التاج على رؤوس الاتحاديين، بل لنرد الاوروبيين الذين سيقسمون بلادنا إذا سقطت الدولة!

أراد أبو بديع أن يصرخ: كفى! ألا تفهم أنك ضيعت ابنك! عن أية دولة تدافع يا خالد آغا؟ الدولة التي تدافع عنها لم تعد موجودة. انتهت منذ طار السلطان عبد الحميد! لكن موتها لن يعلن حتى يكتمل! ألم تر ما أنزلته بنا

الحرب؟ يلتقط الشباب من المقاهي والشوارع. تصادر البغال والحمير، ويصادر القمح. تعطلت أشغال الناس وزراعتهم. بماذا ينقل الفلاح حطبه، بماذا يتنقل، وماذا يزرع؟ يستنبتون المجاعة بالحرب. هم لن يجوعوا ولن يجوع أصحابهم. لكن الناس، نحن، ماذا نعمل؟ كسرونا قبل أن تعلن نتيجة انكسارهم. كاد أبو بديع يرفع كفيه ليدعو السماء: اكسرهم! تخاف من تقسيم البلاد؟ فلتأت العفاريت لتخلصنا من الأتراك! لمح خالد آغا نظرة أبي بديع إلى السقف فخمن دعوته. وأدهشه الخلل في روح أبي بديع. قال: سنترحم على أيام الدولة العثمانية! عندئذ لم يتحمله أبو بديع فقال: أكثر من القرد ما مسخ الله! محمد مات وتدبرت العباد!

في تلك البرهة فهم كل منهما أنه فقد الآخر. وفهم ذلك الحاضرون. فلم يحاول أحد أن يطلب من أي منهما أن ينسى صدامهما في المقهى. لو حدث ذلك بينهما فقط لربما سامح خالد آغا صاحبه. لكن ما حدث أمام الشهود يفترض العقاب. وكان خالد آغا يعرف أنه يعاقب نفسه أيضا!

غطى خالد آغا قهره بانشغاله بحملة الترعة. بدأ كل شيء كما قدره خالد آغا لاكما صوره أبو بديع. استقبل القادمون من تركيا استقبالا حماسيا في حلب وحماة وحمص. استقبلوا في محطة القطار في دمشق بزينات "لفاتح مصر". نزلت القيادة في فندق داماسكوس بالاس. فون كرايس ابن الأغنياء، عسكري ماهر خطط حفر الآبار ومد الطرق في سيناء. من يشك في الانتصار في هذه الزحمة من الموسيقى والعسكر واستعراض الجند وملابس القادة النظيفة المكوية؟! لكن خالد آغا فكر في الهزيمة. لا يجوز أن يبوح بذلك! آه، ما كان يجب أن تدخل الدولة الحرب. ورّطها فيها أنور باتفاقه مع الألمان! فلم يبق إلا أن يدافع الرجال عن الدولة. قالت نفيسة لنفسها: أخلاق الفرسان بعيدة عن زمننا، يا خالد آغا، لكنك لا تدرك ذلك! ربما لو ركضت مثلي خلف العربة التي أركبوا فيها نوري ليقتلوه كفراري لفهمت وجع أبي بديع الذي ساقوا ابنه! شعرت نفيسة بشفقة على خالد آغا وهي تستمع إليه. فهل الحزن على فارس يعيش في غير زمنه يجذبها إليه؟!

تفادى خالد آغا المقهى بعد فشل حملة الترعة، مع أن صاحب المقهى أقام العزاء بابن خالد آغا في مقهاه ثلاثة أيام. وقف صاحب المقهى مقابل الفيجة في سوقساروجا في انتظاره: هجرتنا يا خالد آغا! هز خالد آغا رأسه: نتشرف، نتشرف! سهّل الربيع بعده عن المقهى. صار يمشي على ضفة بردى حتى الربوة، أو يقطع بساتين الدور، أو يزور قبره في الدحداح ليسقي شجرة الليمون التي زرعها. ويزور أحيانا نفيسة كأنه يطمئن على منور. وانشغل قليلا ببهاء بعد حملة

الترعة. فحصت نفيسة خالد آغا متسائلة: أحقا يرعب هذا الرجل أولاده وأصحابه؟ وجدته وسيما، وخيل إليها أن هذا الرجل يخفي وحدته بمهابته. لا يجسر أحد أن يقترب منه لأنه لا يجد أندادا له! سمعت من أهل الحارة أنه فقد أقرب أصدقائه إليه. فقالت له: سيزورني إبن الكحال، ألا تسهر معنا يا خالد آغا؟ أقرباء، بيننا طبلة السطح فقط مع ذلك تشرفنا قليلا!

قال خالد آغا لنفسه مرة: كان يجب أن تأخذ أبا بديع بحلمك! لكنه بعد أول سهرة طويلة مع نفيسة وزوجها، قال لنفسه: لو بقينا مع أبي بديع لم نر نفيسة خانم! وأين السماء من الأرض!

عرفت نفيسة يومذاك خلاف خالد آغا مع أبي بديع. ما أصغر ذلك أمام مصائبنا! لكننا يا خالد آغا، نقاتل في هذه الأيام خيالنا في المرآة! رفع خالد آغا نظره إليها وتأملها. تتابعه هذه المرأة الرائعة وهو في المقهى! ألا يعوضه هذا عن فقده أبي بديع؟ لأجل نفيسة مر بالمقهى، شرب كأس شاي، ورد تحية أبي بديع. الحق مع نفيسة، في جميع الأزمنة سينشغل الناس بخلافات صغيرة وقت أزمات كبرى! خالد آغا يجب ألا يسقط في ذلك!

أرسلت نفيسة يومذاك إبن الكحال إلى أبي بديع ليلومه. هل تريد ياأبا بديع أن تفهم خالد آغا أن ابنه مات عبثا؟ ألا تفهم أن الدفاع عن الدولة يهدئ أهل من قتلوا في حملة الترعة؟ ألا يكفي أن خالد آغا ضيع ابنه، فهل يجب أن يضيع صاحبه أيضا؟

أمام بهاء دنيا مفتوحة. سيكون له من زوجته أبناء ينسى بهم موت أخيه. ولابد أن يشغله الآن فرح منور بعودته سالما. لكن خالد آغا فقد ابنا لن يسترده، ويفقد دولة، فهل يلزمه أن يضيع أصحابه أيضا؟ يوم مات ابنه شهاب كان أصغر عمرا، وكانت البلاد في أمان. لكنه اليوم وحيد وحزين، يفرج همه بالمشي في دمشق من أولها إلى آخرها. فهل سيفرح هذه الحارة أن تفقد خالد آغا؟!

قال إبن الكحال لنفيسة عندما رجع من المقهى إليها: مسكين أبو بديع! رجل بسيط يحمله خالد آغا أكثر مما يتحمل! كاد ينهض ليبحث عن خالد آغا ويطلب عفوه!

لم يقصد قدري دمشق إلا بعد أمن لسعيد عمل مدير عنبر فخلصه من السوق في الحرب. السعي لمنفعة القريب مرّ على قدري! مع أن القاعدة: الأقربون أولى بالمعروف! لكنه بعد موت فاطمة، ورحيل نوري مع الهجانة إلى العراق، قرر ألا يترك سعيدا يساق مع العسكر! سعيد من الرجال الذين سيأخذون مكاننا! يجب ألا تقتله الحرب! فليوزع سعيد القمح على المطاحن، وليكتب الشعر خلال ذلك أو يدرس!

سعيد وحده المحظوظ! فرقت الحرب أسرته. نوري في العراق. وبهاء في حملة الترعة. ومنور وحدها في دمشق. القدر؟ لم يكن سعيد يعترف به. آمن مع أصحابه بأن الشباب قادر على تغيير البلاد. وسندت ذلك الايمان اجتماعات الإصلاحيين في بيروت.

يجب ألا يضطرب سعيد! سيترنح قدري إذا ضيع سعيد مرحه. تهز الحرب الناس. فيحاول بعض الرجال أن يقطف ما فاته في الحياة. وينهار بعضهم من اليأس. ويتفكك آخرون كأنهم جبلوا من الرمال. الشباب أكثر تماسكا لأنهم محكومون بأن الحياة أمامهم! مع أن فرص الحياة والموت متساوية! احترم يا سعيد من بقي متماسكا. لا تلم بهاء لأنه ترك وظيفة مدعي عام لينفذ أوامر أبيه! لا تستبعد أنه يدافع عن الدولة!

لم يطلب سعيد من قدري أن يرسل تلغرافا إلى منور لتحضر. لا يحتاج قدري إلى من يوحي له بذلك. فكر بفرح يرد به على الحرب. وصل إلى منور تلغراف من قدري. ثم طرق بابها مأمور الخط ليرافقها إلى سمخ. أركبها في مقصورة نساء. أطلت منور من نافذة القطار فقال رجل: طلع القمر! قالت لها امرأة: يا بنتي، اقعدي في مكانك كيلا يحكوا عليك! يا للسفرة المتعبة! نامت منور لأول مرة في القطار!

في محطة سمخ وجدت سعيدا! بكيا. هل فهمت في تلك البرهة أن حبها له أقوى من حبها بهاء؟ وأنها تفهم الآن، بعد الزواج والفراق، أن ما بينهما ليس حب الأخوة فقط، بل الحياة التي اقتسما فيها الموت والحياة والسعادة والمأساة؟ خبأت

في عتمة قلبها خوفا من فقد بهاء في حملة الترعة. لكنها الآن، وبهاء قد عاد سليما، وسعيد موجود أمامها، لا تخشى شيئا. سيعود نوري، ولن يموت بهاء!

ركبا "الببّور" وأبحرا في بحيرة طبرية ليلا. في الطريق تبين سعيد كم كبرت منور. جرح ذلك فؤاده، فسرح في عتمة البحيرة. يكبر الناس يا سعيد بالسنوات؟ بل بالأحداث! في اليوم الذي جرت فيه منور وراء العربة التي حشر فيها نوري كبرت! في وداعه إلى العراق كبرت! وفي الوحدة كبرت! ولماذا لا تعترف بخوفها على بهاء، وبألمها من الفراق عنه؟ تخفي منور بكبريائها خوفها على الرجل المحبوب، فهل تغشك يا سعيد؟ فحص سعيد ملامحها ليقدر ماذا تغير فيها. كان قلقا على جمالها وأكثر من ذلك على عنفوانها. قال لنفسه: نحفت قليلا ففقدت غمازتيها. كانت تسحرني بهما!

اكتشفت منور موت أمها وقت دخلت إلى بيت قدري. على من تلبسون هذه الملابس السوداء؟ على الغائبة الوحيدة عن البيت! نفرت من قدري واندفعت إلى الغرفة التي رأت فيها فاطمة آخر مرة. وأغلقت الباب. بكت في قهر. بكت لأنها فهمت في تلك البرهة أنها اعتمدت على حب أمها لها كي تقسو عليها! ولأنها اعتمدت على أنها ستعتذر لها ذات يوم ولم يعد يوجد ذلك اليوم! بكت لأنها كانت تؤمن بأن أمها ستكون دائما موجودة، وستمتد الأيام حتى يخطر لمنور أن تعتذر لها عن قسوتها عليها يوم موت أبيها. ولم يعد يوجد أي يوم يجمعها! بكت لأنها فهمت أن استقلالها الذي تعتد به كسبته من فاطمة، وأن فاطمة لم تكن تحاسبها عليه بل على قسوتها! لماذا كررت لها مرات: لست نسخة منك! ألكي تفهمها أنها تتحاشى أن تكون مثلها؟ تكتشف منور الآن ما ضيعته! انشغلت عن حب أم مثل فاطمة بإعلان التمرد عليها!

دخل سعيد إليها عندما قدر أنه لن يبكي معها. وجرّ قدري معه: يا منور لن نعيد المأتم! هل تريد لك فاطمة الحزن أم أرادت لك الفرح دائما؟ تعالي، بنات الطبري ينتظرنك! فكري في سعاد. ألن تنوح إذا رأتك تنوحين؟

احتال قدري وسعيد كي يبعدا منور عن الحزن على أمها. اضطرا أن يفرضا نسيان فاطمة التي لم تنس في بيت قدري منذ موتها. يوم في الحمامات، ويوم في بيت الطبري. ويوم عند أقرباء شفيقة في عكا. ونزهة في حديقة البلدية. ونهار على شاطئ بحرة طبرية.

احتال سعيد ليعيد وزن منور كما كان. أشتهي السمك! سآتي أنا بالسمك من البحرة غدا! حضري لي يا خالتي صيادية! سأدعو صدقي الطبري. خالي قدري

دعا بنات الطبري إلى الغداء.

يزيد التجمع القوة ويصغّر المصائب! يريد قدري لهؤلاء الشباب أن يشعروا بالقوة. ويريد أن يستعيد دعوات الغداء التي تفيض فيها الأفراح. تبعد منور طيف فاطمة التي ماتت في هذه الغرفة. ويتظاهر سعيد بأنه نسي ذلك الموت. ويشترك قدري أيضا في هذه المسرحية!

قطفت شفيقة الخضار من البستان، وحضرت ما ستحيط به طبق الصيادية. طبخت يلنجي ضولما. تحبه منور! أكثرت من أطباق الخضار بالزيت. يحبها سعيد! فطائر بالزعتر، تحبها بنات الطبري! تفرجت على مجموعة الصبايا. لم تقدّر أنهن سيتخاطفن الفطائر. وغاب عنها أن منور اشتاقت إليها. تداخلت أصواتهن. هل كن يصغين حقا إلى ما يقلنه؟ أم كن راضيات بأنهن معا، وأنهن يأكلن أكلا طيبا، ويتحدثن؟ أطل صدقي وسعيد عليهن. ماذا أضحكهن؟ تركتهن شفيقة مستمتعات بالصحبة ومنعتهن أن يساعدنها في نقل أطباق الطعام. وغابت الحرب عن قدري وسط أصوات الصبايا، وكأنما غاب موت فاطمة عن منور. تتركه لنفسها لتمضغه في هدوء!

لكن إلى متى يستطيع قدري أن يتحدى الحرب؟ أعاد مأمور الخط منور إلى بيت نفيسة في دمشق لتلحق بهاء إلى بيروت، ورجع قدري إلى أخبار الحرب.

في المساء جلس قدري مع سعيد وأغلقا الباب. يا سعيد، يوم وصل فيصل إلى دمشق في آذار سنة 1915 في طريقه ليقابل السلطان وينقل له شكوى أبيه من والي الحجاز، اجتمع في السر برجال الحركة العربية في دمشق. بحثوا مصير البلاد، ورأوا أننا يجب أن نبقى مع تركيا إذا كانت للدول الاوربية مطامع في بلادنا. فإذا اعترف الإنكليز بحقنا في الاستقلال ملنا إليهم في الحرب! حمّل رجال الحركة فيصلا شروطهم وحدود الدولة التي يريدونها لينقلها إلى أبيه. يبدو أن أباه عرضها على الإنكليز، والمباحثات تجري هناك! يا خالي، صدق المثل، من تحت الدلف إلى تحت المزراب! من نير الأتراك إلى نير الإنكليز! قل لأصحابك إننا لا نقبل هذا المصير! نعم يا سعيد، أفضل لنا أن نبقى دولة شرقية! خلافنا مع الاتحاديين لامع الأتراك الوطنيين. دافعوا عنا في مجلس المبعوثين، هاجمهم الاتحاديون والدونمة كما هاجمونا. هذه الحرب لاقتسام الدولة العثمانية! لذلك أنا مع الأتراك! لكن الاتحاديين يقودون الحرب. معهم لا يمكن أن نتفاهم. هل احترموا اتفاقهم مع المؤتمر العربي الأول في باريز؟! حجتهم الآن الجهاد الأكبر! لكن لماذا دخلنا الحرب؟ خرب النفير العام البلاد. أخذ الجيش القمح

والـدواب والفلاحـين. انقطـع طريـق الفحـم الحجـري فقطـع الجـيش الشـجر ليوقـد القطارات! يجوع الناس!

التفت قدري إلى بحيرة طبرية. رأى قمرا ثابتا في وسط الماء. ثابتا في الماء ثبات هذه الأيام! ثبات قدري في بلاد تهتز! أين يبحث عن أسباب همه؟ في موت فاطمة؟ في الحرب؟ في حدسه أن ما بعد الحرب سيكون أسوأ من الحرب نفسها؟ هـل قـدري حقـا هـو الرجـل الـذي يسـهر مـع المغنيـات ويسـتملح الوجـه الجميـل والصوت الحلو والجلسة مع الوجهاء العرب؟ ماض انتهى! يحتاج أن يبوح لإنسان بهواجسـه. فهـل يرميهـا علـى هذا الشـاب؟ اسكت يـا قـدري، اسكت! احمـل الهـم وحدك! طال بينهما الصمت، وتابع سعيد نظرة قدري على ماء البحيرة. قمر في سماء صافية. بحيرة جميلة. أليس عجيبا أن تكون الحقيقة الأخرى المرّة هي الواقع لا هذه البحرة والسماء والقمر؟ يا خالي لديك شيء تخفيه عني؟ التفت قدري إليه. بينهما الموت والحياة، الأيام السعيدة وهذه الأيام، أهذا ما يؤهله ليستشف ما يفكر فيه قدري؟ يا سعيد، لدي بعض معلومات أكملها بالحدس. يتفق رجال العرب مع الإنكليز. يعني هذا أننا سننتقل من جانب في الحرب إلى جانب يعاديه. هل تقدر خطر ذلك؟ هذه آخر أيام الدولة العثمانية وأول أيام خريطة جديدة يرسمها لنا الاوربيون. أخذوا المغرب من الدولة العثمانية. والآن يأخذون المشرق! لديك يا خالي معلومات؟ هز قدري رأسه. نعم، يا سعيد! قلبي ثقيل! الدنيا حرب ولا مجال لأن يجتمع رجال العرب هنا. أرى الآن أن اليهود سيأخذون فلسطين!

في تموز 1915 بدأت اتصالات الشريف حسين بمكماهون. عرض الشريف مطالب العرب وذكر شروط "العربية الفتاة" وحدود الدولة العربية المستقلة التي يريدها العرب. أغرق مكماهون رسائله للحسين بالمراوغة والتزلف. "إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلّو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين.. أما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها". وضّح الحسين: "هدفنا يا فخامة الوزير فهو أن نطمئن إلى أن الشروط الأساسية لتأمين مستقبلنا ستبنى على أساس الحق والواقع لا على الإسراف في تنميق العبارات والألقاب". بيّن الحسين أن قضية الحدود مسألة أساسية: "ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن البرودة والتردد اللذين

ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت، وإن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها.. فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد.. وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا في تلك الحدود مناطق يقطنها شعب أجنبي.. وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصيا الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية".

قال قدري: المباحثات سرية. لا نشك في الحسين. لكن الخطأ وقع. الخطأ أن يتفق العرب مع الإنكليز! سيطعموننا وعودا ويحتلون بلادنا! ألم يحتلوا مصر؟ نسينا دنشواي؟ صادوا الحمام الذي يربيه الفلاحون فلما اعترضوا حاكموهم ونصبوا أربع مشانق في ساحة القرية. وكيف نفذوا الحكم؟! جلدوا الفلاح المحكوم بالجلد قرب الجثة التي نفذ فيها الحكم بالشنق! قصدوا أن يهينوا المصريين! هؤلاء هم من يفاوضهم العرب! هنا الخطأ!

بعد ذلك اللقاء في بيت قدري، رحلت منور إلى بيروت مع بهاء. رجع بهاء إلى وظيفته، واستأجر بيتا في الحرش اختارته منور. قال سعيد لقدري: ترك أهل بيروت بيوتهم ونزلوا إلى دمشق خوفا من قصف البوارج. في لبنان مجاعة. فما هذا الاختيار؟ بهاء مجنون، ومنور لا ترده! ومع ذلك، لسعيد بيت الآن في بيروت! سيزور أخته ويتعرف على محمد الجسر والدكتور بيسار. وعندما سيحتل الإنكليز فلسطين سيكون في بيروت!

بعد عودة منور إلى دمشق شغلت بيت قدري بيّا، اليهودية المغربية. فلينسنا العمل حزننا على فاطمة! غبت عنك يا ست شفيقة! الحرب! لم أنسك يا بيّا، مع أن البنات يكبرن كالقثاء في الليل! من أين هذا الطول يا بيّا؟ لعل في عائلتنا، يا ست شفيقة، رجل من الطوارق، طويل أسمر! ما شاء الله يابيّا، سمراء وحلوة! صرت أحلى مما كنت! قال قدري: وعيناك مثل عيون المها. تتغزل بها يا قدري؟ بل بالجمال الأندلسي. طردتم يا بيّا من الأندلس لأن العرب طردوا منها. ابن ميمون من تلاميذ ابن رشد! نظرت إليه شفيقة. يحاول أن يفهم بيّا أن الصهيونية هي التي تخلع اليهود العرب من مسكنهم العربي لتجعلهم مستوطنة غريبة؟ سألتها: كيف حال أمك يا بيّا؟ لم نرها منذ عزتنا بفاطمة! الحرب شغلت الناس يا خالتي الست شفيقة. تريدين مساعدة يمكن أن يقدمها قدري؟ لا يزال لدينا نصف تنكة الزيت التي أرسلتها لنا. قالت لي أمي روحي لعند الست شفيقة واعملي لها معكرونة وشعيرية مغربية. اليوم يا بيّا؟ لذلك بكرت يا خالتي الست شفيقة! تجاهلت شفيقة وقدري المرأة التي ترافق بيّا. اسمها يعلو مورينو. من لا يعرف يعلو من الرجال؟ تسأل الرجل عن الفتاة التي يريدها فيقول كأنه يصفها: سمراء، شقراء، "حشو جلدها"؟ لا تفهم الست شفيقة كيف تصادق بيّا المحترمة يعلو غير المحترمة! هل فات بيّا ما تقوله الست شفيقة بينها وبين نفسها؟ قالت: يعلو تساعدني!

انصرف قدري وصار البيت ملك النساء. حضّرت الست شفيقة وزوجة قدري، السميد والبيض والسمن. وأخرجت بيّا من كيسها قضبانا رفيعة كقضبان الشمسية. ستعجبك يا ست شفيقة! أفيلو! تستعمل بيّا كلمة أفيلو محطة في كلامها، ولا تستوقفها شفيقة لتسألها ماذا تعني. اعملي ما يحلو لك يابيّا، وسنأكله من يديك! خفقت بيّا البيض مع الكربونات والملح والسميد وقليل من الماء وعجنتها. رقّت العجين على الطبلية. تناولت السيخ ودهنته بالسمن وأدخلته في العجين. وسحبته يعلو. طلبت شرشفا أبيض نظيفا وقالت: نحن مثلكم نحب النظافة! نعم، أم بيّا نظيفة. هل تقول لها شفيقة المثل: كل عند يهودي ونم عند مسيحي، إشارة إلى الأمان عند المسيحيين؟ لا، لن تجرحها. أهل بيّا من اليهود

الذين يحبون العرب. أتوا إلى طبرية ايمانا بقدسيتها لا ليعلنوا دولة فيها! مدت على الشرشف معكرونة مدهشة. قالت: والآن سأعمل لك تفيلاّ. يعني شعيرية للشوربا. أخرجت من كيسها عصا كالتي يلفّ عليها التجار الحرير تسميها نشابة، ضربت العجين بسكين حادة ورشت ما يسقط على الشرشف. يجب أن يجفف! وقت الطبخ اسلقيه ثم صفّيه ثم اخلطيه بالسمن واللحم والبصل. وكليه بالهناء.

زوج بيّا تاجر غني. لكنها ستعود إلى شفيقة كلما نفدت الشعيرية والمعكرونة من الكيس الخام الذي تخزنها فيه. تسألها: فرغ الكيس؟ وتفهم شفيقة أنها ستأتي لتمونها بها.

آه يا بيّا! نزوركم في الأعياد وتزورونا في الأعياد. تدعوننا إلى أعراسكم وندعوكم إلى أفراحنا. منكم من سيأسف على هذه الأيام إذا نفذ ما يراد من الحرب. لكن بعضكم باعنا يا بيّا. هل ننسى نعيم العسل! وبرو العطار؟ يأتي الناس إليه ويستشيرونه. فهل سيكون مثله؟ ما أصعب أن يتساءل الإنسان في بيته عمن معه ومن ضده! لذلك يقال يا بيّا "حرامي البيت ما بينّطر"!

انشغلت شفيقة بسعدة، مع أنها يجب أن تهنئ زوجة الحاخام بعيدها! شردت أم سعدة في الحرب مع الشاردات. فاستدعتها شفيقة: سمعت أن صاحبك المصري أعطى بنتك لرجل يعتدي عليها! وصل إلى الناس صراخها ونقلوا لي ذلك! حرام عليك، سعدة طفلة! سآخذها منك وإلا سأعرف إلى أية داهية أرسلك! يا ظالمة كم عمرها؟ تسع سنوات؟ تناولت شفيقة الكفكير وضربتها به. ناولتها زوجة قدري عصا لكنها قالت: يكفيها! هات البنت اليوم! فهمت؟ اليوم!

أخذت شفيقة سعدة إلى مستشفى تورنس. داوى كدماتها وقال لشفيقة: اعتدوا عليها! يا ويل الظالمين! لو رأت شفيقة أم سعدة الآن لضربتها بالعصا!

أدخلت سعدة الحمام وغسلتها، ألبستها ثيابا نظيفة، أجلستها إلى جانبها وقالت: يا أولاد هذه بنتي، مثلكم! فهمت يا سعاد وأنت يا سميحة؟ وإذا أتى أحد ليأخذها من هذا البيت اكسروا رجله!

خربت الحرب البيوت. في البلد جوع وعسكر. عين شفيقة على سعاد وسميحة، والعين الأخرى على بنات طبرية. فهل تستطيع أن تقاوم الجوع الذي يوصل الجميلات إلى الضباط، والصبايا إلى العسكر؟ طلبت من أصحاب قدري ومن معارفها أن يدلوها إلى الجائعات والوحيدات. قالوا: ما أكثرهن! هل تستطيعين أن تنقذي بلدا! ردت: ما في الإمكان أعمله! جمعت عشرين صبية في بيتها: الشرف يا بنات قبل كل شيء! قالت لها أصغرهن: نريد أن نأكل! تعطي تلك الصغيرة درسا لشفيقة؟! قالت: اخدمن! قالت صغيرة أخرى: لا نجد خدمة! قالت: العمى! يأتي إلى طبرية أهل الرملة واللدّ ليشتروا رطل سمك بقرشين ويدارون به الجوع. سمك طبرية أطيب من السمك البحري، المشط والسردين والبربوط! أنتم من أهل طبرية، اركبن "الشختورة" وصدن السمك! صمتن. يا خالتي ترشين على الموت سكّرا! فكرت معهن في مشروع. قالت: نعجن الخبز ونبيعه وتنلن لقمتكن حتى يفرج الله الكرب! همست سميحة: تعطي الناس ولا تعطينا! اخرسي! ضاقت عينك بمن لا تجد من يكسوها ويطعمها؟ لا تقدرين النعمة التي تعيشين فيها! قال لها قدري: لا ترين من البؤس، يا شفيقة، إلا ما

يصل إليك! ياقدري، أحاول أن أسند الخير وأمنع الشر! طلبت من بيت الطبري أن يساعدوني!

خرجت شفيقة لتهنئ زوجة الحاخام باشي بعيدها، بعد أن اطمأنت على سعدة. الواجب، واجب! يهنئوننا بعيدنا ونهنئهم بعيدهم! بينها وبين زوجة الحاخام عشرة طويلة. لا تجهل إحداهما أن قدري كاد يتزوج يهودية. وأن بعض عائلات طبرية زوجت أولادها من يهوديات عربيات. في طبرية يختلط اليهود العرب بالمسلمين العرب.

لم يذق يهود طبرية الخمير أو السمن أو اللحم أو اللبن والحليب طوال الصيام. عاشوا قبل العيد أسبوعا على خبز خاص. أخرجوا أثاث البيت وغسلوه، دهنوا البيت وسدوا الثقوب الصغيرة كيلا تسحب النملة خميرة. ثم خبزوا خبز الفطير. وأرسلوا بعضه بركة لأصحابهم. فتناولت الست شفيقة ما أرسلته لها زوجة الحاخام، خبزا رقيقا كالورق يذوب في الفم. مستديرا وكبيرا. أرسل قدري وأصحابه المسلمون لجيرانهم اليهود الخس واللبن والفواكه والبصل الأخضر، ليلة انتهى الصيام واستعدوا للعيد. زارت شفيقة عائلة مردخاي، ثم بيت الحاخام. بيته طابقان، تحتهما قبو، كبيوت العرب في طبرية. لكن طعامكم ليس كطعامنا! لا نجمع يا ست شفيقة روحين! لا نأكل الدجاج واللحم، ولا نقلي البيض بالسمن. قالت شفيقة: ربما ذلك أخف على المعدة! تعرفهم. يطبخون عصر الجمعة قبل دخول السبت. في قدر من الفخار يرسلون الحميم، الكوسا والحمص والباذنجان، إلى الفرن. تصطف القدور في الجمر. يتناولون القدور يوم السبت. لا يشعلون حتى الكبريت! ويشربون الشاي والقهوة التي أعدوها قبل يوم السبت. يوم السبت "لشم الهوا". تلبس اليهوديات ملابس جميلة، ويتنزهن في الشارع. فتقول شفيقة لزوجة الحاخام: صار الشارع أجمل! لكني لا أتحمل السكناج الغرباء! متعصبون! هؤلاء سيخربون البلد!

حكت شفيقة لسعيد عن زيارتها. استقبال حلو. لكن زوجة الحاخام قالت لي مرة أخرى يا ست شفيقة، اليهود مدللون عند الرب. والدنيا أولها يهودية وآخرها يهودية! سألتها، يعني لا تريدين حتى أن نتقاسم آخر الدنيا؟! اسمعي، أخشى أن تتكري حقنا في بلدنا إذا كنتم تتكرون لنا الحق في الآخرة! أجابتني، ولو يا ست شفيقة، أنتم الأصل! فقلت لها، إذا لم يدخل الغرباء بيننا! ضحك سعيد: لم تقصري! لكن انتبهي يا خالتي! صار اليهود يملكون السوق! قال لي الشيخ طاهر الطبري، وكنت مع صدقي، ألم تلاحظ أن يهود طبرية فقط يطبعون ورقا

بالسحتوت؟ وما هو السحتوت! خمسة منه تساوي متليكا! مع ذلك إذا بقي لك ستحتوت عند تاجر يهودي لا يرده لك بل يعطيك ورقة مكتوب عليها "سحتوت"! نحن لا نهتم بالسحتوت. لكن احسبي كم من السحاتيت يجمعونها منا!

دخلت سعاد فاستوقفتها ملابس شفيقة: ما أحلاك يا خالتي! تنهدت شفيقة. لم تعرف سعاد شفيقة في شبابها، يوم كانت "على الموضة"، تلبس المشد، وترخي شعرها الطويل حتى خصرها! ما أسرع ما لفّت كل ذلك بملابس طويلة بعد وفاة زوجها بالسل، كأنه ليس حقها! دارت سعاد حولها. يظهر ثوبها الأزرق قامتها الممشوقة. أين اختبأت تلك القامة في الأيام التي تلبس فيها ثياب البيت الواسعة، وتخفي شعرها بمنديل! ما أحلاك يا خالتي! قال سعيد: يا خالتي يبدو أن العيد ليس لليهود بل لنا! لنراك حلوة! اسكت يا سعيد، اسكت! ضحك سعيد لأنه وفق في أن يحرجها! من يجسر أن يمازح شفيقة التي يحترمها الشيخ عبد السلام الطبري نفسه، ويزورها! يهديها كل عيد عشر ليرات عثمانية فتقبلها احتراما له. يقدّر أنها تنازلت له عما كتبه لها زوجها، كيلا تقسّم أملاك العائلة! تعيش من مالها، لا تحتاج حتى أخاها! لديها ماعز وبقر توزع يوم الجمعة حليبها عن روح زوجها. فيهمس سعيد لقدري: تبقي زوجها صائما على الحليب والبيض!

عندما وصلت منور إلى بيروت كانت إصلاحات الوالي عزمي بك قد هدمت بعض أسواقها وحاراتها القديمة. نظمت بيروت من ساحة البرج وباب إدريس حتى البحر! وامتد شارع بين باب إدريس وباب السراي. وكان شارع البرج يمر بمقهى الزجاج الذي يحكي فيه الحكواتي. هدمت جوامع وبيوت قديمة وكنائس كي تمد فوقها شوارع حديثة. لكن الصنايع والسراي بقيتا بجمالهما. وبقيت بيوت عين مريسة ذات الواجهات الزجاجية الملونة. بقي قرميد بيروت. مشت قرب البحر، تفرجت على البيوت، وعبرت الحارات، ورددت: يا للمدينة الجميلة! لولا الحرب! كانت اليسوعية قد أصبحت كلية عثمانية. وكان أحمد عباس قد نفي من بيروت.

غطت منور أذنيها باللحاف. لكن النداء الواهن بقي في أذنيها: جوعان.. جوعان! نداء رجل؟! نداء امرأة؟ نداء طفل؟! همست: الله يجعلك حطبة في جهنم يا جمال باشا! هل تسمع سعاد التي وصلت من طبرية اليوم هذا الأنين؟ التزمت سعاد وقدري وشفيقة وسعيد بأن يكتموا عن منور موت أمها زمنا؟ ما رأته منور في بيروت جرف أي موت سبقه!

زرعت منور في حديقة بيتها باذنجانا وبندورة وكوسا، خيارا وخسا، بقدونسا ونعناعا. زرعت كل ما يمكن أن يؤكل. قلعت بعض شجيرات الورد. باعت ست أساور سحب، وأربعة أزواج من المباريم، وسوارا فخما عليه عصفور أتى لها به ميخائيل حبايب من بيروت. باعت أقراطها وأطواقها، هدايا أبيها وهدايا عثمان باشا، لتشتري زيتا وزبدة وسكرا وتمرا وشايا. لم تستعمل الزيت إلا وقت الضرورة. قالت سعاد لأختها: كل يوم باذنجان مسلوق؟! غضبت منور: ماذا تأكلين عند الست شفيقة في هذه الأيام؟! هنا يكفينا ألا نموت من الجوع! سأريك المجاعة في بيروت! تعالي معي إلى السوق!

نزلت سعاد معها. رأت في الطريق رجالا ونساء وأطفالا يفتشون القمامة عن قشور يأكلونها. استرقت منور النظر إليها وهي تراقبهم. دخلتا إلى سوق الهال. عبرتا بابا كبيرا من الحديد. على الطرفين دكاكين مرتبة، نظيفة مثل الفل. اشترت منور بطيخة حملتها ومشت. فتبعتها مجموعة من الأولاد والنساء. ارتعشت سعاد.

يرجوننا أن نعطيهم قشور البطيخة! انتظروا القشور أمام الباب. قبل أن تخلع منور "البيريلين" قصّت البطيخة، وناولتهم قشور البطيخ وحزّين من البطيخة، وضعتها في كيس مغلق. ألم تهجم النساء على السوق منذ أيام؟ لاحظت سعاد أن أختها تركت جزءا من اللب مع القشور.

رأيت يا سعاد خانم كيف يعيش الناس في بيروت؟! لم تري كل شيء بعد! جمعت العربات، وأنت بعد نائمة، الموتى من الطرقات. صادرت الحكومة الحبوب والبقر والخرفان والحمير والخيل في أول الحرب. وأتى بعدها في سنة 1915 الجراد فأكل ما لم تأكله. وأتى في السنة نفسها حر وجفاف. وحاصرت السفن الحربية الإنكليزية والفرنسية الشواطئ فمنعت الرز والسكر. في سنة تلك الكوارث منع جمال باشا تصدير الحبوب من سورية إلى لبنان. فسافرت مع بوليس الخط إلى دمشق. دبر لي خالد آغا كيسا صغيرا من الطحين. وضعه في حقيبة ثياب خوفا من أن يهجم الناس عليه وعلي. وأوصى بوليس الخط أن يفتح عينيه.

مشت منور في بيروت، مع أنها تعود إلى البيت كل مرة غاضبة. تتفقد المدينة مثل خالد آغا؟! في الطريق رجال هائمون يرجون الموت بعيدا عن بيوتهم، كيلا يراهم أولادهم أو كيلا يروا جوع أولادهم. من التربة في الباشورة إلى الهال أطفال وشيوخ، رجال ونساء على طرفي الطريق يقولون في وهن: جوعان! لم تبق فيهم قوة كي يسطوا على سوق أو مخزن أو بيت! حبست منور دموعها وأسرعت إلى البيت. تناولت كيسا صغيرا من الخام حشت فيه الطحين وخرجت إلى الرجل الذي رأته يمسك بشجرة ثم يهبط إلى الأرض. مدت له الكيس فرفع نظره إليها كأنه يقول: ماذا أفعل به؟ حدقت في عينيه وخيل إليها أنها ترى الموت. الحياة هي بريق العينين إذن! تعطيه ثروة، لكنه أضعف من أن يتناولها! فات الوقت! كيف رآها الناس؟ تجمعوا حولها. خطف واحد منها الكيس. لابد أنه أقواهم! لم تغضب. فالضعفاء قد تجاوزوا فرصة الحياة. لم يبق لهم إلا الموت.

تخرج منور كل يوم بنفسها إلى الأفران. لبهاء من كل فرن رغيف يوميا. امتياز لا تستطيع أن تلغيه. تتاجر نساء زملاء بهاء بتلك الأرغفة. ثروة! يشترين ذهبا وبيوتا. يعرض مقابل الخبز أثاث البيوت، الحلي التي أهداها الأزواج والمحبون، كم في البيوت من ذخائر انتبه إليها الآن فقط أصحابها ومشتروها! يبحث الناس عن أي شيء يمكن أن يبيعوه. نزعوا نوافذ بيوتهم وباعوها، نزعوا القرميد من السطوح. يأخذ التجار كل ذلك. يقبلونه! أيام الجوع هي أيام جمع الثروة! لكن منور تترك لبيتها رغيفا واحدا وتوزع أرغفة الخبز التي تأخذها من

أفران بيروت.

قالت لها سعاد: يا أختي، بيعي بسعر السوق ولو رغيفا! صرخت منور: أتاجر بالخبز مثل والي بيروت؟! لولا أنك أختي لضربتك! أجلستها أمامها: اسمعي! تصل من برلين إلى سورية قطارات محملة بالأغذية. يستلمها المتنفذون في الدولة ويبيعونها للتجار، ويبيعها التجار بسعر السوق! المتنفذون في الدولة هم الشركات الحكومية والسماسرة! موظف الدولة الكبير تاجر. لوالي بيروت علي منيف بك شركة مساهمة تتناول المواد الغذائية من القطارات وتوزعها على التجار فيبيعونها بسعر السوق. يسرق موظفو السكة الحديدية بعض التموين من القطارات ويبيعونه للتجار، فتنزل بسعر السوق! فهمت ما هو سعر السوق؟ حتى العسكر جياع. أمس نزلوا إلى السوق وخطفوا ما يعرضه الباعة. وهل هذا الخبز الذي آخذه من الأفران خبز طحين؟ الله يعلم مم هو! رغيف الشعير الأسود بنصف ليرة. الرز والسكر واللحم للثري. وفوق ذلك التيفوس. لا يساعد الناس الآن إلا الرحمة. توزع البطركيات الأكل على الجياع المسلمين والمسيحيين. باع غريغوريوس حداد صليبه الذهبي، باع الياس حويك صليبه، فتح المطران بولس عواد مطاعم للجياع. توزع مطرانية الموارنة مساعدات وصلت من فرنسا. أنا بنت البلد لا أوزع ما أستطيعه؟! بنات مثل الريحان يبعن أنفسهن للضباط الأتراك كي يأكلن لقمة! بنت مثل التفاحة بنصف رغيف! امرأة مثل القمر بجراية خبز أو طنجرة عدس! في الجبل قرى فرغت من أهلها! ماتوا! يسهر الأحياء على ضوء السراج. وجمال باشا يسكن في قصر تاجر من التجار بقوت الناس. يقيم له فيه سهرات مع نساء معطرات ورجال منافقين. زمن زفت! لو أستطيع أن أقصه من عمري وأرميه! وفوق ذلك يموت الأرمن على طول الطريق بين دمشق وبيروت! لم تسمعي عن ذلك؟ احمي يا سعاد الرحمة في قلبك! الرحمة، فهمت؟!

مقابل بيت منور، بيت ماري وبناتها. زوريهم يا سعاد. أمل في عمرك! أصغر صبايا ثلاث! زارتها سعاد. وقعت من جيب سعاد خمس مجيديات. حدقت فيها أمل. رجتها: أعطيني إياها! قدمتها لها. أي فرح مجنون غمر الصبية! اختصرت سعاد زيارتها مرتبكة. بعد أيام قطعت الطريق إلى بيت أمل. فسمعت أمها ماري تدعو رجلا من الطريق: "تعال انبسط، عندي بنات"! غضب الرجل: عيب عليك! تدعين رجلا إلى بناتك! يعرفها؟ ردت ماري: منذ ثلاثة أيام لم يأكلن! وزوجي مفقود في الحرب!

رجعت سعاد إلى بيت منور لتبكي. لم تحترم تقاليد فاطمة في حبس الدموع!

سمعت منور بكاءها. ما بك؟ رددت: أريد أن أعود إلى خالتي في طبرية! لماذا؟ لم تتحملي الجوع؟! لا، لا أتحمل أن أرى..! بكت مرة أخرى!

رفعت منور الغطاء فوق أذنيها لكنها بقيت تسمع أنين الجياع. يا منور انتبهي، هذا صوت آخر! انتبهي! صوت حركة في المطبخ. رفعت رأسها. نعم في المطبخ شخص. نهضت في هدوء وأطلت على المطبخ من بعد. رأت رجلا يغرف من كيس الطحين. نظرت إليه وقاسته. وزنته. فقير! جائع، لكنه لازال قويا يستطيع السرقة! رأته يعبئ كيسا. عدّت ما يغرفه بكفيه! قالت: يكفيك! لم يلتفت. حمل كيسه وقفز من النافذة. نهضت سعاد على الصوت وسألتها: حرامي؟ أجابتها منور: محتاج! لا تقولي كلمة عنه لبهاء!

في الصباح حمّلت منور أختها حزنا آخر! قالت لها: تعالي معي! مشت منور إلى الصاغة. عرضت على الصياغ سوارا من الذهب فيه فصان كبيران من الزمرد، وقرطي المرجان اللذين أهداهما عثمان باشا لمنور، وخاتما من البرلنت. قالت لها سعاد: هذه الصيغة من أمك وأهلك! ذكرى! قال لك عثمان باشا يوم أهداك هذا الخاتم: البسيه وأنت كبيرة! وهذان القرطان البسيهما الآن! ناداك يا نوّارة، يا أم الوجه المدور! صرخت منور بقسوة: اخرسي! تجرح قلبها كل حلية تببعها. تقدم للبائع ذكرياتها، أطياف أهلها، الأيام السعيدة التي عاشتها. تتذكر الكلمات التي رافقت كل حلية. فهل تحتاج أن تفتح سعاد جروحها؟ لم تغضب فقط على سعاد بل شعرت بالخوف عليها وبالخوف منها. قالت لنفسها: ترى الناس جياعا وتبكي عليهم، لكنها لاتفهم أن المجاعة ترمي علينا أيضا عتمتها.

رأت سعاد الناس يبيعون بنصف رغيف وربع رغيف لا بالمال. لكنها رأت منور تشتري بالمال زيتا. في فرن الشباك زحمة حيث يباع اللحم بالتقنين. عادتا. قالت منور: لكن الضباط الأتراك يأكلون اللحم والمعلبات! والأغنياء يشترون بالخبز بيوت الناس! قطفت منور من الحديقة باذنجانا سلقته، وضعت فيه قطرة زيت، وقطفت ليمونا عصرته فوق الباذنجان المسلوق. فرمت نصف بصلة رشتها فوقه. هذا هو الطعام اليوم! قالت سعاد لها: لن آكل! صرخت منور: اضحكي في عبّك، لدينا خبز! أكلت سعاد لقمة وقالت متذمرة: يا سلام! أكل طيب لكن لا تعيدي طبخه! رفعت منور يدها وصفعتها. ونهضت وأغلقت على نفسها الباب. بكت؟ عضت المخدة كيلا يسمع أحد بكاءها وصراخها! تعرف سعاد أن زملاء بهاء يشترون بنايات بمثل الخبز الذي توزعه منور. لكن بهاء يتركها توزع خبزه راضيا. لا تستطيع إلا ذلك. لماذا تبكي؟ على نفسها؟ لأنها لمحت في قلب سعاد

غولا؟ لماذا اقترحت سعاد عليها وهما عائدتان من الصاغة أن تبيع بعض أرغفة الخبز لتشتري لحما وسمكا وزبدة وزيتا! بل قالت لها: حقك أن تشتري بيتا! اتركي نصف أرغفة الخبز لنفسك ووزعي نصفها!

مسحت منور دموعها وخرجت من الغرفة. لم تجد سعاد. بحثت عنها في البيت. لم تجدها. سألت عنها الجيران. لم يروها. فبدأت تبكي وتناديها: يا أختي، ياحبيبتي! كانت سعاد تستلقي تحت السرير لتلوع أختها. قررت أن تبقى هناك حتى عودة بهاء في الليل. ستخرج عندئذ وتقول له: أعدني إلى طبرية! غفت على طراحة مدتها تحت السرير النحاسي الذي ينسدل من طرفه شرشف مطرز. عبر الضوء تطريزه إليها. صحت على بكاء منور. فخرجت من مخبئها. عانقتها منور: لماذا تفعلين ذلك بي؟ لماذا؟ لا يكفيني قهر الدنيا؟ اعترفت إذن بأنها غير سعيدة! قالت منور: لا تتحملين بيروت في الحرب! يجب أن تعودي إلى طبرية!

نعم، ما الذي يبقي سعاد في بيروت؟ ستعود إلى طبرية. ستهرب من بيروت. يكفيها ما أكلته من الباذنجان المسلوق في بيت منور! ستعود من بيروت وقد قررت ألا تجوع أبدا. لن تكون مثل منور التي لا تفكر في غدها! ستحسب سعاد دائما حساب الغد الذي لا يؤتمن في هذه البلاد المظلومة! أنت حرة يا سعاد! بيت قدري في طبرية أكثر رحمة، عيشي فيه! لكن قبل سفرك ساعدينا بكيس طحين من دمشق!

ضيعت الحرب سحر السفر بالقطار من دمشق إلى بيروت! جرح منور وسعاد تكبّر الضباط الأتراك، وبؤس الناس! استدارت سعاد كيلا ترى الأرمن الناجين من المذابح في تركيا على طرفي الطريق. وفتحت منور عينيها لتحفظ ما تراه. أدهش سعاد أن أختها تتأمل أحزانا جديدة، ورغم ذلك تندفع في الحياة. نظرت إليها: كيف تتحملين الحياة في بيروت؟ ردت منور: لديك مدن أستطيع الرحيل إليها، يا سعاد خانم؟ عشت أنت في حضن أمك وأبيك، ثم عشت في حضن خالك وخالتك! أنا هنا وحدي! وحدها؟ نعم، حتى في البيت! بعد أن اكتشفت تلك الصورة بين أشياء بهاء. التفتت منور عن سعاد وسرحت في السعة التي تمر من نافذة القطار.

أرعش سعاد أن الحرب دفعت الأمهات إلى بيع أنفسهن وبناتهن؟ لكنها لا تفهم أن هذا الوضع يقدم لبهاء خيارات لا تعدّ. لم يقبل الجائعات. من العفة. لكن لابد أنه قبل النساء المعروضات في بيوت فخمة على الضباط والموظفين الأتراك! تنتعش هذه السوق أينما وجد الضباط والحرب! تمتلئ بيروت بالجميلات المعروضات! هل أنت موقنة يا منور؟ ألا تظلمين بهاء؟ لا، لا! رأت صورة امرأة في ثياب داخلية على "بلورة" تصوير بين أشيائه. أعادت "البلورة" إلى مكانها. قالت له فقط: رتب أغراضك كي نمسح الغبار عن الطاولة! تعرف الآن أين يقوده هوى التصوير! وتعرف أنه يتمنى لو حدثته عن تلك الصورة، لو غضبت وقالت له لا تقترب من النساء! لكنها لو قالت له ذلك لما غفرت لنفسها تلك المهانة أبدا. يحبها بهاء، لاشك! لكن كأنه ينتقم من ذلك الحب، أو يكمله، بنساء أخريات يقلن له ما لا تقوله له منور، ويفعلن له ما لا تفعله. هل خمّن أنها رأت "بلورة" التصوير؟ لذلك صار يجد الحمام جاهزا كلما وصل إلى البيت؟ كأنها لا تريد أن يبقى فيه أثر رائحة غريبة! ماذا تعرف سعاد من كل ذلك البحر الذي تحاول منور ألا تغرق فيه؟ لا أحد تلجأ إليه أو تستشيره. ويخجلها أن تكشف جرحها! لو كانت أمها حيّة وبيت أبوها مفتوحا أكانت تبقى مع بهاء؟ نعم! تكبس ملحا على الجرح وتسكت. وترد ردها المتعالي كما تفعل الآن، فتجعل بيتها أجمل من البيوت التي يمكن أن يعرفها بهاء، وتلبس ثيابها الجميلة، تعاقبه بالهجر، وتجعله هو الغيور

عليها لا هي الغيورة عليه. تحول ضعف المرأة التي لم تنجب ولدا إلى حرية. وتجعل بهاء وسط جوه الواسع كأنه مخنوق، وهي التي تطير في سماء حرة بين عائلات بيروت. هل خمن زوج إحدى صاحباتها أن بهاء يعرف نساء غيرها لذلك قال لها أمام زوجته: يا منور خانم، أنت جوهرة معلقة في عنق من لا يستحقك! ردت: بهاء قريبي، وأتمنى لو عرفته حقا!

انتظرت العربات الضباط الذين نزلوا من القطار في دمشق. لم تجد سعاد ومنور عربة. فمشتا إلى بيت نفيسة في سوقساروجا. تلفتت منور طول الطريق. لا ترى بؤسا، بل تلمح الأوهام بالانتصار! لا موتى من الجوع في الطرقات! في بيت نفيسة شعرت بالأمان. آه يا عمتي، كم تختلف دمشق عن بيروت، رغم الحرب! تكاد منور لا تعرف كيف تأكل وكيف تمشي! نسيت يا عمتي كيف يعيش الناس في أمان!

سيغضب خالد آغا إذا عرف أننا أتينا وحدنا من بيروت إلى دمشق؟ طمأنتهما نفيسة: نقول له إن بوليس الخط أوصلكما! تأملتها منور: تعرفينه كأنك من أصحابه يا عمتي؟ أدهشها أن تهز نفيسة رأسها موافقة في جدّ. أريد كيس طحين! يا منور، يجب أن تقدمي له أولا واجب الاحترام، ثم سنطلب مساعدته!

رحب خالد آغا بنفيسة أكثر مما رحب بمنور. سأل منور عن بهاء وانصرف إلى حواره مع نفيسة، كأنه يكمل حديثا انقطع بينهما. استرقت منور النظر إليه. ماذا تغير فيه؟ ماذا؟ قالت لنفيسة: مازال قويا، مهيبا، يسحرنا بسلطته فلا نجسر على الكلام أمامه، لكن الحرب جعلته عاجزا! يا حزن خالد آغا لأن من عاش معه لم يفهمه ولم يقدره، يا منور!

حكت سعاد لنرجس عن بنات ماري عندما كانت منور ونفيسة في زيارة خالد آغا! قالت لها: أمل مسكينة. انتقلت مع أهلها إلى دمشق وأعطتني عنوانها. أريد أن نزورها! هل ترد نرجس طلبها؟ قالت: تقبريني، هاتي العنوان! مشتا بين الحارات، عبرتا العقيبة والقزازين. ما أسهل المشي في دمشق بين الحارات! تكون في أول المدينة فإذا بك في آخرها. اشترت سعاد "دوندورما". ذلك ممتع وغريب بعد بيروت! هاهو البيت، على الحافة بين القيمرية والقصاع. انفتح الباب. رأت سعاد أكبر بنات ماري الثلاث جالسة مع رجل خلف طاولة عليها كؤوس وزجاجات. أية ملابس تلبسها! استدارت نرجس: أستغفر الله! لكن الفتاة نهضت إلى سعاد. أمل؟ ماتت يا سعاد! تأملت سعاد الحمرة والزرقة التي تلون وجه الشابة. وخيل إليها أنها كبرت في شهر عشرين سنة. لم تدعها الشابة، وهي أيضا

لم تدخل. كانت نرجس تمسك بسعاد بقوة. نزلت سعاد السلم ونرجس تتبعها. في نهايته رآها صاحب دكان يجاور البيت. قال لها: ماذا تفعلين هنا يا صبية؟! هذا بيت وسخ! إذا رأيتك هنا مرة ثانية كسرت رجلك! سمعته نرجس. جدي لعب بعقل تيس، يا سعاد! أنا التيس! ظننت أن ماري وبناتها أتين ليشتغلن هنا؟ ماذا يجدن غير هذا الشغل! هذه أيام حرب! إياك أن تحكي عما حدث لنفيسة أو منور!

لا حاجة لأن يشعر خالد آغا بأن نساء عائلته المدللات يحملن ما لا يستطيع الرجال حمله! فيسافرن من بيروت إلى دمشق لينقلن كيس طحين بإذن خاص، وهو جالس هنا في دمشق وابنه بهاء في بيروت! في المصائب تأخذ النساء مكان الرجال! لا تعترف بذلك، يا خالد آغا، كيلا تشعر بأن زمنك انتهى. وأن مهابتك كالصورة على جدار، ذكرى من زمن جرفه زمن آخر ورجال آخرون. رميت البلاد في حرب دون رأيك، قادها رجال لم يكونوا موجودين عندما كنت ذا نفوذ وصولة. وتخرج نساء أسرتك إلى الخطر دون رأيك. انتهى زمن يا خالد آغا وأنت تحاول أن تمسك بذيله!

فلتكن نرجس فقط الشاهدة على هذا السفر! ساعد مأمور الخط منور وسعاد وستر كيس الطحين. عندما سار القطار لم تمد سعاد رأسها من النافذة كما كانت تفعل أيام السفر مع أمها وأبيها. وتفرجت منور من مقعدها على البساتين التي عبرها القطار، على أشجار الحور وأشجار الجوز، على السواقي والنهر، وسرحت صامتة في عالمها السري. هل كانت مستسلمة للوحدة التي يشعر بها من نجح في مهمة صعبة اختبر بها قوته لكنها جرفته بعيدا عمن حوله؟ في البرهة التي استقرت فيها في مقعدها كانت راغبة عن السفر إلى بيروت، راغبة عن كيس الطحين. لم تستطع أن تمسك بطيف حياتها القديمة السعيدة في دمشق. تسند الذكريات الإنسان. لكني لم أستطع أن أقبض عليها! وبيروت، حياتي الراهنة، تغطيها الحرب! نعم، يجب أن تعود سعاد إلى طبرية، لتسند نفسها بأهلها!

وجدت سعاد الست شفيقة تنخل الطحين. قالت لها: نعمة، الطحين موجود، ونحن نعجن خبزنا! يجوع الناس في لبنان؟ لذلك ارفعي قطعة الخبز إذا وقعت على الأرض، قبليها وضعيها على جبينك، يا سعاد! إلى متى سيظل أهل هذه البلاد يقدرون الخبز كنعمة ويرفعون قطعة الخبز إذا وقعت على الأرض إلى جباههم؟ أيكررون ذلك حتى تنسى أيام الجوع؟! قالت شفيقة: الله يعين الناس! يدفعون حتى ثمن رقعة الثوب. رأيت نساء يغسلن ملحفة في بحيرة طبرية كي يكفنوا بها الميت! انقطع الكاز عنا. لكننا ندبر أنفسنا! عدنا إلى الزيت! ألم تقرأي

دروسك على ضوء السراج؟ نعم، أمامها كأس غطي بقطعة من الكرتون في وسطها فتيل مغموس بالزيت!

أفي تلك الأيام بدأت مهارة سعاد كراوية؟ حكت لصاحباتها بعد عودتها من بيروت: لا نتعذب في أيام الحرب لأن خالي قدري جعل سعيدا مدير عنبر فخلصه من العسكرية، ولأننا نأكل من خير البستان! لا نعرف في فلسطين ما تعرفه بيروت. رأيت في بيروت على باب الباشورة نساء وأطفالا مستلقين في الطريق. ميتين من الجوع. أتى رجال مع طنبر، كوّموا فيه الموتى. نعم، رأيت ذلك! أخذوا الأطفال الأحياء. لم تجع أختي منور. لبهاء رغيف من كل فرن، يسمونه جراية. استبقت منور حاجتنا من الخبز ووزعت الباقي. المصيبة أنها لا تفعل ذلك طمعا في الجنة! قلت لها، امرأة حقي أفندي اشترت من الخبز بيوتا! فأسكتتني. رويت لكم كيف لحقنا الناس من المعرض إلى البيت لأننا نحمل بطيخة! لحقونا لنعطيهم قشور البطيخ! في رقبة جمال باشا اولئك الضحايا! عجن المحظوظون بذر المكانس خبزا! لكن رجال جمال باشا تمتعوا بالخيرات. وأخذوا أجمل البنات في بيروت بلقمة الخبز!

بيروت الآن وراء سعاد! بالحديث عنها أرادت أن تخلع حتى الذكرى. فلترو ما حدث ثم ترميه! لكن أكانت تستطيع أن تندفع إلى حياة جديدة لو لم تعبر تلك الأيام إلى جانب منور؟ ألم يهبها السفر إلى الشام لتأتي بكيس طحين، القوة التي ستزهو بها؟ أليس سبب قرارها أن تكون غنية وآمنة، أنها رأت منور تبيع حليها لتشتري زيتا؟ لن تكون مثل أختها! لا! ستخبئ القرش الأبيض لليوم الأسود! لن تكون ضحية الجوع الذي طحن كرامة النساء ورماهن موتى أو على أسرة الضباط الأتراك وتحت العسكر في حرش بيروت!

روت سعاد كيف ركبت القطار مع أختها، من بيروت إلى دمشق. أوصى بهاء بهما مأمور الخط. في السنجقدار وقّعتا أوراقا، دلّلها الموظفون وقالوا لها ياوروم! وقرب القشلة، التي ستصبح فيما بعد جامعة دمشق، تفرجت سعاد على جمال باشا. سندتها نرجس لترتفع فتراه. ورأته. قالت لنرجس: لم أحب عينيه! فتلفتت نرجس وهمست، لا تقولي هذا في الطريق! يقلد بعض الرجال حتى طريقته في الوقوف، ويضعون أيديهم خلف ظهورهم مثله! ألم تري الناس يتفرجون عليه؟

ذكرت سعاد كلمة أمها: أهل الشام يجمعهم طبل وتفرقهم عصا! فردت نرجس: صحيح تقبريني، أهل الشام يحبون البسط! نحب الفرجة! وماذا في هذه الأيام غير الاحتفالات بوصول جمال باشا وأنور باشا، وسفرهما؟! لكن لا تظني أننا نتعبد من نتفرج عليه! لا تظلمي الشام! ربما عملنا بالمثل: "اليد التي لا تقدر عليها قبّلها وادع عليها بالكسر". آه يا نرجس! سيحتفل آخرون في مهرجانات كبرى برجال في ملابس عسكرية. ستدق الطبول هناك أيضا. وسيمشي اولئك الرجال إلى الموت باسم رجل أكثر جنونا من جمال باشا! ينبهرون بالملابس العسكرية؟! رددت نرجس: فرجة، تقبريني! فرجة!

أوصى خالد آغا مأمور الخط بسعاد ومنور. فماذا فعلت منور بكيس الطحين؟ وزعت أكثره! تقول امرأة "منور خانم، لم نأكل منذ أربعة أيام"! فتغرف لها منور من كيس الطحين! تقول لها امرأة أخرى: "منور خانم، يلعب الفار في بيتي"! فتغرف لها منور من الطحين! ألهذا سافرتا من بيروت إلى دمشق؟! قالت لي منور: هؤلاء ناس مستورون يصعب عليهم أن يشحذوا! تظن منور نفسها مطرانية؟

في الليل سمعنا حركة في البيت. همست منور: حرامي! هل تذهبين أنت لتبلغي "الكراكون" أم أذهب أنا؟ فضّلت أن أذهب كيلا أبقى وحدي مع الحرامي! ولكن ماذا فعلت منور عندما أمسك به البوليس؟ قالت: غرف من الطحين؟! هذه السرقة حلال! ولم يجسر بهاء أن يخالفها فأطلقوا الحرامي! من كل كيس طحين تأتي به منور من الشام تترك حصة للحرامي! نعم، لهذا سافرنا من بيروت إلى الشام وأتينا بكيس من الطحين!

أنهت سعاد روايتها في ذلك اليوم بهجوم النساء على السوق. رأيته كما أراكن أمامي الآن! سألت امرأة من برج البراجنة البائع: بكم اللوبياء؟.. ثم نادت النساء: "اطحشوا يا نسوين"! هجمت النساء ونهبن الدكاكين. وهل يستطيع الباعة أن يردوهن؟

فهمت الست شفيقة أن سعاد قررت ألا تكون مثل منور! معها الحق! ماذا يسند منور؟ بيوتها وبساتينها؟! باعت الحلي التي أهداها لها أبوها وأمها وعثمان باشا بدلا من أن تبيع الخبز! تفهم الست شفيقة سعاد. ويفرحها أن تكون سعاد مثلها!

نزل جمال باشا إلى بيروت، أقام في فندق بسّول في الزيتونة وصفّ العسكر في استقباله كأنه ملك! نبش وثائق من القنصلية الفرنسية واتهم الوطنيين العرب الذين طلبوا الحريات والإصلاح في الدولة بأنهم خونة. ورتب ديوان الحرب العرفي في عاليه لمحاكمتهم! هو الخصم وهو الحكم! لم يطلع على كلمات المؤتمر السوري سنة 1913 في باريز وقراراته؟ وضح فيه رجال العرب المتهمون علاقتهم بالدولة العثمانية! ووضعوا رغبتهم في الإصلاح بعيدا عن نفوذ الدول الاوربية! لكن جمال باشا كشف حماستهم خلال سهرته معهم في النادي العربي في دمشق، وسمع أناشيدهم، وأخفى ذلك في قلبه! ألا يسهل ذلك اقتطاعه سوريا من الدولة العثمانية ومفاوضة الغربيين على ذلك! قال خالد آغا لنفيسة: لا تعقّدي البحث عن سبب محكمة عاليه! لا تقولي فقط إنه يغطي هزيمته في حملة الترعة! قولي هذا رجل صغير، لديه صلاحيات كبرى في زمن حرب! توهم الشباب العرب المتحمسون أنهم أصحابه. وتلك غلطتهم! شكري العسلي كان أعقلهم فلم يسقط في الأوهام! أما تهمة الاتصال بالعدو فارمها على الأرض! هل يتهم عبد الغني العريسي بالاتصال بفرنسا؟!

بعد شنق الشهداء في بيروت في آب سنة 1915 عانت نفيسة من الأرق. وقالت لخالد آغا: انتبه! لم تعد في البلاد مقدسات ولا مستحيل! لا أحد محصّن! لا يساوي الإنسان قرشا مهما كانت حياته تاريخا وطنيا! أمسك لسانك يا خالد آغا، أرجوك! في يوم شنق شهداء ساحة البرج باحت له بأن فاطمة ماتت بالحمة الراجعة. واختارت أن يكون ذلك في أول المساء كي تكون لديها الفرصة لتهدئ حزنه. رفع رأسه إليها: كنت تعرفين ذلك طوال هذه المدة؟ هزت رأسها. ففهم كم تخاف عليه. وجعله ذلك يغضي ليخفي تأثره. وضعت نفيسة إذن موت فاطمة وسط موت أكبر منه!

مرت أيام طويلة جلس فيها خالد آغا في المقهى صامتا يكتفي بهز رأسه إذا سئل كيف حالك، أو إذا سئل هل تريد كأسا من الشاي. ظل يقصد المقهى لكنه لا يطيل الجلوس فيه. فينهض ليمشي في بساتين "وراء الدور" ثم يقصد بيت نفيسة. لكنه هناك أيضا أقلّ من الكلام. قالت نفيسة كفى، وقررت أن تقتلعه من الصمت. فحضرت العشاء في ليلة البدر على سطحها تحت العريشة. لم يتجاوز خالد آغا "التحتاني" حتى ذلك المساء، كالغرباء. صعد خلفها الدرجات الحجرية،

ثم الدرجات الخشبية. مشى في الداور ملامسا شجر النارنج والكباد. عبقت أصص الفريزينا وهو يمشي قرب غرفها. لاحظت أنه رمى نظرة إلى ستائر الغرف المطرزة، كأنه يلمس غرفة نومها وغرفة جلوسها. لماذا تكرمه الليلة فجأة؟ لماذا دعته ليمشي على خطواتها التي جعلتها منذ سنوات محرمة على زوجها؟ تحت العريشة رآها مقابله في بدر ساطع، خلف طبلية الطعام. كانت المدرسة الشامية على يساره، وفي البعد ضوء القمر مفروش على مدينة أطفأت أنوارها واستسلمت لسحر القمر. نظرت إليه نفيسة وأشارت إلى المدينة: يا خالد آغا، هل تظن أننا أكثر حزنا على شهداء ساحة البرج من هذه المدينة؟ ومع ذلك أطفأت أنوارها احتراما للقمر! فلنعد كما كنا احتراما له! واحتراما للحياة التي بقيت أمامنا! خذ من يدي هذه القطعة من مخلل الباذنجان! ألا ترى أني لففتها بعرق الكرفس؟ أمسك برهة بيدها ونظر إليها. مهيبة وجميلة! هدر قلبه. هل سمعته يا نفيسة كما أسمعه؟ ترك يدها وسأل نفسه معاتبا: الآن يا خالد، الآن؟ بعد هذا العمر، وفي هذه الأيام السوداء؟! رآها ترفع رأسها إلى القمر فينهمر على وجهها. أيمكن أن تبقى امرأة نضرة وجميلة وشابة هكذا؟ يهب الطيش جمالا للشباب؟ ليتهم يرون جمال النضج وشباب الروح الذي يراه الآن!

ظنت نفيسة أنها أعادت خالد آغا كما كان قبل شهداء ساحة البرج. لكن جمال باشا وعسكره أقوى منها! ستنصب المشانق مرة أخرى. وأين؟ في ساحة المرجة! يؤدب الأحمق دمشق؟ يحفر خندق الدم بين الأتراك والعرب في زمن الحرب! صدق من قال: "مجنون رمى حجر، ألف عاقل ما شاله"!

لبست نفيسة ملاءتها مسرعة. تبعتها مرجانة في أرض الدار. عبرت معها الممر حتى الباب. فتحته لها ووقفت على العتبة الخارجية. بدا القلق بريقا على بشرة مرجانة السوداء! يا ست نفيسة اتركيني أمشي معك! لا، يامرجانة، لاتخافي عليّ!

أخفت نفيسة كفيها تحت الملاءة هي التي لم تكن تخفي حتى وجهها. تخشين يا نفيسة أن تدل إليك الكفّان؟ نعم، فيهما العمر والدلال أو الشقاء! لا تبوح بصاحبتها الخواتم الفضية أو الذهبية فقط، بل تبوح الطراوة! لم تنعطف نفيسة إلى حارة قولي لتصل في سهولة إلى بيت خالد آغا. بل عبرت حمام الجوزة وضريح صارم الدين ساروجا، وانعطفت لتمر من باب حارة المفتي. على يسارها جامع التبريزي، بعد خطوات على يمينها باب حرملك بيت العابد. مرت تحت السيباط ثم انعطفت. أطالت طريقها لتصل إلى حارة قولي من الشمال. لا يتبعها

أحد! فلماذا تتخفى؟ ليست المدينة خارجنا فقط! أكان يمكن أن تخمّني، يا نفيسة، أن المصائب كالسلسلة؟! حسدوك على قامتك التي لاتهزها ريح، وقالوا إن عملك يشغلك عن الأهل! قطعت الحرب التجارة بالحرير، وصارت القامة التي لا تهزها الريح تسند منور مرة وتسند نوري مرة، ولتعترفي بأنها تسند أيضا خالد آغا! وهاأنت التي رفضت الوصاية على مكرم ذات يوم، تخرجين متخفية إلى خالد آغا لتتقلي له الخبر الذي أتاك به إبن الكحّال: سيعدمون في الفجر!

في أزمنة قديمة كان بعض الأشخاص يلجأ إلى خالد آغا ليحل مشكلة بين شباب، أو ليتوسط لرجل. لكن من يجهل أنه منذ أتى الاتحاديون صار كأنه على الرفّ! لا يسعفه مقامه القديم في الدولة، ولا مكانته في حيه! تصدّر البلد جمال باشا وضباطه. فهل قصد أبو بديع أن يستعيد رضا خالد آغا لذلك قال : تغير الطقم حتى أننا ما عدنا نعرف أحدا يتوسط لنا! تعلو أية يهودية تغني وترقص على جميع رجالنا! لم يجبه خالد آغا. لاحظ أنه تبعه من مقهى الجوزة حتى بيت نفيسة. توقف حيث يفترق طريق كل منهما عن الآخر. وقال: لا ترمي نفسك دون ضرورة ياأبا بديع أفندي! المحكمة العرفية في عاليه تأخذ بالشبهة!

مشى خالد آغا مغموما. في الجامع المعلّق على بعد خطوات من سوقساروجا سجن الرجال الذين حاكمتهم محكمة عاليه. ربما يغطي جمال باشا فشله في حملة الترعة بإعدام الزعماء العرب الذين حاورهم! لكن هناك ما هو أكثر سعة من ذلك. لماذا ترك بيكو الأوراق التي يمكن أن تؤذي العرب؟ لماذا لم يحرقها كما أحرقت الأوراق الأخرى؟ قال في سهرة مع نفيسة وإبن الكحال: يريد الدونمة الخلاص من هؤلاء الرجال، تماما كما يريد ذلك من سيقتسمون البلاد! طار السلطان عبد الحميد لأنه رفض أن يبيع فلسطين. وسيقتل العسلي والمحمصانيان الذين كشفوا الدونمة والاستيطان في فلسطين! وهل يرغب الإنكليز والفرنسيون أن يجدوا في البلاد التي سيحتلونها رجالا مثل هؤلاء، تعلموا في الجامعات وحلموا بدولة معاصرة مستقلة؟! لكننا سننشغل بالتفاصيل فقط يا نفيسة خانم! اكتشاف الأوراق السرية، الهمس الذي نقل به أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع لجمال باشا خبرا عن مؤامرة، زلة ابراهيم الخليل الذي قال لجمال باشا: سأذهب لأقنع الإصلاحيين في مصر، مع أن مصر في حالة حرب مع الدولة، رسائل حقي العظم! ستقرر المحكمة العرفية في عاليه ما يطلب منها! لكن هذا سيسوق البلاد إلى التقسيم. وسينسى العرب أنهم عاشوا مع الأتراك في حضارة مشتركة!

نقل رجل يشتغل في فندق فيكتوريا لخالد آغا أن شكري بك رئيس ديوان حرب عاليه قابل جمال باشا وعرض عليه أسماء من برّأهم. "غضب جمال باشا. تناول منه الورقة وكتب بجانب الأسماء: إعدام"! لم يبال جمال باشا بالصدمة التي أصابت العرب عندما أعدم ثلاثة عشر شخصا في بيروت في 21 آب1915. وأبعد خلوصي بك والي سورية لأنه انتقد الإعدام. ووجد جمال باشا من العرب من يشتم المشتوقين ويتهمهم بالخيانة!

منذ اعتقلت المجموعة الثانية في خريف 1915 تفادى خالد آغا المشي في الشوارع وقصد الحارات. يقبض الغمّ الليلة على قلب خالد آغا. لذلك توقف برهة أمام باب نفيسة، ثم عبره. لا يستطيع أن يتحدث معها الآن. لماذا يا خالد آغا؟ لأنك تتفرج على الزمن كأي رجل عاجز؟ أم لأنك كبرت؟ لا يشكو من مرض. لكن أليس مرض الروح أخطر من مرض الجسم؟! يصعب أن يشخّص أحد مرضك. لعل جروح الروح انفتحت في أيام ظننت أنك عبرتها مزهوا بقوتك! مات جزء منك يوم مات ابنك شهاب! ويوم ماتت زهرة التي هابتك وأحبتك ونسيتها حتى وهي نائمة قربك! ويوم مشيت بين القتلى في حروب الدولة! ويوم تبينت أن ما سحرك في رابية خانم كان سرابا! كفى! لا تحاكم نفسك الآن لتستنتج أن حياتك كانت غبارا، وأنك أخطأت في ايمانك وفشلت في أحلامك حتى لبيتك وأولادك! قف، لا تسقط! عد، تنتظرك نفيسة!

قال خالد آغا لنفيسة يوم احتفل الشباب القوميون بجمال باشا وضباطه في النادي العربي، وأنشدوا أناشيدهم أمامه: وقعوا في الفخ! أبسطهم الخليل! مشى خالد آغا في ذلك اليوم على ضفة بردى واسع الخطى، ووصل مقهورا حتى الربوة، مخترقا الطريق بين بساتين النيربين الكثيفة. سهر عند نفيسة وباح لها بما لا يمكن أن يبوح به لأحد في المقهى: اجتمعوا في مؤتمر في باريز، خطبوا وصاغوا قرارهم، فاوضوا من أرسلته الدولة. ثم فشل الزهراوي في استنبول. لم تنفذ وعود الاتحاديين. فلماذا هذه العراضة أمام جمال باشا؟! هل نسوا أن الضباط الاتحاديين بدأوا انقلابهم بالهتاف ضد العرب؟ كيف يطمئنون إلى جمال باشا؟! سترين يا نفيسة خانم النتيجة!

نقل خالد آغا إليها كل خبر يؤكد استنتاجه. معتد ببصيرته؟ بل ردد: يا ليتني كنت مخطئا! وتأملته نفيسة. أينقطع هؤلاء الذين يهبون حياتهم لبلد أو مسألة أو ايمان، عن الدنيا متصوفين فيها، ويفقدون ما يتذوقه الناس من فرح ومتع؟ لو باحت له نفيسة بما فكرت فيه لفسر لها أن ذلك يعتمد على الجهة التي

يرمي الرجل فيها مصيره، ولذكّرها بأن عبد الرحمن باشا اليوسف الذي يرى أن "عمه كل من تزوج أمه"، نطّ من أمير الحج في زمن السلطان إلى حضن الاتحاديين. لذلك يستمتع بحياته. يخسر في القمار قرى، يزين أرض الدار بالمرايا البلجيكية، ويغرس التماثيل في الفوقاني! فحصت نفيسة خالد آغا وهو يأكل الكبة النيئة، وتبينت أنه يأكل دون أن يفكر فيما يتذوقه. كانت نفيسة قد وضعت طاولة قرب البحرة، وأطلقت النافورة، وقربت إصيصا من الزنبق الشامي من المقعد الذي سيجلس عليه. فلم ينتبه إلى ذلك! لم ير الزنبق أو الماء ولم يرفع نظره إلى شجرة النارنج. ولم يلاحظ أنها أشعلت فانوسين في الحائط رغم الكهرباء. كادت تسأله، هل قدر الرجال الذين يفكرون في مصير بلادهم ألا يروا ما نراه نحن، بساتينها وبحراتها وطعامها؟ هل أفسد الهمّ حياتهم إلى هذا الحد؟ كان أمامها نقيضها. فقد استمتعت بطرقاتها إلى بساتين التوت. واستمتعت بالسوق وهي تتاجر بالحرير. وتذوقت الفطور في الصباح، واهتمت بأن يكون البيض الذي تأكله طازجا، وأن يحلب الحلاب الماعز أمام بيتها لتشعر بحرارته الفاترة، واستلقت في أيام العنب تحت دالية السطح لتتأمل العناقيد البلدية المكتنزة فوقها. لم تفوّت ليالي البدر فصعدت إلى السطح، وأطلت على المدرسة الشامية ورأت المدينة حتى البساتين. في العصرية التي أقامتها بعد موت زوج بنتها، ألم تستمتع بجلوس النساء وتهذيبهن، وتزهو بأن العصرية جرت في أصولها الدقيقة؟ يا خالد آغا، لكل شيء مكانه! لو وضعت الحزن في الجرن لكان في ظهري الآن حدبة. مرت علي أيام صعبة منذ بداية الحرب، أنت تعرفها، فهل أفكر في ما كان وما سيكون فأقهر نفسي؟ كأنك لا تعرف روح الشام! لا يفوّت أهلها على أنفسهم سيران الجمعة ولو خربت الدنيا! لأنهم دون حس؟ بل لأنهم يقاومون القهر! يقولون للمرأة الباكية: "لا تقهري حالك"! قد نقهر أنفسنا بأيدينا يا خالد آغا لا بيد أعدائنا!

حاولت أن تخفف عنه يوم شتّت جمال باشا الضباط العرب ورمى وجوه البلد في الديوان العرفي. طوال أشهر كان خالد آغا يزورها وينقل لها ما يسرّ له به بعض أصحابه. استمعت إليه وفكرت فيه وهو أمامها. ترى هل يفهم آخرون ما تفهمه الآن فقط: أن خلف شكله العسكري الصارم موهبة في الحدس والنبوءة؟ هل أوصلها خالد آغا في تلك الجلسات بينهما إلى تأمل سمات الرجال الذي يرتفعون على عرش الزمان، فيرونه كما يرى النسر الأرض، ويخمّنون ما سيكون، لأنهم يفهمون ما هو موجود؟ يخدم الزمن بعضهم فيسلمهم رسنه، ويخون بعضهم فيرميهم شهداء أو مقهورين ويتوه الزمن دونهم في الظلمات. خيل لنفيسة أنها

تعرف الجانب السرّي في خالد آغا، وتكتشف وحدة رجل يتجاوز من حوله بالتنبؤ فيبتعد عنهم إلى زمن لا يستشفونه. وحدة المبصر بين عميان، والقوي بين ضعفاء، والصادق بين منافقين. لا تجنح يا خالد آغا على رغبتك بالكمال! لاتحكم بالظاهر فتظلم الناس! لم تمل الشام إلى الاتحاديين. لكن الطبل والزمر له رجاله في كل زمان. أنت سياسي في موهبتك بالتنبؤ. لكنك غير سياسي وقت تفترض أن اولئك الشباب موحّدين كشخص! عبد الكريم الخليل ليس كالزهراوي، وما أبعد شكري العسلي عمن اتصل بالقنصلية الفرنسية في بيروت! أنصف من لم تترك له الحياة فرصة لينضج، ومن جمح به الوهم! أنت تعرف من هو حقي العظم في القاهرة! رد خالد آغا حاسما: كشفوا روحهم لجمال باشا! نسوا هتاف الاتحاديين في أول أيام انقلابهم، مع أن الضباط العرب حملوا لانقلابهم النصر على السلطان! لم يشتموا يومذاك عزت باشا العابد لأنه من رجال السلطان، بل شتموه لأنه عربي! يا نفيسة خانم، كان يجب أن يدخل أصحابنا، هم، إلى سرائر جمال باشا لا هو إلى سرائرهم! تحدثي مع عدوك وأنت تزنين كلماتك وصوتك وحركتك. إياك أن تفتحي قلبك، إياك أن تسرحي أمامه!

اكتشفت نفيسة في تلك الأيام ما ضيعته. في حارتها نفسها، على بعد أمتار من بيتها، رجل لم تفد من معرفته. يعيش بعض الناس حياة حافلة بالأحداث لا يستطيعون أن يستنتجوا منها رؤية، وبعض من يتسع بها لا يستطيع التعبير عنها. لكن خالد آغا رجل فهم حياته ومهر في التعبير عن روحه. أمام نفيسة إنسان أنضجه عمر ومع ذلك لم تنتبه إليه هي التي تراقب نضج عناقيد داليتها البلديّة! أهكذا تكتشف خالد آغا في غروبه والبلد مضطرب والزمن يشغلها بمصائبه؟! نعم، نكتشف متأخرين أننا لم نكسب من كان يجب أن نكسبه لحياتنا! وربما تفادينا به، لو عرفناه، كثيرا من وحدتنا وأخطائنا!

لم تقل نفيسة للعسكري على باب خالد آغا إنها تريده. عندما أغلقت الباب خلفها أشارت إلى فوق، وتقدمت أمام رابية خانم، تركتها في أسفل الدرج وصعدت نحو الفرنكة. سمع خالد آغا خطواتها على الدرج فخرج. رفعت رأسها ورأته أمام باب الغرفة الممنوعة على رابية خانم منذ مقتل شهاب، فوقفت. كم كان خالد آغا مهيبا بعمره وصرامته والسماء خلفه، والياسمينة على يساره! تمنت أن تثبت نظرها عليه وتحفظه هكذا في عمرها الباقي كله. يعرض صاحب صندوق "عجايبك عجايب" صورة فاطمة المغربية والظاهر بيبرس. وهاهي تتبين أن جمال كل منهما يتصل بجمال الآخر. فالجمال الذي لا يفرض مهابته ليس جمالا أصيلا. هاهي

تفهم أن سحر فاطمة المغربية ليس تلك الملامح الفاتنة بل وسامتها. الوسامة التي تغطي خالد آغا في هذه البرهة. ورأى خالد آغا نفيسة ملفوفة بملاءتها السوداء، وقد أصبحت قرب أغصان شجرة الرمان المزهرة، فبدا له أن زهر الرمان كله توهج، وفهم فورا أنه يجب أن يسرع. التقطت إشارته فبقيت في مكانها.

لم ينظر أي منهما إلى رابية خانم التي كانت حقا جميلة. ولم ينتبه إلى الجمال الذي أذلّه أنهما لم يلتفتا إليه! منذ زمن طويل لم يعد خالد آغا يرى رابية خانم مع أنها دائما موجودة. تعرف ذلك نفيسة، لكن الشفقة لا تنقذ أحدا في مثل تلك العلاقات! فللمرأة وحدها أن ترجّح كرامتها! قرب الباب قال لنفيسة: لا تخشي "النفر"! يحبني! ورفع نظره إلى شجرة الكينا الباسقة التي زرعها منذ عقود. تعرف نفيسة أنه يتصور أن للأشجار روحا لذلك يلتفت إلى شجرته كلما دخل إلى البيت وكلما خرج منه. روت لها منور: يسلّم عليها كلما مر قربها! تسكن إليها الآن العصافير فتملأ الحارة بدويّها! قالت رابية خانم مرة: توسخ العصافير الأرض تحت الشجرة! شطف الحارة صار مشقة! فلسعها بنظره أمام نفيسة: هل تتصورين أن الشحرور يقف على شجرة كباد قريبة من الأرض؟! في تلك البرهة رأت نفيسة صلة أخرى بينه وبين شجرة الكينا وميزتها من الأشجار التي تزين أرض الدار ولكن لا يمكن أن يرتادها شحرور. وأصبحت هي أيضا ترفع نظرها إلى شجرة الكينا كلما عبرتها.

تبعها عن بعد. عبر جوزة الحدباء نازلا إلى البحصة، مر بفندق داماسكوس بالاس، وصل إلى ساحة المرجة التي لم يعترف بتسميتها "ساحة الاتحاد"، ودخل إلى بناء البرق والبريد الذي يطل على الساحة. يا للمرأة التي رتبت كل شيء! نهض رجل إليه: شرفتنا يا خالد آغا! فهم أنه هو الرجل الذي اعتمدته نفيسة فتبعه وقبل ضيافته منتظرا ما سيقوله. وقاله: ستبقى في غرفة فوق. لا ضوء، لا حركة، ولا صوت غير صوت النفس! أطرق الرجل. هل يكبح دموعا في عينيه؟ هل تبوح إطراقة رأسه بأنه يضع روحه على كفه لأنه سيسمح لخالد آغا بأن يبقى في بناء مقفل ليكون شاهدا على إعدام الرجال؟ وهل هو خائف على خالد آغا؟ لا يستطيع أي منهما أن يعبر للآخر ولو بملامحه عن اضطراب روحه العاصف. ويتفادى حتى الأسى المرسوم في وجوه الموجودين في البناء. لا تخفي حركتهم وأشغالهم أنهم في مأتم!

خطر لنفيسة أن تخزن له طعاما أو شرابا لتلك الليلة هناك. وخجلت برغبتها، مدركة أنه لن يمسه. وهل ستكون في بيتها قادرة أن ترشف الماء؟ سيشنق شكري

العسلي والزهراوي وعمر الجزائري ورشدي الشمعة وشفيق المؤيد وعبد الوهاب الإنكليزي ورفيق رزق سلوم في ساحة المرجة، عندما يشنق جرجي حداد وسعيد عقل وعبد الغني العريسي وعمر حمد وسليم الجزائري وعارف الشهابي وعلي محمد النشاشيبي وسيف الدين الخطيب وأحمد طبارة ومحمود البخاري وآخرون في ساحة البرج في بيروت. فشل فيصل في تغيير الحكم عليهم بالإعدام. قدّرت نفيسة أن خالد آغا يجب أن يكون الشاهد على ذلك الموت العظيم. أكدت لنفسها: يجب أن يحضره، لأنه تبع أخطاء بعضهم وصوابهم وتنبأ منذ تلك الحفلة بأن جمال باشا الذي كشفهم وسمع أناشيدهم لن يتركهم أحياء وأحرارا. لم يسألها خالد آغا لماذا قررت له هذه المغامرة الخطرة. ولم يخطر له أن يخاف على الرجل الذي رتب أن يخفيه في بناء البرق والبريد مقابل المشنوقين. عيب أن يخاف عليه أمام موت أكبر منهما. مع أن هذه الجرأة المغامرة لن تنقذ المحكومين. ولكن هل حضور موتهم أقل أهمية من إنقاذهم؟ يجب أن يسمع إنسان آخر كلماتهم! ويجب أن يخمنوا أن في مكان من الساحة يمكن أن يوجد من يودعهم غير الأبنية التي عرفوها وتنقلوا فيها، والساحة التي شهدوا حشودها وخطبوا فيها!

غمر الضوء الساحة منذ المساء. فرض جمال باشا حتى إضاءة مسرح زهرة دمشق. نصبت أعمدة الموت مقابل "المنزل". وخيل لخالد آغا أنه لمح جمال باشا في "المنزل" يتفرج على إعدام الرجال. أي وحش! يستطيع المجرم فقط أن يسهر مع رجل ويأكل معه ثم يقتله. لكن السياسي يتفادى، ولو حاكم أعداءه، أن يرى فيهم تنفيذ الحكم! آلمه تشفي من يحتفي بنصره في مأتم عدوه. نسي خالد آغا أنه رأى القتلى في معاركه. هذا مختلف عن ذاك! هنا يقتل رجال مقيدون، في برودة وهدوء. وأي رجال! قدر خالد آغا دائما شكري العسلي، واستمع إلى سعيد يتحدث عنه بعد زياراته له. في هدوء الفجر سمع كلماتهم. واختلطت بهدير روحه. عندما أنجز شنق الرجل الأول صرخ: دمر كل ما كان بين العرب والأتراك! لن يستطيع أحد أن يعبر هذا الخندق من الدم! وأيقن أن الموت الذي شاهده هو حكم بالإعدام على الأزمنة القادمة. أدرك مالم يفكر فيه من قبل: هذه مجموعة من رجال درسوا في أفضل المعاهد التركية والاوروبية، يمكنها أن تقود البلاد في أزمنة قادمة. فرّغ القاتل البلد إذن من الصف الأول وتركه لمن هو أقل منهم كفاءة. سواء بقيت الدولة أم جزئت فلن يكون مصير العرب كما يمكن أن يكون لو بقي هؤلاء أحياء! في برهة كالبرق رسخ ايمانه بأن من حكم عليهم بالإعدام ليس فقط جمال باشا وأنور باشا الدونمة. لا يريدهم أيضا الاوربيون! هؤلاء يحتاجون أجراء لا رجال

دولة!

بقي واقفا في مكانه حتى أنجز الإعدام كله. مع أنه صرخ لنفسه مرات: كفى! حاول أن يميز كل شخص من الآخر، وخيل إليه أن برهة الموت تكشف الرجل أكثر مما تكشفه الحياة. وأن الطباع تبدو وقتذاك في كمالها. في برهة ساد جلال شكري العسلي على الساحة الرمادية. فعض خالد آغا إصبعه وهو يسمع أصداء كلامه. بدا الوعيد حزينا فالمشنوق هو الذي توعد. هل صرخ بعضهم لأنه مؤمن بأن صرخته ستصل من شاهد متخفّ، أم لأن الإنسان لا يستطيع ألا يطلق نداء أو وصية؟ أم أنهم يعرفون أن حياتهم المحدودة تتقطع في هذه البرهة ليبدأ الخلود الذي سيحملون فيه اسمهم الجديد: شهداء أيار، لا يتمايزون فيه إلا بالأسماء والملامح لأن الناس يحتاجون الرموز!

تجلّد خالد آغا حتى انتهى الإعدام وبقي المشنوقون وحراسهم. انصرف جمال باشا من المنزل مع ضباطه. إلى حارة اليهود لتسهر مع بناتك وتهدم الجامع الأحمر وتعبد به الحارة؟ عض خالد آغا إصبعه من قهره. لم يتوقع لهؤلاء الرجال يوم كانوا على منابرهم أن ينتصروا! ولم يتوقع أن يحققوا حلمهم بدولتين تجمعهما دولة واحدة! فهم أن القدر أقوى منهم، حبكه كالشبكة رجال ودول وجماعات. كان يتوجس من موت الدولة ويستشفه في الاحتفالات والاستقبالات. لكنه الآن شهد موت اولئك الحالمين وموت الدولة معا!

أدركت نفيسة أنه لا يمكن ألا يحضر موت الرجال الذين لم يشاركهم أحلامهم ولم يؤمن بانتصارها، وردد: لم تنضج، لا الاوربيون ولا الاتحاديون سيسمحون لها بالنضج! شكر في سره نفيسة. كم تقدره هذه المرأة كي تجعله الشاهد الأخير على نهاية حياة، والشاهد الأول على جمرة. لكنه فهم أيضا أنها أرادت لاختياره أن يكتمل!

لم يعد يطيق البقاء في مخبأه! يا لهذا المكان الذي وجدته له نفيسة! في جهة "المنزل" الذي وقف فيه جمال باشا، وفي الجهة المقابلة البريد والبرق حيث وقف خالد آغا، وبينهما الشهداء! ولكن كم بينهما من بعد! أنا دافعت عن الدولة بروحي لأنها جمعت العناصر أمام الغرب. وأنت فرقت العنصرين الكبيرين ويسرت اقتسامها كامبراطورية من الزمن القديم! لن يدهش خالد آغا أن يسمع فيما بعد أهل الشام يسمون جمال باشا "السفاح". والتبس عليه الأمر، فتصور أنه هو أول من رمى الاسم الجديد أمام أبي بديع ومنه انتشر.

بقي خالد آغا في مكانه حتى فتح بناء البرق والبريد وأتى إليه الرجل الذي لا

يعرف خالد آغا بعد اسمه. استبقاه الرجل حتى دخل بعض الناس وخرجوا وصار ممكنا أن يتصور من يراه أنه كان مع الداخلين. تأمله الرجل الذي أخفاه. رأى الليلة في وجهه؟ ما أكثر من لم يناموا الليلة في الشام! لكننا لسنا مثلك! أنت بقيت معهم تحت سطوة الرعب! على الصفحة الاولى في جريدة جمال باشا نشر الحكم الإعدام عقابا على الخيانة! اشترى الناس الجريدة لأنها الذكرى الوحيدة الآن من شهداء أيار!

قدرت نفيسة أن الناس لن يقصدوا البريد والبرق بعد ليلة الإعدام. فلجأت إلى زوجها إبن الكحال، فأرسل رجالا يعملون لديه ليسألوا عن برقيات أو يحاولوا إرسال برقيات، وأرسلت من تتعامل معهم في الحرير أيضا. فخرج خالد آغا في تلك الزحمة.

رأى خالد آغا نفيسة. يالها من امرأة! انحنت له والغطاء مسدل على وجهها. تمثلين يا ست نفيسة؟ لتوهمي من يراك أنك امرأة مطيعة تنحني لرجل؟ مشت معه عابرة البحصة ثم جوزة الحدباء ثم سوقساروجا. وتساءل ساخرا: تحميني برفقتها؟! يا للزمن! لاأحد يستطيع يا نفيسة خانم أن يحمي أحدا! رأيت كل شيء! عشت دهرا طويلا! خالد آغا، يجب أن نعيش ولو كي ننتظر التشفّي من الظالمين! يجب أن نعيش ولو كي نرى هزيمتهم! قال لها: يا نفيسة خانم عم تتحدثين؟ هزمنا نحن وهم! هل رأيت أحدا يحتفل بهزيمته؟ أنا رأيت ذلك الأحمق!

فجأة خطر له أنه لم يسألها كيف أمضت الليل. طلب منها أن تمشي معه إلى بيته: ستقدم لك رابية خانم قهوتها المثقلة بالهيل! نسيت أن قهوتها مشهورة؟ يرمي قهره على رابية خانم! في أول خطوة في أرض الدار التفت إليها فاحصا وجهها وهز رأسه. قالت نفيسة: يا خالد آغا من نام الليلة في الشام؟! استدارت إلى الباب، ولم يستبقها. يجب أن يختلي بنفسه، وهل تتحمل هي الحديث مع رابية خانم عن غير ما يملأ قلبها؟! فلنعط الحزن ما يستحقه يا خالد آغا! المدينة في حداد! لو نظم جمال باشا عرضا اليوم لما خرجت حتى نرجس خانم من بيتها!

سينقل أهل الشهداء أولادهم إلى قبور. ففي هذا اليوم فقط هم أبناء أسر تملك وحدها الحق في دفنهم. لكن ذلك لن يدوم إلا قليلا! سيحفر رجال على شاهدة قبر الزهراوي في مقبرة الباب الصغير أنه لم يخش الموت الزؤام. وستحتفل المدينة زمنا طويلا بالسادس من أيار في ساحة المرجة وسيسميها الناس لا البلديات "ساحة الشهداء"، وستصبح ساحة البرج في بيروت "ساحة الشهداء" أيضا، حتى تستولد المدينة أحلاما جديدة وعادات أخرى.

سيكتب جمال باشا فيما بعد إن الأحكام بالإعدام "حافظت على سلطة الحكومة وسطوتها في بلاد سممتها الدعاية الإنكليزية والفرنسية". لم يتنبأ حتى بما سيكون بعد سنتين: ستطير الدولة نفسها!

زارت نفيسة أقرباء الشهداء الذين لم ينفوا إلى الأناضول. زارت مقبرة الباب الصغير ومقبرة الدحداح. سجلت على ورقة ما نقش على شواهد الأضرحة. ونقلت كل ما عرفته إلى خالد آغا. كي تقويه؟

في محطة رياق التقى قطاران، واحد قادم من دمشق، مسافر إلى حلب فتركيا. وآخر قادم من المحكمة العرفية في عاليه، مسافر إلى دمشق. في القطار الثاني المحكومون الذين سيشنقون في ساحة المرجة في دمشق. وفي الأول أسر سورية منفية إلى الأناضول منها زوجات وأخوات وأبناء اولئك المحكومين بالإعدام. كان اللقاء مفاجئا خاطفا لا يتسع لأكثر من نداء أو وصية. قال شكري العسلي لأخته التي تحمل ابنه: وصيتي، علّميه! علّميه!

ليلة إعدام شهداء أيار لم ينم محمد فوزي باشا العظم. مشى في أرض الدار الواسعة في قصره في سوقساروجا، أمام الغرفة التي تنام فيها زوجته وابنه خالد. فتح الصبي عينيه فرآه يلوب في أرض الدار، ففهم أنه مضطرب وحزين. وسيحفظ تلك الذكرى ويرويها، فيما بعد، لقريبه زياد العظم. هل وصل إلى محمد فوزي باشا رسول نقل إليه خبرا، أم كان يعرف ساعة الإعدام؟ دخل إلى زوجته وهو يبكي وقال لها: انتهى! أعدموا!

بيت عبد الرحمن باشا اليوسف في سوقساروجا ملاصق لبيته. اشترى أبواهما بيتا واسعا عمّراه كبيتين متصلين ومنفصلين. يستقبل أحدهما الزوار إذا فاضوا عن البيت الآخر، كقريبين وكجارين. في يوم إعدام شهداء أيار اتصل البيتان أيضا؟! طلب جمال باشا من عبد الرحمن باشا اليوسف أن يولم له وليمة في مزرعته في الخيارة عيّنها بعد إعدام شهداء أيار. بين المدعوين إليها محمد فوزي باشا العظم.

يجب أن يمسح محمد فوزي باشا دموعه، ويحضر الوليمة مع أن الحكم بالإعدام نفذ في قريبه شفيق المؤيد العظم! سيكون في وليمة للسفاح وأهله مشغولون بالمأتم! هل تساءل ابنه الصغير يومذاك كيف يتحمل أبي وليمة في صدرها قاتل قريبه وأصحابه؟ هل حدق جمال باشا في عيني أبي مستمتعا بتجلده؟ أينتصر الجلادون بنفاق الضحايا أو بصبرهم؟ وهل تسلي الطغاة تلك اللعبة ويبررون لأنفسهم بها احتقار ضحاياهم؟ أرضاه أن يبرئ أباه من الحفاوة

بقاتل رجال أيار. فالضمير العام سيدين كل من احتفى بجمال باشا بعد قتلهم. دفن محمد فوزي باشا العظم في ضريح فخم فوقه قبة، في مقبرة الباب الصغير. لكن ذلك لم يعوضه عن مقاطعة المؤيدية مأتمه!

وصلت إلى أسر الشهداء المنفية في تركيا جريدة محمد كرد علي. في صفحتها الاولى بخط عريض خبر إعدام شهداء أيار كخونة. فسجلت أسر الشهداء ودمشق اسم صاحب الجريدة بين أسماء تجاوزت الحدود إلى ما لا يجوز أن يفرّط فيه! نسي كرد علي أن المقتبس نشرت كلمات شكري العسلي وشفيق المؤيد في مجلس المبعوثين وأخبار أصحابهما؟!

وقت كان جمال باشا يحتفل بإعدام شهداء أيار في مزرعة الخيارة، كان شعراء ونحاتون دمشقيون يحفرون في شواهد قبور جميلة من الحجر نقشت عليها زهور ونباتات، ردّهم على جمال باشا، معلنين أن القتلى شهداء الأمة. حفروا على شاهدة عبد الوهاب الإنكليزي: ألا في سبيل العرب ندبا قضى صبرا، شهيدا بأعلى الجذع خطوا له قبرا، رأى أن عيش الذل عارا وسيئة، فراح نقي العرض محتسيا مرا، قضى واجب الأوطان حيا وميتا، فأصبح فردا ماجدا سيدا صدرا، مصاب كوى كبد المعالي، فأصبحت حشاشتها حرّى ومقلتها عبرى، بكت عبد وهاب المواهب يعرب، وقل بأن تبكي على فقده الدهرا، قضى الإنكليزي الذي ذاع صيته، بذي الكون حتى طبق البر والبحر، فتى ندبته المكرمات فأرّخوا، لقد فاز بالدنيا يقينا وبالأخرى 1333.

ونقشوا على قبر رشدي الشمعة في مقبرة الباب الصغير بخط واضح جميل: هذا ضريح المرحوم شهيد الأمة العربية، حسن رشدي الشمعة، ابن المرحوم أحمد رفيق باشا، توفي صباح السبت الواقع في 4 رجب 1334 الموافق 6 أيار 1916

ونقشوا على قبر عبد الحميد الزهراوي في مقبرة الباب الصغير: لو كنت تعرف يا ضريح من الذي، واريت لطفقت تعلن بالأسف، واريت مولى كان أكبر فاضل، لوفاته بدر العلوم قد انكسف، عبد الحميد الفاضل الزهراوي من، هيهات تلقى في الزمان له خلف، قد باع بالوطن المقدس نفسه، واستعذب الموت الزؤام ولم يخف، مولى قضى والفضل قال مؤرخا، يا آل سوريا اندبوا قمر الشرف 1334

ولابد أنهم نقشوا مثل ذلك على قبر شكري العسلي، ولابد أنه كان قبرا جميلا محفورا في الحجر كقبور بقية شهداء أيار، لكن من سيدفن ابنه في قبره، فيما بعد، سيغيره وسيسجل على صدر الشاهدة: هذا ضريح المرحوم المغفور له شكري

بك العسلي، انتقل إلى رحمة الله ليلة السبت في 4 من رجب الفرد سنة 1334

في محطة رياق أوصى شكري العسلي أخته بأن تعلّم ابنه. وعلّمته. فنشأ مستقيما ونزيها. بعد مراقبته النكبات التي نزلت بالعرب لفّ نفسه بوحدته وكآبته في آخر حياته. ولعله قاس الهشاشة في معاصريه بذروة أيار فهالته المسافة. فقال لزميله زياد العظم، حفيد شفيق المؤيد، في آخر لقاءاتهما: كأن أبي مات عبثا! لكنه بقي منتسبا لمشروع أبيه. فدفن في قبره.

تعلمت بنت رشدي الشمعة، عائشة نديمة، وأنهت دراستها في الرشدية. أصبحت شاعرة كاتبة. كانت سعيدة وشقية بحبها لرمزي الجبان طبيب السكة الحديدية الحجازية لأن أباها استبعد زواجها منه متوجسا من الفرق بينهما. صدم حبيبها أن رجلا كبيرا استبعده. ثم صدمه استشهاده. ثم أذهله أن يتزوج حبيبته بعد فقد أبيها. هزت تلك العواطف روحه وجسمه. لكن حبهما بقي عميقا ومستمرا حتى موتهما. فدفنها زوجها إلى يمين أبيها في قبر فخم كقبره، وسجل على شاهدتها حبه وحزنه: رماني سهم البين فاستحكم المرمى، بموتك ندمى في كل جارحة، شهيدة تحرير البلاد من العدى.. كريمة رشدي الشمعة.. رفيقة رمزي.. وكانت عائشة نديمة ذات مكانة اجتماعية. استضافت الموسيقي عبد الوهاب وأنزلته في غرفة خصته بها، وسمت باسمه بيتها. ماتت دون أولاد في سنة 1946. بعد سنة واحدة توفيت أمها أمينة خانم سليمان بك وسجل لها أنها "زوجة شهيد العروبة رشدي بك الشمعة".

أما جمال باشا فسيقتله في برلين فدائي أرمني من أولاد ضحايا مذابح الأرمن، ويضيع قبره.

بعد شنق قادة بلاد الشام في ساحة البرج أيمكن أن تفهم منور هدوء بهاء؟ ما أبعده عن أحزان الناس! في غضبها عليه فكرت بالطلاق. ثم ردت نفسها: بعد الزواج لا طلاق، ولو امتد الهجر إلى آخر العمر! فالطلاق فشل لن تعلنه ولن تعترف به. وهل تخفى عليها لوعة بهاء؟ رجاها ألا تخرج من البيت كيلا تغرف من حزن بيروت. فغضبت: تخاف علي وأصدقاء سعيد وقدري شنقوا والضابط الوطني سليم الجزائري ابن سوقساروجا أعدم؟ تركته وخرجت كاشفة الوجه، معلنة دموعها وملامحها الحزينة. مرت أمام نافذة فاطمة المحمصاني وتفرجت على صورتي محمد ومحمود اللتين علقتهما فاطمة في النافذة. إعلانا عن الحداد ودعوة للمدينة إلى التمرد على جمال باشا! وقفت منور وبكت عليهما.

ستقول منور لبنتها ليلى ذات يوم: هل تتصورين أن أزواجنا يولدون هكذا؟ لم تربهم أمهاتهم، بل نحن ربيناهم! وستنتفض ليلى: لا تتحدثي هكذا عن أبي! وستنظر إليها منور فاحصة. كيف فاتها أن الأولاد يرون آباءهم كاملين؟ كانت منور يومذاك تلتمس من يشاركها عودتها إلى بهاء المقتول في الجليل، بعد أزمنة تفادت فيها الكلام عنه. صمتت. لا يمكن أن تكون ليلى المحاور الندّ! لن تعبر منور ما بينهما من عمر! فهل يمكن أن تفهم صبية في عمر ليلى جولات منور السرية في أرجاء حياتها مع بهاء. وهي تتبين أنه كان المحور المرفوض والمرغوب. لذلك منعت حتى الحديث عن زواج ليلى مبكرا. فلتكن لها حياة قبل الزواج، تتذكرها مهما أحبت زوجها!

ما كانت ليلى في ذلك العمر تستطيع أن تخمّن حوار منور مع نفسها وهي تصحح ما حدث أو تؤكده. كانت صورة بهاء ما تزال معلقة على الحائط. يبتسم فيها وهو ينظر إلى من تستوقفه، كأنه يستميله إليه. يزيد من سحره أنه قتيل في أرض مستحيلة.

كان بهاء في تلك الأيام في بيروت قد افتتن بالتصوير. جلست منور أمامه وأدخل رأسه في القماشة السوداء: لا تتحركي! استديري إلى اليمين! لا، إلى اليسار! رأسك إلى الأعلى قليلا. يا سلام! لكن الصورة لم تكن تعبر عما يريده. ولم يبال باستحسان منور. زيّن رأسها بالفل واختار لها ثوبا نيليا، ولكن ما أبعد ما رآه عما ظهر في الصورة! قالت له: الفل صغير. الورد أفضل للصورة! صدح ضحكهما في تلك الأيام. وصارت تنظر إلى عدسته لتمثل حيرة العاشقين

وشرودهم. استندت مرة إلى شجرة الليمون وأسندت رأسها بكفها ساهمة العينين كالنساء في صور البطاقات التي ستصل من اوروبا. لبست "روب دوشامبر" من ساتان أزرق ووقفت بين ورودها كامرأة سعيدة. قالت له أخيرا، كفى، فلتكن هذه آخر صورة!

هل دفعها الحنين إلى الفرجة على صورها فتناولت "بلّورة" ورفعتها إلى الضوء متوقعة أن ترى نفسها؟ هبّ قلبها. وشعرت بوخز حار في يديها. رأت امرأة تنزلق ملابسها الداخلية عن جزء من صدرها. امرأة جميلة، لا تظهر ملامحها في "البلّورة" لكن يظهر قوامها الجميل وشعرها الطويل. أعادت الزجاجة إلى مكانها وأغلقت الباب. انحنت على الحنفية، وسال الماء على خدها وعنقها. أهذا هو بهاء الذي كان يقبل عليها في لهفة المشتاق؟ تجتمع خيانتاه: لها وللشهداء!

لم يجد صحنها على الطاولة عندما عاد. تعشيت قبلك! تغديت قبلك! سأفطر عندما أجوع! يوم قصد أن يرجع مبكرا ليتغدى معها ادعت أنها أكلت قبله. لا يريحها السرير لذلك نامت على مقعد تحت شجرة الليمون! تتقلب فتخشى أن تؤرقه، لذلك اختارت غرفة أخرى! غابت في الأمسيات عند صديقاتها. لم ير من قبل مثل تلك الحشود من النساء اللواتي يطلبنها. خططت هي السهرات والزيارات. حتى اشتهى أن يراها في البيت إذا رجع مبكرا أو يراها مستيقظة إذا رجع متأخرا. لكن أشد من ذلك كان عقابها الآخر. رآها جالسة قرب ورودها تعزف على العود وتغني: أنت الذي حلّفتني وحلفت لي، وحلفت ألا تخون فخنتني، وحلفت أنك لن تميل مع الهوى، أين اليمين وأين ما عاهدتني. صارت تلك الأغنية نشيدها. تترنم بها كلما رجع بهاء، تستعيدها وهي في المطبخ، وهي تمشط شعرها، وهي تسقي ورودها، تغني كأنها لاتراه.

لا يستطيع أن يعدّ أيام عقوبته. فما أطول اليوم وما أقصره! ما أطول الفصول وما أقصرها! أي سبيل لم يسلكه كي يسترضيها! في يده علبة من المخمل النيلي: لك! التفتت في برود. سألها: ألا تتناولين الهدية؟ ردت: مفاجأة؟! قال: قرطان جميلان. أشارت إلى الغرفة: ضعها هناك، إذا أردت! أو في أي مكان آخر! لم تمسها طوال غضبها عليه. وتعمدت ألا تمسح الغبار عن الطاولة التي وضعت عليها. حمل لها علبة من مربى الزهر. يذكّرها بأنه يهتم بما تحب! قال: من طرابلس! قالت: وصلت إلى طرابلس أيضا؟!

شعر ذات يوم بالرغبة في أن يقبض على يدها ويصرخ: قولي مافي قلبك!

وكأنها قرأت غضبه فنظرت إلى عينيه بملء عينيها كأنها تقول له: تفضل، اكسر آخر ما بيننا! وسمعها تقول في المساء لجارتها: أفكر في أن أنزل إلى طبرية! فانطفأ غضبه وسعى ليثير شفقتها. عاد كأنه يترنح من السكر. وطرق الباب كأنه ضيع المفتاح. نظرت إليه وقالت: شرشحت نفسك! لن يعجب بك أحد هكذا! آه، ليتها تقول: لن تعجب بك النساء ليبرئ نفسه. حظه سيء لأنه لم يمرض في تلك الأيام! أتى متمارضا يلهث. استلقى بثيابه في الفراش. فحصته بنظرة. آه، كشفته! لكنها وقفت على ضفة لعبته. حملت له كأس ليمون، وضعته قرب فراشه وانصرفت: تلزمك راحة!

قرر أخيرا أن يسألها لماذا؟ من روى لك.. وماذا روي؟ جمع شجاعته وانتظر البرهة المناسبة. وجدها تغني أغنيتها التي تسوطه بها، وهي تنشر الغسيل. وقف في الطرف الآخر من الحبل وسألها: أرجوك يا منور لا تعذبيني! سألته دهشة: أعذبك؟! قولي هل الغيرة هي السبب؟ ماذا قيل لك، ومن؟ قطعته بنظرتها: اسمع، أفترض أن يكون من أعيش معه من مقامي! فليزن كلامه من لا يستطيع أن يزن سلوكه! ممن أغار؟!

كان بهاء قد نسي الصورة. وفقد شهيته للتصوير في تلك الأيام كلها. فظل يبحث عن سبب غضبها دون أن يخمّنه. لا يمكن أن تعرف أنه سهر عند نرمين وأنها استمالته. لا شاهد هناك يعرف منور! كانت سهرة حلوة في بيت نرمين. كان لديها نساء ورجال ومغنية. استبقته عندما انصرفوا. هو الوحيد المخلص لزوجته بين أصحابه! فهل يلام إذا لعب به الهوى مرة؟ كذب على نفسه. مرة؟ في الطريق إلى بيته كان يلوم نفسه. وعندما يرى منور مشرقة الوجه يتألم من صفائها، ويتمنى أن تقابله بغضب كي يبرر متعته الأخرى. ثم ينساق في صفائها ويجد نفسه غارقا في حبها. لكنه في النهار يتبين مهارة نرمين في إغرائه، ودأبها في البحث عنه، دلالها الذي يستحثه على السعي إليها، ودلالها عندما يقبل عليها. تجهل منور كل ذلك. هذا عالم يجب أن يعرفه، لأنه رجل يعيبه ألا يكون كغيره! أهو حمار يساق بين الشغل والبيت؟! لم يعن ببيته كما عني به في تلك الأيام. اشترى لمنور جوارب بليرات ذهبية. طلب أن تستبدل المناشف والشراشف. من يسهر معه لا يمكن أن يعرف منور ولا يمكن أن تعرفه. فمن روى لها حكاية نرمين؟

قرر أن يعترف لها بأن امرأة استهوته وأن يطلب مغفرتها. سيعدها، سيقسم لها، وسيرجوها! ارتعشت منور عندما ركع فجأة أمامها. هبّت واقفة وقالت له:

انهض! يا حبيبتي كفى، أرجوك! أعترف لك بأني.. رفعت منور سبابتها: إياك! ولا كلمة! عن مثل هذه الأمور لا يجوز الكلام! إياك! هل توقّع ولو في الحلم أن تكون هذه الشابة على مثل هذا الحزم؟! أبدا! ولعله لذلك انساب في هواه. لم يعد يشك في أنها تدينه لأنها تعرف خيانته. لم يخطر له إلا فيما بعد أنها منعته من الكلام عن ذلك خوفا على كرامته، وعلى كرامتها! قالت لسعيد يوم رجاها أن ترحم بهاء: "احفر وطمّ"! وفهم أنها طلبت منه ومن نفسها أن يدفنا خطأه. ولم يكن ذلك مغفرة، فمثل ذلك الخطأ لا يغفر. لكنها سمحت له بأن يحاسب نفسه ليستعيد حبها! وفهمها عندما أشارت له إلى الحمام. كأنها قالت له نظف جسمك وروحك من الوسخ! لكنها أبقت له حرقة لا ينساها: يجهل كيف اكتشفت خيانته. ولن يجسر أبدا على ذكرها. كانت لديه فرصة لسؤالها عن ذلك يوم خرج آخر مرة إلى جيش الإنقاذ، وخمن أنه قد لا يعود. ولكن أكان يمكن أن يحفر ما طمراه، وهما زوجان سعيدان في عشية الفراق!

فهمت منور يومذاك حرقته. لذلك لم ترغب في أن ترافقه إلى صيدا! فليسافر وحده! ستتصرف في غيابه إلى توزيع الخبز على الجائعين، وستسهر مع صاحباتها وسيعدن مجموعة في منتصف الليل بالترام، ستصغي إلى البحر المضاء بالقمر، وتدخن الأرجيلة والقمر يغمر بيروت. فلتبك يا بهاء من العطش إلى المرأة التي ستحبها حتى آخر حياتك! ولتعرف، عندما ترحل إلى دمشق، أنك ضيعت أيام بيروت!

قال سعيد لقدري: بعد حملة الترعة ألغى جمال باشا امتيازات لبنان، ومنع عنه قمح سورية. ومن البحر حاصرته فرنسا وإنكلترا وروسيا. وهم جميعا مسؤولون عن الجوع في لبنان! يوم ضربت بيروت البارجة الفرنسية جان دارك، والروسية اسكولت في كانون الأول 1914 انتقل القادر من أهل بيروت إلى دمشق. بهاء عمل العكس! نبهه قدري: سبب الجوع أيضا حصار "الحلفاء"! مع ذلك سافر سعيد إلى بيروت ونزل في بيت بهاء. كرمه بهاء بسهرات في المسرح. فهل قدم له السعادة فقط؟

سرح في بيروت التي جره إليها بهاء. هذه ليست بيروت الجائعة، بل بيروت الغنية، والتي تغتني من الحرب! يا سعيد، تهتز البلد فيسقط الصغار ويبقى الكبار في الغربال! في حرش بيروت تسلّم بنات مثل الوردة أنفسهن للعسكر لقاء بقسماط وقطعة خبز. وتصادق المحظوظات منهن الضباط الأتراك! يا بهاء، في فلسطين أيضا خراب، لكنه أقل مما رأيته هنا حتى الآن! قل لي، هل كان مخفر النهر موجودا يفتش الداخل إلى بيروت والخارج منها، أم أني نسيته؟! هذه ليست بيروت التي عرفتها! تستطيع المدن أن تتغير بهذه السرعة؟ دعنا من الهم يا سعيد، في مسرح كوكب الشرق عازفات نمسويات يفتحن القلب. لنستمع إليهن قبل أن ينتقلن إلى حلب!

أحب سعيد العزف على العود، لكن سحره الكمان. بقي صامتا زمنا بعد استماعه إلى العازفات النمسويات. قال لبهاء: يطربني العود. لكن الكمان يثير فيّ الشجن. ومن منا لا يحتاج أن يستسلم للأسى أحيانا! مشيت بعد الحفلة على شاطئ البحر من الزيتونة حتى رأس بيروت وجلست على الأرض أمام الروشة، وحيدا ليس معي إنس ولا جن! تخاف علي؟! تمنيت أن أرش العازفات، مثل أهل طرابلس، بالذهب! فما فائدة الذهب يا بهاء إذا لم يكن للعازفين والمغنين والطرب! تذكّر سعيد حفلات سلامة حجازي في جرينة حيفا وفي الشام. كان المنادي يعلن عن الحفلات أمام المقاهي وفي الأسواق، ولم أخيب نداءه أبدا!

لم ير بهاء من قبل مثل هذا الأسى في سعيد. هل ضايقه أن تدخل مجموعة من العسكر إلى المقهى باحثة بين الحاضرين عن الأنفار الهاربين، أو عمن يمكن أن تسوقه نفرا؟ قال لنفسه: لا، ذلك أكثر عمقا! لم تتغير البلد فقط! تغير كل منا بطريقة ما! ورافق سعيدا إلى مقهى المرصد في ساحة البرج. رحبت منور

بذلك. تريد لأخيها الفرح! بعد نجاة بهاء من حملة الترعة هاهو في بيروت، فليبق سعيد معهما! تمنّت: فلتبق معنا يا سعيد! لكنه قال كأنه ممثل على مسرح: يجب أن أعود إلى طبرية! لن أضيع تعب خالي قدري الذي سعى لي بوظيفة مدير عنبر! لنقل هذه الزيارة للاطلاع على بيتكم الجديد!

توهج وجه منور. كيف تستطيع أن تضحك، وكيف يستطيع سعيد أن يمازحها ونوري غائب في الحرب! وعلى بعد أمتار من نوافذهما أنّ الليلة رجل. ألم يسمعا نداءه: جوعان.. جوعان! نداء ضعيفا كأنه آخر استغاثة! سمع سعيد الباب يفتح ثم يغلق. ولمح بهاء منور تتسلل من الغرفة. لكن أيا منهما لم يظهر أنه سمع الصرخة، ولم يسأل منور هل هي التي فتحت الباب وخرجت إلى الرجل! خافا من لقاء الجائع! وكانت منور أكثر منهما جرأة في النظر إلى حطام إنسان تعرف أنها تستطيع أن تعطيه قطعة خبز، لكنها لن تنقذه. تأملها بهاء وهي تقطف فلّة تضعها قرب فنجان القهوة الذي قدمته لسعيد. كم نستطيع يا أختي أن نقنّع وجوهنا! بل قل، نقاوم الهمّ!! أنت في بيروت زائر يا سعيد. أنا التي أسمع نداء الجياع، وأراهم ينتظرون الموت في الطريق! هل فهم سعيد ما قالته بصمتها؟ وفهمت يا سعيد ما قلته بصمتك!

تمنى بهاء أن يطيل سعيد زيارته. احتمى به! هانحن يا منور نسهر معا، فلماذا تلوميني على سهري وأنت ترغبين فيه له؟ فهمت منور ما يقصده بهاء، وأهملته! يا مجنون هذا زائر، أخوه في الحرب كالمفقود! أنت ممن تهرب؟ ممن تستنجد بالمغنيات والراقصات؟ لم تلمه منور مباشرة على سهره في المسارح. قالت مرة: يموت الناس من الجوع، فكيف يستطيع آخرون أن يسهروا حتى الصباح مع المغنيات؟! ردّ بهاء بعد أيام: أسوأ ما في وظيفة مدعي العموم أن صاحبها مضطر إلى مرافقة الزوار والضباط الأتراك والموظفين المهمين حتى إلى المقهى! هل يخجل من الاعتراف بما يعرفه كلاهما؟ أجابته بابتسامة تقول: ذلك أحلى على قلبك من العسل! يا للجنّية! كيف خمنت أن الطرب هزّه عندما قصدته المغنية وهي تغني: آه يا أسمر اللون، حياتي الأسمراني، حبيبي وعيونو سود، أما الكحل رباني! عندما روت إميلي سرسق لبهاء أن بديعة مصابني التي تغني وترقص في مسرح كوكب الشرق اشتغلت عندها في مشغل ايرلاند يوم كانت صبية فقيرة، همست منور لنفسها: هذه إذن إحدى ساحراته؟! قالت إميلي: في مقهى الزيتونة أيضا غناء ورقص! قالت منور: ذلك أفضل من السهر في ملهى قرب ساحة الشهداء! أبعد بهاء نظرته. تلومه لأنه يستطيع أن يسهر مع الضباط

الأتراك قرب ساحة شنق فيها رجال بلده! ما أكثر ذنوبك يا بهاء!

يصعب على امرأة مثل منور أن تستسلم للجنون في مدينة مثقلة بالضباط الأتراك والنساء، بالجياع والأغنياء. في الحرب جنون لن تعرفه شابة مثل منور، متزنة، واضحة العواطف. لأنها لم تعرف السّوق في حملة الترعة! كيف تفهمين يا منور الرغبة الوحشية في الحياة بعد النجاة من الموت؟ لم تري نفسك ذرة غبار بين آلاف مثلك لم يعودوا معروفين باسم وأسرة ومدينة بل بأسماء فصائل ومسؤولين عنها. محي الفرق بين أحدهم وبين الآخر بثوب عسكري. إذا مات أحدهم لا يجد من يحزن عليه، وقد يحفر له قبر في أرض لم يعرف اسمها! كيف تفهم منور التي تغتسل كل مساء من اشتهى غسل وجهه بالماء! كان هناك يستنجد بخيال منور ليستعيد حياة بعيدة عنه. لكنه الآن في بيروت وهو موقن بأن الأتراك سيهزمون، وأن بلاده كلها على كف عفريت، يخفي قلقه بالإقبال على الحياة في وحشية. لا تستطيع منور أن تفهم الشرخ في روحه. تظن أنه يتسلى مع الضباط الأتراك في المقاهي! لا تعرف أنه هناك يواجه مصير بلاده! فيتمنى أن ينتصر اولئك الضباط. لكنه وهو يرى غرورهم وزهوهم بعنصرهم وتشفي بعضهم من اللبنانيين الجائعين، يوقن بهزيمتهم. ويرجوها لهم. فيقول لنفسه: فليذوقوها! وهو يعرف أن هزيمتهم ستكون هزيمته! بعضهم مهذب؟ لكن لا أحد يبوح حتى بشفقته! لا مكان للرحمة في حرب لم يهزموا فيها بعد! يحدثونه عن لورنس الإنكليزي. نعم، هذا الذي كان ينقب في قرقميش عن الآثار! يبدأ الجواسيس يا بهاء بك بالتنقيب عن الآثار. ألا تذكر غرترولد بل؟ يتيح لهم ذلك الصلة بالبدو، واصطناع رجال يرافقونهم ويسترونهم. احتمى لورنس بدولة عظمى لم نكن معها في حرب، لذلك تحملنا تطاوله حيث كان ينقب. سرق آثارا نقلها إلى بلده. لكنه يريد الآن أن يسرق البلاد نفسها! ذلك هو الرجل الذي جعله فيصل، سليل النبي، مرافقا له! لا يستطيع بهاء أن يبصق البحصة من فمه فيقول لهم: نقبوا عن السبب في شنق رجال العرب في ساحة البرج وفي ساحة المرجة في أيار! ألم نحارب معكم في الترعة؟ ألم نحارب في جناق قلعة؟ نحن الذين لم نخلص للدولة أم أنتم؟ رباني خالد آغا على الإخلاص للدولة ولكن هل ينسى هو نفسه المشانق التي نصبتموها قرب حيّه؟ كلما حدثوه عن لورنس هب قلبه، وقال يجب أن تنتصر تركيا على الإنكليز! لم يحترم خالد آغا الاتحاديين، فهل أستطيع أن أثق بلورنس، هذا الهزيل المنمق؟ صادفته مرة في فلسطين، حيث كان يبحث عن الآثار. ولاحظت أنه لا يستطيع أن ينظر زمنا في عيني من يحادثه. نعم، لا أثق

فيه! لكن هاهو لورنس قرب قائد الجيش العربي! كيف يبتلع بهاء ذلك؟ تقرر الحرب مصير البلاد، وتشعره بعجزه. من يستطيع أن يقول الحقيقة يتهم بأنه مع الشريف حسين! وما أسرع الأحكام في محكمة عاليه. فهل تستطيع منور أن تفهم ما يدفع بهاء إلى قلق كالجنون؟ لا يريد لها أن تعرف ذلك! وقد اختارت على كل حال أمنية أخرى: فليهزم الأتراك جزاء ما يذيقونه الناس، ولو أتى بعدهم الشيطان! رددت هي أيضا: "أكثر من القرد ما مسخ الله"، فماذا يخشى اللبنانيون بعد الموت من الجوع؟! لا يستطيع في البيت أن يكشف جنون المقهور. لكنه يطلقه وهو جالس في جانب قصي من صالة فيها رجال أمامهم نساء يرقصن على المسرح. يهرب من القلق بالفرجة. يردد الأغنيات القديمة مترنما كأن طرب. يستسلم مع ضيوفه للسهرة. لا تعرف منور هذا العالم الذي أغلق الأبواب على نفسه وشطب الحقيقة الكبرى خارجه. رجال يصفقون ويصرخون. وطرب مجنون. تفتن بديعة مصابني الحاضرين بثيابها ورقصها وتوهمهم بأن الدنيا هي هذه التي يرونها. وعندما تمشي بينهم لتجمع البخشيش يرمون لها الثمين ويفيض صحنها فيقدمون لها قبعاتهم لتملأها! رمى لها رجل ليرات إنكليزية "أم حصان"! لا يحضر الضباط الأتراك المهمون هذه السهرات في المقهى. بل ينظم لهم أغنياء بيروت حفلات خاصة. رأى بهاء في إحداها بديعة مصابني ترقص وتغني ورأى فتيات يعزفن. أخذ بعض الحاضرين الطرب فتمايل، وأوهن الشراب الوقار. وتمنت الراقصة لو تكون تركية! هل أوهم بهاء نفسه بأنه منهم؟ يجمعكم الإسلام؟ أي إسلام يا بهاء! لذلك بدا أكثر راحة في المقهى بين أكثرية عربية.

حرّمت منور على بهاء استقبال الضباط الأتراك في البيت. قالت: استقبل أهلي الموظفين الأتراك المهذبين، واحتفوا بزوجة كامل باشا. وأستقبل هنا زوجة غوتوك التي ربيت في سرايا السلطان عبد الحميد. لكن الضباط الأتراك الذين يهينون الناس بالجوع لن يدعسوا عتبة البيت! ولم يكن بهاء ينوي أن يدعو أحدا منهم إلى عشاء من غيرته عليها.

هل حاربته بجولاتها بين الأسر الجائعة وهي توزع أرغفة من الخبز؟ لم يخطر له أن يطلب منها أن تبيع بعضه! ولم يجسر أن يحضر إلى بيته السكر والرز الذي أهداه له الضابط التركي خيري بيك! راقبها وهي تزرع الخضار في حديقة البيت وتقطفها. وخمّن أنها تبيع حليها الجميلة الثمينة. فهل كانت تربي الحب بينهما أم تربي العتب؟ قال، بل تنسج حياتنا! وتخفي بالكبرياء شجاعتها وعنادها. وكم كانت هذه المرأة التي تعود من جولاتها محمرة العينين من البكاء،

متواضعة ومتكبرة!

رافق بهاء في نهاية الأسبوع خيري بك، إلى حفلة في بيت أحد الأغنياء في حارة سرسق، فيها غناء ورقص. فحص الحاضرين والمغنيات والعازفين والعازفات. غمره نفور من صاحب البيت الذي دعا ضباطا يستطيعون أن يرسلوا إلى الديوان العرفي أو المنفى في الأناضول من يشاؤون! ينفق على هذه السهرة في كرم لأنه سيكسب من احتكار الحبوب. ونحن؟ من الكاسب، نحن أم الراقصة والمغنيات؟ ستملأ هذه الراقصة حضنها بثلاثين ليرة ذهبية في آخر السهرة، وسيرسل إليها ما تشاء من زيت وسكر وطحين! ملكات هذا الزمان بهية وثريا سميكة اللتان تعزفان على القانون والعود، والأختان اليهوديتان شطاح. وأنت يا بهاء؟ أين مكانك في هذا الزمان؟ قلبك عند الشيخ عباس الذي أغلق الأتراك مدرسته ونفوه، وجزء من روحك مع هؤلاء الأتراك؟

أسكت نفسه وردد مع الحاضرين الأغنيات. تمايل مثلهم مستسلما لطربه. وأتاه ايقاع التصفيق كأنه من أرض بعيدة. "زورونى كل سنة مرة، حرام تنسوني بالمرة.." لم ينقذه من الأسى غير الأغاني الأخرى: يا مايلة ع الغصون... أنا رأيت روحي في بستان. هل يكشف الطرب روح الإنسان؟ نعم، الطرب كالشراب! لذلك شعر بهاء بالقرب من خيري بيك وبالبعد عن آخرين. لكن هل تنكر يا بهاء أن سهرة الطرب جمعتكم بروح واحدة؟ تدركون جميعا أن هذه السهرة كخشبة في بحر، كل منكم هارب عليها من مصيره. حتى هؤلاء الذين ترتجف منهم بيروت يشعرون بأن الحرب ستبددهم. انتهت الأحلام بالنصر! وهذه التي تطربكم في هذه السهرة ستستقبل أعداءكم المنتصرين! وستمتلئ السهرة أيضا بطربهم وسيطلقون فيها ما كبحه الوقار! وسيتوهج الجنون على الحدّ الذي تتأرجحون عليه بين الهزيمة والنصر!

في آخر الليل رفض بهاء عربة خيري بك. عاد ماشيا إلى البيت، عابرا حارات الأغنياء، بعيدا عن الطرقات التي يموت فيها الجياع. أمام البيت تلكأ ثم جلس على العتبة، وانتظر الفجر. همس مغنيا: "آه يا معلم يا معلم، البحر كبير يا معلم، والشختور صغير يا معلم". أي بحر كبير، وأي شختور صغير تقصد، يا بهاء؟ أنت الشختور الصغير؟ أهكذا حط بك الحزن فوجدت مدى يلمس حياتك في هذه الأغنية التي كنت تقول إنها سخيفة؟ وحيد وحزين؟ بعد تلك السهرة الفخمة وذلك الغناء المطرب يا بهاء؟ مسح دموعه بمنديله، ومنع به النشيج. ثم وضعه على أنفه! وخيل إليه أنه يشم في المنديل الذي غسلته منور وكوته، عبق

أصابعها، وفلّها، وصابون الطيب الذي تدسّه بين ملابسها وشراشفها. هل يتقلب على الجمر كالجالس على باب الجنة ممنوعا من الدخول إليها؟ هل تثقل قلبه بيروت التي يشطرها الجوع والغنى، ويتظاهر بأنه يعيش فيها كموظف مخلص لوظيفته؟ أم يعذبه ما بينه وبين منور من حب ومن صراع لا تعترف به ويتظاهر هو بأنه لا يلمحه؟ أتنفجر الليلة أحزانه من يتم مبكر بقي فيه ظامئا إلى الأم، ومن ظلم منع عنه الطمأنينة، ومن موت أعزائه، ومن زلزال يهدر وسيهز بلاده وأسرته؟ يتوه الإنسان وقت يغلب التساؤل اليقين ولا يوصل إلى الفرج! يا منور، لو أستطيع وتستطيعين الآن أن ننسى أنك زوجتي وحبيبتي، لنتفق أنك أمي وصديقتي! لكنك تندفعين إلى عداوتك من أصادقهم، وانحيازك إلى ضحاياهم. لا تلاحظين أنني أنا أيضا ضحية! لم يمت القتلى الذين دفناهم في حملة الترعة فقط! مات شيء في الناجين منها أيضا!

فتحت منور عينيها وهي تسمع خفقان قلبها. من مكانها لا يمكن أن تسمع بهاء فهل شعرت به؟ مشت حافية إلى الباب موقنة بأنها تسمع صوته. نعم، هو! قفزت يدها لتفتح الباب. ثم ردتها. يا منور، إياك أن تجرحي كرامته! ستخفين حتى الموت أنك سمعته يبكي! قد يجلد الإنسان نفسه، لكن الفرجة عليه عندئذ عدوان على سره. دعيه! روحه مريضة، ولن تشفى إلا إذا بلغ المرض حدوده! عادت منور إلى فراشها حافية كما أتت. وكان بهاء يتمنى أن تفتح الباب وتحتضنه!

هل يقتطع من نكرههم من عمرنا أكثر مما يقتطع منه من نحبهم؟ في أي بيت في دمشق لم يكن جمال باشا حاضرا؟! كم مرة تفرجت نرجس مع الناس على استقباله ووداعه وبيارقه؟ ألذلك يشعر خالد آغا بشيء من الشفقة والتعالي على الناس؟ تقرر النخبة قدر البلاد! الصراع، ولو باسم الناس، صراع بين نخبة وبين نخبة أخرى تقابلها! أزمة خالد آغا أنه بين هذه وتلك. لذلك لم يفد بتأملاته غير أهل حارته. فجعلهم يطلّون على الأحداث من قلبها لا من ظاهرها. وحزمهم مجموعة يصعب أن يتسرب إليها الغريب أو الواشي. فتذوقت حرية مغلقة لكنها مستحيلة. فمن يجسر أن يذكر جمال باشا غير خالد آغا والجالسون في مقهى الجوزة!

تأمل خالد آغا، جمال باشا منذ البداية كمن يجمع الأدلة كي يحكم عليه! حاكم عسكري شاب بين أصابعه بلاد! يحلم حتى تلاميذ "المكاتب" بما يتجاوز محيطهم! لكن ما أخطر أحلام رجل يملك سلطة مطلقة في أيام الحرب، فيتصور أنه يملك المدينة والناس! ثبت ولاة دمشق ذكراهم في مساجد ومدارس وأضرحة مزخرفة. فأبعدوا عمن لا يعرفهم الانتباه إلى شرّهم. وربما ما كان لأحد أن يذكر اولئك الموظفين العابرين لولا الأبنية التي شيدوها. وقد تتساءل الأجيال حتى من هو تنكز، من هو سنان باشا، من هي زوجة المعظم عيسى، وربما من السلطان سليم وسليمان، مشغولة بزمنها. لكن هل يفهم جمال باشا ذلك وهو يحكم بلاد الشام كلها في زمن حرب عظمى؟! وحوله مستشارون ألمان يرسمون له ما يستطيع أن يغيّره في بلاد! ولديه المال كحاكم عسكري، لينفذ! ولديه العسكر الذين يشتغلون كعمال إذا أمرهم! قال خالد آغا في ثقة: يريد أن يغيّر سورية! حاجات الدولة في وقت الحرب؟ بل يغرس اسمه كحاكم يطمح إلى أكثر ما أعطي له! يشد جزء الدولة إلى جسمها الأصلي بعد فقد ليبيا في الجنوب والبلقان في الشمال؟ بل يشعر بسعة السلطة التي توهمه بأنه قادر أن يغير مدنا!

تفقد خالد آغا ما ينفذه جمال باشا، كما كان يتفقد سابقا حنفية الفيجة في سوقساروجا، وأشجار ضفة بردى، ونداء باعة الجرائد. دخل إلى الأبنية التاريخية التي يدرسها مهندسون ألمان، ورأى رسومهم. تفرج عليهم وهم يرممون جامع السليمية. عرف أن جمال باشا أفاد من المهندس الألماني شوماخر الذي يسكن في الكرمل، ليمد أنابيب الماء إلى حلب. فقال لنفيسة: شوماخر، يا نفيسة خانم،

كان صاحب يوسف، استقبلته فاطمة في بيتها. حكت لي أنها أطعمته كبة لبنية وكبة مشوية في العشاء الذي كرمته به بعد تمديد أنابيب الماء في بيتها! لم يستعمل خالد آغا أبدا جملة "رحمة الله عليها" عندما كان يذكرها. كأنه يرفض موتها. لكن نفيسة لاحظت أن الصمت كان يمتد كلما ذكرها كأنما بينه وبينها حديث يتابعه.

لم يسافر خالد آغا إلى حلب ليتفقد أنابيب الماء! لكنه غيّر اتجاه طريقه في المساء من ضفة بردى إلى الشارع الذي يعبد بين محطة الحجاز وبين سوق الحميدية. عرضه خمس وأربعون مترا وطوله ستمائة وخمسون مترا. خرب بيوت الناس ومخازنهم! وسترين يا ست نفيسة: سيسمى شارع جمال باشا، فهل يرى جمال باشا نفسه أقل من السلطان عبد الحميد الذي ينسب إليه سوق الحميدية؟! تفرض الحرب أن يهتم جمال باشا بالطرقات. كانت خزانات الماء في الطريق إلى الترعة لازمة للعسكر. ولكن ما ضرورة هذا الشارع العريض هنا؟! هل خمّن أن قدري كان يتحدث مع شفيقة عن الطرقات التي مدّها جمال باشا في فلسطين؟ كم تقرّب بعض الأزمنة أشخاصا متنوعين! كأنك الآن مثل قدري! لم يعد يجد الواحد منكما من يتحدث معه في صراحة غير قريبته التي تحفظ سره! قال قدري لشفيقة ما قالته نفيسة لخالد آغا: لن يبقى جمال باشا في البلد. بل ستبقى الطرقات!

فهمت نفيسة أن خالد آغا يريد أن تتبنى عداواته وصداقاته. كان حذرا وشديدا في اختيار من يقرّبه إليه، لذلك يطلب ثمن صداقته وثقته. فهل تغير نفيسة بحكمتها وهدوئها قوانينه؟ وتبين له بعد هذا العمر الطويل أن قوانينه ليست مطلقة، لأن نفيسة ليست مثل غيرها؟ قصدت نفيسة أن تتفرج على ما ينشئه جمال باشا كي تجر خالد آغا من غضبه عليه. إذا دمّر البلد زلزال بقيت الرسوم التي سجل بها الألمان الجوامع والمدارس والخانات! لماذا نفرح بمستشفى الغرباء، يا خالد آغا، ونحتفل بالخط الحديدي الحجازي ولا نفرح بالطرقات التي يوسعها أو يفتحها جمال باشا؟ تلك لوحدة الدولة وهذه ليست لوحدة الدولة في أيام الحرب؟ عندما تمسّ نفيسة الحقيقة التي يعرفها، يبتعد فجأة إلى موضوع آخر: قلت لي إنكم كنتم تفكّون الحرير على الطريقة العربية؟ فتجري حيث أراد، لكنها تكون شعرت بالعواصف التي ترميه في موقف وفي ضده. ويخيل إليها أن فيه رجلين أحدهما يتمنى أن يمسك ولو ببصيص ضوء، والآخر موقن بأنه غير موجود!

تابعت نفيسة الصراع في روح خالد آغا منذ بداية الحرب. رآها خطأ، لكنه طلب من ولديه أن يتطوعا فيها. لاحظت نفيسة ومض فرحه بسلامة بهاء وحزنه

المخنوق على ابنه الذي قتل في حملة الترعة. لكنه قال: خسرت الدولة معركة لا يمكن إلا أن تخسرها! هل تعرفين أن الإنكليز مسحوا سيناء على الطرف العثماني قبل الحرب؟ ومن اشتغل في المسح يا نفيسة خانم؟ لورنس ومكتب الجواسيس الإنكليز في القاهرة! أوقفتهم الدولة لأنها فهمت أن التنقيب عن الآثار حجة! لكنهم كانوا قد صوروا ما يحتاجونه! وصف لها الطرقات التي مهدت لحملة الترعة. صار الطريق بين استنبول وبين الشام معبدا كله. عدّ لها أجزاء الطرقات التي أصلحت، كما عدها قدري لشفيقة. دمشق طبرية نابلس القدس. عمان جرش. القدس الخليل. القدس يافا، دمشق بيروت، خطط طريق رياق نهر الأردن، وطريق درعا عجلون. مدّ مايزنر باشا سكة حديدية من المسعودية عبر الرملة ليصل الخط الحجازي بمصر. ربط الخط بين الرملة والقدس، وما بين دمشق والقدس في 1915–1916. مدّ خط من بئر السبع إلى القصيمة على الحدود المصرية. لذلك سيصل أنور باشا في زيارته إلى سوريا سنة 1916 بالسيارة حتى عمان. اشتغل في مدّ تلك الطرقات في الصحراء أربعون ألف رجل! مدّت معها خطوط تلغراف وخزانات مؤن ومياه واستراحات ونقاط طبية سيقول عنها أنور باشا عندما سيزورها بعد حملة الترعة الثانية سنة 1916: أكثر من ممتازة!

رأته نفيسة يضطرب بين ثقته بأن الاتحاديين جروا البلد إلى الحرب، وبين ضرورة الدفاع عن الدولة كيلا تقع الكارثة. بين عظمة الطرقات وبين استخدامها في مجد جمال باشا. هل تقول له إن طرقات الصحراء ستأكلها الرمال. لكن الطرقات الأخرى ستبقى، وستنقل الحرير والأقمشة الحريرية بين بلاد الشام! يحلّ الحرير في لبنان للفرنسيين على طريقتهم، وينقل من بيروت إلى ليون. لكن دمشق تنسج الحرير للمدن العربية، فيصل حرير الشام حتى السودان. سيفيد من الطرقات وقت تنتهي الحرب! وهل يتحمل الاوربيون أن تستمر الحرب زمنا طويلا؟ لكن نفيسة تكاد تتأوه كلما تذكرت أن جمال باشا قطع الغابات كي يستعملها في مدّ السكك وفي وقود القطارات. سمح بقطع أربعين في المائة من أشجار المشمش والزيتون والتوت! استثني شجر التوت فيما بعد، فهدأت نفيسة قليلا. وبقي حزنها على شجر المشمش! تأوهت: مدت الطرق إلى دمشق ومعان وحيفا كي تقطع الشجر وتنقله!! رأتها مرجانة مقهورة. ثم رأتها تبكي: يا مرجانة، لن يشرب أحد في دمشق شراب التوت في السنة القادمة! وعندما قدمت لها شراب القمر الدين قالت: قلبي على شجر المشمش! لن نرى زهر المشمش في الغوطة!

ثارت شفيقة مثل ثورة نفيسة وقت وصف لها قدري الحديقة التي صممها

المهندسون في بئر السبع، والشارع العريض في يافا: هذا وقت الحدائق والشوارع العريضة والناس يموتون من الجوع! لكن نفيسة لبست ثوبا آخر أمام خالد آغا. يوم قطعت أول أشجار التوت، قالت لنفسها: اهدئي! مر على هذا البلد أشكال وألوان من أمثال جمال باشا. ثم رحلوا! استنجدت بعقلها كيلا تبكي من العجز. يقرر رجل قطع أشجار جميلة، وارفة، كثيفة، مفيدة، تطعم دودة الحرير وتطعم الذين يشتغلون في فكّ الخيوط وفي نسجها وفي بيعها! من هي نفيسة دون توت وحرير؟ لكن ما هذه البلاد التي يستطيع فيها رجل أن يقرر موت صناعة، وموت أشجار، ولا يستطيع أحد رده؟ يستحق جمال باشا القتل جزاء ما قطعه من أشجار بلاد الشام! هاأنت يا نفيسة مثل خالد آغا! تحتاجين من يكون لك مثل ما أنت له! خيل إليها أنها ستشترك معه في الشكوى. لا، لا تستطيع! ألأنها لا تريد أن تزيد قهره؟ أم لأننا نثبّت في المكان الذي أخذناه ونصبح أسراه؟ يلجأ إليها رجل لا يلجأ إلى أحد، فهل تصبح هي الشاكية؟ استمعت إليه. تختلط جروح روحه بقلقه على البلد. يشكو حتى من وجود الألمان في البلد! كادت تقول له: ليست المشكلة أن عسكر الألمان وجنرالاتهم في سورية، بل أنهم مع الاتحاديين! وليست المشكلة أن يخطط الخبراء الألمان الطرقات ويرسموا الأبنية القديمة ويصوروا البلد، بل أنهم يعملون ذلك مع الاتحاديين! المشكلة أننا في حرب لا نريدها لكننا يجب أن نحارب فيها لعلنا ننجو بالبلد من احتلال الاوربيين! هكذا يا خالد آغا يضعوننا وسط المصائب ويقولون لنا ابحثوا عن النجاة منها! لكن أليس كل ما يشغل نفيسة وخالد آغا في الأمسيات ويدوران حوله مقهورين أو متفرجين تفاصيل قررتها الحرب؟ حاجة الحرب أن تتصل الأناضول بالحدود التي يواجهون فيها الإنكليز تعني الطرقات التي يجب أن تصل الأناضول بسورية بفلسطين! أضاف جمال باشا على ذلك الأبنية التي تؤكد هيبة الدولة وسطوتها، بعض الحدائق، بعض الترميم، بعض الأحلام بتغيير مدينتين مهمتين هما دمشق وبيروت! لكن الهزيمة ستنثر حتى طرقاته في الهواء! فتقسيم الولايات العربية بين المنتصرين يفترض قطع الطرقات!

قالت منور عندما عاد بهاء من النادي الكبير الذي افتتحه جمال باشا في بيروت: لا قلب له! يموت الناس من الجوع، ويفتتح هو ناديا! روى لها بهاء: أراد أن يكافئ ألفريد سرسق على ما يقدمه للفنانين من مساعدات وأعمال يشغّلهم فيها ليخلصهم من المجاعة! ردت منور: ستتخرج من مؤسساته إذن راقصات ومغنيات. ألم تتخرج بديعة مصابني من مشغل إميلي سرسق! لا تفوّت منور رسالة يمكن أن ترسلها لبهاء!

لكنها انشغلت بأمر آخر! آوت فتاة مات أهلها من الجوع. وجدتها مصابة بالتيفوس فنقلتها إلى بيتها. ونسيت بهاء وصورة نرمين وهي تداوي جولييت. أخذ التيفوس كثيرا من أهل بيروت. لن تنقذي جولييت! وأخشى أن تصابي أنت بمرضها! بل سأشفيها! شفتها وسجلتها في المدرسة. ألسنا نعوم على الموضة التي ينفخها جمال باشا، "تعليم الفتيات"! كانت خالدة أديب وقتذاك في بيروت! جمال باشا من معجبيها. قصدته في دعوتها إلى تأسيس المدارس للبنات، فهل يردها أم يفيد منها؟ شغل خالدة أديب ميتم عين طورة، وزارت مدرسة البنات في بيروت. سألت: من هذه السمراء الحلوة؟ جولييت! طلبت أن تراها بعد الدرس. يتيمة إذن؟ قالت جولييت لمنور: تريد أن تتبنّاني! يا ويلهم! يقتلون الأهل ويسرقون ابنتهم! أرقت منور تلك الليلة. هل تحرم الفتاة من فرصة تتمناها اليتيمات؟ هل تحكم منور عواطفها؟ في الصباح أجلست الفتاة أمامها: اسمعي! اختاري أنت ما ترغبين فيه. لكن واجبي أن أنبهك. قد تعيشين حيث تضعك خالدة أديب حياة هينة. لكنك ستتذكرين موت أهلك من الجوع. وستصبحين اثنتين. واحدة تعترف بالفضل لكاتبة تركية تخدم جمال باشا وجماعته، وواحدة تعرف أن هؤلاء مسؤولون عن موت أهلها. بلد خالدة أديب ليس بلدك. لكن قرري ما تريدين. وإياك أن تشعري بأن من ساعدك يقيّدك! لا يمنّ بالواجب!

يصور الصخب فضائل لجمال باشا لا يستحقها! لم ينشئ جمال باشا مدرسة جديدة للبنات! بل جعل المدرسة الفرنسية للبنات التي أغلقها في الحرب مدرسة عثمانية! قال بهاء لنفسه: لا ترى منور غير الجياع، لذلك لا تقبل أية فضيلة لجمال باشا! وبدا له أنه أقدر منها على فهم حاكم يصمم بلدا في هواه، حاكم قدّر من يقرر له الفقر ومن يقرر له الغنى، ويتصور أنه يستطيع أن يكون أبديا بالأبنية أو الطرقات. يجهل أن عصره لا يتيح بناء مشيدات عصيّة على الهدم

كالأهرامات والمعابد الكبرى، يجهل أن المدن غدّارة كما هي وفية. لذلك ربما تهدم من مشيداتها أكثر مما تحفظ، وتستنبت رجالا ينزعون سجلات من سبقهم وينسبون المشيدات لأنفسهم بطلائها أو ترميمها. ذات يوم ستغطى حتى زرقة القيشاني في سبيل سنان باشا بحجر ينسب السبيل لغيره. ولن يذكر من مشروع جمال باشا لسوريا غير المشانق.

سنة 1917 ثقيلة أكثر مما سبقها؟ يجلس خالد آغا في دكان الحلاق في جوزة الحدباء. ثم يمشي إلى بيت نفيسة. وتكون جالسة قرب النافذة التي تطل على المدرسة الشامية. مستمتعة بالنسيم الذي يرعش الستارة المطرزة، وأمامها جرة الماء تبترد في مكان حفر لها في خشب النافذة. تلمح خالد آغا عندما يستدير من جوزة الحدباء وتتأمله وهو يمشي حتى ضريح صارم الدين ساروجا وحمام الجوزة. وتقدر تماما متى تنزل لتستقبله. يسألها وهي خلف مرجانة التي فتحت له الباب: لا أشغلك عن عمل يا نفيسة خانم؟ فترد: مائة أهلا وسهلا متى أردت! إذا كان إبن الكحال لديها جلس الثلاثة معا. تسأله دائما باللهفة نفسها أين يريد أن يجلس، في أرض الدار أم في القاعة؟ وتتناول دائما صينية قهوة "أهلا وسهلا" من مرجانة وتقدمها له. تريد "كأس ليمون يفتح النفس" يا خالد آغا؟! ذق مربى النارنج الذي عملته بيدي! ذق مربى الكباد، ملك المربيات! هذا مربى الباذنجان الذي برع فيه النصارى في بلدنا، تعلمته من أصحابي في باب توما! تمدّ مرجانة العشاء حول البحرة في أرض الدار. ويعجب خالد آغا بالصحون الكثيرة من لبنة ومكدوس ولسانات ونخاعات، لكنه لا يذوق إلا الكبة النيئة والمكدوس. آه يا نفيسة خانم، كم يختلف مافي خارج هذا البيت عما في داخله! يروي لها: وصل إلى دمشق مختص كبير في الآثار اسمه ويغاند. أرسلته وزارة الحرب الألمانية. يدعمه الجنرال كريس فون كريسنشتاين. معه مهندسون مهمون. تشعر حتى السلطة التركية بأن من مهماته التجسس. عينه جمال باشا مفتشا عاما للآثار في سوريا وفلسطين. يتصور جمال باشا أنه كنابليون، لابد له من بعثة علمية! أظن أن جمال باشا يرى في الأبنية التاريخية التي يريد ترميمها أصلها التركي ولايفهم أنها شيدت للتقرب من أهل البلد وتأكيد طابعها الإسلامي ووحدة الدولة! لذلك رمم المسجد السليمي! يا خالد آغا، لكنك قلت إن ويغاند نظف المسجد الأقصى مما أضيف إليه! هذا يا نفيسة خانم لأن جمال باشا يفهم أن المسجد الأقصى من رموز الإسلام الكبرى، ويريد أن يترك أثره كالسلاطين في الترميم! تبتسم نفيسة وهي تتابع مراوغة خالد آغا. وتدرك أن شعوره بالعجز يزيد أحكامه قسوة. عندما

لمحته يمشي نحو بيتها مبكرا، فهمت أن لديه خبرا جديدا يسند تلك المراوغة. وصدق حدسها. كان ذلك في ربيع 1917 والحرب تقترب من نهايتها. قال لها: تفضلي يا نفيسة خانم! استدعى جمال باشا الصهيوني جاهلين إلى دمشق ليضع أرشيف المكتبة الإسلامية! من يلام إذا رمي الأتراك بالحجارة يوم يخرجون من الشام؟ يقص جمال باشا آخر خيوط واهية بين الترك والعرب!

كان قدري في طبرية مضطرا إلى احتفالات أخرى! استقبال الضباط ووداعهم! فهل ستبقى في ذاكرة الناس حفلات الاستقبال والوداع لرجال الدولة العثمانية؟ وتستبقى منها أفراح الفرجة، أم الأسى على زمن، أم الخجل بالحفاوة بمن أصبحوا مهزومين؟ سجلت شفيقة زيارة جمال باشا الصغير طبرية متسائلة أكان آخر العثمانيين المنتصرين؟ فرش له رجال البلد السجاد العجمي. لن يضيع! فكل سجادة معروفة بمن يملكها! ولا يضير السجاد أن يمشي عشرات عليه فكلما استعمل "جوهر".

في بيت الطبري قال قدري: لو سئلت رأيي لاستبعدت الاستقبالات والاحتفالات في أيام الحرب! واساه المفتي: لا نحرم الناس من الفرجة! رد: نحن في زمن يصحّ فيه المثل، إذا بصقت إلى الأعلى لوثت شواربي، وإذا بصقت إلى الأسفل لوثت ذقني! لا نريد أن ينتصر الحلفاء، لكن إخوتنا العرب يحاربون معهم! ولا نريد أن يهزم العثمانيون لأن الدولة ستقسم وسنخسر فلسطين! قال المفتي: جزئ الهم يا ولدي!

ليست الأفراح بالسجاد وحبال الضوء! فعندما مدت لجمال باشا السفاح حضر الناس من الخوف أو ليؤدوا واجبا. تفرجوا على جمال باشا، وعلى ولد خطب أمامه بالتركية قيل إنه ابن الشقيري من الجارية. صفق الناس لجمال باشا عندما انصرف. فهمس أسعد الشقيري لقدري: قمتم بالواجب يا قدري أفندي، لكن هذا الاحتفال دون روح! تمنى قدري أن يسأله: من أين آتي بها؟ لكن من يبوح بذلك لصاحب جمال باشا! قال فقط: في الحرب لا يطلب من الناس الفرح! وقال لنفسه: لا يطلب الفرح بعد قتل العسلي! ما أصعب على قدري أن يصافح جمال باشا الذي قتل صديقه شكري العسلي! غص بريقه طوال الاستقبال. هل يجهل ذلك أسعد الشقيري؟

مع ذلك تمنى قدري أن تندمل الجروح التي فتحها جمال باشا. قال للمفتي: أرجلنا في الفلقة معا، نحن والأتراك! لكن لن تتجدنا الصحوة المتأخرة. أصدق ما نشره الروس عن الاتفاق السري، وسنخسر فلسطين إذا انتصر الاوربيون!

انتظر الناس جمال باشا الصغير ليتفرجوا عليه. واستمتعوا بالزينة. رأوه يصل بالسيارة، وخلفه حاشية من رجال بالبذلات العسكرية، وفي استقباله رجال

البلد. مشى على السجاد العجمي الممدود له. كان على الأشجار بعض الأطفال كالعصافير. عزفت الموسيقى، وصفق المتفرجون، وعلت الضجة. كان الرتل جميلا، وجهاء في أحسن ملابسهم. ثم وليمة كبيرة فيها خرفان وطعام تركي وعربي، وحلويات. الحرب غائبة في الولائم، لا سكر قليل ولا طحين مفقود، لا جراد أكل الحقول، ولا قلّة! سألت شفيقة قدري: كيف سيعرف جمال باشا مصيبة أهل البلاد إذا رأى تلك الأطعمة؟ تسألينني؟ يعرف أن الحروب لا تجسر على القرب من رجال الدولة! تحادثنا عن ضرورة وحدة العرب والأتراك! عن مصير واحد في الحرب. لكن من يتصور أن جمال باشا الصغير يستطيع أن يغير قرار من يحكم الدولة؟ أتى جمال باشا الصغير مع حاشيته لأن الجيش يخسر في جنوب البلاد. آه يا شفيقة، آه! هل يبوح لها بيقينه؟ يحدث في الدنيا أن تكون الخيوط محبوكة كي يسقط زمن أو دولة، فلا يستطيع أحد أن ينقذها. ولى زمن الإنقاذ وتبدد المنقذون!

قالت شفيقة لقدري أمام ضيفتها عائشة الكردي: رفضت أن تذهب للفرجة على جمال باشا الصغير! قالت العين تطرقه هو والفرجة عليه! صحيح يا قدري أفندي، قلت ذلك للست شفيقة! من يأتي من الشام ليتفرج عليه! علق الأتراك العرب على المشانق فهل أتفرج على ضباطهم! ضحك قدري. من أين نأتي بلغة مثل لغة أهل الشام! "العين تطرقه"! لو عدت شابا لما تزوجت إلا شامية!

جلس قدري ليشرب القهوة مع أخته وضيفتها. كان متعبا. فالاستقبال عمل، امتحان، واجبات. سيراقب عودة السجاد العجمي إلى بيوت أصحابه. وسيفحص الأشجار التي كسر المتسلقون أغصانها. الاحتفال جميل لكن من يفكر بما قبله وبما بعده؟ يترك الاحتفال أرضا مقلوبة، وسخا، غبارا، ثم تأتي تلغرافات شكر عليه أن يستقبلها ويرد عليها. قال: يا عائشة خانم، أتمنى ألا نبكي على أيام الدولة العثمانية! ليست الدولة هؤلاء الضباط، وليست جمال باشا. بل دولة شرقية سيبلعها الاوروبيون. أن نكون مع الأتراك ويكونون معنا في تجمع فيه حقوقنا متساوية، أفضل من أن يأكلهم الاوربيون ويأكلوننا! ردت عائشة: سلامة فهمك يا قدري أفندي! محمد مات وتدبرت العباد! بعد مشانق جمال باشا، لا يقبل أحد في الشام أن يحكمه الأتراك! أولاد الناس مالها قيمة؟ أبطال العرب مالهم ثمن؟

أكانا يعرفان أنهما على بعد خطوة من سقوط الدولة؟ في كانون الأول 1917 سقطت القدس. دعا جمال باشا في دمشق مئتي شخص إلى السراي وقال قبل أن يرحل: إن "طالعه" قدّر له، في سبيل سلامة الدولة، أن يقتل جماعة

صـالح باشـا صـهر السـلطان، وأن يشـنق المـذنبين فـي سـورية! يـا قـدري، اسـمع! جمـال باشـا الـذي كـان هـو القـدر عنـدما كـان منتصـرا، ينحنـى للقـدر وهـو مهـزوم! لكنـه حتـى فـي هزيمتـه لـم يفهـم أن الظلـم فتـح قبـر الدولـة! حـدثهم عـن الاتفاقيـات السرية التي أذاعها الروس؟ كم ذلك متأخر!

طلبت سعاد من قدري أن تزور عمتها نفيسة. الآن يا سعاد ونحن في آخر الحرب؟ بيننا وبين دمشق فشخة يا خالي! أعود بعد أسبوع. نعم، لن تنقلب الدنيا بعد أسبوع! أوصى بها مأمور الخط، فسافرت من طبرية إلى دمشق في آخر سنة 1917. واهتم بها مأمور الخط حتى نزلت في المحطة.

خيل لسعاد أن المدينة التي عبرتها بين المحطة وبين البحصة هامدة ومضطربة! ألأن السراي والفنادق وساحة المرجة هناك؟ بعد البحصة سوقساروجا كما تركته آخر مرة. كم يؤنس الغائب أن يجد البلد كما كان!

قالت لها نفيسة: كبرت يا حبيبتي! وعت وهي تبعدها وتقرّبها لتتأملها أن قطعة من عمرها انتهت! عبرت في ومضة حياتها مع يوسف. بموت يوسف صغرت الأرض. انتهت حيفا، وانتهى السفر في ذلك الاتجاه! أهكذا نهرم، فتسقط أجزاء من حياتنا قبل أن يشيب شعرنا! ويقتطع العزيز الذي نفقده قطعة منا ويرحل بها!

أبعدت سعاد عنها: كبرت! في هذا العمر تكبر الصبايا في الليل كالقثاء! هكذا تقول الست شفيقة يا عمتي! تورد وجه سعاد، وبدا في بريق شعرها الأشقر وهج من حمرة! أتت لتشم هواء الشام؟ أوصلها مأمور السكة! مع ذلك قالت نفيسة: صبية بيضاء شقراء تسافر بالقطار وحدها! ما شاء الله، سبقت عمتك! تعالي لأقبلك! طبرية قريبة، رمية حجر عن دمشق، يا عمتي! سأعود مع مأمور الخط!

أفرح نفيسة أن تسافر سعاد وحدها. فحصتها بنظرتها. وخيل إليها أن سعاد ستكون مثلها. تظهر المرأة السعيدة الضعف وتترك الرجل يخدمها! يبدو أن قدرنا ألا نربي بناتنا للسعادة!

لم تبح سعاد لخالها أو لنفيسة بأنها أتت لتسأل عن نوري. وأنها ستستعين بنرجس لا بنفيسة. هل كانت سعاد تراقب نفيسة وتعجب بها، وهي بعد طفلة، وتتمنى أن تكون مثلها؟ اشتقت يا عمتي إلى نرجس. أمسكت بيدي وأنا صغيرة، وزرت معها بيت العابد. أعطتني الست الكبيرة يومذاك سلة فيها شوكولاتا.

جرح نفيسة أن تهرع سعاد إلى نرجس؟ من يتوقف عند الجروح الصغيرة في زمن الحرب! لم يبق لنفيسة إلا أبناء أخ تفرقوا في مدن لا تستطيع أن تزورهم فيها

لأنهم هم أنفسهم فيها زوار! لكن هل يكتم القوي مثلها أنه يتمنى شوق أهله أو أصحابه إليه؟ لماذا يطلب منه دائما أن يكون كالصخر، مجردا من الحاجة إلى الأشواق والحب؟

بيت نرجس قرب الحارة الصغيرة التي تغلق في الليل بباب على بيوت خالد آغا. يعبرها النهر وسط عتمة كانت تخيف سعاد دائما. لم تكن تحب حتى صوت الماء هناك فتشعر بأنه سيبتلعها إذا خطت خطوة نحوه. فترد نرجس خوفها: تقبريني، لو وقعت لا سمح الله، لدخلت إلى البيوت مع السواقي، ولجريت في أرض الدار بين الورود والأشجار! لا تخافي، هذه هي الشام يا سعاد!

لاقت نرجس سعاد بمائة أهلا ومائة سهلا! قبلتها قبلات بصوت مرتفع. يا حبيبتي! دمعت عيناها. لماذا لا تنزلين عندي "ياوروم"؟ ماذا يقول خالد آغا إذا نزلت عندك؟ سيأخذني عندئذ من عمتي! ومن يجهل أن سعاد لا تريد أن تقيم في بيت فيه رابية خانم، مهما كان ذلك البيت جميلا واسعا تصدح فيه البحرات!

لبست نرجس ملاءتها ونزلت مع سعاد. لكن هذا سر بيني وبينك يا نرجس خانم! السر في بئر يا سعاد! من ينتبه إلى نبل هذه المرأة التي ينظر خالد آغا إليها في خفة؟ لهفتها حاضرة لمن يطلب منها مساعدة. لا تزال تحفظ الاحترام لفاطمة التي نكبتها بزوجها! مشتا بين دار المشيرية وبين القشلة. صادفتا نساء لم يصلهن خبر عن أقربائهن منذ أشهر. فرضت نرجس على سعاد أن تسدل منديلها على وجهها، وكشفت هي وجهها: تقبرني، اكتب لي أنت الاستدعاء! وقعت عليه سعاد. ودفعت نرجس مالا لمن كتبه. تكرمي نرجس خانم! على عيني ورأسي! لم تتوقع نرجس وهي تحتفل بمولد الأولاد، وتساعد الأمهات في تحضير الكراويا، وتعطف على المريضات، وتهدي الحلوى، أنها ستصادف اولئك الأولاد أو أقرباءهم وأنهم سيتذكرونها!

بعد يومين قصدت نرجس نفيسة وأخذت سعاد معها. إلى السوق يا نفيسة خانم! كان ذلك اليوم ثقيلا. لم تنم نفيسة في الليل. نزلت بهدوء من غرفتها في الفوقاني، وحضّرت كأسا من شراب اليانسون نسيته في المطبخ وصعدت دونه، وعندما تذكرته كان قد برد. قطفت أوراقا نضرة من شجرة الليمون ووضعتها في إبريق الماء، لكنها سكبته في المجلى كأنه من الأمس! وعندما انتبهت الى خطئها تركت الإبريق فارغا وابتعدت عنه. ووقفت أخيرا أمام نافذتها تراقب الفجر، كما وقف نوري في الليلة الأخيرة عندها. في تلك الغرفة التي كان ينام فيها نوري تنام سعاد الآن. يغفو الشباب، ينام ملء عيونه. رغم الكوارث لا يزال العمر أمامه،

والحزن لا يقتلع قطعة من الفؤاد! ما بك يا نفيسة! كأنك وعيت أنك عبرت طريقا طويلة من العمر! مازلت في قوتك وهمّتك! ما بك؟ تلقت برد الفجر واقشعر زنداها. تنفست في عمق. هل دلها حدسها إلى حزن تتفاداه حتى اليوم؟ نظرت إلى السماء. ابيضت! ومع ذلك لا تشعر نفيسة بالنعاس! لابد أنك كبرت يا نفيسة، فالشاب فقط لا يعرف اضطراب النوم!

نزلت نرجس مع سعاد الى القشلة الحميدية. ضاعتا وسط الزحمة. هاهي أخيرا الورقة المنتظرة، فيها حياة نوري أو موته! قرأ الشاب الورقة قبل أن يعطيها لنرجس. وفهمت نرجس من وجهه ما فيها. ومع ذلك لم يقل لها "العمر لك يا خالتي نرجس"! صمت خوفا على سعاد. أيتذكر سعاد رغم كل من مر به وما مر به من أسماء القتلى؟ قالت نظرته إن الموت لم يصبح لديه حدثا عاديا! ما يزال محزنا! تناولت سعاد الورقة من نرجس وقرأتها! بقيت صامتة. أمسكت نرجس بيدها ومشتا في الطريق نفسها. فوجئت؟ لا؟ نعم؟ يظل الغائب حيا حتى يصل خبره! ليتها لم تسع إلى دمشق! هل هي في قدّ الحمل الذي ستحمله؟ عبرت في الطريق كل ما رأته من قبل، لكن الشجر والناس والطريق بدت باهتة. مشت في طريقها الصحيح لكن كأنما مشى إنسان آخر لاهي. وصلتا إلى بيت نرجس. أغلقت نرجس الباب فقالت لها سعاد: هل أبكي الآن؟! ردت نرجس: ابكي يا حبيبتي، ابكي "قزم"، ابكي "ياوروم"! بكتا. تنهدت سعاد كأنها كانت معبأة بالدموع سنوات. بكت حتى ابتل صدر ثوبها. مسحت أنفها بطرف كمها. ولم تنهض نرجس لتبحث لها عن منديل. وبكت نرجس بحرقة. لكن أية منهما لم تلطم خديها، ولم تعول! ما كان يستطيع أن يسمع أحد بكاؤهما ولو من الغرفة المجاورة.

غسلت سعاد وجهها، وضعت منشفة مبللة بالماء على عينيها. اطمري حزنك يا سعاد وإياك أن تكتشفه نفيسة كيلا ينتقل الخبر إلى منور! لاشيء يستبقي سعاد في دمشق! يجب أن تعود إلى طبرية! وبأي خبر تعود! ياله من خبر! بقي القتلى في كوت العمارة، وفي الموصل والبصرة! لا قبر لنوري يزار! ولا أحد يضع على قبره في يوم العيد آسا أو نخلا! لا أحد يجلس إليه ويتحدث معه! كيف مات؟ هل عذبته جروحه؟ مات كما قالوا في قصف الطيران. ماذا رأى آخر مرة، ماذا تمنى آخر مرة، من نادى آخر مرة؟ جندي مرمي في الغربة! الآن تفهم سعاد أمها التي كانت تنحني على ذكرى اسماعيل المقتول في اليمن. هل هذا إرث؟ قدر أن يموت نوري مثل اسماعيل، في حرب لم يخترها ولم يوافق عليها، ويبقى في تلك الأرض البعيدة دون قبر؟ هل قدر علينا، ياربي، أن نقدم من كل جيل رجلا في

حرب تفرض علينا؟ وإلى متى يا ربي، إلى متى نظلم في بلادنا؟

بدأت سعاد تكره العثمانيين؟ تبتعد عن أبيها وأمها وخالها وتركض إلى جانب نوري الذي لم يؤمن بالدولة العثمانية؟ كبرت سعاد في ذلك اليوم وأوصلها الحزن إلى استنتاجات لم تدر أنها ستصل إليها! يا عمتي لا تكبر الصبايا في الليل كالقثاء! يكبرن بالمصائب في النهار!

انتهى الأمس! وداعا! لن تستدير إلى دمشق! إلى أين إذن؟ كانت تركب "ببّور" البحر من طبرية إلى سمخ. تنزل على شط البحيرة، تقطع "بيليت" وتركب القطار إلى الشام. أو إلى حيفا أو إلى القدس. وفي الشام يقطع سعيد "بيليت" من محطة الحجاز ويسافر من محطة البرامكة إلى بيروت! هل انتهى ذلك؟ نعم، نعم!

لكن سعاد يجب أن تفكر بسعيد! خالها قدري يتحمل الحزن. كبير! لكن سعيدا صديق نوري في أيام الدراسة في الشام! يجب أن تخفي عنه الخبر!

ما أبعدها عما يفكر فيه سعيد! لمن يستطيع أن يبوح بأنه يشعر بجرح في روحه يؤكد له أنه فقد أخاه. يخمن أحيانا أن الصمت يعني أن أخاه قتل. ويأمل أحيانا بأن يكون نوري أسيرا أو فارا بين البدو. يخفي بالمرح ألمه على نوري الذي لم يؤمن بالدولة العثمانية لكنه نفذ أمرها وسيق إلى الجبهة التي اختارتها له! ويقول لنفسه، حارب خالد آغا في حروب آمن بها. لكن نوري حارب حربا لايؤمن بها. ولابد أنه مات كاسماعيل!

لكن هل يجوز لسعيد أن يعلن حدسه؟ ومن هو ليتنبأ؟ زرقاء اليمامة؟! اسكت يا سعيد، اسكت ليس من حقك أن تعلن موتا لم يعلن بعد. ولا يعلن موت عزيزك نوري إلا من أرسله ليموت! حتى أنت صديقه وأخوه لا تملك ذلك الحق! نعم، هكذا أصبحت الأمور في زمن الحرب! نصّبت الحرب ملوكها القساة ليحكموا الحياة والموت! وليس أمامك إلا الصمت والانتظار! ولكن لماذا لم يخطر لك أن تسافر إلى دمشق لتسأل عن نوري كما خطر لسعاد؟ تخاف؟!

سأل سعيد أخته: ألم تعرفي شيئا عن نوري في دمشق؟ قالت: فوضى، لا أحد يعرف عن أحد شيئا! حقا، أيمكن أن تعرف صبية في عمر سعاد عن مفقود في الحرب!

مر أمام باب شفيقة جنود أتراك. يا ويلي! كالشحاذين! نادوا: "ايكيمك، ايكميك"! يا أولادي، انتظروا! حملت لهم طبقا من الخبز والدجاج! لكن هل تهبهم الحياة؟ سيهاجمهم الإنكليز طوال الانسحاب! وسينسف لورنس القطارات التي ستنقلهم، والجسور التي قد يمرون عليها، والمحطات التي ستتوقف فيها القطارات. في الجيش العربي الذي سيدخل دمشق، إخوتهم الأسرى الذين خيّرهم الإنكليز بين الأسر وبين التطوع في جيش الشريف حسين!

قال قدري لشفيقة: حضري المضافة! لا يحتاج أن يفسر لها أنها ستستضيف الأتراك المنسحبين! لا يطاردهم فقط الإنكليز، بل يهجم على الموظفين الأتراك المنسحبين مسلحون يسلبونهم أموالهم! أهكذا ينتهي احتضار دولة؟! سيعرف قدري فيما بعد أن هنانو سيمنع حرق العلم التركي وسيقول: لا تحرقوا العلم الذي أظلنا خمسمائة سنة! تجمع الشهامة الرجال على البعد!

قالت له شفيقة: صرنا نحزن على الأتراك الذين أردنا رحيلهم! لو نستطيع يا شفيقة أن نفصل الخيط الأبيض من الخيط الأسود في عمرنا! تقصّ قطعة من تاريخنا ويبدأ زمن آخر لا أظنه أفضل منه! وما ذنب هؤلاء؟ ستنهب بيوتهم! تحبين شغل الإبرة؟ كم في بيوتهم منه! طمروا ذهبهم في حدائقهم. وأودعوا مالهم في أضرحة الأولياء. هل سيرسمون لأحفادهم بالإشارات على ورقة مكانها؟ وضع بعضهم ذهبه في أكمار ربطها على خصره، زنارا "أبو كمرين" أو ثلاثة. سيقتلهم المشلحون ويأخذونها. توهم القائمقام أن ابن أخيه لن يثير الانتباه، فأرسله قبله. وجده في الطريق مقتولا! لذلك سأوصل ضيوفي الأتراك مع خيالة يحمونهم حتى النقاط الآمنة.

خشيت شفيقة أن تسأله: وبعد أن يقطعوا نقاطك الآمنة؟ ما أطول الطريق إلى تركيا! همس ابن قدري: أبي حزين على تركيا؟ كيف يفهم ولد في عمره هذه الأمور المعقدة! ردت: أبوك حزين على الناس! كان يريد أن ينتهي زمن التسلط التركي وأن تبقى الدولة الشرقية.

في بيروت وقف بهاء أمام طاولة عليها كومة من الأكمار المحشوة بالذهب. سأله رئيس المخفر بعد أن أدى له التحية: لمن نسلمها؟! لم يكن السؤال خطر لبهاء. اندفع إلى حماية رجال مهددين، وحماية سمعة البلد. لكنه لم يستطع أن

يلحقهم أحياء! والآن، ماذا يفعل بالذهب؟ يحفظه للإنكليز؟ قال: سيصل جيش الملك فيصل، سلموا له الذهب!

نقل قدري لشفيقة أمام أولاده الأحداث الأخيرة. بعد سقوط القدس تراجع الجيش التركي إلى ما خلفها. جرى صراع على تلة سموها جمال باشا تيه سي. ترى منها الشونة ونهر الأردن. احتلها الإنكليز واستعادها الأتراك. قصفتهم الطائرات الإنكليزية والمدفعية. لا مؤن ولا مياه للشرب. مع ذلك وصل الجنود إلى قمة التلة. في الليل استعادها الإنكليز فتراجع الأتراك إلى شرقي أريحا. هل كان ذلك انتحارا أم شجاعة في الدفاع عن الدولة؟

بعد سقوط القدس حسم مصير فلسطين. تنتظر الشروخ ضربة قوية لتظهر. نقص الغذاء، الفوضى، فرار العرب، غرور الضباط وغربتهم عن البلاد، جيش فيصل، والليرات الذهبية "أم حصان"! حكى لي ضابط عربي أن الإنكليز مدوا أنابيب مياه وطرقات على القنال. جندوا لها بالقوة أو بالإغراء العمال المصريين. أهلكت الحمى الراجعة العمال المصريين. كان على كل مجموعة منهم جاويش بريطاني يسوقهم بالكرباج. فيتعزون بالغناء: بلدي يا بلدي أنا عاوز روح بلدي، يا عزيز عيني تعا خدني بلدي.

في القاهرة مشت من محطة القاهرة إلى مستشفى العباسية طوابير الأسرى العثمانيين. أذلّوا أمام المصريين. في المعتقل أهانوا حتى الضباط الأتراك المرضى. وميزوا بعنصرية بين الأسرى الألمان والأتراك.

هل سينتقل ظلم الإنكليز وعنصريتهم من مصر إلى فلسطين؟ في مصر ممنوع على الضابط المصري أن يركب في الدرجة الاولى في القطار! ممنوع عليه أن ينزل إلى مسابح الإنكليز! وممنوع على العمال أن يقتربوا من الضباط المصريين. يبدو أننا سنتذكر دنشواي، وانتفاضة سعد زغلول!

لن يترك قدري العنابر للإنكليز! فتح مخازن الزيت والحبوب لأهل طبرية. فحملوا الأكياس ذات الميل الأحمر، وتنكات الزيت. وأغلقوا بيوتهم. ستسلم البلد للإنكليز! لكنهم لن يروا في فلسطين إلا استقبالا رسميا.

نقل قدري أسرته إلى فندق غروسمن قرب مستشفى تورنس. أنتم هنا أكثر أمانا! تركهم وذهب. يجب أن يستقبل الإنكليز! رأت سعاد من النافذة ثلاثة خيالة على قبعاتهم ريش. فصرخت: آخ، يا خالتي شفيقة دخل الإنكليز! جفلت شفيقة: "فأل الله ولا فألك"! هبت إلى النافذة. ورأت الاوستراليين الذين دخلوا إلى طبرية. أمسكت رأسها بكفيها وقالت: سقطت طبرية!

استقبل قدري الإنكليز في البلدية. كان الترجمان رجلا من مستشفى تورنس. طلبوا من قدري أن يستمر في وظيفته.

رجع قدري بأسرته إلى البيت. ستستمر الحياة الآن كما كانت حتى يمسك الإنكليز البلاد! لا يغشك يا شفيقة أن الجيش العربي يدخل دمشق! بينه وبين الإنكليز مشاكل. وفي بيروت مشاكل. بدأ الصراع بيننا وبينهم.

رأى قدري على صدور بعض الضباط الإنكليز القادمين من مصر، نجمة اليهود. أهم من الكتيبة اليهودية في جيش اللّنبي؟ يسهّلون استقبال المهاجرين اليهود! وصل مهاجرون! في هذه السرعة؟! الاتفاقيات السرية صحيحة إذن! وما أسرع تنفيذها! واضح لقدري أن اليهود الذين وصلوا بعد الحرب إلى طبرية مختلفين عن اليهود العرب الذين يقدسونها. هؤلاء كمن سيحكم البلد! هل يستبق قدري بحدسه اليقين؟ سيقول له هربرت صموئيل فيما بعد ستبقى في وظيفتك حتى يصبح اليهود أكثرية في طبرية. وسيفهم قدري أن هربرت صموئيل مكلف بأن يهيء الشروط ليجعلهم أكثرية!

بعد دخول الإنكليز إلى فلسطين قال سعيد لقدري: سأدرس الحقوق في بيروت! في أول الحرب فقد قدري فاطمة، وفي آخرها يفقد سعيدا! سينزل صدقي الطبري أيضا إلى بيروت ليدرس العلوم السياسية! أصبحت يا قدري كالآباء الذين يرحل عنهم أبناؤهم. ذلك برهة فقط! فقدري لا يستطيع أن يصغّر همه. ذلك ما كانت تتوجس منه فاطمة فتقول له مداعبة: يا قدري لن يكون لك الوقت حتى لتتأمل حياتك. تقتل السياسة دقات القلب! فيرد: لكني أستمتع بالسهرات! فتسأله: تسهر دون هدف؟ يخشى أن يقول لها: لا، مع الرجال. لكن ذلك مختلف مع النساء! ويحصي متعه. الطعام، والليل، والحدائق، والشراب. الرقص والغناء. الأناقة والنظافة. الاستحمام!

لكن الفرح خلال الحرب كان جهدا. وكانت السهرات ضرورات. للإنسان دروب متنوعة للدفاع عن النفس. وما أكبر ثمن الكرامة واللياقة وسلامة الروح!

اصطحب قدري زواره خلال الحرب إلى الحمامات. تفرجوا على الحمّام الذي شيده السلطان عبد الحميد والسبع الذي يتدفق الماء الساخن من فمه. لكن ذلك كان استراحة سريعة ومقتضبة في معركة. لا تستسلم لها بل تتشغل بما سيكون بعدها دون أن تبوح لنفسك بذلك. وليعترف بأنه ما كان يستطيع أن يعبر الحرب وبيته مفتوح لولا الست شفيقة. هي التي اهتمت بزراعة الأرض. قالت شفيقة عندما تدفق الجراد كالموج في سنة 1915 وانقلب من الجبل على بستانها:

مصيبة، حرب وحمى راجعة ثم جراد! لكنها استأجرت رجالا جمعوه وأحرقوه. أوقدت النار في وسط البستان لتطرده. جنت خضارها وفولها وحمصها وعدسها. وغيرت طعام البيت بما يناسب مؤونتها. نهب الجيش الحبوب، لكن قدري حماها بنفوذه. أغمضت عينيها وأغمض عينيه عن الولائم التي أولمها للضباط الأتراك. لأنه لم يولمها فقط لمن يعجبه منهم!

استقبل قدري جمال باشا الصغير ومد له السجاد، كما استقبل قبله الضباط الألبان الذين ثاروا على تركيا. لم تستهوه السهرة مع الضباط الألمان. لكنه تحمل ذلك في أدب. وكان ماهرا في اللباقة. لكن ذلك مضى!

نظم سعيد أغنية في سعاد وهو يشرب القهوة. قطف وردة من حديقة قدري ووضعها على الثوب الذي رمته على فراشها لتلبسه بعد الاغتسال. يدللها كي تشعر بالأمان؟ أنا في خير يا سعيد! في خير!

وضع المستظرف لتقرأه. يخترع السعادة في بلاد كسرتها الحرب. ويوهمها بأن البيوت والغرف ممالك مستقلة عن الهموم والموت؟ فهل يقهر المصائب بطبعه المرح؟

لكن ما أبعد الصباح عن المساء! رجع سعيد محمر العينين. ففهمت سعاد أنه عرف أن نوري قتل. كان يتجاهل أن من يبقى مفقودا بعد نهاية الحرب يكون قتل! ويقاوم ذلك اليقين بالأمل. سألته سعاد مباشرة: لماذا بكيت؟ فأفرج عن قلبه. بكى وتركته يبكي. التقيت اليوم بصديق نوري. رآه مقتولا. آه، يا نوري، آه يا حبيبي! لماذا أنت؟ قاست سعاد حزنه وعندما رأت أنه تجاوز الحد مسحت دموعها وقالت له: اسمع يا سعيد! لماذا هو؟ هو وغيره من أولاد الناس! منذ فقد فهمنا أنه لن يعود. فلماذا نجدد الحزن؟ ربما أبكي أيضا على نفسي يا سعاد. لن أعيش بعده! هبت سعاد واقفة: عيب عليك! قتل نوري في الحرب. رغما عنه. أنت، من يرغمك على التفكير بالموت؟ ستصبح عريسا ونفرح بك. إذا لم تفكر فينا، فكر في الفتاة التي عشقتك منذ رأتك في العربة التي سافرت فيها من الشام إلى بيروت. كانت فتاة صغيرة بعد!

هل رمت سعاد بنت المملوك أمامه كي تبعده عن نوري؟ لم تستوقفه لعبتك، يا سعاد! صحا فجأة. سألها: كنت تعرفين أنه قتل؟ واجهته بعينيها. وسكتّ على ذلك، يا سعاد؟ ولم تبوحي لقدري أو شفيقة؟ لو كان البكاء يعيد الموتى لعاد نوري بدموعي وحدها، يا سعيد! كاد ينسى نوري ليلتفت إلى هذه الصبية التي أخفت حزنها في بيت لا يستطيع أحد أن يخفي فيه شيئا. وفي برهة كالومض أرعبته. تستطيع أن تدفن الحزن في قبور لا يعرفها أحد! أنت الرقيقة تستطيعين ذلك؟ تنهدت. لماذا يعيد إليها الأيام التي كانت تخرج فيها إلى البحرة كي تبكي حتى تستنفد دموعها؟ لماذا يعيد إليها الليالي التي كانت تهب فيها صاحية وكل من في البيت نائم وتظل تنتظر الفجر وهي تجفف دموعها وتخنق تنهدها؟ ما فائدة أن أشقيك يا سعيد! ليت الحزن يعيد المفقودين! لنفكر كيف نخبر منور وقدري وشفيقة! شبع نوري من الموت لكنه لهم مات الآن فقط!

في 25 أيلول 1918 تقدم جيش اللّنبي إلى دمشق. باحتلالها تنتهي الحرب في المنطقة التي كانت ولايات عربية في الدولة العثمانية وسيسميها الاوربيون الشرق الأوسط، قياسا إلى قربها منهم! أوصى اللّنبي بألا تدخل إلى دمشق غير قوات فيصل كيلا تثير عليها الناس. لكن فيصلا ما يزال في الأزرق! ودمشق ذات مشروع! أليس ما يحمله فيصل مشروعها الذي اقترحته!

في ظهر الثلاثين من أيلول انسحبت الإدارة العثمانية مع الجيش العثماني في الطريق إلى حلب. فاجتمع سياسيوها، منهم الأميران سعيد الجزائري وأخوه عبد القادر، وشكلوا مجلس شورى يدير البلد، ورفعوا بعد ظهر الثلاثين من أيلول، باسم الشريف حسين، العلم العربي الذي حمله عبد القادر. وفي الميدان رفع محمد الأشمر وأحمد مريود العلم العربي. ورفعت نفيسة على نافذتها علما خاطته بنفسها، رآه خالد آغا في طريقه إلى المقهى. الأحمر لون الثورة، والأبيض لون الأمويين، والأخضر لون الفاطميين، والأسود علم العباسيين! قال خالد آغا لنفيسة: يدعي الإنكليز أنهم اخترعوا العلم! ردت: هذه الألوان من تاريخنا لا من بيت أبيهم!

في الأول من تشرين الأول دخلت فرقة الخيالة الاوستراليين لتقطع الطريق على المنسحبين الأتراك على طريق حمص. استقبلها سعيد الجزائري وعبد القادر والوجهاء. وصل لورنس ونوري السعيد. طلب نوري السعيد من سعيد الجزائري أن ينسحب، وقدّم مرشحه. اشتبك عبد القادر في شجار مع لورنس. يرى لورنس الأميرين ممثلين للحسين الذي يستبعده الإنكليز الآن؟ يتهم لورنس الأميرين بولائهما للحسين، وللإسلام، وللفرنسيين! وربما يعرف عبد القادر من حياة لورنس الشخصية ما يريد لورنس أن يخفيه! لذلك سيغتال جماعة لورنس عبد القادر الجزائري في الطريق!

في الثالث من تشرين الأول وصل اللّنبي إلى دمشق بسيارة رولز رويس مصفحة فخمة يرافقه كلايتون. نزل في فندق فيكتوريا. وجد تلك التفاصيل. ودخل فيصل إلى دمشق على حصان بين مجموعة من مرافقيه.

اجتمع فيصل باللّنبي وشوفيل ومستشاريه ممثلي المكتب العربي في القاهرة. وترجم لورنس للطرفين. انتهى التخمين! خبت الوعود الفضفاضة أمام صرامة

الاتفاقيات! عرض اللّنبي لفيصل الواقع: إدارة عربية عسكرية في شرق الأردن حتى العقبة ودمشق، موظفوها بإدارة فيصل. المنطقة الغربية من عكا إلى اسكندرون بإدارة فرنسية. للوجود العسكري الفرنسي في المنطقة الغربية ضرورات عسكرية. المنطقة الشرقية دمشق وحوران والكرك وحلب وحماة وحمص بإدارة عربية. سيكون الانتداب الفرنسي على سوريا، سيكون فيصل في الداخل دون لبنان وفلسطين، وسيكون هناك الآن ضابط اتصال فرنسي. اعترض فيصل. لبنان من سوريا! وما نفع بلاد دون مرفأ؟ وما لزوم فرنسا وضابط اتصال فرنسي؟ سأل اللّنبي لورنس: ألم تقل له إنه سيكون تحت حماية فرنسية؟ فرد لورنس: لا! سأله: ألا تعرف أن لبنان لن يكون من سورية؟ فرد: لا! كذب! فقال اللّنبي لفيصل إن اللّنبي الحاكم العام وإن فيصلا سيكون حاكما ملحقا به. انصرف فيصل مع جماعته. وستتجاهل إدارته مرجعية اللّنبي. لكن اللّنبي سيقمع كل حركة للتدخل في المنطقة الساحلية.

في دمشق شاركت نفيسة أهل دمشق الشعور بأن المهم أن الجيش العربي دخل إلى البلد. وأن العلم رفع. وأن الموظفين والضباط جمعوا من الإدارات العثمانية وسيكونون في الإدارة العربية. لن يكون الإنكليز أحرارا ببلادنا!

هل قال السياسيون ذلك أيضا وهم يتصورون أنهم بكفاءتهم يستطيعون أن يكسبوا "حلفاءهم المحتلين" ويبدلوا بالعواطف معاهداتهم الصارمة؟ عاد اللّنبي إلى دمشق بعد أربعة أيام من لقائه أول مرة بفيصل ليكون ضيفا في غداء على شرفه. بيت فيصل بيت الوالي في العفيف، عربي الطراز، تتصدره باحة واسعة مزروعة بالنارنج تطل عليها نوافذه الطويلة، مسقوف بالقرميد، تمتد حدائقه حتى الجسر الأبيض. فرشه دمشقي من الخشب المصدف. هذه دمشق العريقة في عمارتها وفرشها وحدائقها وطعامها! فليتفرج اللّنبي عليها! كتب اللّنبي إلى زوجته: "قدم لي فيصل غداء ممتازا. أطباقا عربية، لكنها كلها جيدة، طازجة. قدمت بالطريقة الحضارية المعتادة. والشراب ماء، لكنه جيد، طازج، ماء بارد.. يمكن أن تحبي فيصلا". وصف لها وسامته ورشاقته، وأصابعه الجميلة. وقال لها قوي الإرادة، مستقيم! لكن هوغارت كتب من دمشق في تلك الأيام إن إدارة فيصل دون كفاءة ويجب أن تديرها قوة اوروبية! قالت نفيسة عندما وصلتها أخبار دعوة فيصل لأللّنبي: فليفهم أن هذه دمشق! وليقل عنا ما يشاء، شرط ألا يتدخل في بلادنا!

في بيروت استلم عمر الداعوق ووجهاء بيروت وثيقة الانسحاب من الوالي التركي. واتصلوا بدمشق. فوصل الأيوبي من دمشق ورفع العلم العربي في السابع

من تشرين الأول، ودعي مجلس إدارة لبنان إلى الاجتماع، والقسم لحكومة دمشق. وكانت السفن الحربية الفرنسية في البحر. احتج الفرنسيون لألّنبي. ووصلت السفن الحربية البريطانية.

انسحب الأيوبي وأنزل العلم العربي رغم احتجاج فيصل. واستدعي هنانو من أنطاكية وأنزل العلم العربي فيها. وأنزل العلم العربي من اللاذقية، وسلمت للفرنسيين.

تنفذ معاهدة سايكس بيكو! لكن وقت الاصطدام مبكر. لذلك صاغ وينغيت بيانا باسم الفرنسيين والإنكليز صياغة غامضة وأذاعه في الثامن من تشرين الثاني. "السبب الذي حاربت من أجله فرنسا وإنكلترا في الشرق هو تحرير الشعوب التي رزحت تحت حكم الترك.. وإقامة إدارات وحكومات وطنية يختارها الأهالي بحرية.. تؤيد فرنسا وإنكلترا وتشجعان إقامة هذه الحكومات والإدارات في سوريا والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما وفي المناطق التي مازالوا يجاهدون لتحريرها..". في دمشق وفي بيروت قال خالد آغا وقال بهاء: فلنتوهم أن هذا اعتراف بتقرير المصير! لكن أين لبنان وأين فلسطين؟!

أقنع سعيد أخته بأن تنزل معه إلى بيروت. فلنحتفل بنهاية الحرب. ستفرح بك منور وبهاء. يقنعها؟ وهل تتركه وحده مع حزنه على نوري؟ نزلت معه. عبرا رأس الناقورة ووصلا إلى بيروت في البرهة المناسبة!

في يوم رفع العلم العربي لا مكان للهواجس! فلنغرق موت نوري في الفرح الذي يخفق في بيروت، ولنتصور أنه قتل كي نرفع علمنا في بلادنا! نعم يا سعاد، نترك لما بعد، الصدام الذي لا أشك فيه بيننا وبين الإنكليز والفرنسيين!

صرخت منور عندما رأتهما: صدفة عظيمة أنكما في بيروت! لاتسع الدنيا منور من الفرح! سنتفرج على رفع العلم العربي على السرايا! لن يرافقهما بهاء. يجب أن يكون في استقبال المنتصرين! قالت له مداعبة: أتحزن على زمن تركيا؟ لو تعرفين ما في القلب، يا منور! تعال إذن معنا! احترق. كم من الرجال سينظر إلى وجهها المكشوف في هذا الاحتفال؟! كم منهم سيتبين قوامها رغم "البيريلين"؟ يوهمه هواه بأن كل رجل يرى فيها ما يراه هو فيفتتن بها. وكانت البساطة التي تهمل بها إعجاب الذين يتابعونها تجعلها أكثر فتنة، وتجعله أكثر غيرة. لذلك تفادى المشي معها. وتحمل لوم سعيد: انتبه يا بهاء إلى الفرق في العمر بينك وبينها! هذه صبية يجب أن تدللها! وتذكر أنها عرفت مصر، وتجولت في فلسطين، وسبحت في بحيرة طبرية!

وافق بهاء دائما على ما يقوله سعيد. لكنه في الأيام التي يهبّ فيها حبه لا يتحمل نظرة غريب إلى منور! ويتوه بين رغبته في أن يراها حرة كالعصفور وفي أن يغلق الباب عليها. يسجنها؟! لا تبالي منور بغيرته، فتخرج إلى الأسواق، وتخترع النزهات إلى البحر والحرش مع صاحباتها، تتحدث مع أزواجهن وإخوتهن، تدخن الأرجيلة كنساء بيروت ولا تفوت ليلة البدر!

حكى بهاء لسعيد عن انسحاب الأتراك، والأكمار المحشوة بالليرات الذهبية المكومة في مركز البوليس. ولمحت منور فوضى التخوم بين الأزمنة. قدرت لبهاء أنه حمى الموظفين الأتراك المنسحبين من اللصوص والمنتقمين. وحمى ما تصور أنه أصبح مال الدولة. انتبه بهاء إلى رحمتها. قال: دفن بعض الموظفين ذهبهم في الأضرحة، وائتمنوني على حياتهم! كأني أستطيع أن أحميها! وكأن الأولياء والأبطال الموتى يستطيعون أن يحموا الأمانة! كان بهاء دون أن يدري، مثل قدري الذي حرس المنسحبين، مثل شفيقة التي وزعت الخبز على العسكر الجائعين! قالت منور: لا يستمتع بالشماتة إلا النذل!

استعاد بهاء منور بفروسيته؟ قرّبته برحمتها؟ نسيت الصورة؟ انفجرت سنوات الفراق بينهما بالبكاء والضحك. وعبرا غربة البرهة الاولى إلى إلفة بين روحين وجسمين لم يفترقا. فهم أنها ما كانت تستطيع القرب منه وهي ترى موت الناس من الجوع في النهار وتسمع أناتهم في الليل قرب نافذتها. بكت في تلك الليلة من قلبها، بكت ومسحت وجهها المبلل بالدموع بالشرشف فكادت تضحكه. فتنته بصدقها وصفاء روحها. سألها: لكن ما ذنبي كي أتحمل ذلك العقاب المر؟ ضحكت وهي تبكي: لم تفهم أني مثلك عاقبت نفسي! لمس شعرها السبط، مسح كتفيها بكفه ذاهلا من نعومة بشرتها. أوجعه الحنان عليها فعاتب نفسه على غيرته عليها، وخيل إليه أنه وعد نفسه بأن يقتلع من روحه الغيرة! التفتت إليه. أكان ضوء القمر أم ضوء الفجر على وجهها؟ قالت: قد نختلف مرة أخرى ولكن عدني بألا يعرف أحد أبدا، أبدا، ما بيننا! ردد مسحورا بنضارتها: أعدك! ولكن هل أستطيع يا منور أن أبعد روحي عن وجهي، مثلك! ردت في جدّ: يجب أن تحمي روحك من العيون! لما بيننا حرمة يجب ألا تلمسها نظرة غريبة! هز رأسه موافقا! ولكن على من تخفى سعادة منور بعودتها إلى بهاء! وعلى من تخفى سعادته! عرفت ذلك حتى جدران البيت وشجيرات الفل وأخصاص النوافذ. غنت منور أغنيتها المحبوبة وهي تسقي أحواضها:

كفّ عني، والهوى، ما زادني برد أنفاسك إلا حرقا

يا رياح الشوق سوقي نحوهم عارضا من سحب عيني غدقا
وانثري عقد دموع طالما كان منظوما بأيام اللقا

قال لها بهاء: لا يستحق حتى الحب دموع عينيك! لكنه تذكر كم كانت جميلة وهي باكية. وعزّى نفسه: كان ذلك بكاء على ماض، لا من العجز أمام حاضر! لكن الدموع لم تكن دموعا في غنائها. لم يكن في غنائها غير الشوق إلى أيام ضيّعتها وأيام تتطلع إليها. تذكر بهاء أنه عاتبها مرة لأنها لم تعرض عليه هدية أهدتها فلفحته بدهشتها. وبرّر لنفسه غيرته: هل سمع في عمره صوتا مثل صوتها؟ من أين لها البحّة التي تثير الشجن والفرح! وتمنى، في برهة خاطفة، أن تسمعها بيروت كلها.

سمى بهاء أيام رضاها أيام الاحتفال! عاد كل مساء مبكرا ومع ذلك بدا له الوقت الذي يراها فيه مسرعا. عذبته رغبتها في زيارات صاحباتها. قالت له ويده بين كفيها: ستملّني وأملّك إذا لم نخرج إلى الدنيا! حاول أن يفتنها بالعطور التي اشتراها لها. بالجوارب التي دفع ثمنها ذهبا. وذات يوم دخل مع عبق كثيف إلى البيت. ضحكت رافعة ذراعيها إلى رأسها: الفل في الأكياس يا بهاء؟! رد: كي تقولي حمل لي الفل بالشوال! قالت: تكفي الإنسان فلة واحدة! رد: يكفي غيرك فلة! نثر الفل على البيرو المصدف أمام المرآة، نثره على ثوبها الذي تركته على كرسي في غرفتها، نثره على وسادتها وسريرها وفي خزانتها. رددت: هذا ليس ياسمينا، هذا فل!! قال مرحا: لو تعرفين كيف وصلت إلى البيت! التف إلي كل من عبرته! أغمض عينيه: سيغمى علي من عبق الفل! آه، خشي أن يقطف الفل من أحواضها فطلبه من أحواض أخرى! أيمكن أن يفعل رجل كل هذا كي تحبه امرأة؟ ويمكن ألا تبالي تلك المرأة بذلك الحب؟ سألها: تحبينني يا منور؟ هزت رأسها: طبعا! قال: لا تقولي طبعا، قولي نعم! ردت: طبعا أكثر من نعم!

هكذا احتفلت منور بنهاية الحرب. فهل أفهمته أن الدنيا يجب أن تكون في خير كي تستطيع أن تحبه؟ ما أصعب ذلك يا منور! وما أحلاه أيضا! لكنه تبين أنه لا يستطيع أن يفي بوعده لنفسه: ألا يغار عليها! خرجت أمامه من البيت لتتفرج على رفع العلم العربي في بيروت! وعرف أنها زغردت. تصوروا، منور زغردت لفاطمة المحمصاني، أخت محمد ومحمود، شهيدي أيار! زغردت، ولابد أن الناس نظروا إليها!

دامت تلك الأفراح أياما فقط. قال لها سعيد: نحاول يا منور أن نحتفل بدولة عربية. لكن ما أبعدنا عنها! ظننا أننا استعدنا أحلام شهداء أيار عندما رفعت

فاطمة المحمصاني العلم العربي. وأخشى أن نطلب الرحمة على أيام تركيا!

خاف بهاء على أفراحه بمنور يوم أنزل العلم العربي. أبعد بأمر اللّنبي ممثل الحكومة العربية، وعينت فرنسا جورج بيكو مفوضا ساميا. عاد بهاء مقهورا: عينوا الرجل الذي رتب المعاهدة السرية، لينفذها! خفف سعيد عن بهاء وعن نفسه: يلاحظ الفرنسيون حماسة بيروت للوحدة مع سورية! ولن يتورطوا في بلد أكثريته معادية! انتبه يا سعيد! سيحاولون إبعاد الموارنة عن المسلمين! أعلن كولوندر أنه جاء لحماية الموارنة!

في تلك الأيام أبرق بيكو إلى باريز: "العلاج الوحيد إرسال مئتي ألف جندي". ستبدأ إذن اضطرابات وحرب. فهل يفقد بهاء منور مرة أخرى؟ لو يرفع العلم العربي مرة ثانية ليراها ضاحكة ويسمع غناءها! بدأ يفكر في العودة معها إلى دمشق، لكن فورة الحماسة حملته كالناس. حقا، القوات الفرنسية في بيروت، والقوات الإنكليزية في سورية، لكن الأحزاب والنوادي والصحف تتوهج بعد الحرب التي كتمت الأنفاس. اقرأ: "من كان عضوا في جسم أمة ولم يعبأ بشؤونها السياسية فقد نكص عن القيام بأول فروضه الوطنية". يخطب الناس في الاجتماعات والشوارع ويشعرهم ذلك بقدرتهم أن يحكموا بلادهم!

كان يقلق قدري المبعوثون الغرباء. في دمشق وبيروت وفلسطين، اوربيون ينزلون إلى الأسواق، يتفرجون على البضائع والناس، يعبرون الصحراء، يدرسون الآثار، ويصلون إلى البدو وإلى مناطق ليس فيها إنسان. رأى في فلسطين رجالا منهم يجمعون النباتات والشوك ويصنفونها في أوعية ومحافظ وأوراق. يدرسون البلاد، ويفحصون الناس. سمع قدري عن غرترولد بل! وعرف أنها قابلت رجال بلاد الشام! لورنس، ماسينيون، فيلبي، غلوب، جورج بيكو قنصل فرنسا في بيروت المندوب السامي المكلف بمفاوضة الحكومة البريطانية منذ سنة 1915 في بحث مستقبل ولايات السلطنة العثمانية، التي انتهت بمعاهدة سايكس بيكو، مارك سايكس عضو مجلس العموم البريطاني الرحالة في البلاد العربية، المندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى. هل لورنس أخطر هؤلاء، لأنه في وسط العرب؟!

حكى قدري لسعيد وصدقي عن ليدي ستانهوب التي تجولت في العراق، واتصلت في تدمر بالبدو، واستقرت في جون الشوف كالحاكمة المعتمدة. وكانت ذات نفوذ عند الأمير بشير وابراهيم باشا. وحكى لهما عن جين ديغبي التي عاشت في دمشق، وتزوجت شيخا بدويا. لاأظن أنها تركت "الحضارة" واختارت البداوة كما يحب بعض الناس اليوم أن يصوروا الأمر! فنحن الحضارة! بل انتقلت من مدن باهتة باردة القلب إلى بلاد مشمسة أسطورية. أتت إلى جنة دمشق! لكن ألم يكن بيتها منزلا للقاء بين رجال البلاد وبين الغرباء الذين يدرسوننا؟ قبل أن تولد ياسعيد وقبل أن تولد ياصدقي يدرسوننا! رد سعيد يومذاك في حرارة: بعد أن نشرت جريدة المقطم في 9 نوفمبر سنة 1917 نص وعد بلفور، ولم تمض عليه ستة أيام، وصلت المعلومات التي جمعوها إلى هدفها! قال قدري ساخرا: ومع ذلك لا يزالون يدرسوننا!

وكان يفكر بالضابط الأمريكي الذي التقى به في القدس. بين قدري وبين اولئك الغرباء علاقة شفافة وهشة. تعلم قدري من حياته أن يضبط تعبيره. يظهر تهذيبا كأنه لا يعرف أن اولئك المبعوثين يكتبون تقاريرهم لبلادهم، وهم يخمنون أنه يعرف ذلك. يتحدث في صراحة معهم، لا يخفي عنهم عينيه، بل ينظر في عيونهم. لكنه لايقول إلا ما يريد أن ينقلوه. يسوس نفسه أمامهم ضابطا استقامة ظهره، ابتسامته، كمية الطعام التي يسكبها في صحنه، ضحكته. ليؤكد لهم أنه أكثر تهذيبا منهم، وأكثر ذكاء. يقول: تحبون الأحجار التي تنقلون نقوشها؟

حضارة بلادنا التي لم ندرسها بعد من غناها واستمرارها! تحبون نباتاتنا؟ يعرفها فلاحونا ويحضّرون منها الطعام اللذيذ والدواء! كان يقول لنفسه هؤلاء بشر. ويحاول أن يخاطب فيهم ومض إنسان، مع أنه مؤمن بأنهم مكلفون بمهمة. لكنه لم يكن يخفي تعاليه على بعضهم. لم يحب أبدا الضابط الأمريكي الذي التقى به في القدس. من هو؟ هذه بلاد صغيرة نرصدهم فيها كما يرصدوننا! كان موظفا في شركة ستاندرد اويل. لكنه في هذه السنة، التي يبدو أن مصيرنا يقرر فيها بعد نشر وعد بلفور، مكلف بتقارير قد تكون للخارجية الأمريكية. لا أشك في هذا! يخدمه أنه من دولة عظمى أعلنت مبادئ ويلسون. لذلك يتحدث إليه الناس في صراحة. قابله قدري مع أصحابه، مسيحيين ومسلمين. حاول أن يفهمه الحقائق! هل لقّن قدري الضابط الأمريكي بيل التقرير الذي كتبه في 19 تشرين الثاني من سنة 1917 المضطربة والحاسمة؟ فسجل فيه معارضة السوريين جميعا، مسيحيين ومسلمين على السواء، وعد بلفور الذي يعطي اليهود وطنا قوميا في فلسطين! ونقل شعور فلسطينيي بلاد الشام الذين رأوا استنبات المستعمرات اليهودية، وحقدهم على الصهيونية! وبين أن السوريين المستنيرين لا يرفضون الوطن القومي لليهود في فلسطين لأنهم يكرهون اليهود، بل لأن الوطن القومي اليهودي يعني سلب اليهود البلاد، ويفقد السوريين فلسطين، الجزء الغني من بلاد الشام، إقليم حوران الذي ينتج القمح، والسهل الساحلي الممتد من صور في الشمال إلى غزة في الجنوب، والأراضي الغنية شرق الأردن. فتضيع منهم أحسن مناطق الشام. سخر قدري وأصحابه من الوعد بأن أموال اليهود ستنعش البلاد. فسجل الضابط الأمريكي ما أجمعوا عليه: لن يشجع اليهود إلا المحلات والمستودعات والمصارف اليهودية! قال صدقي للضابط: هل تجهلون حقا أطماع اليهود في بلادنا؟ إذا أسست في فلسطين دولة يهودية مدعومة بالأموال اليهودية سيسلب اليهود ثروة العرب ويحولونهم إلى عبيد. نشعر منذ الآن بجور اليهود! حاولوا سرقة أراضي الدولة بمشروع الأصفر! حاولوا إغراء السلطان عبد الحميد! لكن السوريين ردوهم! الثمن؟ خلع السلطان عبد الحميد، وشنق شكري العسلي وشهداء أيار! لكننا أحفادهم! سيعمنا خير الأموال اليهودية؟ تفرج على المستعمرات! نظم اليهود فيها جماعات مسلحة، شبابا من الروس المتعصبين القساة المتعجرفين. قتلوا رعيانا تعودوا أن يرعوا أغنامهم قربها! يدخل المهاجرون اليهود إلى بلادنا تعصبا لم نألفه فيها!

في تلك الجلسة مع الضابط الأمريكي جمح أحد أصحاب قدري المسيحيين

فقال: ليهب بلفور بلاده لليهود إذا أراد التكفير عن اضطهاد اليهود في اوربا! كان ذلك كلام جيل. ذكر أحد الحاضرين برقية السوريين الذين اجتمعوا في القاهرة محتجين على وعد بلفور. لم يعجب تهذيب البرقية قدري. انتقدها عندما قرأها في الجريدة. فلماذا يظهرها أحد أصحابه ليذكّر هذا الضابط بها؟ أرسلها سوريو القاهرة إلى وزير خارجية بريطانيا: "بالإشارة إلى تصريح فخامتكم إلى لورد روتشيلد الذي نشر أخيرا بخصوص اليهود في فلسطين فإننا باحترام نجترئ فنلفت نظر فخامتكم إلى حقيقة مفادها أن فلسطين تشكل جزءا حيويا من سوريا، بمثابة القلب من الجسم، ولا نقبل فصلها سياسيا أو اجتماعيا، خاصة وأن فلسطين تعتبر في نظر الإسلام والمسيحية كالنجم القطبي ومهد مثلهم الدينية، مثلما هي في نظر اليهودية". وقع البرقية أكثر من مئتي شخصية عبروا عن غضبهم على وعد بلفور. تناول قدري الكلام: اسمع يا ضيفنا! في فلسطين شعب عربي يزيد على سبعمائة ألف لا يرضون بسحب بلادهم منهم لتقدم لمهاجرين غرباء! وسيقاومونهم. كلما زادت الهجرة اليهودية سيزيد الصراع بيننا وبينهم! ألذلك كتب بيل في تقريره: إذا نمت المستوطنات اليهودية سينشب صراع تصحبه مشاكل وقلاقل واضطرابات دائمة؟ ما سيحدث للفلاحين؟ إما أنهم سيهجرون بيوتهم إلى بلد آخر وإما أن يصبحوا عبيدا لأرستقراطية يهودية تمتلك البلاد وتسيطر عليها، وسوف يكون هؤلاء الرقيق من قومية أخرى وديانة أخرى تختلف عن قومية سادتهم وديانتهم، وسوف ينمو في قلوبهم حقد لا يموت نحو سادتهم...

هل الاجتماع مهم للضابط الأمريكي فقط؟ أم نكتشف نحن أيضا مسألتنا ونحن نعبر عنها، نكتشف مقاييسنا بالمقارنة بالآخر الغريب. أيمكن ألا يلمس روحنا اللقاء بعالم مختلف عنا؟ مهما حاول هذا الرجل أن يبين أنه يتقمصنا، ومهما حاولنا أن نبين أننا لسنا غرباء عن عصره، فكل منا محمّل بتربية وتقاليد وأفكار تختلف عما يحمله الآخر! بقي قدري صامتا زمنا في طريق العودة من القدس إلى طبرية. يستعيد نفسه ويستعيد الآخرين. هل ظهر كما أراد أن يظهر؟ هل مثّل بلده؟ هل كان في اللقاء وفيا لبلده ومدينته وأسرته ودراسته وتقاليده! ألم تكن أخته فاطمة هكذا وهي تستقبل أبيلاّ الإنكليزي؟ كان راضيا رضا من وضع كل ما يجب أن يفهمه مبعوث مكلف بنقل الحقائق. وكان سبب صمته أنه أراد أن يستر ذلك الرضا. بعد زمن قال لصدقي: أخشى أن يؤثر في السوريين في مصر قربهم من مكتب التجسس البريطاني! الخيط رفيع جدا يا صدقي بين التعاون معهم وبين أن ننفذ سياستهم! لا يؤتمن الإنكليز! وصلنا بعد الحرب أنهم قننوا

مساعدتهم العسكرية للشريف حسين. وأنهم لم يرغبوا في اتجاه الجيش العربي نحو الشام بل أرادوا له أن ينشغل بالداخل لينصرفوا هم إلى بلاد الشام! لا أثق فيهم! ستكون أيامنا صعبة يوم يسيطرون على البلاد كلها! ما العمل؟ كنا بين أتراك دونمة وبين الإنكليز! أحلاهما مرّ!

على مد النظر كانت الأرض التي يعرفها. بلاده. فهل يعقل أن تنتقل بقرار إلى مهاجرين غرباء؟ يؤكد له الواقع أن ذلك مستحيل! لكن قلبه ينقبض كلما فكر بأن بلدا قويا هو إنكلترا وعد اليهود بأرض لا يملكها هي فلسطين! نعم، تستطيع بريطانيا بالقوة أن تسحب بلده منه! هل سيؤثر المبعوثون مثل بيل في مصير بلده؟ قال قدري لصدقي الطبري وسعيد وهم جالسين في حديقته وبينهم وبين بحيرة طبرية الطريق فقط: هؤلاء موظفون! وسنرى الكثيرين منهم. لكن بلادنا اقتسمت بين الإنكليز وبين الفرنسيين. سيكون الخلاف فقط مقدار ما يأخذ الواحد منهما. ومقدار ما نستطيع أن ننتزعه. سأله سعيد: يئست يا خالي؟ انتفض قدري: أبدا! ولو بقي في حياتي يوم! لذلك أطلب منكما أن تهيئا وفود الشباب أيضا! التقوا بهؤلاء المبعوثين وقولوا لهم الحقائق! أغرقوهم بها! سأرى هذا الضابط الأمريكي مرة أخرى! التقوا أنتم به أيضا! لكن التقوا به مجموعات ووفودا. إياكم أن تؤخذوا فرادى! لولا مركزي لما قبلت بأن ألتقي بأحدهم وحيدا! واحذروا هذا الأمريكي! أشعر بأنه يميل إلى الصهيونيين! لم يعرف قدري أن حدسه كان صحيحا. سيصبح بيل مستشارا فنيا للوفد الأمريكي في اللجنة الدولية للانتدابات. وسيوصي لجنة كينغ كرين بوطن يهودي! من غيّره؟

لم تحتفل سعاد في بيروت برفع العلم العربي فقط. قبل أن ترجع مع أخيها إلى طبرية، رافقها بهاء في بيروت طوال شهر. يا سعاد، هذه ليست بيروت التي عرفتها في الحرب! قدر بيروت أن تنهض دائما في سرعة من الموت. كأنها تخزن الشوق إلى الفرح الذي ضاع عليها في أيام الجوع والحرب! أعلنت الحكومة في دمشق أن من يتستر على فتاة لبنانية يعاقب أشد العقاب. وعادت الشابات الهاربات من الجوع. من يستطيع أن يميزهن من غيرهن اليوم؟! يا سعاد، سجّلي لي هذه الحكمة: لا تستطيع مدينة أن تبعث حية بعد مجاعة كما بعثت بيروت!

أسعد منور في تلك الأيام أن سعاد شغلت بهاء. كأنها تقول له: أرأيت كم تهدأ روحك إذا لم تفكر في زوجتك طول النهار؟! خرج بهاء بسعاد إلى بيروت. حكى لها عن البرج. هنا كان قصر فخر الدين الثاني. من برج الكشاف كان يراقب البحر. أجرى الماء في أنابيب إلى حديقته وحمامه. في وسط حديقته كان لديه بستان البرتقال. زاد الغرسات في غابة الصنوبر ليرد الرمل عن بيروت. وزادها فيما بعد إبراهيم باشا. ربما كان فخر الدين ظالما فالظلم كان سمة الحاكمين وفخرهم. لكنهم كانوا أيضا ضحية حاكم أعلى منهم: أمر السلطان بقطع رأس فخر الدين وبخنق ابنه. ماذا تقول عنه بيروت؟ بنى فيها فنادق وعمارة جميلة ومد فيها أرصفة، بقيت بعده. تعبت من المشي؟ لا يمكن أن تعرفي مدينة إلا إذا مشيت فيها، يا سعاد. بالمشي تحسين بها! نحن الآن في الزيتونة. تفرجي! هذا فندق بسّول. نزل فيه الصدر الأعظم كامل باشا. أمك فاطمة عرفت زوجته. نزل في الفندق نفسه جمال باشا السفاح في آب سنة 1915. ومن هنا مر أنور باشا قادما من دمشق في شباط سنة 1916. هذه مدرسة الصنائع وحديقتها. افتتحت في سنة 1907. لم تتعبي بعد؟ سأشتري لك كعكا بالزعتر ومهلبية. طيبة؟ لابد لزائر بيروت أن يأكلها وإلا لم تحسب زيارته! تعرفين أن القطار الذي ركبت فيه من بيروت إلى دمشق على سكة حديد دمشق بيروت، دمج مع شركة تراموای دمشق؟ تفصيل من تفاصيل القدر الذي يربط مدينتين. ربطهما السادس من أيار، ثم الحرب. قصفت البوارج الايطالية بيروت سنة احتلال ليبيا في 1912، وخشي الناس من القصف في أول أيام الحرب فنزلوا إلى دمشق. فهل يستطيع قرار الحلفاء أن يفرق من جمعهم الحلو والمر؟! أعجبتك بيروت الآن؟ يجب أن ترافقي من يعرف المدن ويحبها كي تبدو لك تاريخا بشريا ومعماريا لا

مجموعة من الأبنية! اسمعي يا سعاد! تشهد المشيّدات للأمراء والحكام. ولعلهم بها يستغفرون المدن عن ذنوبهم. مع أنهم يعرفون أنها تبدل أجيالها ولوحاتها. لكن أهم ما في المدن علماؤها وكتابها. في بيروت طبعت مجلة ثمرات الفنون، وجريدة الاتحاد العثماني، وجريدة الإصلاح، وجريدة المفيد، مجلة النبراس، والمصباح، ولسان الحال، والأحوال، والنخلة، والجنة، والجنان. وماذا أعدّ لك! فيها عاش بطرس البستاني وعمر حمد والعريسي والمحمصاني، ويعيش فيها الغلاييني. فيها كانت جمعية الإصلاح، مركزها في البسطة التحتا، أعضاؤها مسلمون ومسيحيون ورئيسها أحمد عباس الذي نفي في الحرب إلى سورية. تنفسي ملء رئتيك! ألا تشعرين بهم في هواء بيروت؟

تذكرت سعاد وهي تصغي إليه ماشية من البسطة إلى ميناء الحصن وسوق النورية والاوزاعي، خالها قدري الذي كان يجلسها أمامه ويحكي لها ما يتمنى أن تحفظه. يحتاج هؤلاء الرجال أن يعلّموا من يختارون من قريباتهم؟ يجتاز بهم الحب التمييز بين الصبي والفتاة، ينتقون من يتوسمون أنه هو الذي سيحمل ذكرهم ولو كان فتاة، ويغرفون له مما عرفوه وجربوه. يريدونه أن يفهم في أيام ما فهموه في عقود. كأنهم يشعرون بأنهم سيتركون الدنيا فجأة دون أن يورثوا ما عرفوه، ويظنون أن ما خبروه سيطمر معهم بالتراب. ينسابون بحب صاف، كأنهم يلحقون بما فقدوه أو انتظروه. ألا يتكرر بين قدري وسعاد، بين بهاء وسعيد وبين سعاد، ما كان بين فاطمة وإسماعيل؟ عاشوا شبابهم بالطول والعرض دون أن يفكروا بوريث أو شاهد، وعندما شعروا أن الغروب قريب تلفتوا متلهفين على الورثة والشهود. لكن غيرتهم على ما عاشوه تشترط ذكاء الوريث، وتشترط أن يحبوه. هكذا دلتهم شفقتهم أو حكمتهم إليه. واستسلموا لقرب الفتاة منهم ولقاء حاجتها إلى مثل مع حاجتهم إلى من يحبهم ويخلص لذكراهم. وكأنهم خمّنوا أنها أقدر على الوفاء من الفتى. فاخترقوا التزامهم بالعرف. وكانوا مؤهلين لذلك الخرق لأنهم آمنوا، دون غرور، بأنهم لم يعيشوا كما عاش الجمع. ولا يتحمل هذا الخرق إلا خرق مثله يتصور أنه يؤسس لعرف جديد.

مشى بهاء بسعاد إلى بيت فاطمة المحمصاني. أشار إلى النافذة. يوم شنق أخواها محمد ومحمود في السادس من أيار علقت في النافذة صورهما. مر الناس أمام النافذة، ورأيت بعضهم يمسح دموعه. كان ذلك تحديا لإرهاب جمال باشا، كتحدي من زخرف ضريح الزهراوي في دمشق وكتب عليه بيت الشعر الذي يتحدث عن مقاومته "الموت الزؤام"! سمعت أن فاطمة استخرجت الأوراق المدفونة

في ضريح الاوزاعي وأحرقتها لتحمي من بقي حرا. وقّعت فاطمة المحمصاني يا سعاد برقية إلى المؤتمر السوري الأول الذي اجتمع في باريز، سنة 1913. لذلك كانت جديرة بأن ترفع العلم العربي على السراي الكبير في بيروت عندما دخل الجيش العربي! رفعت سعاد رأسها نحو النافذة. هل تستطيع الأمكنة أن توجز عمرا وأزمنة وتجسد ذاكرة عظيمة! انتبه بهاء إلى رغبة سعاد في العودة من الطريق نفسها كي تتوقف أمام بيت المحمصاني. قالت له: رأيت دخول الإنكليز إلى طبرية. كانوا اوستراليين! لم أر جيشا عربيا! ابتسم. فسر لها ذلك الالتباس: لولا الجيش العربي لكان احتلال المدن العربية صعبا. لو بقي السوريون مع الأتراك لما استطاع الحلفاء أن يدخلوا المدن السورية أو لدفعوا ثمنا كبيرا. قالت: لم يرحب الناس في طبرية بالإنكليز! يا سعاد، انقسمت بيروت بين محتفلين بالحلفاء، وبين متوجسين منهم! انتظرت قلة منهم الفرنسيين. لكن الأكثرية فرحت بنهاية حكم الأتراك. جاع لبنان في الحرب لأن الأتراك فرضوا عليه الجوع. أهين لبنان! لن يعرف الناس إلا بعد زمن طويل أن الحلفاء أيضا جوعوا لبنان بالحصار البحري! لا تذكّرني يا بهاء بلبنان أيام الجوع. رأيت ذلك! نسيت؟

رافقته سعاد في الصباح إلى مقبرة الدروز. رأت الناس يمشون في اتجاه واحد فقط: إلى المقبرة! قرب المقبرة وقفت عربات مغلقة سوداء مثل عربات لندن، عربات أكابر البلد. وعربات أخرى مفتوحة، حناطير. وصل رجال بالألبسة الرسمية، بوليس، وطلاب المدارس، ونساء. تحية رسمية ثم خطابات وأناشيد! ثم وزع على أرواح الشهداء شراب ليمون مثلج.

بحثت سعاد عن فاطمة المحمصاني. أشار بهاء: هناك! لكنها لم تتبين إلا مجموعة من النساء يلبسن ملابس سوداء. وكانت سعاد نفسها وسط بحر من البشر. كادت عيناها تدمعان لكنها حبست دموعها. وكأنها وعت الآن فقط القهر الذي عاشه قدري يوم إعدام شهداء أيار. وهو بين التزامه بوحدة الدولة العثمانية كدولة شرقية يخاف عليها من الغرب، وبين غضبه على الضباط الاتحاديين. في المقبرة فهمت سعاد أن من الأحزان ما لايمحوه الزمن، ولا يمكن أن تمر به المغفرة. وفهمت أن الموت الظالم ليس موتا، لأنه يستطيع أن يخلق إعصارا لا يهدأ. نظرت إلى بهاء. ما أجمله! كيف استطاعت منور أن تهجره أيام الحرب؟

قالت لمنور في ذلك المساء: أبعد قتل شهداء أيار العرب عن الأتراك الذين عاشوا معهم قرونا! كأنها تلمس أحزان قدري وتعزيه متأخرة! استنتجت ما سيظل موضوع جدل بين العرب عن ضرورة الدولة الشرقية وأشكال الخلاص من أسر

الدولة العثمانية. فتأملتها منور. صارت سعاد تتكلم كما يتكلم قدري وسعيد! هذه ثمار جولتها معك يا بهاء؟

تحدث بهاء لسعاد عن شهداء أيار. لم تسمع مثل هذا الحديث من قبل! محظوظ من يستطيع أن يتجاوز الحزن ليوجز جوهر الحقيقة! قال: رجال متنورون متعلمون، درسوا في جامعات كبرى، وكسبوا التجربة في الدولة العثمانية. لم تكن تلك الدولة متخلفة كما يقول اليوم من يبرر كسرها. كانت استنبول مركزا كالمراكز الاوربية. مركزا للذوق والأناقة والعمارة الجميلة. قتل اولئك الرجال استبعد جيلا من رجال النهضة العربية المثقفين القادرين أن ينشئوا دولة عربية معاصرة متقدمة. لا يريد ذلك المتعصبون الأتراك ولا يريده الإنكليز والفرنسيون. ولذلك لم يحرق بيكو أوراق السفارة مع أن دخان حريق الأوراق بقي ينطلق من السفارة ثلاثة أيام. بينت مناقشات مجلس المبعوثين أن الدونمة باعوا الدولة العثمانية للبنوك اليهودية الغربية، وأن انتماءهم ليس للدولة العثمانية. بإعدام شهداء أيار أبعد الدونمة القيادة العربية التي تقاوم استيطان اليهود فلسطين. انتقموا من شكري العسلي الذي كشف أن المستوطنات دولة داخل الدولة! قتل الدونمة والحمقى الأتراك المتعصبون والغربيون الطامعون في تقسيم البلاد العربية، شهداء أيار! استمعت منور إليه دهشة. كيف استطاع أن يخفي حزنه عليهم يومذاك حتى عنها؟ كيف يجمع بين العواطف الرقيقة التي تشف من ملامحه أحيانا، وبين القناع الأخرس الذي يحجب به روحه؟ وصوته؟ أليس صوت خالد آغا؟

سرحت يا منور بعيدا! لم أسرح يابهاء. يبدو أن فيك ما لاأعرفه بعد! لكني مطمئنة عليك! لن تبوح إذا جلست في المقهى بما يكشفك! لا أحتاج أن أوصيك بالحذر كما أوصي به سعيدا! يا منور، لذلك يتبعه التحري من المقهى إلى البيت، وأبقى فوق الشبهة! يتعايش في الأسرة الشرقية أقرباء متنوعون وأحيانا متناقضون في ولاءاتهم وطباعهم! هل يذكر لها أنه بحذره ستر تهريب الطحين وأنقذ أسرا جائعة؟ عن ذلك يجب ألا يتكلم أبدا! نظرت إليه سعاد نظرة طويلة. وخيل إليها أنها تعرفه أكثر مما تعرفه منور!

سافر سعيد إلى طبرية. رافق سعاد، وسهر مرات مع قدري، وعاد إلى بيروت. فهم أنه لن يستقر فيها بل سيظل متنقلا بينها وبين دمشق وطبرية.

تابع مع بهاء خطابات فيصل، واجتماعات النادي العربي في دمشق. اجتمع بالدكتور بيسار الذي سيرشح للمؤتمر السوري عن طرابلس. سافر إلى دمشق وعاد متحمسا للنهضة في سورية وكتب مقالات في الصحف. يا بهاء، قرر مجلس الشورى أن يكون عدد الطلاب الفقراء المقبولين مجانا في القسم الليلي في المدارس السلطانية 10% وفي القسم النهاري 30% واقترح فخري البارودي تأسيس مدرسة تجارية ومدرسة زراعية! كدت لا أعرف الشام!

صعد سعيد وبهاء بالأمل وهبطا بما وصل من أخبار فيصل في اوروبا. استقبل بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية فيصلا في رحلته إلى مؤتمر السلم في كانون الأول 1918 وأولمت له الولائم واستدعيت الراقصات، فكأنهم قصدوا أن يجعلوا إقامته سياحة ليتفادوا بحث القضية السورية! لم يفارقه لورنس رغم شك وفد فيصل فيه. في لندن تباحث فيصل مع بلفور الذي يعرف اتفاق لويد جورج مع كليمنصو لتنفيذ سايكس بيكو. رتب لورنس ورقة لفيصل تعد وايزمن بوطن صهيوني في فلسطين فأضاف إليها فيصل تحفظا ربطها بتنفيذ الوعد بدولة عربية. افتتح مؤتمر السلم في كانون الثاني 1919. اقرأ يا بهاء: "كان ينقل كلام الأمير من العربية إلى الإنكليزية لورنس، وترجمان آخر ينقل كلام هذا إلى الفرنسية". أترى؟! ترجم لورنس كلمة فيصل لمؤتمر السلم، والوفد العربي لا يعرف الإنكليزية، والموضوع هو القضية العربية! فماذا استبقى لورنس وماذا حذف؟ طلب الوفد الصهيوني من المؤتمر تنفيذ وعد بلفور بانتداب بريطاني. طلب حتى تثبيت حقه في مياه جبل الشيخ! ودعا لويد جورج إلى اجتماع سري للأربعة الكبار في بيته، طالب فيه وزير الخارجية الفرنسية بتنفيذ المعاهدات السرية. هل اللّنبي هو الفارس ذو الضمير لأنه أكد في المؤتمر أن فرض انتداب فرنسا على سوريا سيثير حربا بينها وبين السوريين؟ اقرأ: "في مسألة توزيع الانتداب في البلاد الجديدة التي ستنشأ في تركيا الآسيوية قدم اللّنبي معلوماته". على كل حال سنعرف الحقيقة من فيصل!

قلّب سعيد الصحف! فقالت منور: تعيشون ورؤوسكم في الجرائد! اسمعي يا منور! "طير إلينا البرق نبأ اهتزت له أوتار القلوب سرورا ولا غرو فإنه يبشرها

بمغادرة رجل العرب، محور الأماني والآمال، سمو الأمير فيصل ثغر مرسيليا معرجا على ايطاليا ومنها إلى هذه الديار". ترك سعيد الجريدة. لماذا يا بهاء ننثر قلوبنا في سهولة ونمتهن اللغة والأفكار والعواطف! نشرت الجرائد أمس توزيع الانتدابات. رسمت حدود جديدة. فهل يناسب هذا الكلام هزيمة فيصل؟ أتساءل يا بهاء هل نرى القائد السياسي شيخ عشيرة رغم حركة الأحزاب والنوادي والمظاهرات والمناقشات؟ أم نستولد صحفيين مرائين ومريدين منافقين؟ سمة هذه الأيام الصاخبة أن الأحزاب تطلب دولة ديمقراطية ذات دستور ومؤسسات تحكم البلد! فما لزوم هذا الكلام عن فيصل؟ يا سعيد، مزاجك مزاج شاعر. لا يناسبك أن تكون سياسيا! لكن السياسة اليوم واجب وطني! وأنت يا بهاء؟ أنا يا سعيد أرى هذا الزمن مقدمة لأزمنة أستعد لها بالصبر والحكمة!

سيصل الأمير فيصل في الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء إلى ميناء بيروت. وسيرحل منها بوم السبت في الساعة السادسة بالقطار، سيتوقف قليلا في المعلقة، وسيصل إلى دمر في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر! في بيروت وفي دمشق يستعدون لاستقباله! النساء والرجال والأولاد في الطرقات! تستقبله بيروت استقبالا فخما! ترد على فصل لبنان عن سورية؟

خرج سعيد لاستقبال فيصل. استمع إليه وسجل كلامه. "ستقبل الأمم استقلالنا صاغرة"! كيف؟! قال بهاء لنفسه وهو يتأمل فيصلا: وجه فيصل كالوجه الذي تريده لي منور! فهم فيصل أن بريطانيا خانته. وأنها متفقة مع فرنسا على اقتسام بلادنا. ولعله فهم أن صحبة لورنس مفروضة عليه. لكن انظر إلى وجهه الملوكي! جمع بهاء ما رآه إلى ما رآه سعيد. قال: لابد أنه ضاق بالرياء الاوروبي في الاستقبالات التي شغلوه بها. ومع ذلك لم يبح بهواجسه إلا للقلة. فتح سعيد دفتره: أكد فيصل أن نوايا الحكومات "المعظمة" سليمة، وأنها صادقة متمسكة بالمبادئ "السامية" التي جعلتها دستورا لأعمالها! لكن حماسة الناس كانت لأحلام فيصل لا لما قاله! فهموا أنه لا يستطيع البوح بالحقائق! وما هي تلك الحقائق يا بهاء؟ نحن أيضا لا نعرف إلا الإشارات إليها. لكن ستعرف ذات يوم، ستعرف!

في جو معاد لدولة عربية في سورية استقبلت غرفة التجارة في ليون الأمير فيصل خلال مروره بليون في 28 تشرين الثاني 1918 ورفعت نخبه، فقط! لم يعرف سعيد ذلك لكنه تساءل: كيف يستطيع سياسيون اتفقوا على اقتسام بلادنا أن يرفعوا أنخاب فيصل؟! تريد الحقائق يا سعيد؟ اسمع، وصل رجل مهم إلى سورية اسمه هوفيلان بعد "المؤتمر الفرنسي عن سورية" الذي نظمته غرفة تجارة

مرسيليا. وصل موفدون آخرون أرسلتهم البيوت التجارية وبيوت الحرير. تابعهم لتعرف بعض الحقائق!

عرف سعيد من أخبار من التقى بهم أن هوفيلان سينبه بلاده إلى سيطرة القوات الإنكليزية على خطوط الحديد وتوجيه الاقتصاد السوري نحو مصر. وسيبين أن قرار اللّنبي اعتماد العملة المصرية التي تتبع العملة الإنكليزية، ضرب المصالح الفرنسية "كان الصرف جيدا لنا بالعملة العثمانية، أما بالعملة المصرية فهو كارثة... لم تحصل صناعة ليون على خمس المشتريات التي كانت تحصل عليها.. تنتشر في سورية الداخلية البضائع الإنكليزية المصرية حتى حدود الفرات، وتجر إلى النيل المواد الأولية السورية، بما في ذلك خشب الجبال التي تعرى وتجرد. يجب أن يعرف صناعيو ليون أن شجر التوت في طريقه إلى الانقراض من لبنان. أين يذهب؟ يذهب بقطارات ملأى إلى مصر كحطب وقود". رأى هوفيلان الشر في الحركة العربية في سورية! ننتظر يا بهاء إذن مصيبة كبيرة بعد عودته إلى بلده!

انتهت أيام الأفراح يا منور؟ نظرت إليه منور مبتسمة. هذه ليست سنوات المجاعة في لبنان! بالحب أيضا نقاوم الاحتلال! ما أعجبك يا منور! أما كنا نستطيع أيضا أن نقاوم أيام الحرب بالحب؟ لا، يا بهاء! نحن اليوم طرف واحد. في الحرب كنا طرفين!

كان البيت الذي استأجره بهاء يومذاك في بيروت، قرب حارة السراسقة. حوله بيوت صادرت الدولة بعضها لأن أصحابها رحلوا إلى فرنسا، وأسكنت فيها موظفيها الكبار. وبيوت من صادقهم الضباط الأتراك ومنهم جمال باشا. وها قد عاد الغائبون إلى بيوتهم بعد الحرب! بيت منور وسط حديقة مزروعة بالورد. اللحف فيه مغلفة بالأطلس. والستائر من الحرير المقصب الشامي.

ما تزال آثار الأفراح على منور. قالت لسعيد عندما عاد من المقهى: الدنيا نوّرت، والشمس طلعت، والزنبق فتّح! فلنحتفل! بماذا؟ بأننا نعيش!

خرجت سعاد من الحمام متوردة الوجه. نزع سعيد المنشفة عن رأسها وشم شعرها: نظيف! أجلسها أمامه على الكرسي، وجفف شعرها بالمنشفة. فتّحها الدلال كالوردة. توهج وجهها. تأملتهما منور: سعاد صبية، وأنت تعاملها كأنها طفلة! ضحك: غرت يا منور؟

وجد سعيد عوده الذي تركه في بيروت. حفظته منور في غلاف من القماش. انتهت الحرب. فتحت المدارس المغلقة، رجع أحمد عباس! فلنحتفل بالأحياء! وضع العود في حضنه وعزف عليه. غنى:

شجني يفوق على الشجون يا مائسا فضح الغصون

وصل الحبيب متى يكون لمتيّم قلق الجفون

استمعت إليه إميلي من حديقتها. بينها وبين منور سور. في آخر سنوات الحرب خطر لجمال باشا أن يجتمع بوجيهات بيروت. دعاهن لفتح مياتم ومشاغل للنساء. كانت إميلي ممن اجتمعن به وفتحن مشغلا للنساء. قالت لها منور يومذاك: الآن؟ بعد أن ضرب من ضرب وهرب من هرب؟ الآن بعد أن شردت النساء وبيعت شابات مثل الورد، وماتت أمهات وأطفال من الجوع؟ استمرت منور في جولاتها الخيرية يومذاك، لكنها دلت إميلي إلى بعض النساء ودلتهن إليها.

طرقت إميلي الباب: تأذنون لي؟ سمعت من بعد عزفا مدهشا وصوتا أحلى منه. هل أستطيع أن أسمعه من قرب؟ قدمت نفسها لسعيد قبل أن تقدمها منور له: إميلي!

سمع سعيد في صوتها اعتداد شابة غنية وجميلة معتدة بتهذيبها. نهض وانحنى لها في مرح: ما أقل عزفنا أمام هذا الجمال! ضحكت إميلي مستمتعة

بمرحه الممزوج بالسخرية. لكن سعيدا أصبح جادا عندما نظر إليها. أتكشف له نظرة واحدة أنه سيلتقي بهذه الشابة مرات، ولن يكون ما بينهما خاطفا؟ بدا له أن إميلي التقطت نظرته وابتسمت. غمره بريق عينيها. قال في تواضع: محظوظ بمستمعة مثلك!

حاول أن يختار لها أفضل مقعد. المقاعد متشابهة؟ آه! لا يوجد مقعد يستحقك! ضحكت: ستوقفني إذن؟ بعد جلوسك لن تكون المقاعد متشابهة! يبدو أنك تجيد الكلام أكثر من العزف! آه، لم تعرفي بعد كل مواهبي! متواضع إذن؟ جدا! لم نتعارف بعد! أنا قدمت نفسي! اسمي سعيد! عاشت الأسماء! سعيد أيضا؟ قدري! ضحكت إميلي، جلست ووضعت ذراعها على يد المقعد. وعاد سعيد إلى مقعده. نقلت منور نظرها بينهما. بدت الحديقة من الباب الواسع المفتوح في صدر الغرفة، وعبق منها الورد. تساءل سعيد وهو ينظر إلى إميلي: ذلك عطر إميلي أم عطر الورد. والتفت مرة إليها ومرة الى الحديقة. ابتسمت. هل سمعت همسه لنفسه؟ يبدو أني قطعت عزفك وحرمت نفسي منه! انحنى سعيد على عوده عزف فابتعد حتى عنها. ومن بعيد غنى كأنه يغني لنفسه:

كيف لا أصبو لمرآها الجميل من سناها يخجل البدر التمام
غادة في حبها جسمي نحيل وفؤادي في هواها مستهام
خيزران القد أم أغصان بان أطلعت بدرا بليل الشعر بان
فيها قلت حياتي والصبر بان وكساني البعد أثواب السقام

بدا كأنه نسي من حوله. رجال المولوية فقط يذوبون من الوجد؟ هو أيضا. بماذا كان يشعر؟ بالكلمة والنغمة، بصوته الحلو المطواع، أم بامرأة جميلة مأخوذة به؟ شعر بورد الحديقة، بشاطئ بيروت حيث سهر مع صدقي الطبري، بخطواته في الشوارع الساكنة في الليل، شعر بأمنياته، وحزنه، بشوق لا يستطيع أن يحدده. بأفراح الاحتفالات. بدأ بدور آخر.

تنقلت أصابعه برشاقة على الأوتار، وماج صوته. وقف مع العود وتمايل. مست خطواته الأرض مسا. لكن وجده كان هو المبهر. ما أجمله وقد نسي ما حوله وانساب في العزف والكلمات! توقف فصفقت له إميلي. نظر إليها ففهمت أن تلك الأدوار لم تكن غير مقدمة لما سيغنيه. راقبتهما منور وخمنت أنه سيغني لها أغنية بقيت شائعة زمنا طويلا في بلاد الشام. وغناها:

يا نسيما هبّ مسكا عبقا هذه أنفاس ريا جلّقا

كفّ عني، والهوى، ما زادني برد أنفاسك إلا حرقا
ليت شعري نقضوا أحبابنا يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا رياح الشوق سوقي نحوهم عارضا من سحب عيني غدقا
وانثري عقد دموع طالما كان منظوما بأيام اللقا

ابتسمت إميلي: يحب ريّا دمشقية، كي ينساب عذبا في أغنية كأنه هو ناظمها وملحنها؟ لا، هذا لي! توهج وجهها. في هذه البرهة العابرة يفرحها أن يعجب بها هذا الشاب الوسيم وأن تعجب به، هي التي استمتعت بإعجاب الرجال قبله وستستمتع به بعده. وقفت منور: أين خبأت ذلك كله يا سعيد، وأنا أعرفك العمر كله! هل تخطئ إذا فهمت أن إميلي هي السبب؟ ولكن ما أسرع هذا التفاهم بينهما! التفتت إليها فأشارت إميلي: افتحي النوافذ كلها! يا للذواقة! تشعر بأن ما تسمعه الآن فريد فتريد ألا يفوته أهلها، الجيران، الفضاء، والجنائن! مشت منور في هدوء وفتحت النوافذ والأبواب المطلة على الحديقة. وسمعت في الخارج صمتا لم تسمع مثله من قبل. كل شيء ينصت للغناء.

صارت إميلي تسهر كل ليلة مع سعيد. وتغني معه مدندنة. أفلتت منها مرة كلمات مع نغمة، فانتبه سعيد: يا إميلي هل تخفين عني صوتك؟ هل يوجد صوت بعد صوتك ياسعيد؟ لنغن معا! غنيا معا، وكل منهما يحمل الكلمات معناها الآخر المديد وهو ينظر إلى صاحبه.

طال ليلي وغرامي لا يطاق وفؤادي من هيامي في احتراق
وشجوني ساجعت ورق اللّوا من معانيها بما العشاق شاق

هل يحب أحدنا الآخر يا سعيد؟ لا أعرف يا إميلي! فهل يمكن أن يدخل الحب مختالا هكذا ويخطف القلب؟ يقال لابد من الألم في الحب. لا نتألم، فهل ما بيننا حب؟ ضحكت إميلي وتابع سعيد الغناء. هل قلت شيئا يا سعيد؟ أنا، لا، وأنت؟ نتحدث بالغناء فقط!

بعد تلك الأمسية في بيت منور صار سعيد يزور إميلي في بيتها. فانقطع الغناء في بيت منور وصار ينساب من بيت إميلي.

بعد الاحتفالات في بيروت رجعت سعاد وحدها إلى طبرية. سدد نوري ثمن تلك الأفراح وانصرف، مع أنه لم يرغب بالحرب ولم يؤمن بضرورتها! وغسلت الاحتفالات والهواجس بعدها موته حتى خيل لسعاد أن صورته التي يلبس فيها القنباز ويتمنطق فيها بالزنار العريض كالفلاحين، لم تعد تستوقف غيرها. هل خيل لأهلها أن الحياة ستعود بعد الحرب كما كانت قبلها؟! وأنهم سيستعيدون زمن النزهات والأفراح؟ لا يعود ما تبدد! هاهو قدري مشغول بالاجتماعات والسفر إلى دمشق. وشفيقة ترتب الثياب النظيفة في محفظته ثم تفرغها لتغسل الثياب الوسخة. وسعيد يتنقل بين دمشق وبيروت. مشغول بالاجتماعات وأقل من ذلك بالدراسة! ومنور منصرفة في بيروت إلى سعادتها. مسحت سعاد دمعتها أمام بحيرة طبرية وأعادت صورة نوري إلى مكانها قرب سريرها. وهمست لنفسها: حان الخروج من بيت قدري!

هل شعرت سعاد أن كثرة البيوت التي تتنقل بينها تعني أن لابيت لها؟ وأن كثرة أهلها تعني أن لا أسرة لها؟ هل رغبت في أن تجد حبا مثل حب بهاء لمنور؟ ليس حب أخ أو خال، بل حب رجل؟ ألا تشعر بقلق سعيد عليها؟ لن تعيش في بيت خالها طول العمر! لن تعيش في بيت منور في بيروت! يجب أن تفكر في الزواج! فلتترك صورة نوري قرب سريرها ولتسترسل كالصبايا في الحلم بشاب وسيم تجلس معه محاطة بأهلها، يختلس البرهة التي يبتعدون فيها ليقول لها إنه يحبها. يحمل لها في كل زيارة هدية. فإذا لم يأت دق الباب رجل غريب قال: هذه التنكة من العسل من فلان، ففهمت أنه يدلل أهلها ليكسبها!

قالت الرابعة عشرة من العمر إن سعاد لن تكمل تلك السنة في بيت خالها. يجب أن يكون لها بيتها المستقل! ويجب أن يكون جميلا، وتكون فيه سعيدة! ما شكل ذلك الرجل الذي سيحبها ويدللها وتكتشف كم تستطيع أن تجعله سعيدا؟ يجب أن يكون وسيما! ويجب أن يكون أسمر لأنها شقراء! أية أيام جميلة ستمتد أمامها! أية طاولات ستمد كلما زارها سعيد والست شفيقة وأولاد خالها! ستأتي حتى نفيسة من الشام لتزورها! ستحمل لهم سعاد الهدايا كلما زارتهم. ستبقى تنكات السمن والعسل ترسل لهم باسم ذلك المحب الذي سيتزوجها! هل تذكرت سعاد وهي واقفة قرب النافذة أمام بحيرة طبرية، قطعة القماش الجميلة التي فقدتها واستعادتها؟ فرض قدري أن تكون سعاد مدلّلة في بيته. لكن هل يغيب عنها أن

بيت الأم والأب فقط بيتها!

أرسلت نفيسة لسميحة بنت قدري قطعة قماش من الشام. رمادية ذات بريق خاطف. قلّبتها شفيقة وقالت: تناسب بيريلي! عبر سعيد الغرفة في تلك البرهة ورأى بريق عيني سعاد؟ فاشترى لها من بيروت قطعة قماش بخمس ليرات! قطعة قماش بلون الموضة: لون رقبة الحمام. نشرتها سعاد مفتونة بتموج ألوانها. رمتها على كتفيها. كم تناسبها! لم تر شفيقة ذلك؟! قالت وهي تنظر إلى القماش: تناسب سميحة لأنها سمراء! أنت يا سعاد، بيضاء شقراء! ردت سعاد: خذيها! إذا لبستها بنت خالي سميحة فكأني لبستها! لو كانت منور حاضرة لقالت لسعاد: منافقة! ولقالت لشفيقة: تنحازين إلى بنت أخيك! هذه، أليست بنت أختك؟! لن تفهم منور أن سعاد وعت مبكرة أنها تعيش في بيت ليس بيت أبيها وأمها! وأنها يجب أن تكسب من فيه بتسامحها لا بأوامر خالها!

فصّلت الخياطة لسميحة قماش سعاد ثوبا. وعندما قاسته بدا قصيرا. كيف حدث ذلك؟ قالت شفيقة وهي تنظر إلى سميحة والخياطة: ردّ الله الحلال لأهله! هذه القطعة من نصيب سعاد! يا خالتي، كنت أتمنى لو بقيت لسميحة لأنها أحبتها! قاطعتها شفيقة: لا تعترضي على إرادة الله!

لماذا نوقن بأننا نقرأ ما يفكر فيه من يقف على بعد خطوة منا؟! خيل لسعاد أن شفيقة قالت في سرها: لن تتزوج سميحة السمراء طالما كانت سعاد الشقراء إلى جانبها! من يمكن أن يختار سميحة إذا رأى سعاد؟! لم تبح شفيقة أبدا بأنها فكرت في ذلك. لكن سعاد بقيت مؤمنة بأن شفيقة تمنت في ذلك اليوم أن تزوجها بسرعة!

لبست سعاد الثوب الجميل وكتمت فرحتها به. وتصورت أنها يوم تفرح في بيتها ستدور في الصالون رافعة ذراعيها توشك أن تطير. بقيت من القماش قطع صغيرة فهل ترميها؟ لن ترمي شيئا أبدا طوال حياتها! الهبات خصلة من خصال منور ستظل سعاد تنتقدها. تذكرت أن لديها علبة من المناديل التي أهداها عثمان باشا لأمها فاطمة. مناديل من الحرير، بعضها في أطرافه "فستون". وبعضها مطرز بزهور. وبعضها سادة. أهدت فاطمة لبهاء منديلين منها. قالت له يومذاك: يا بهاء، أعرف أنك تحب الزهو بأناقتك. تستعمل "العطوس" لأن عثمان باشا يستعمله! وتحفظه مثله في علبة من الفضة المزخرفة بالمينا! فخذ هذين المنديلين! قبّل بهاء كفي فاطمة. هديتها ثمينة، وما كانت لتقدمها لغيره. ألم يرها مرة تشم المناديل قائلة: فيها رائحة عثمان!

رسمت سعاد بالقلم الجزء الذي ستقصه من المنديل ليكون صدر قميص. ودوّرت ما بقي منه كالوردة. نعم، يمكن أن تكون هذه البقايا وردة متوجة بفستون! فلتقصّه! بقية القماش ستكون ظهر القميص والجزء الأسفل من الصدر! بدأت مترددة. قصّ المنديل مثل القتل! قالت شفيقة: لا أريد أن أرى ذلك! لم يبق إلا أن تندفع سعاد لتجعل ما تخيلته حقيقة جميلة! انصرفت إلى القميص حتى اكتمل. عندما تبينته أمام المرآة صاحت: نجحت! لم أقتل المنديل. أظهرته! يا خالتي، تعالي تفرجي! وقفت شفيقة قرب الباب: ما هذا؟ تقدمت من سعاد وفحصت القميص: علمناك فسبقتنا! شاطرة! حقا، يا خالتي، "بني آدم نصفه خلقة ونصفه خرقة"! بل قولي يا سعاد: القالب غالب! و"الحاجة بلبّاسها"! يحتاج الجمال إلى ما يتجلى به! من كان يستطيع أن يتبين ذراعي سعاد، وعنقها الممشوق، وبشرتها النقية، لولا هذا القميص؟ نظرت سعاد إلى شفيقة. ألم تفكر شفيقة أمام سطوة جمال سعاد، بأنها يجب أن تزوجها بسرعة؟! هل تجهل شفيقة وهي تشهد استعداد الشابتين للعرس الذي دعيت إليه أسرة قدري أن ضوء سعاد أطفأ سميحة؟

في العرس قالت النساء: سبحان الخالق! لمست امرأة من نابلس الوردة التي زينت بها سعاد صدرها: ما أحلاها! من أين، من بيروت أم من الشام؟ تأملت النساء ذراعي سعاد وبشرتها الياسمينية الصافية. لمست امرأة شعرها وقالت: ما شاء الله! سمعت سعاد امرأة تهمس: لو كانت طويلة لخربت الدنيا بجمالها! فردت عليها بينها وبين نفسها: لا أريد أن أخرب الدنيا! كبحت سعاد طوال العرس فرح شابة في الرابعة عشرة من عمرها تحضر عرسا فيه أمهات الرجال الذين قد يتزوجها أحدهم. وكتمت زهوها بثيابها وجمالها.

قبلت المكان الذي أبعدها عن سميحة كي تبقي لها بعض الضوء. تفرجت عليها شفيقة من بعد. جمالها "أكابري"! كأنها ملكة! تلك الشابة القمحية هناك جميلة أيضا، قريبة من القلب، لكن جمالها يعجب الفلاحين. جمال سعاد جمال آخر. يعجب كل من يراه، لكن الغني فقط يجرؤ على اختياره. فهل كانت شفيقة وهي تتأمل سعاد تحدد نوع الرجل الذي سيتزوجها؟!

ستخطب النساء سعاد لأبنائهن! سيصغي الرجال لنسائهن اللواتي حضرن العرس وهن يصفن سعاد، وستأتي منذ الغد، نساء من نابلس وحيفا يطلبنها قبل أن يسبقهن آخرون إليها! سيقول قدري رأيه في أسرهم التي يعرفها، وسيرسل من يسأل عن أخلاق الأبناء المقترحين! قد يرجح أبناء الأسر الكبيرة التي تسنده وتسندها. مؤمنا بأن سعاد يجب أن تكون في مركز من يصنع مصير البلاد. لن

يقبل لسعاد إلا شابا غنيا أو يستطيع أن يصبح غنيا، لأن السعادة دون مال مستحيلة. ولأن سعاد ليست رخيصة. سيبدو أن الكلمة ستكون للرجال. لكن النساء هن اللواتي سيرتبن ذلك. هن اللواتي سيبحثن تفاصيل الزواج، وعندما يتفقن على كل شيء سيطلبن من الرجال أن يعلنوا الاتفاق! شفيقة هي التي ستقرر الزوج الملائم لسعاد. وستقدر الحلي التي ستقدم لها، والملابس، والبيت الذي ستسكن فيه! ستسأل سعاد رأيها في الثياب التي ستفصّل لها، ولكن سيقال لها: هذا القماش أجمل، هذا اللون يناسبك أكثر، هذا... هذا. وسيكون ذلك آخر ما تنفذه سعاد من قرارات شفيقة. بعد ذلك ستصبح حرة، حرة! كم شابة ستندم لأنها هرولت إلى بيتها المستقل، حالمة بتلك المملكة التي ستكون فيها حرة؟!

بعد العرس الذي حضرته سعاد، تجول شاب أمام بيت قدري. عيناه على نوافذ البيت! ركضت سميحة إلى شفيقة: طلب الشاب الذي يروح ويجيء أمام بابنا كأسا ليشرب من نبعنا! وعندما أطلت سعاد من النافذة ابتسم! مسحت شفيقة يديها بمريولها: كأس؟ ما شاء الله! يا أمين قدم للرجل كأسا مع أن الناس يشربون بأكفهم من النبع! أطلت شفيقة ورأته. هذا الشاب لا يطلب ماء بل يطلب فتاة! يا سميحة ويا سعاد، لا تقتربا من الشبابيك!

لكن حمدان كان قد رأى سعاد التي وصفتها له أمه وأخته. كاد يصرخ عندما أطلت: طلع القمر! عاد إلى الناصرة وقال لأمه: اطلبيها اليوم قبل الغد! فنزلت أمه وأخته إلى بيت قدري في طبرية وطلبتا سعاد من شفيقة.

قالت شفيقة: "دار حمدان" في الناصرة عز وأملاك! غنى ونفوذ! ابنهم وحيد ومدلل، والرزق كله له. تزوجت شفيقة ابن المفتي عبد السلام الطبري. مات بالسل. لكن أسرته بقيت لها. تنازلت للمفتي عن الإرث كي يبقى الملك موحدا. لكن الزيت والسمن يصلها من المفتي كل موسم، وفي كل عيد لها منه ليرات ذهبية. يقدمها وهو يقول: لبنتي شفيقة! الزواج من الأسرة أولا، يا سعاد! عماد الشيخ نفسه تمنى أن يزوج بنته من حمدان! نزل مع ثلاثين رجلا في الناصرة. أين؟ في بيت حمدان! لم يستعر حمدان فراشا واحدا أو صحنا واحدا من أحد! لم تصغ سعاد إلى كلام شفيقة. استمعت إلى قلبها: حمدان نزل من الناصرة وتجول أمام الباب منتظرا أن تطل من النافذة!

تفرجت أم حمدان وأخته على سعاد التي جلست بعيدا عنهما. لن تتزوج سعاد أسرة كما تقول شفيقة! فما أهمية ألا تعجبها أمه أو أخته؟ نظرتا إليها وأكدتا ما رأتاه في العرس. بنت حلوة! تعجب الباشا والملك! قالت أم حمدان لنفسها: بيضاء شقراء، صغيرة، أربيها على يدي. وقالت سعاد لنفسها: أغنياء لكنهم غير متعلمين. لكن المهم هو! كيف هو؟ أعلنت لشفيقة: لن أقبله حتى أراه من قرب! فرفعت شفيقة يداها إلى رأسها!

بعد أيام قالت شفيقة لسعاد: البسي! سترين خطيبك! وقالت زوجة قدري: وصلت الحلويات من الشام! سيغطونك بالمصاغ. وقعت على كنز يا سعاد!

حمل حمدان الكنز! ما هذا؟ يتأبط صندوقا! احمرت سعاد عندما فتحه.

برقت الحلي! أهذا الشاب مجنون أم جنيّ؟ أم يقطع الدروب كلها علي؟ لم تنظر إلى الصندوق بل نظرت نظرات سريعة إلى حمدان. متى وجد الوقت ليقع في هواها ويغرق فيه؟ قالت شفيقة التي كبحت دهشتها: لم يأت بعد وقت تقديم الهدايا. خذ الصندوق يا ابني معك! وهمست لنفسها: الزائد أخو الناقص! يظن أنه سيبهرنا بالذهب؟! رد حمدان: يا ست شفيقة، سعاد تستحق أن توزن بالذهب! نعم، خطر له أن يملأ سلة بالحلي، لأن الناس يملأون السلال بالفواكه! هل تسمحين لي يا ست شفيقة بكلمة أقولها لسعاد خانم؟ أعجبت "خانم" شفيقة. لكنها تساءلت هل حمدان مستعجل، أم فلاح ينقصه الأدب! أم معتد بنفسه، مترفع، يتصور أنه لا يمكن أن يرفض! نظرت سعاد إلى الست شفيقة كأنها ترجوها أن تبقى. لكن شفيقة خرجت من الغرفة. ستعود بعد برهة. ألا تتحمل سعاد أن تبقى وحدها معه برهة؟ قال حمدان لسعاد: أرجوك يا سعاد اقبليني! أرجوك! لا أريد أحدا غيرك! رأيتك قبل أن تذهب أمي إلى العرس وتصفك لي. كنت في حديقة البلدية مع بنت خالك. منذ ذلك اليوم أبحث عنك! يعجب المدح الزعماء السياسيين فقط؟ كم شابة سقطت بالكلام الحلو وتوهمت أنها إذا رفضت المحبوب انتحر؟! لكن سعاد استندت إلى ظهر الكرسي وقالت: لا ينضج المشمش إلا في أوانه. وكل ما يأتي في سرعة يتبدد في سرعة! متى تعلمت تلك الحكم؟! فتح عينيه دهشا وقال لنفسه وجدت كنزا! عندما عادت شفيقة إلى الغرفة رأته يتأمل سعاد ذاهلا. هذه أول شابة لا تفتتن بكلامه! ماذا جنت سعاد من اللقاء به؟ جنت فقط أنها رأته يهواها ويستعجل أن تقبله. أعجبتها سمرته، أعجبتها وسامته. لكنها لم تقل لشفيقة وافقت إلا بعد ليلة من الأرق. لابت في الغرفة. فتحت النوافذ ونظرت إلى بحرة طبرية. هل يجب أن يبدو الزواج كالقدر للفتيات؟ كأنه طريق لا عودة منه، ولا عودة عنه، ولا تصحيح فيه، على المرأة أن تتحمله حتى نهايته؟ إلى متى سيكون الزواج نهاية حياة الفتاة وهو يوهم بأنه بدايتها؟

غفت سعاد في الفجر وهي تتذكر كلمات حمدان التي ردتها. استعادتها مرات. الحب ساحر! بدأت تحبه؟ تحب حبه لها؟ همست لنفسها: في الصباح أقرر ما سأبلغه لشفيقة! حتى الصباح تستطيع أن تستمتع بأن شابا وسيما يحبها! غفت وهي تتمنى أن تحلم به.

لم يترك حمدان لسعاد وشفيقة فرصة التردد. كأنه اكتشف أن للبيوت القوية أيضا مسارب يتسلل بها. "اضرب الجدار بهذه العجينة، إذا لم تعلق علّمت"! في اليوم التالي أتى أهل حمدان إلى بيت قدري. معهم حمالون نقلوا كيسا من الرز ذا

ميل أحمر، فيه خمسة وأربعون رطلا، وكيسا من السكر، وتنكة سمن، وتنكة زيت، وثلاثة خرفان! ما هذا؟ شغلوا البيت! هربت سعاد إلى الغرفة التي تنام فيها مع سميحة! يا سعاد! أنت محظوظة! يا سميحة ما رأيك في أن تأخذيه؟ اسكتي يا سعاد! عيب! إذن خذي أهله فقط! يزهق الروح طبخ الخرفان في الحديقة! لم تقترب سعاد من الطبخ! لكنها رتبت الطاولة كما علمها الرجل الذي أتى به خالها قدري مرة من فندق غروسمن! المناديل كالفراشات فوق الصحون! لكن ما أطول النهار! طويل أيضا على شفيقة التي تراقبها كيلا تخطئ بكلمة أو حركة. في الليل قال لها قدري: حمدان شاب الفرق بينك وبينه ست سنوات. صغير لكنه تجول في البلاد وعرف الناس، واشتغل بالتجارة. لا أخفي عليك أنه مدلل تعود أن يطلب فيطاع. لكنه لا يريد غيرك! ماذا تطلبين أكثر من ذلك؟! الذهب الذي جاء به أهله يملأ سلة!

كررت شفيقة كلمات قدري. لو تعرف شفيقة ما بسعاد! أعجبها الشاب. لكنها نفرت اليوم من أم حمدان. سمعتها تقول لبنتها وقت رأت قدري يعبر الصالة بفانيلة مصرية ضيقة: هذا زعيم؟! "ملبوسه" ضيق! كيف يقبل خالها مصاهرة هؤلاء! وكيف تتزوج هي من حمدان؟

في تلك الليلة سهر قدري حتى الفجر. تربي شابة تضع فيها روحك، فيأتي غريب يأخذها منك، يصبح هو القريب وتصبح أنت الغريب! لو تتزوج سعاد، على الأقل، رجلا من طبرية! انتقل قدري من سعاد إلى فحص حياته. هاهو قد وصل إلى قمتها. لكن هذه القمة تهتز. والبلاد نفسها تهتز. لن يبقى أحد أو شيء في مكانه. هو الذي يجمع أجزاء الصورة، ويضع الخبر إلى جانب الخبر يعرف ذلك. ويقول محظوظ من لا يفكر إلا بالجزء الظاهر من الأحداث. يتساءل عن مصير البلاد ويرتعش. يحسد النساء: يستطعن البكاء والصراخ! يريد أن يمسك بشيء ثابت. وهاهي سعاد تزيد الرياح التي تهزه!

وصل سعيد من بيروت ليقول رأيه في زواج سعاد. ننتظرك كيلا نضيّع الشاب. يا خالتي، أولا يجب ألا نضيع سعاد! سعاد صغيرة! في الرابعة عشرة صغيرة؟! يا سعيد، فرصة لا نريد أن تضيعها! فرصة لمن يا خالتي؟ قد تكون مصيبة يجب أن نتفاداها! ما رأي سعاد؟ هل تعرف بنت في عمرها مصلحتها؟ يجب أن يكون لسعاد بيت من حجر! فكر في مصلحة سعاد. البلاد على كف عفريت رغم أفراحكم باحتلال الإنكليز، من يتزوج إلا أمثال حمدان! آه يا خالتي، لا تضغطي الخنجر في الصدر! تعال يا سعيد، تعال! سكب قدري لسعيد فنجانا

من القهوة. عندئذ رجعت سعاد من بيت الطبري، متوردة الوجه، توزع على من حولها الفرح! الفرح برجل يحبها؟ لا تنتبه من سعادتها أو من ثقتها بنفسها إلى قلق من حولها! همس قدري: ما أبعد هواجسنا عنها! وتساءل سعيد وهو يتلقاها بين ذراعيه: هل يجوز له أن يفقدها فرحها برجل يريدها، ولو تصور أن صحوها من هذا الحب السريع سيكون مؤلما؟ هل يفيد من سلطة الأخ كي يمنع عنها تجربة قد تحزنها لكنها ستؤسس حكمتها؟ قال له قدري: قابله لتعرفه قبل أن تعطي رأيك فيه!

في الصباح جلس أمامها وقال لها: أنت التي ستقررين زواجك، لأنك أنت التي ستتحملينه. يلزمك الوقت لتختبري حمدان. أرى أن تسافري إلى بيروت وتبقي فيها عدة أشهر. نظرت سعاد إليه. هل يخيفه أنه سيفقدها؟ أن يعي فجأة أنها ليست طفلة؟ قالت له: كيف أستطيع أن أعرفه وأختبر رغبتي فيه إذا سافرت إلى بيروت فلم أره ولم يرني؟!

تصور أن أخته لا يمكن أن تحب رجلا قبل أن تستشيره، ولا يمكن أن تعجب بشاب قبل أن يعرف ذلك! وهاهو يكتشف أنها تجري في عواطفها مستقلة عنه. قال لها: أعرف الناس أكثر منك لأني عشت أكثر منك. ومع ذلك أطلب رأي أصحابي. ألا تحتاجين رأيي في حمدان، أو في أي رجل يطلبك؟ طبعا يا سعيد! لكني أنا التي سأتزوجه. لذلك قد أرى فيه ما لاتراه أنت! هذا جموح الرابعة عشرة من العمر، أو اعتداد الصبا والجمال بأنه يستطيع أن يحكم القدر! جرف مكانته التي لا تنافس عند سعاد! لذلك قرر أن يرى حمدان، وألا ينزل إلى بيروت. سيبقى قرب سعاد ليحرسها من جائحة الحب!

التقى بحمدان قبل أن يطلب ذلك. أتى حمدان إلى بيت قدري، يرافقه حمالون نقلوا تنكات الجبن والزيتون. يا خالي، هذا شاب وقح، لا يعرف الأصول! يجب أن ينتظر قرارنا في بيته لا أن يطلبه كل يوم! وهل قلت له إنك ستفتح مخزنا أو عنبرا للمؤونة كي يحمل هذه التنكات معه؟ يا سعيد، أختك ترى إلحاحه هوى لا يقوى على كبحه! ولا تنتبه إلى تنكات المؤونة!

دخل سعيد ليرى حمدان، معبأ بالغضب عليه. لكن قدري أدار الحديث حتى هدأ سعيد. أراد أن يصيد أخطاء حمدان؟ وإذا به ينساب في الحديث معه عن الشعر. ذكّر سعيد نفسه مرات بأنه يمتحنه. وخيل لقدري أحيانا أنه أمام ديكين يتقاتلان حتى بالشعر، وأحيانا أمام ذواقتين. أعلن سعيد في نهاية اللقاء: يا خالي، هذا الشاب صعب. كريم، متعلم، لكنه ليس من طينتنا ولامن عجينتنا. فيه شيء

سوقي. بتربيته بعيد جدا عنا. يا سعيد، مصيبتنا في بناتنا أنهن بريئات، سهل أن يوقعهن شاب يظهر أنه متيم بهن! ولعل أضعفهن من ربي مثل أختك جاهلا الجانب القاسي وغير المهذب من الناس! يا خالي، سأطلب عملا هنا، لأبقى إلى جانب سعاد، لعلنا نرد هذا الزواج! ودراستك يا سعيد؟ فيما بعد يا خالي. لن تهرب الدروس لكن سعاد يجب ألا تضيع!

وجد سعيد وظيفة مدير مدرسة في قلقيلية. وأخذ سعاد معه ليبعدها عن حمدان! مدير المدرسة شخص مهم. طرق فلاحون الباب على سعاد. ما هذا؟ كيس من القمح! ماذا أفعل به؟ اطحنيه! رفض الهدية عيب! أطحن القمح وأعجن الطحين، أقرّص العجين حتى يختمر، ثم أمده على طراحة وألصقه بالتنور؟ وتمتلئ عيناي بالدخان، وتلتهب ذراعاي من وهج الجمر؟ أهذا ما تعدني به يا سعيد؟ ضحك: اطبخي منه حبوبا، سليقة، رشي فوقها الزبيب والجوز! أحضر له أهل البلد على طبق من القش خبزا طازجا من التنور! في كل يوم تقدم له امرأة من أهل البلد خبزا ساخنا تقول سعاد ما أطيبه، ما عدت أرغب بالغداء! أشارت سعاد إلى كيس البرغل: كأننا سنعيش هنا سنوات! ابتسم: وحياة سعاد، لن تعيشي إلا في مصر! ردت دعابته: لا، في طبرية أو حيفا! فأفرحه أنها لم تذكر الناصرة!

استمتعت سعاد بسماء ملأى بالنجوم تحيط بها كلها، بمدى مزروع، بأعراس الفلاحين. تنقلا "بالتريلاّ" ورفرف شعر سعاد الأشقر في الهواء. وقال سعيد لنفسه: يجب أن تتزوج سعاد من رجل يستحقها! زواجا أفضل من زواج منور! ما يزال يشعر بأن منور ظلمت بالزواج من رجل يكبرها. لذلك سألها مرات في بيروت: هل أنت سعيدة مع بهاء؟ وكانت منور ترسل في كل مرة ضحكتها مستمتعة ببيتها الجميل: لماذا تريدني ألا أكون سعيدة؟ أريدك ألا تكوني سعيدة؟! اسمع يا حبيبي، لم يجبرني أحد على الزواج من بهاء! بل كدتم تجبروني ألا أتزوجه! اطمئن، لم أندم بعد! بهاء مهذب، يدللني ويحبني! كان سعيد يفحصها بنظرته ليتبين صدقها فتخفي الحقيقة عنه بضحكتها: اطمئن! أنزلني عن كتفك ولا تتشغل بي! أخفت منور في تلك الأيام عنه أنها قد هجرت بهاء. وتواطأ معها بهاء دون كلام، فكان ينام بعد سعيد، ويفيق قبله كيلا يكتشف أنه لا يقترب من غرفة منور. ردد سعيد لنفسه وهو يتأمل شعر سعاد يرف في الهواء وهما في "التريلا": لن تتزوج سعاد إلا من رجل يستحقها! وكانت الأرض المزروعة بالقمح تمر به ويخيل إليه أنه يلمس سنابل القمح وشجرات الخروب الوارفة. نجت هذه القطعة من الحياة من الحرب، وهما الآن خارج تقسيم البلاد ومفاوضات مجلس السلم والتقسيم! يفكران في القمح وخبز التنور وليالي القمر!

لكن قلقيلية صغيرة. قال لها: سنسافر إلى إربد! نزلا عند سليمان باشا السودي. ولكن هل يسافران إلى إربد كل يوم؟ لنبدل إذن البلدة! يخشى سعيد أن

تعود إلى التفكير في حمدان؟ لابد أن حمدان وجد عروسا أخرى!

أصبح سعيد مدير مدرسة في سمخ. سمخ صغيرة لكنها محطة، "إسكلة"! طريق المسافرين إلى دمشق! دعاهما سليمان باشا فسهرا في بيته في إربد. وعادا على الخيل عند الفجر. لاشيء يشبه ركوب الخيل في فلاة ممتدة! تدثرت سعاد ببرد الفجر، لاقت الشروق بكتفيها. تفرجت على الندى فوق العشب. خيل إليها أن للأشجار بريقا. واستمعت إلى غناء سعيد الذي سرح في الفضاء. يا للحياة المدهشة! أكادت حقا تتزوج فتصبح محبوسة في البيت، وتفقد هذه السعة؟ غرقت سعاد في غروب الشمس، وركضت لتلحق سعيدا كأنهما طفلان يكتشفان من يسبق الآخر. ليت هذه الحرية تدوم، وليت الزواج ليس ضرورة!

طرق المتصرف علي رضا تلك السعادة بعصاه. استدعى سعيدا. سأله: أنت مدير المدرسة؟ نعم! مؤهلاتك؟ خريج الكلية الإسلامية في بيروت أولا، وطالب في الحقوق في.. قاطعه: بلغوني أنك تسهر في إربد حتى الصباح! فكيف تستطيع أن تدير عملك؟ عندما قبلت وظيفة مدرسة في النهار لم يطلب مني التنازل عن الليل! وبلغني أنكم تغنون في تلك السهرات! البلاغ صحيح. أطلب منك أن تخفف السهر. يضايق ربات البيوت سهر الرجال حتى الفجر. يضايقهن؟ أعتقد أنهن يستمعن إلى غنائنا خلف الأبواب. لذلك يقدمن لنا الطعام الطيب وحلوى البيت. على كل حال لاأنوي النوم وقت ينام الدجاج! تطاول سعيد على رجل مهيب تنقل بين وظائف الدولة العثمانية وتعود أن يكون حكما وقاضيا؟ لم يخطر له أن سعاد ستتزوج ذات يوم أخا هذا الرجل المتزمت. قال سليمان باشا: مجنون! ربما كانت صفد تخرج بالطبل والزمر بين الجبلين لتلقى من عينته استنبول، لكنها كانت تردد كل يوم: "يا صباح الشؤم، ماذا سنرى اليوم منه". هذه إربد، ونحن أصحابها! سيطلب الأمير عبد الله فيما بعد من علي رضا أن يستقيل. فيقدم "استعفاء". لكن سعيدا سيكون قد عاد إلى طبرية مع سعاد منذ زمن طويل.

أراد سعيد أن يبعد سعاد عن حمدان، فعادت مؤمنة بأنها يجب ألا تضحي بأخيها. يجب أن تتزوج ليكون حرا! كيف عرف حمدان أنها عادت إلى طبرية فأتى ليطلبها من قدري؟ قال لها بعد زواجه منها: لحقتك إلى سمخ، ورأيتك في الفجر راجعة على الخيل مع سعيد! كدت أطق من الغيرة! هل تطمح شابة إلى حب أكبر من هذا الحب؟!

يوم قتل خالد آغا، ويوم لبست نفيسة الثياب السوداء، حيى تجار ليون انتصار غورو على السوريين في 24 تموز. كانت دمشق ما تزال تهرّب جرحاها

في ميسلون، وتقاسي من الغرامة التي فرضها عليها غورو، عندما قدم موريل وهوفيلان تقريرا عن مباحثاتهما مع غورو عن طلبه دعما ماليا من الحكومة. جدد غورو علاقاته برجال الأعمال في ليون. كتبت جمعية ليون للمصالح الفرنسية في سورية إلى رئيس الوزراء: "جمعية ليون للمصالح الفرنسية في سورية سعيدة بالنتائج التي وصلنا إليها بالجنرال غورو. نطلب أن يحصل على الاعتمادات الضرورية لتقوية الموقع الذي أخذناه في سورية ولتوطيد مركز فرنسا نهائيا في المواقع التي احتلتها". في جلسة جمعية ليون في 12 كانون الأول سنة 1920 بيّن تيراي: "الجنرال غورو جاهز لاتخاذ كل الاجراءات هناك التي لا تتعارض مع الاتفاقيات لكي يسهل توسعنا".

فقدت نفيسة الرجل الوحيد الذي يمكن أن تكون سعيدة معه! فقد خالد آغا المرأة الوحيدة التي يمكن أن تملأ عمره! كان يمكن أن يكون حبهما أنعم من الحرير! ولكن ما قيمة هذا الحب الفريد لتجارة الحرير في ليون؟

فتحت مرجانة الباب. هل تقول للغريب تفضل؟ نعم، يا مرجانة، أدخلي إلى القاعة الرجل الذي يطلبني!

رمت نفيسة منديلا أبيض على رأسها ونزلت من الفوقاني إليه. إذن هذا هو الرسام الذي تعرف زوجته خديجة! بيت أهله في السمّانة، وبيته قربها، في حارة النهر! يرجوها أن تستقبل في بيتها ضيفة فرنسية. جفلت. في بيتها؟! سألته: ضيفتك؟ رد: امرأة تريد أن تعرف بلدنا! اطمئني، يا نفيسة خانم! تطمئن؟ في هذه الأيام؟ ألم يكن الدليل لإنكليزية اسمها غرترولد بل، ذات أهواء إنكليزية ومهمات كبيرة؟ قال: ليست من اولئك! تركته يسبح في صمتها. ثم وافقت.

ومع ذلك ستحضّر نفيسة بيتها كمن يلتقي بعدو. قالت لمرجانة: أريد بيتا يضيء! جهزت نفيسة ملعقة العنبر للشاي. وضعت أوراق الليمون الطرية في إبريق الماء. طبخت مهلبية، صبتها في صحون الخزف الثمينة ووضعت قربها الكعك بالسمسم. رتبت الكنافة المبرومة والبقلاوة وكول واشكور في صحن من الصيني. رشت أصص ورق الصالون بالماء وطلبت من مرجانة أن تمسحها ورقة، ورقة. تفقدت الستائر ومسحت الأرائك الموزاييك والكراسي المحفورة والبيرو المصدف. نظفت الكازات وصحون الصيني. نظرت إلى البركة وسط زخرفة الرخام. ورددت لنفسها: فلتر الخانم كيف نعيش!

يعرف أهل سوقساروجا أن الرسام رافق فرنسية أتت مع الملك فيصل من فرنسا. قيل إنها كاتبة تريد أن تعرف بلدنا. فهل هذه الفرنسية هي نفسها تلك الكاتبة أم امرأة أخرى؟ قالت لنفسها: سيان! لم أسأله! كبحت في نفسها كبرياء جارفا. "يجب أن نرد على تعالي الأوصياء علينا! لولا ذلك لاستقبلت هذه المرأة كما كنت أستقبل النساء التركيات بقلب مفتوح"! نظرت نفيسة إلى نفسها في المرآة. يجب أن تبدو في لياقتها لأنها لن تكون أمام الفرنسية نفيسة، بل بنت دمشق!

غلبتها عادتها ففتحت الباب مرحبة: مائة أهلا وسهلا! وحاولت بنظرة أن تفهم المرأة الغريبة التي تزورها. رأت أمامها شابة بسيطة، لطيفة. مع ذلك أمتعها أن تتفرج الفرنسية على القاعة مبهورة بالثريا القديمة، بالكازات، وبالصور ذات الإطارات من الخشب المحفور، وبالمرآة الكبيرة في إطار مصدف على بيرو

مصدف. ترجم لها الرسام: بيتك حلو! ردت: قل لها تسلم! ما اسم هذا النبات؟ وما اسم ذاك؟ ولماذا تربين السلحفاة في أرض الدار؟ ردت نفيسة كالمعلمة .. هذا اسمه عايق. وهذا اسمه حلق المحبوب.. هذا دادا، وهذا زلف.. وهذا ياسمين أزرق، وذاك ياسمين دمشق الأبيض! والسلحفاة لأنها تعمّر كأنها تقول للمغرور انتبه! ظلت نفيسة تلوك سؤالا تريد أن تسأله، ثم قالت للرسام: اسألها لماذا أتت إلى سورية؟ تريد أن تعرف بلاد ألف ليلة وليلة! لكنها وجدت مدينة أخرى! جنة! أعجبتها الغوطة وبردى وفروع النهر في الربوة. أعجبها الناس! قل لها: صحيح، البيت بسكانه، و"الجنة بلا ناس ما بتنداس"!

أرادت نفيسة أن تسألها سؤالا آخر عرفت أنها لن تسأله: أتيت تطمئنين علينا؟! دفنّا أحباءنا وهانحن نعيش بعدهم! لكنها صمتت وفحصتها بنظرة طويلة فخفضت المرأة عينيها. هل فهمتها الفرنسية لذلك قالت لها: صدقيني لست من نساء الضباط. ولست من المنقبين عن الآثار الذين يأتون إلى بلادكم ليتجسسوا عليها! مر أبي بهذه البلاد في أيام الدولة العثمانية، استقبله رجل اسمه اسماعيل في سوقساروجا. كان يتحدث اللغة الفرنسية كأنه من أهلها. بعد دخول غورو إلى دمشق كتبت صحفنا عن "القضية السورية". لكن كثيرا من كتابها لم يكونوا كأبي. لذلك قررت أن أزور البلد الذي أحبه. وصف لي سوق علي باشا الذي تفوح فيه الفواكه وتصفّ في واجهاته كأنها المجوهرات. ربما من حظي أني لا أمثّل بلدي الآن. لأنكم رأيتم الجنود والضباط الذين لا يجسرون أن يكونوا في بلادهم كما هم عندكم! ومع ذلك أكد لي اللطف الذي رأيته في طريقي إلى دمشق ما رواه أبي عن سورية.

تنهدت نفيسة. لكنها بقيت صامتة. ما أسهل أن تكره بلادا كاملة لا تستثني منها أحدا! نهضت وأتت بالشاي وصبته في كؤوس رقيقة رشيقة. وضعت ملعقة العنبر في كأس الضيفة وحركتها في شاي رائق تراءى من زجاج الكأس. قل لها، في دمشق يحبون الشاي بالعنبر. قد تكون هذه عادة من الهنود أو الفرس. قل لها، دمشق تحضن بلادا أكثر سعة منها بكثير! لكنها لا تتحمل الفاتحين! وصل الحرير الذي نفكّه في الشام إلى سوق ليون. كنا نظن أن هذه العلاقة ممكنة بيننا. لكن يبدو أن غيرنا أراد البيضة وقشرتها!

راقبت نفيسة الزائرة المبهورة بعبق ورق الليمون في الماء، والمبهورة بماء الزهر الذي يعطّر المهلبية، وخيل إليها أنها ترى بعيون الضيفة قطع الحلوى الدمشقية الأنيقة، واستدارة الكعك المرهفة. وفهمت أنها بكل ما حضّرته للضيفة

كانت كمن يدافع عن وطن أو يحارب عدوا. كأنها كانت تردد لنفسها: فلتر!

روت لها الزائرة أنها وقفت في الطريق. ورفعت كفها لتتفادئ الشمس. لمحتها امرأة من خصّ نافذة قريبة. بعد برهة خرجت إليها من ذلك البيت صبية تحمل جرة ماء وكأسا: صبت لها الماء وقالت تفضلي! روت لها الزائرة أن المرأة أشارت لها وفهمت أنها تدعوها. خافت؟ أبدا! رغم كل ما يفعله أهل بلدها بالمدينة هنا! لم تفهم ما قالته لها المرأة لكنها خمّنته! قدمت لها فنجان قهوة. أرتها مطحنة البن النحاسية التي تطحن حبات القهوة بها. وعندما نظرت إلى الياسمينة وضعت تلك المرأة كرسيا صعدت عليه وقطفت لها الياسمين. وأشارت لها كيف تصنع منه عقدا. قالت الضيفة للرسام: قل لها إني بكيت في ذلك المساء. أنتم تعاملوني هكذا وأهل بلدي يرمونكم بالرصاص! وليس ذلك ذلا، بل لأنكم تميزوني عنهم. تقرأون في عيني أني لست من "اولئك"! لذلك استطعت أن أزور معك كثيرا من بيوت دمشق.

قالت لها نفيسة كما تقول لطفلة: اشربي! هذا ماء الفيجة يا روحي! أحببت نكهته؟ سأقطف لك ورق الليمون كي تضعيه في الإبريق عندك. لكن نفيسة رفعت عينيها نحو المشرقة لتهرب بهما. تذكرت في تلك البرهة خالد آغا. كان يجلس مكان هذه الضيفة. ابتعدت نفيسة عن ضيفتها مع أنها بقيت تسمع ما كان يقال. هل تعترف بأنها تعيش لأن ذلك قدّر عليها؟ ليست الأيام موقتة بلقاء تنتظره! تتساءل أحيانا من سيأكل الطعام الذي تطبخه! لا يفرحها أن تكون البطيخة حمراء عندما تقصها، ولا تقطعها في أناقة وتصف قطعها في الصحن كي تفرح أحدا! والصبار، لماذا تبرّده؟ تصر أن تشرب القهوة وحدها وتنظر إلى الفل دون أن تقطف فلة منه. لماذا؟ لمن؟ عندما تغتسل تريد أن تخرج من الحمام مسرعة. لا تستمتع بالماء، ولا بالصابون الحلبي المعطر بالطيب! كأنها تريد أن ينتهي اليوم منذ يبدأ، وتقول لنفسها في المساء "خلصنا" من يوم! فهل هي نفيسة حقا؟ أيمكن أن تفكر كل يوم بموت خالد آغا؟! ألا تبالي بالحياة التي تذوقتها طوال عمرها كما يتذوق الشارب كأسه والطفل حليبه؟ هل أصبحت الأمسيات التي تمضيها مع إبن الكحال صامتة. كأنه يذبل مثلها! يراقب حزنها ويزيد ذلك من صمته. فتحزن عليه، وتخشى أن تفحص الحدود بين الصداقة بينهما وبين الحب القديم والغيرة المتأخرة. لا تحتاج مزيدا من العواطف المعقدة! لا تحتاج أي نوع من العواطف في هذا الموت الهادئ الطويل الذي تتوغل فيه! ومع ذلك من يستطيع غير إبن الكحال أن يعرف ذلك؟! فهاهي نفيسة في لياقتها، ترحب بالضيفة الغريبة وتخمن

أنها ستسجل زيارتها في ذاكرتها وستحكي عنها. وهاهو الرسام منتصر لأنه قدم بيتا دمشقيا جميلا، وسيدة دمشقية، وضيافة دمشقية، لضيفة غريبة!

عادت نفيسة إلى ضيفتها وفحصتها في فضول. في هذا البيت خبأت ثوارا نجوا من ميسلون. وهي تستقبل فيه الآن امرأة فرنسية. سألتها: أمثالك كثيرون في بلادك؟ ردت المرأة: لا، لا! فشعرت نفيسة بالشفقة عليها. قالت كأنها تحدث نفسها: سنحل مشكلتنا من هنا يا بنتي!

بعد انصراف الفرنسية لم تتحمل نفيسة البقاء في البيت. كأنها تحتاج هواء أكثر مما يوجد فيه! لا تقلقي علي يا مرجانة! سأمشي وحدي! عبرت العقيبة ومنها مشت إلى الكلاسة ومنها إلى الأموي. جلست في باحة الأموي، تفرجت على الحمام يطير ويحط، تعلقت بالفسيفساء كمن يتجول في غاباته وبريقه المذهّب. تنهدت مرات، مسحت عينيها كلما ظنت أنهما تندتا بالدموع. بدت لها السماء مبهرة فوق الفسيفساء، فهل هو الذي يهبها ذلك العمق، أم هي التي تهبه بريقه الذهبي في ضوء النهار الأخير؟ استندت إلى الجدار وخيل إليها أن روحها تتسع كتلك السماء، وأن الفسيفساء يهبها حياة غير مرئية وغير محسوبة بسنوات أو قرون. وشعرت بالسكينة تملأ قلبها. مشت في أول المساء. وقالت لنفسها: سأمر بدكان إبن الكحال في باب البريد. منذ سنة تقريبا حمل له رجل إلى هنا أمانة أوصلها إليها. كانت ثياب خالد آغا المبللة بدمائه في ميسلون. ستقول لإبن الكحال: أتت فرنساوية لتعزينا ياإبن الكحال، بعد سنة تقريبا! سينهض إبن الكحال منذ يراها تقترب من الدكان وسيرافقها إلى بيتها ليلعبا دقّ طاولة. وقد تقدم له أرجيلة أعدتها مرجانة!

قرأت في صدر دكانه في إطار: "الصبر مفتاح الفرج". وفي لوحة أخرى: "اللهم أعنّي على النذل إذا تجبر". هكذا يصرخ التجار يا إبن الكحال؟! لا تخفي كلماتها الأسى في عينيها. قال لها وهما يمشيان في الحارة: يتمنى المريض الصحة التي نتمتع بها! يتمنى المهدد بالموت يوما من الحياة التي نضيق بها! كنت أغبطك عندما كنت أسمعك تنثرين الماء في الحمام. وأراك تقطعين البطيخ، أو تحضرين القهوة. لا أذكر أنك شربت القهوة مرة دون أن تستنشقي عبق الهيل فيها! لا أذكر أنك نظرت إلى الياسمينة دون أن تقولي ما أحلاها! كنت تبحثين عن أول زهرة بنفسج في حوضك وتحتفلين بها! أقول لك برد، فتردّين: صدّق البنفسج، ولا تصدق البرد! كنت تبحثين عن فرش البنفسج والمضعف منذ ينزل إلى السوق! ردت نفيسة عليه في هدوء: من يسمعك تردد كنت، كنت، يتصور

أني مت! يوه، يا إبن الكحال، ألا تراني أمشي أمامك؟ بذمتك، ظهري أكثر استقامة أم ظهرك؟ توقف برهة ونظر إليها. وكأنما لمح ابتسامتها. فهز رأسه ومشى متأخرا خطوة عنها. حقا! ليت للشابات مثل قامتها! هز رأسه: ألم تكن قوية، مستقلة، حتى في حزنها! قال لها: عرض رجل علي سيفا قديما، من الفولاذ الدمشقي. قلت له لا ينفع السيف في أيام الرصاص! لكني سأشتريه غدا لأهديه لك يا نفيسة! التفتت إليه. كانا قد وصلا إلى القلعة: سأقبل هديتك يا إبن الكحال! كيف فاتها أن سيف خالد آغا قد يكون ضاع؟ لن تبالي به امرأة مثل رابية خانم! فهل تستطيع نفيسة أن تطلبه منها؟! ضحكت في ذلك المساء وهما يلعبان الطاولة: يا إبن الكحال، سأربح هديتك بدقّ طاولة، وسأعلقها على الحائط. سأدعي أني صرت هاوية سيوف، وسأشتريها! نظر إليها. لم يفهم ما قصدته. هز رأسه: اشترها أنت كيلا يشتريها الملاعين ويأخذوها إلى بلادهم! ابتسمت: سأفعل ذلك! هل سيعرف سيف خالد آغا عندما سيراه في زيارته التالية؟! سيبقى ذلك من أسرارها. دواؤها. هكذا سيكون خالد آغا قد بقي لديها، بخاتمه وبملابسه الأخيرة وبسيفه! فكرت في ذلك وهي تلعب الطاولة. ستدّعي نرجس أنها تبحث عن سيف لرجل كلفها بذلك، وستعرض عليها رابية خانم سيف خالد آغا!

عندما كانت ضحكة زهية العجم ترن في بيت قدري كان يبتهج: هذه الضحكة تزيل الهم من القلب يا شفيقة! ولكن هل كان يستطيع أن يبقي زهية وزوجها معا؟ كان ينشغل بهما كلما عاد من دمشق. تردد شفيقة: أصحابنا! تدخّل! تدخّل، ولكن زهية قررت أن تترك زوجها!

زوّجها عباس أفندي من قريبه منير. اشتغل منير في بيارات النقيب والعدسية. كان أبوه متزوجا، قبل أمه، من امرأة له منها شرقية، ذكر الله أفندي، عبد الرؤوف، باغية خانم. وله من زوجته الثانية منير، وكان يدلله فكرهه إخوته من الزوجة الاولى وبلعوا رزقه. فزوّجه عباس أفندي زهية العجم الغنية. فنسي المرارة وانشغل بأولاده منها. فلماذا هجرته! هل يلوم منير شيخ البهائية عباس أفندي؟ أولاد زهية كبار فكيف يتسع قلبها للعشق؟ كان يسعده مرحها وتبهره نضارتها فيراها أكثر شبابا من أولادها. لكن هل تصور أن ذلك يدفعها إلى حب مجنون تكسر به ما بنته في حياتها؟ ليست رجلا يحق له أن يحب ويتزوج مرة ثانية، بل امرأة تستطيع أن تستمتع بحرية البهائيات في السفر والعلم واستقبال الرجال، لكن لا يقبل لها أن تدمر أسرتها! مع ذلك قبل أن يتجاهل هواها وتمنى أن يكون نزوة. هل يغيب عنه أن أمها تخرجه من البيت بعذر ما كلما قدّرت أن عبد القدوس سيزور بنتها؟ شم منير رائحة عبد القدوس في هواء بيته، لمسه على الكراسي فتحاشى أن يجلس عليها. كتم قرفه من ملمس شراشفه وفراشه. ولذلك انفرد بسرير صغير في زاوية البيت. لكنه ضيع الأمان. ولم يعوضه عطف بنته هوية بل زاد ألمه.

بيت منير وزهية في طبرية قريب من بيت قدري. يسّر ذلك القرب أن ينشغل بيت قدري بزهية ومنير. ضاعت الحدود بين البيتين، في تلك الأيام من شقاء منير وسعادة زهية. فنام منير أحيانا في مضافة قدري. ونامت هوية أحيانا في غرفة سميحة. ثياب هوية في بيت قدري، وزهية تطلبها هناك. يجتمع منير ببنتيه حورية وهوية في بيت قدري وتتغديان معه. قال قدري: لا ينقص هذا الزمن إلا قصة زهية العجم! كأن المصائب العامة تستنبت الخاصة! لاحظ قدري أن منيرا فقد رغبته في العمل في مزرعة زهية. فاقترح عليه: أتمنى أن تراقب الورد في حديقة البلدية. الورد تسلية تنعش الروح!

ظلت شفيقة تزور مزرعة زهية في النقيب، التي تسمى بستان العجم، لتترك

منيرا حرا مع بنيته وابنيه في طبرية ولتبعد زهية عن عبد القدوس. هل خطر يومذاك لشفيقة أن تقترح على سعيد الزواج من هوية؟ رد: لا أتزوج من البهائيين! لكن إلى متى تحاول شفيقة أن تهرب بزهية كلما زار عبد الرحمن باشا اليوسف طبرية مع عبد القدوس؟!

طلب عبد الرحمن باشا اليوسف في تلك الأيام من قدري أن يكون محاميه. فرد قدري: بيننا مسافات يا عبد الرحمن باشا! لكني سأساعدك حيث أستطيع، وحيث يمكن ذلك! قال عبد الرحمن باشا: قد يطلب وكيلي عبد القدوس نصيحة فهل تبخل عليه بها؟! رد قدري في لباقة: لن نبخل بالخير أبدا! عرف قدري عبد الرحمن باشا اليوسف في دمشق وفي استنبول. جمعهما مجلس المبعوثين، وهناك فهم كل منهما أنه مقابل الآخر. لكن اللياقة أبقت العلاقة بينهما مهذبة. حتى ليخيل لمن يراهما في السهرات في طبرية أنهما صديقان. وساهم عبد الرحمن باشا في ذلك. ألم يعزي أحمد مريود بأمه سنة 1915 رغم ما بينه وبين الوطنيين؟

عندما قالت شفيقة لزهية: اعقلي! شكت زهية لها زوجها: جامد ومتصوف! وأنت، يا زهية، تحبين المرح والنزهات والسفر، تحبين الموضة وعشرة الناس. لكن هل هذا الفرق بينك وبين منير جديد؟ ما الذي تغير؟ كان يجب أن تعيشي في بيروت، لكنك هنا! آه، آه! يا ست شفيقة، هل يجب أن نتحمل ما صبرنا عليه في أول العمر؟ تتمنى زهية أن تبوح لشفيقة بأنها وجدت رجلا يقول لها إنه يحبها ويعشقها، تستمتع بلهفته، بسعادته إذا اقتربت، وبارتباكه إذا ابتعدت! لكن شفيقة لا يمكن أن تفهمها! لا تخرج شفيقة عن الصراط! هل تبوح زهية لأمها؟ أمها مشغولة بأموال زوجها وأملاكه بعد موته، وتديّن الناس بالفائدة فيسميها الناس: "فوايزية"! لماذا تلام زهية إذا هجرت زوجها؟ وماذا بقي منه بعد أن سلبه إخوته بياراته؟ ذهب المال "وبقي القرد على حاله"!

في تلك الأيام شكت هوية لشفيقة: كلما عدت من المدرسة في حيفا أجد عبد القدوس في بيتنا! هوية مرتبة وذكية وجميلة، حرام عليك يا زهية أن تضحي بها! تفكر الأم أولا بأولادها. بنتك هوية تساوي رجال الأرض! هزت زهية رأسها. نعيش لأولادنا يا ست شفيقة وعندما يكبرون ينسوننا. ونكون ضيعنا فيهم حياتنا! سنّة الكون، يا زهية! لا يربى جسم حتى يفنى جسم! لا يا ست شفيقة. حق المرأة أن تعيش! فهمت شفيقة يومذاك أن زهية تتحدث في جرأة لأنها قررت أن تطلق زوجها. صح حدسها! أتت هوية باكية: ينام عبد القدوس مع أمي! هدأتها شفيقة: وأنت ستنامين الليلة عندنا! وفي الصباح تعودين إلى مدرستك في حيفا!

طلبت شفيقة زهية. يا زهية، ضيع الحب عقلك؟ تحبينه؟ خذيه، ولكن لا تجمعي رجلين معا! عيب! تنهدت زهية: سأطلق زوجي! قالت شفيقة: مصيبة، لكنها أقل من الجمع بين رجلين!

طلقت زهية العجم منيرا. قبل أن تتزوج عبد القدوس صار يأوي إلى بيتها. نادتها شفيقة مرة أخرى: استحي! ألا تصبرين أشهر العدة؟ اطلبي منه على الأقل ألا يزورك عندما تعود بنتك من المدرسة!

ما أصعب تلك الأيام! تبكي هوية وتقول لأمها: تركت أبي لتتزوجي وكيل عبد الرحمن اليوسف! وتلجأ زهية إلى شفيقة لتهدئ هوية. فتقول شفيقة لهوية: لا تحكي مع أمك إلا بأدب! وتقول لزهية: هذه هي السعادة التي تبحثين عنها؟ ضيعت بنتا مثل الجوهرة! تركت هوية المدرسة، ولولا أنها تحبنا لا أدري ما كان مصيرها!

غضبت شفيقة عندما قالت لها هوية: أمي حامل! سأقتل هذا الولد! قالت لها شفيقة: ما ذنبه، قولي لي؟ أنت بنت مهذبة وطيبة لا تقتلين إنسانا!

بكى قدري في حياته مرتين. يوم أعدم شكري العسلي، ويوم دخل غورو دمشق. مشى في حديقة البلدية وقال لمنير: تكتمل الآن المصيبة! تنفذ سايكس بيكو! قال له منير: نصحتني أن أطلب السلوى في الورد! رد قدري: هذه المصيبة لا تنفع فيها سلوى! واستعاد حزنه يوم رأى هوية راكضة إلى بيته مسبلة الشعر باكية. أجلسها قربه. عانقها ولمس شعرها. مسح دموعها. قال لها: يا حبيبتي هل نسمح للمصائب بأن تضيع عقولنا؟ راقبته شفيقة. هل تمسح دموع هوية يا قدري أم تمسح دموعك؟ هل تطلب من هوية أن تثبت عقلها أم تطلب لعقلك الثبات؟ هذه الشابة الحزينة دواؤك الآن؟ ما أشد حزنك إذن يا قدري! يجرفنا الزمن فنطير كالقش الذي ينثره الدراسون! ونحاول أن نتماسك لنسند من وقع على الأرض! من منا وقع على الأرض؟

لبست شفيقة الملابس السوداء حدادا على خالد آغا. لكنها قاومت حزن قدري. فبقيت جاهزة للسهر معه كلما لمحت ضوءه مشتعلا. وصارت تفتح بابه كلما رأته موصدا فتدخل إليه حاملة كأس لبن أو فنجان قهوة. عرفت أنه يتلوى وسمعت أنينه وهو صامت. ورأته يستدير عن النافذة دائما. كان الحزين في بيتنا قبلك ينظر إلى بحرة طبرية فيمد بصره. أنت يا قدري لا تريد أن ترى غير عتمة الهزيمة. اسمع، يا قدري! الناس حزانى أكثر منك. لكن مثلك يعطي الأمل لمن حوله. فهل تستطيع ذلك إذا فقدته! عيب أن يضيعه مثلك! فلتتذكر أن الدهر دولاب، يوم لك ويوم عليك!

استمع إليها قدري وبدأ صوتها يعبر العتمة إليه. كان يتصور أنه هو المتعلم ذو النفوذ يرى أكثر مما تراه شفيقة ويعرف أكثر مما تعرف. وهاهو يكتشف أنها تتفوق عليه بتماسك الروح. تناول منها الكلمات التي يترفع عليها من يؤمنون بأنهم يصنعون القدر. الدهر دولاب؟ أراد قدري الدهر صاعدا دائما! مد كفيه وتناول من شفيقة الثقة بأن الأيام المعتمة بعد ميسلون ليست سجنا مغلقا. ربما زاد قهر قدري أن سعاد عادت من بيت زوجها مطلقة. وأنه هزم هناك أيضا. أكنت يا قدري تتوهم أن أحدا لن يجسر على ظلم فرد من أسرتك؟! كأن دفاعك عن بلاد الشام يهبك حصانة تفيض كالخيمة فتحرس أسرته؟! لم تفهم، رغم بصيرتك، أن المفترض أن يحدث العكس أحيانا لمن مثلك! فقد يؤخذ بالأعزاء عليه!

مرت بعد ميسلون أيام لم يسمع فيها في بيت قدري صوت. كأن المأتم قائم فيه. مأتم الدولة العربية ويوسف العظمة ومأتم خالد آغا! حتى قالت شفيقة: كفى! كل شيء زاد عن حده نقص! للحزن حرمة يجب ألا تهان بالمبالغة! وبدأت تستقدم أصحابها وأصحاب قدري إلى الغداء والعشاء. وتشغل البيت بأحزان أو مشاكل أخرى.

عندما رجعت زهية العجم من بيروت كانت شفيقة لا تزال تلبس الملابس السوداء لكنها تمنع الحزن. حملت زهية مربى الزهر من منور لشفيقة. فرحبت بها واستبقتها للغداء مع قدري. لكنها لم تسألها هل أعطاها الطبيب أملا بشفاء بنتها. فكيف تشفى الصبية إذا كان سبب جنونها أمامها؟ قالت زهية مرة لسعيد في بيروت: تزوج هوية! ولم تكن هوية جنت بعد! فأجابها: يا زهية أخاف من جمالها! لامته منور يومذاك: دع مراوغة الشعر، من يتردد في الزواج من هوية! ألا ترى

منور أنه يتحدث مع إميلي ويمازحها ويشعر بأنه خفيف ورشيق أمامها، لكنه يجلس خاشعا أمام هوية! فهل يمكن أن يعيش رجل حياته أسيرا هكذا؟ ألحت عليه منور: لا تضيعها من يدك! رد: هل تريدين أن يصبح أخوك أخرس طول عمره؟!

قالت زهية: يا ست شفيقة لو تزوجها سعيد لما جنّت! يا زهية، كنت تنوين أن تتخلصي منها كي يخلو لك الجو مع عبد القدوس! جنّت البنت لأنها لم تتحمل أن تطردي أباها لتستقبلي صاحبك! لكن دعينا من هذا الحديث الآن واسمعيني! خبئي مرحك! قدري حزين على الدولة العربية! من يستمتع بالاحتلال الفرنساوي غير عبد الرحمن باشا اليوسف وصاحبك عبد القدوس!

لو استطاعت زهية لقالت لشفيقة: لا تعرفين سطوة الحب! وتعرف أنها لو قالت ذلك لردتها شفيقة: تدعي ذلك امرأة ضعيفة، لا امرأة بهائية تطرد أبا أولادها! تنهدت: يا ست شفيقة، يمر العمر كالحلم. المرأة المسكينة فقط ملزمة بالإخلاص لرجل لم تعد تحبه! بل الإلفة وحب الولد، يا زهية! وهل تظل المرأة تحب طول العمر! فلتسترح من الرجل لتفكر في الدنيا!

لم تملّ زهية الحوار مع شفيقة مع أنه يميل حتى يصل إلى عبد القدوس. هل يقربها من شفيقة أن شفيقة الشاهدة القريبة على حبها وهجرها وحزنها على ابنتها؟ يوم أحبت زهية عبد القدوس أغلقت شفيقة الباب وقالت لها: يا حبيبتي زهية! بيننا عمر، لذلك أطلب أن ترحمي بنتك! يا خالتي أحب عبد القدوس! يقطعه، وماذا فيه يحب! يا خالتي، أحبه! تحبين رجلا سطا على امرأة متزوجة ولم يبال بابنتها!

أطرقت زهية وتجولت شفيقة في وجهها. رأت الحب الذي تفادته. ما أصعب أن تقتحمي يا شفيقة حبا في أيام سعادته! مثل هذا الحب يجري بقوته حتى ينهيه القدر! لا تستطيعين بصرامتك أن تفهمي سحر عبد القدوس الذي يفتح ذراعيه لها منذ يرى غبار عربتها في آخر الطريق! طردت زهية زوجها، واستبقت أولادها منه وأمها، وبقي عبد القدوس يدخل ويخرج حرا حتى تزوجته. مع ذلك بقيت الست شفيقة تستقبلها وهي تلومها: لم أر امرأة تخرب بيتها بيدها غيرك، يا زهية! ثم تدللها بالشراب والغداء والعشاء. فمن يفرط بحب شفيقة!

تناولت شفيقة صداقة عائلة عباس أفندي البهائي من يوسف وفاطمة كأنها أمانة. لولا ذلك أكانت تتغاضى عن أهواء زهية وتأمل أن تردها عن هواها!

يكاد يضحك زهية أن شفيقة لا تبالي بأن عبد القدوس أصبح زوجها. فتقول: ومن عبد القدوس هذا! مساعد عبد الرحمن اليوسف الذي يملك البطيحة! يخدم

رجلا روحه خارج بلده! آه يا ست شفيقة لو تعرفين الحب بعد الأربعين! يازهية، ستقولين لي فيما بعد: لو تعرفين الحب بعد الخمسين، وبعد الستين!

في بيت قدري بين يدي شفيقة أيام حب زهية وأيام طيشها، ثم أيام تعاستها. فهل تعود فقط لتزور شفيقة أم لتزور مأوى عواطفها! لماذا إذن تجلس سارحة قرب النافذة وهي تتأمل بحرة طبرية! يوم ولدت من عبد القدوس صبيا. تناولته منها شفيقة كأنه ليس ابن الرجل الذي تبغضه: تفرجي ما أجمله! وجهه وجه زهية! لكن يا زهية، لا تنسي من قبله!

يا ست شفيقة، بنتي هوية لا تريدني أن أكون سعيدة! أمسكت بها وهي تكاد ترمي الطفل في البحرة! خذيها لعندك وهدئيها! أخذتها شفيقة. لماذا يا روحي؟ هل تحزن ابنة إذا كانت أمها سعيدة؟ لم يكفنا عبد القدوس، يا خالتي، فأتانا ابنه! بكت هوية في حرقة كأن نبع الدمع لن ينضب فيها! فهربت بها شفيقة إلى الحديقة. كيف تطلب من صبية في عمرها أن تصبر! تصبر على ماذا؟ حتى يموت عبد القدوس؟ أم حتى تهجره أمها؟ يسوق هوية الحزن إلى الجنون فهل تستطيع أن تحذرها منه! تعالي يا حبيبتي، اقعدي مع سعاد وسميحة! ألا تحبيبنهما؟ اخرجن إلى البحرة، نصبنا الغرفة للسباحة، وهناك "شختورة"! خرجت الفتيات إلى البحرة مقابل البيت، ودخلن الغرفة المنصوبة على الشاطئ.

لماذا تركتهما هوية؟ رآها قدري من النافذة راكضة بقميص السباحة. ابتعد مسرعا ليلاقيها: خير يا حبيبتي؟ سيقتل عبد القدوس الآن يا عمي! ضمها إليه: يا هوية، انسه، تفرجي على الجبل والبحرة! هذه البحرة كي تريها وتستمتعي بها! استكانت على كتفه. ثم أبعدت نفسها عنه: سيقتل اليوم عبد القدوس! يا هوية، هذا يمشي مع عبد الرحمن اليوسف، من ورائه حرس وأمامه حرس! قالت مشيرة بذراعها إلى الفضاء: سيقتل من الهواء!

أتت إليهما زهية. يا حبيبتي، يا بنتي! قاطعتها: لست بنتك! وصلت سعاد وسميحة. وأمسكت سعاد يدها. التفتت إليها هوية وخبا توهج الجنون في عينيها. قالت زهية عندما لاحظت أن هوية هدأت: لنعد إلى البيت! ردت هوية: اذهبي وحدك وانشغلي بمصيبتك. سيقتل عبد القدوس! انثنت زهية على نفسها كأن معدتها تؤلمها. ما بك يا زهية؟ لاشيء يا ست شفيقة، لاشيء! اتركي هوية عندنا! وهمست: في رقبتك هذه الصبية!

في المطبخ قالت سعاد لشفيقة: بدلنا ملابسنا لنسبح. لكن هوية قالت: سأخنق الولد وألوّع عبد القدوس، لولا أن عبد القدوس سيموت قبله! سألتها: كيف

عرفت؟ قالت: همس الله في أذني إنه سيقتله! فقررنا أنا وسميحة أن نعود إلى البيت! خفنا أن تغرق هوية نفسها! لكنها سبقتنا دون أن تلبس ملابسها!

لماذا يناديا البستاني؟ من يصرخ؟ يطلب رجل زهية حالا! قتل عبد القدوس! ذهل قدري. هل شعرت هوية بمقتله لأنها تمنته؟ رفعت هوية ذراعيها نحو السماء، وضحكت: قلت لكم همس الله في أذني! كم كانت هوية جميلة وهي تضحك! أبعد جمالها قبح الشماتة! وربما زاد الجنون من جمالها! أشارت شفيقة لسعاد كي تبعدها، وخرجت مع زهية! عندما رجعت أخبرت الشابتين: قتل الوطنيون عبد القدوس مع عبد الرحمن باشا اليوسف والدروبي في حوران! أتوا ليجمعوا الغرامة التي فرضها الفرنسيون على الناس! الله لايردّ الواحد ووراءه الثاني والثالث! لكن حسرتي على زهية!

بقيت هوية في بيت قدري أسبوعا. ثم أخذتها أمها لتستشير عباس أفندي في علاجها.

قابل حزن زهية فرح قدري. قال: يمكننا الآن أن نخلع الحداد على الدولة العربية وعلى يوسف العظمة وخالد آغا! فكرت في أن أرسل إلى نفيسة خانم تلغرافا! يا لحظك يازهية! أفراح الناس حزن لك، فكم أسأت اختيار المحبوب! ياقدري، تسلم يد الذي قتل اليوسف والدروبي. لكن زهية العجم صاحبتنا. ولن نعلن أفراحنا! أمام زهية دروب طويلة ستقطعها!

كانت شفيقة كمن يتنبأ بالغيب. ستعود إليها زهية مرات وستقول لها شفيقة: تستشيريني يازهية بعد أن تنفذي مافي رأسك! أنستك البهائية أمثال بلادنا "أكبر منك بيوم أعرف منك بسنة"! التقت زهية في القطار إلى مصر مع بنتها هوية، بالمفتش العام للسكك فاستحلى هوية وطلبها منها. طباعها صعبة؟ فليكن! تتحمل الشتاء والصيف تحت سقف واحد؟ ذلك حظ! تزوجها وغمرها بالدلال والهدايا. أحبته وملأت المكان الذي وضعها فيه. استقبلت ضيوفه، رتبت سفرته وبيته، لكنها كانت قليلة الكلام. ربما كان ذلك الصمت طورا آخر من جنونها. لكنه كان مقبولا وممتعا لمن عرفها. لو ترينها يا ست شفيقة وسط تلك "الأكابرية"! قالت شفيقة: تستحقها! لكنها عادت إلى جنونها يا ست شفيقة! لم يتحمل حبه نوباتها. طلقها فرمت نفسها في النيل وتركت لي طفلها. لا تصدقي أن أحدا دون همّ، حتى زهية العجم التي يظنونها سعيدة! يا زهية ستذهبين إلى الجنة من جمالك لا من أخلاقك! مقبولة منك يا ست شفيقة! أكانت شفيقة تتصور أنها ستتابع مصير ابن هوية وأن صدقي الطبري سيحاول أن يسجله في الأردن، وهي ترى أبناء زهية

يدرسون في الجامعات على حساب البهائيين!

نزلت زهية إلى مصر. واستلمت منها شفيقة برقية. اسمع يا قدري! تزوجت زهية العجم من بهائي مصري اسمه صالح، له ولدان أحدهما طبيب. تقول إنها تحبه! نعم، سعيدة! جمال زهية العجم يفتح أبواب الجنة! وفوقه ذكاء ولباقة!

لم يستطع قدري أن يتحمل هزيمة ميسلون وحده. لاب في البيت كالسجين يومذاك. فقالت له شفيقة: إذهب إلى سليمان السودي! لم يطلب منها وهو خارج من البيت: إذا سئلت عني قولي نزل إلى إربد "شمام هوا قطاف ورد"! من يستطيع أن "يشم الهوا" الآن! وتأملته من النافذة وهو يبتعد.

قصد سليمان السودي في إربد وفي سما. تذكرا الاجتماع الأخير في المؤتمر السوري. رفض أحمد مريود إنذار غورو. قال: الدفاع عن الوطن بشرف أفضل من الحياة في ذلّ الاحتلال. أدعو الحكومة والمؤتمر السوري والملك أن ينزلوا إلى الشعب ليروا بأنفسهم رغبته في الدفاع عن الوطن! وقال قدري: تنفيذ □ايكس بيكو يعني تنفيذ الوطن الصهيوني! وقال سليمان السودي لقدري: يتهم غورو في إنذاره الحكومة العربية بأنها تدعم الثوار. يملك المتطوعون من ضباط الجيش العربي والمواطنون حق الدفاع عن الوطن!

هل سبب "المتطرفون" الكارثة، يا سليمان؟ ولولاهم لما احتلت البلاد ولبقي فيصل والدولة العربية؟ بل سبب الكارثة قرار الانتداب، يا قدري! سهرا في تلك الليلة حتى الفجر مع الرجال. أصبح هو الذي يهدئ أصحابه! قال: لا تبالغوا، فلو وصلت مجموعة المتطوعين التي كنتم تحضرونها إلى ميسلون لما استطاعت أن تغير مصير المعركة! متطوعون أمام جيش؟! قرر مؤتمر سان ريمو الانتداب على بلادنا! لكن ليس الجيش المحتل خطرا وحده. فهؤلاء سيطردون ذات يوم. الخطر أن الإنكليز يفتحون فلسطين للهجرة الصهيونية!

بقي قدري أياما في سما. وشاهد أول القادمين من دمشق. ألم تربطه تلك الأيام بسليمان السودي أكثر من قرابة الدم؟ ذكّرهم أن بيان اللّنبي قصد ذات يوم محمود الفاعور وأحمد مريود! قال: هاهم معنا! فلنحتفل بهم! لنشرب قهوتنا على شرفهم! نظر السودي إلى الجمع: أتوا من عجلون وإربد والكفارات! فلنفكر ما العمل؟

مشى قدري وسليمان السودي وحدهما صامتين. يلجأ أحدهما إلى الآخر ليشاوره ويتحدث معه. في كل يوم تفصيل جديد، كأنما قدر لهما ألا يستريحا. أو كأنما يجب أن ينهكا ليموتا قبل أوان موتهما! أكانا يتصوران وهما يسهران في طبرية مستمعين إلى الغناء أنهما سيعيشان كل ما عاشاه فيما بعد؟! انشغل سليمان بقوات فيصل التي دخلت الأردن، وانشغل قدري بالقوات الاسترالية والإنكليزية. فغاب أحدهما عن الآخر زمنا قصيرا. وتبينا يوم اجتمعا في المؤتمر

السوري أنهما لم يفترقا. غرقا في الاجتماعات الصاخبة والهادئة. وقفا تحية لقرار المؤتمر السوري، واحتفلا معا باستقلال سورية. عبرا احتفالات المدينة الليلية، ومشيا حتى الفجر كاشفين قلقهما مما ستأتي به الأيام. يا سليمان، إعلان الاستقلال رد على تقسيم بلاد الشام، لن تقبله الدول التي قسمتها. اسكت يا قدري! لن نفكر في هذا الليلة! فلنزر في الميدان محمد الأشمر الذي رفع العلم العربي مع أحمد مريود في القدم قبيل دخول الجيش العربي! زاراه، وذاقا لديه الحلوى الدمشقية الفاخرة. فهل كانا يدركان أنهما ينسجان صداقتهما بصخب تلك الأيام وهدوء واحاتها؟ ألا تسنده الأخوة بين هذه المجموعة من رجال الدولة العربية؟

بهرت المجموعة سعيدا. وبقي جالسا على بعد بين رجال يلبسون الكوفيات والعباءات. ثبت نظرته على قدري وسليمان السودي اللذين يمشيان في ضوء القمر. وكأنه اكتشف ملامح جديدة لم يتبينها من قبل في خاله. لماذا غشته حتى اليوم أناقة قدري وحبه النساء؟ لماذا لم ير فيها تقية تخفي حقيقته؟ أليست حقيقته هي التي تظهر الآن وهو مغموس في الحديث وفي الصمت مع سليمان السودي؟ في الاجتماعات التي يكثر فيها الحاضرون لا يكثر قدري من الكلام. لكنه يخلو ببعضهم بعد ذلك. فماذا يخفي حتى عن سعيد؟

وصف قدري لسليمان السودي لقاءه بهربرت صموئيل. أرسلوا إلينا صهيونيا يا سليمان باشا كي ينفذ الوطن القومي بإخلاص! قال لي أنت تدخن سيجارة رسم عليها صليب كي تحرق الصليب. ترميها وتدعسها وتقول أدعس الصليب! يبدو أن الإنكليز تركوا في بلادهم التهذيب الإنكليزي يا سليمان! طلبت منه أن يحدثني مباشرة عن قصده فالمسيحيون أصدقائي. قال في صراحة: ستبقى موقتا في وظيفتك. يجب أن نحترم عدد اليهود في طبرية! توقع إذن مستوطنة في طبرية، يا سليمان!

ما العمل؟ على أية جبهة نحارب، يا قدري؟ هل نقاوم الفرنسيين في سوريا، ونقبل الإنكليز في شرقي الأردن؟ لكن انتبه! يجب أن يبقى بعضنا حتى النهاية! أنت في وسط اليهود والإنكليز! يا قدري، قسمونا إلى منطقة داخلية ومنطقة غربية ومنطقة ساحلية، قسموا بلاد الشام! ومع ذلك سأظل آتي إليك كأني أقصد حمامات طبرية!

في تلك اللقاءات روى سليمان لقدري وهما يمشيان في ضوء القمر ماجرى في اجتماع رؤساء العشائر في أم قيس مع المعتمد البريطاني سومرست. ومن كنا

هناك؟ رجال الدولة العربية، المريود والعبيدات وعلي خلقي وأنا. رفضنا تسليم المطلوبين السياسيين لفرنسا! أصبحنا نحن حكومة عجلون التي لا تحكم قضاءها! كان الحق مع مريود الذي قال إنها مشروع تجزئة أخرى، وقال لا يمكن أن يريد لنا الإنكليز الخير! مع ذلك نحاول أن نمسك بأرض نبدأ منها! يا سليمان، أنا أقول ذلك أيضا. لكن أليس الخطر في أن تصبح الأرض التي نتخيل أننا سنبدأ منها سجنا صغيرا؟ عندما تنقل الثوار من مكان إلى آخر ليبدأوا منه كانوا أحرارا. لكن الحكومة الصغيرة التي تقترح عليكم محكومة برغبة من يقترحها! ياقدري، لم تقفل القضبان علينا بعد تماما! تذكر أننا سلمنا للثوار أسلحة الدولة العربية التي كانت موجودة في الأردن! وأن الثوار تسللوا من إربد إلى حوران! كانت الحكومة من رجال حزب الاستقلال أحمد مريود وحسن الحكيم وعلي خلقي ورشيد طليع.. والمجلس الاستشاري من علي خلقي وعبد الرحمن إرشيدات ومحمود الفنيش والكايد وأنا. عين نبيه العظمة محافظا لإربد. بهذا ساعدنا محاولة اغتيال غورو واغتيال رئيس الوزراء الدروبي ورئيس مجلس الدولة اليوسف! رفع قدري رأسه نحو القمر. فرفع سليمان رأسه نحوه أيضا. ذكرك القمر بشيء؟ نعم! بعد ميسلون بشهر تقريبا، كنا في مضافة الشهيد كايد المفلح العبيدات في كفر سوم. كان القمر ساطعا كما هو الآن. وما أحلى القمر في الفلاة! السماء فيروزية مضاءة كلها! كانت ميسلون فوق صدري. وتساءلت أحقا ستمضي بقية حياتنا في القلق وسيمر العمر هكذا؟ وسيسوّد المحتلون حياتنا ويشغلوننا بالمصائب؟ وهل نستطيع أن نقدم لمن بعدنا حياة ينتبهون فيها إلى القمر دون حرب؟ سمعنا من بعد حمحمة جياد فانتبهنا. كان اولئك أحمد مريود ورجاله، معهم مواشيهم وخيولهم، وصلوا إلى كفر سوم بعد هزيمة ميسلون. قال قدري: كان ذلك في آب سنة 1920 وكنا في كفر سوم نعزي بكايد المفلح الذي استشهد قرب سمخ! كأن ذلك حدث أمس فقط! قال سليمان: الرحمة على كايد المفلح! لكن لا تنس أننا في آب تلك السنة احتفلنا! اللهم لا شماتة إلا بموت الخونة! أتى الدروبي حاملا بيانه المعروف إلى أهل حوران! يطلب الهدوء والغرامة التي فرضتها فرنسا. هل كنا نتحمل ذلك بعد ميسلون؟ قتله الثوار في محطة خربة غزالة مع عبد الرحمن باشا اليوسف ورجالهما. قال قدري: في بيتي لم أستطع الفرح لأن زوجة وكيل عبد الرحمن باشا اليوسف صاحبتنا! كانت تلك الأيام صعبة. نعم، ياقدري. تذكر أننا توقعنا هجوما فرنسيا فاجتمعنا من عجلون والكفارات في بيت عبد الرحمن إرشيدات في إربد لدعم ثوار حوران. وصلت مجموعات من البلقاء وعمان. ولاقى الثوار الحملة الفرنسية في الكسوة. لكن كل ما مضى لم يعد صعبا! ابتسم قدري:

أعضاء المؤتمر السوري حضّروا معركة مسلحة! قال السودي: نلبس لكل حالة لبوسها! تريد يا قدري أن نزور الإخوان في كفر سوم غدا؟ لا، غدا يجب أن أكون في طبرية!

منذ ميسلون أقام سعيد في بيت قدري. الدراسة؟ فيما بعد يا خالي! الوطن أولا! قالت له شفيقة: إذا انتظرت أن تهدأ أحوال الوطن فلن تنهي دراستك أبدا! قدري هنا في مكان عشيرة فسافر إلى بيروت مطمئنا! سألها: تطردينني يا خالتي؟ ليتني أستطيع ذلك، يا سعيد! افهم، يجب أن تدرس! هل يفوت سعيد هذه الأيام مع رجال الدولة العربية الذين يبحثون عن نصر لمشروعهم المهزوم في دمشق؟ مركزهم الآن شرق الأردن!

نزل سعيد مع قدري في بيت سليمان السودي في سما قرب إربد. هذا أحمد مريود. وذاك علي خلقي، وهذا ابراهيم هاشم. هذا رشيد طليع، وذاك عادل أرسلان، والجالس هناك صبحي العمري، وقربه عبد الرحمن إرشيدات، وذاك العبيدات، وهذا خلف التل الضابط الذي حارب في ميسلون. صمت سعيد مأخوذا بهيبة الرجال الذين يحكمون عشائر وقرى حوران وعجلون والجولان. جمعهم مشروع الدولة العربية. قال قدري: فضيلة المشروع الوطني أنه يكشف لأشخاص متنوعين ما يلتقون فيه! ومهارة المشروع الشرير أنه يبحث عما يختلفون فيه! فهل ندمنا لأننا أجمعنا على مشروع الدولة العربية؟ لا! كان في مكانه وزمانه! وسيبقى حلما! فيصل؟ لم نختره نحن فقط! كان متواضعا، دمثا، لينا! ولكن ربما قدّر أكثر منا ضغط الدول الكبرى!

تأمل سعيد الحاضرين. هؤلاء ممثلو بلاد الشام في المؤتمر السوري! رجال أول دولة عربية! بعضهم من زوار قدري في طبرية. فهل كانوا زوار البحرة والحمامات فقط، أم كانوا يرتبون مشروعهم في تلك الزيارات؟ ستعرف يا سعيد أنه لا توجد زيارة خالصة، أكنا نستقبل أصحابنا أم نستقبل أعداءنا! نظر سعيد إلى خاله وصمت. فابتسم قدري. لمح أن سعيدا قال في نفسه: والنساء اللواتي تسهر عندهن يا خالي؟ فرد: أستثني طبعا النساء! أغسل عندهن روحي! لكن هذه الأيام لم تترك لي حتى الحق في الاغتسال!

كان كل رجل من الحاضرين محملا بزمن الثورة العربية، والمؤتمر السوري، وأيام إنذار غورو، وميسلون. لكن هل تظهر جوهرة الإنسان إلا في مثل تلك الأيام الكثيفة؟ وما الإنسان في السنوات الطويلة الراكدة؟! لكن السنوات الحاسمة

لم تنته. مازلنا في البداية! توقفت نظرة سعيد على أحمد مريود. عضو المؤتمر السوري الذي جمع ضباط الجيش العربي وزعماء الأردن ونظم مقاومة سنة 1919. واتصل بكامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا. واقترح في اجتماع في بيت القوتلي حضره محمود الفاعور وعلي خلقي تنظيم مجموعات من المقاومين من فلسطين والأردن وسورية ضد الفرنسيين والإنكليز. وحكمت قواته في تلك السنة منطقة تمتد من قطنا حتى العرقوب وجباتا الخشب، برجال من الكفارات والكورة والحولة ومن عشيرة محمود الفاعور وضباط تركوا الجيش العربي. كما سيترك الجيش الضباط المتطوعون ليدافعوا عن فلسطين في سنة 1948. هذا رجل معارك المطلة، ومرجعيون، والنبطية التي جمعت أردنيون وفلسطينيون ولبنانيون. هل أساء ذلك إلى علاقة فرنسا بالحكومة العربية، لأن أحمد مريود عضو في المؤتمر السوري؟ خلف التلّ الذي يجلس هناك قربه، تخرج من مكتب عنبر. درس في الكلية الحربية في بعلبك، صار من الجيش العربي، نقله أمير اللواء في الجيش العربي سنة 1919 إلى عجلون، وحارب في ميسلون مع يوسف العظمة. ويندفع الآن، هاجرا دلال عشيرته، لينظم مع مريود الثورة على الاحتلال!

كيف نستعيد بلادنا التي اقتسمها انتداب إنكليزي وانتداب فرنسي؟ قال أحمد مريود: بالمتطوعين لحرب استنزاف! تذكر سعيد أن بهاء حدثه عن أحمد مريود الذي حمّل البغال والخيول بقمح الجولان ونقله في السر إلى لبنان في أيام المجاعة. باح بهاء بذلك السر لمنور في نهاية الحرب كي يتقرب منها. فعانقته. واستمتع ببريق عينيها وتوهج وجهها. آه، كم يريحها أن تنظفه مما اتهمته به بينها وبين نفسها، وتستعيد ثقتها بأنها تعيش مع رجل لا يخجلها أن تعيش معه! سبح بهاء يومذاك في أفراحه بمنور، لكن هل ينسى عذابه في أيام الحرب؟ أيمكن أن يخفي عن نفسه أنه تمنى أن تحبه مغمضة العينين؟ أينسى أن تلك الأيام الطويلة ضاعت من عمره؟ قال لسعيد في مرارة: ثمن القرب من أختك نقل القمح في السر من الجولان إلى لبنان! يعني المشنقة! فهل كنت أستطيع في أيام الحرب أن أيسّر نقل القمح كل يوم إلى الجياع؟! هذا هو أحمد مريود إذن! هو ومحمود الفاعور صاحبا المعارك التي رد اللّنبي عليها بحملة عسكرية وبلاغ إلى الحكومة العربية! شرق الأردن الآن سند للتمرد الذي ينظمه رجال الدولة العربية والمؤتمر السوري!

كأننا نمشي على الحبل، يا سعيد. هذه بلادنا لكن في لبنان فرنسيون، وفي فلسطين إنكليز، وهنا في شرق الأردن نفوذ إنكليزي. لا نقبل بعد، نحن الذين

عشنا متنقلين بين بلادنا، هذا التقسيم! كان سليمان السودي يزورني في طبرية كما يزور عجلون! رفع أحمد مريود نظرته إلى السودي: مع ذلك نعبر الجولان وحوران وإربد!

قال سعيد لقدري في ذلك المساء: سنة كثيفة! فتساءل قدري: أية سنة لم تكن كثيفة منذ الحرب! في 1915 عزى قدري أحمد مريود بأمه في جباتا الخشب. جمع العزاء خير الدين الزركلي ونبيه العظمة وكامل القصاب ومحمود الفاعور وعبد الرحمن اليوسف وآخرين من الحاضرين عند السودي الآن. فهل تحدثوا إلا عن شؤون البلاد؟! تحدث نبيه العظمة عن العلاقة بين الاتحاديين وبين الصهيونيين. وتنبأ الحاضرون بأن العرب والأتراك سيكونون ضحايا الاتفاق الاوروبي. أي عرس أو عزاء لم يكن منذ تلك الأيام اجتماعا سياسيا يا سعيد؟! أفرح عندما يدعوني فلاحون إلى أعراسهم لأشعر بعرس حقيقي. ومع ذلك ألا أسعى كأصحابي إلى هذه الاجتماعات المتعبة؟ ربما يجمعنا الآن أمر آخر لا نبوح به. عشنا معا أيام جمال باشا الصعبة، وأحلام الدولة العربية، ثم هزيمتها في ميسلون. ونبحث اليوم عن مكان نستطيع أن نبدأ منه. في سنة 1915 كانت إربد محطة للمطلوبين الهاربين من محكمة عاليه. وفي سنة 1919 محطة لثوار حوران. وهانحن نعود إليها بعد هزيمة ميسلون. نلتقي فيها لكننا نتفادى الحديث عن أمر آخر! نعرف أن من نلتقي بهم الآن قد لا يحضرون لقاءنا القادم! ألم نفقد كايد المفلح العبيدات في سمخ؟

تجاهل سعيد الحزن وسأله: نبدأ من إربد؟ رد قدري: بلادنا! رأيت رجالها عند سليمان السودي! أكثرهم خريج مكتب عنبر في دمشق واستنبول وبيروت. فكيف نستطيع أن نؤمن بأن الضباط والعسكر الغرباء، التافهين، يملكون الحق في أن يحكمونا؟! نحن أكفأ منهم، وأكثر ثقافة. والمهم أن الناس يحترموننا ويثقون فينا! يضحي الرجال الذين رأيتهم في مضافة السودي بثروة آبائهم لبلدهم! ينحاز الناس إلينا لأننا نحمل حلم شكري العسلي ورجال أيار، ونحمل الآن إرادة يوسف العظمة وشهداءنا معه! ليس الانتصار فقط ساحرا! للأحلام المهزومة أيضا سحرها!

روى قدري لسعيد مقطعا فقط مما يستطيع أن يعرفه. فبعد موت قدري، سينتقل أصدقاؤه إلى العراق باحثين عن مأوى للحلم بدولة عربية مستقلة، ثم سيتسللون إلى سورية. فهل قدر من يحمل ذلك الحلم أن يهرب به مشردا من بلد إلى بلد؟ هل سيكون سعيد ممن يهرّبونه؟ همس قدري لسليمان السودي: سعيد

صلتي بك! ابتسم سليمان. شاب، لكن ألم نكن شبابا مثله قبل سنوات؟! تأمل سليمان صاحبه. هل يوصيني بسعيد، كأنه راحل؟ أم تضيق عليه طبرية ولن يستطيع القدوم دائما إلي؟

بعد الاضطرابات التي بدأت من يافا في أول أيار، تنقل قدري بين القدس ويافا والخليل. قالت شفيقة: أيام قاسية، لكن اهتم بصحتك كي تقاوم السفر والسهر! كيف أهدأ يا شفيقة والبلاد لم تهدأ بعد! تعرف شفيقة أن صاحبه سليمان باشا هو الذي يستطيع أن يستبقيه في البيت. فحضّرت غداء وعشاء من خضار البستان.

لا يعني قدري الخلاف الذي بدأ بين مجموعتين من المهاجرين اليهود الروس: شبيبة صهيون تعترض على المنظمة الصهيونية العالمية لأنها لا تدفع الهجرة في سرعة! وبوعالي تسيون تؤمن بزعيمها بوروشوف وتحلم بمجتمع عمالي ديمقراطي وبلغة يديشية! يرى قدري الجوهر: يخطف المهاجرون بلاده وأراضيه ومدنه، مستندين في هجرتهم إلى قرار استعماري. ويطردون العرب من عملهم وأرضهم. قال قدري لسليمان باشا: لنا، بوروشوف مثل بن غوريون! هذا وذاك مهاجر غريب عن تاريخنا وبلادنا! ألم يحضر مؤتمر بوعالي تسيون في يافا سنة 1919 أعضاء الفرقة اليهودية القادمون مع الجيش البريطاني؟ فليقل بعض اليهود المهاجرون إنهم ليسوا أعداء العرب! لكن أين هم، ألم يأتوا مع المهاجرين لينفذوا وعد بلفور؟ ما هي هذه الاشتراكية التي تحمل الصهيونية على كتفيها؟

مع ذلك كأنما كان صراع قدري وأهل بلده من صراع واسع في بلاد بعيدة جدا عنه! وما أعجب أن يحكم قدره اولئك الأشخاص الذين قال إنهم غرباء عن تاريخه وبلاده!

في روسيا بشّر بوروشوف "بالاستقلال الاقليمي للشعب اليهودي في فلسطين". وسمى أهل فلسطين "سكانا مولودين في فلسطين" منكرا عليهم صفاتهم القومية. مؤكدا أنهم لذلك سيقبلون قومية المهاجرين! فهل كان يعرف أنه رغم غطائه الاشتراكي يتفق مع ضابط أمريكي اسمه بيل، ومع إنكليزي اسمه سايكس، أكدا أن العرب دون شعور قومي، ولا يملكون صفات قومية؟ أسس جماعة بوروشوف ناديا باسمه في يافا، ومنهم من تظاهر في أيار في يافا، فكيف لا تضطرب البلاد؟

سجل المؤتمر الأول للاتحاد العمالي اليهودي العالمي في 1907 الذي حضره حزب بوروشوف "بوعالي تسيون الروسي" أن هدف الاتحاد: "الحل

الاقليمي للمسألة اليهودية بإقامة مركز يهودي ديمقراطي في فلسطين". وأضيفت فيما بعد "والبلاد المجاورة"! فهل تغيّر كلمة ديمقراطية أو كلمة عمال أو كلمة اشتراكية، جوهر اتفاق هؤلاء "العمال" مع المؤتمر الصهيوني الذي نظمه أصحاب الأموال اليهود؟! الطرفان متفقان: دولة على أساس ديني تجمع يهود العالم، وإنكار قومية العرب الفلسطينيين!

لكن الصهيونية التي تدعو إلى غيتو يهودي في فلسطين، وتسهر على نظافة منظماتها، لا تحبس الصهيونيين، عمالا ورأسماليين، في تلك المنظمات! فلتتسرب المنظمات العمالية اليهودية إلى التجمع الأممي للعمال والاشتراكيين! ولتتسرب المنظمات المالية إلى منظمات العالم المالية والسياسية! هل سينتبه إلى ذلك غير اليهود؟ أم سيطاردون باللاسامية ويفرض عليهم الحرم الذي فرض على الكاتب الروسي دستويفسكي منذ القرن التاسع عشر؟

مقابل فرومكينا، في المؤتمر الثاني للأممية في سنة 1920 كون، ممثل بوعالي تسيون الذي يمثل الحزب الاشتراكي في فلسطين، مع أنه لم يكن زارها بعد! انتقدت فرومكينا اشتراكه في المؤتمر، لكنه موجود! وقالت إن الصهيونية: "بحجة إقامة دولة يهودية مستقلة في فلسطين تخضع الجماهير العاملة العربية لاضطهاد إنكلترا مع أن اليهود يشكلون نسبة ضئيلة في فلسطين. وتسهل استثمار عمال هذا البلد استثمارا دوليا". اعتمد المؤتمر الثاني للأممية اقتراح فرومكينا: "يمكن أن نشير إلى مشروع الصهاينة في فلسطين. فالصهيونية بحجة إقامة دولة يهودية في هذا البلد الذي يشكل فيه اليهود أقلية ضئيلة قدمت السكان الأصليين من الكادحين العرب قربانا للاستغلال الإنكليزي". قررت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية دعوة مؤتمر لمثلي شعوب الشرق في باكو سنة 1920 تضمن نداؤها: "يا فلاحي سوريا وشبه الجزيرة العربية. لقد وعدكم الإنكليز والفرنسيون بالاستقلال غير أن قواتهم لا تزال تحتل بلادكم..". لو قرأ قدري ذلك النداء لقال شكرا، ولابتسم. فرجال المؤتمر السوري والمؤتمرات الفلسطينية، القوة الفاعلة، هم من يجب أن يوجه إليها النداء! ومع ذلك تسرب أنور إلى ذلك المؤتمر. وسيظل مثله يتسرب إلى تلك المؤتمرات حتى تنهار في نهاية القرن!

ذكر بيان مؤتمر شعوب الشرق فلسطين: "ماذا فعلت إنكلترا في فلسطين؟ طردت العرب من أراضيهم وأعطتها للمهاجرين اليهود لإرضاء الرأسماليين اليهود والإنكليز. ولكي تحرف اتجاه تذمر العرب سلطتهم على المهاجرين اليهود..". لم يصل ذلك البيان إلى من يجب أن يصل إليه. لكنه لو وصل لقال قدري: بل

عرفنا العدو في الإنكليز ولكننا لا يمكن أن نترك المهاجرين الغرباء مستقرين! أليسوا أداة الصهيونية والإنكليز؟ ليت من صاغ البيان يعرف من يستقوي منا على الآخر مستندا إلى قوة المحتلين!

رأت تلك الأممية أن "رفض الصهيونية" أساس للتفاهم مع المجموعات اليهودية العمالية. وأن "مفهوم الحقوق التاريخية" في فلسطين غريب عن الثوريين. وأن "الحق في تقرير المصير القومي" يستخدم في مصلحة الصهيونية. قال راديك في المؤتمر":لا أستطيع الموافقة على دعوة بوعالي تسيون إلى هجرة الجماهير اليهودية إلى فلسطين والإقامة فيها..". لكن باسم العمال، وباسم الصهيونية، سيهاجر اليهود إلى بلاد قدري. وستقود الصهيونية مسار الأحداث، وستتقمص شخصيات ثورية حتى تصل إلى القمم التي تغير فيها تلك القرارات. وستخفيها أيضا، حتى اليوم الذي تقلب فيه القرن وتسجل فيه انتصارها الأخير. كتب كاوتسكي: "تريد الصهيونية إقامة غيتو مركزي كبير لليهود في فلسطين، غيتو عالمي يعزل العنصر اليهودي عن غيره". ولكن ما أهمية ذلك؟ سيصدق قدري فقط الحقيقة التي رآها: المهاجرين الروس!

في أول أيار 1921 نظم بوعالي تسيون فرع فلسطين مظاهرة في يافا. وزع منشورات بالعبرية تختلف عن المنشورات التي وزعها بالعربية. رأى العرب مظاهرة مستوطنين غرباء يهود في مدينتهم العربية! شغل قدري ذلك الواقع، ولم يهتم بقراءة المنشور إلا بعد المآتم وزيارة المعتقلين والجرحى.

عندما زاره سليمان باشا تحدثا عن مظاهرة يافا والاضطرابات التي انتقلت منها إلى مدن فلسطين، فتذكر البيان الذي وزعه اليهود في المظاهرة. تناوله وقرأه في سرعة. وبدأ يتلو بعضه على سليمان باشا! ما أبعد البيان عن كلام أهل البلد في البيوت وفي المؤتمرات الوطنية، يا باشا!

قال قدري: يؤكد هذا البيان أن المستوطنين غرباء عن هذا البلد، بلغتهم، وبكلامهم! وهم منافقون أيضا. لأن منشورهم باليديشية يختلف عن منشورهم لنا بالعربية! روى لي ذلك أهل يافا. اسمع يا سليمان باشا ماذا يعلّموننا! "العمال اليهود لم يأتوا لاضطهادكم، بل كي يعيشوا معكم وهم مستعدون للجهاد بجانبكم ضد هؤلاء الأعداء الماليين من اليهود والعرب والإنكليز". من دعاهم يا قدري كي يجاهدوا معنا؟ ماذا حملهم إلى بلادنا غير المشروع الصهيوني الذي صاغه الماليون اليهود وينفذه المحتلون الإنكليز؟ ومن قال لهم أننا لا نميز بين سرسق وبين الأغنياء العرب الذين ينفقون مالهم على مقاومة سايكس بيكو؟ مع ذلك، قل

لي يا قدري أفندي، من شنق في أيار، العمال أم رجال النهضة الأغنياء؟ اسمع يا سليمان باشا البقية! اسمع! "في هذا اليوم التاريخي نناديكم لتنضموا إلى الشيوعيين الروسيين للجهاد ضد قتلة باريس ولوندرا الذين يقررون مصيرنا كأننا غير موجودين أو كأن لا سلطة لنا لتقرير مصيرنا". ما هذا الكلام يا قدري؟ لماذا لا يذكرون أن الإنكليز قرروا تقسيم بلاد الشام دون رأينا؟ وأن وعد بلفور أعطى هؤلاء المهاجرين فلسطين دون رأينا؟ لكن المهاجرين قرروا هجرتهم بأنفسهم! يا سليمان باشا، هل خلت البلاد ممن نجاهد معه كي نجاهد معهم؟ ألم تلاحظ أنهم انتقوا كلمة جهاد؟! اسمع البقية يا سليمان باشا! اسمع ماذا يتمنون لنا! "فليسقط أصحاب الثروات العرب والأجانب.. ولتحيى فلسطين السوفياتية". ضحك سليمان باشا، ضحك! لا تؤاخذني، يا قدري أفندي! يسقطوننا لأننا أغنياء أم لأننا نقاوم الإنكليز والفرنسيين والصهيونيين؟! قل لي الحقيقة! وما هذه الجمهورية التي يريدون أن يؤسسوها في بلادنا، وبلاد السوفييت لم ترسخ بعد نفسها، ولم تستطع أن تساعد العراقيين الذين استنجدوا بها في سنة 1920؟ قال قدري: على كل حال، رحّل الإنكليز بعض اولئك الحالمين، لكن العرب دفعوا الثمن!

هل كان قدري يخمّن أنه مس جوهر الصراع الذي سيمتد زمنا طويلا بين العرب والصهيونيين: الهجرة الصهيونية! وأن الهجرة الصهيونية هي المقياس الذي يميز اليهودي الذي تملكه الصهيونية، ومن قد يتمرد عليها فيبقى في وطنه الأصلي. ألم يعد بورغر "الثوري" إلى حضن الصهيونية في إسرائيل بعد مسار طويل في سنواته "الثورية"؟

حضر قدري مأتم ميسلون في سما. لكن سعيدا هو الذي حمل لقدري من سما خبر اغتيال غورو. روى له سليمان السودي أن المجموعة التي كلفت باغتياله في طريقه إلى القنيطرة لابسة ملابس الدرك، رجعت سالمة. لم ينتظر سعيد تفاصيل الخبر. لن يبقى ليسهر في سما أو إربد! أسرع إلى طبرية. يا خالي! هاجم الثوار موكب غورو. يبدو أنه قتل!

قبل سعيد وصل آخرون إلى قدري! فقال لسعيد: لم يقتل غورو بل كولونيل يرافقه في نزهته إلى القنيطرة. وجرح حقي العظم! لكن لنحتفل بذلك! هذا جواب على ما قاله أمام قبر صلاح الدين! ليفهم أن عودته ليست إقامة طويلة، وأننا نفهم التاريخ أكثر مما يفهمه! وصف سعيد الاغتيال كأنه رآه. السماء صافية، الحراسة قوية، الفلاة توهم غورو بأنه يملكها، جبل الشيخ أمام الرتل، وفجأة... مد سعيد ذراعيه، دار على قدميه، هدر كالسيارة المصابة. يا خالي سنحتفل الليلة! وسأعود غدا إلى بيروت! ترنم قدري بكلماته في هدوء كأنه يخاطب السماء وبحيرة طبرية وسعيدا: نظم اغتيال غورو أحمد مريود، عضو المؤتمر السوري، ابن الجولان، الرجل الذي رفض في المؤتمر الوصاية والحماية! أتعرف من المجموعة التي هاجمت غورو؟ واحد من الجولان، وواحد من لبنان، وواحد من دمشق.. انطلقوا من إربد! يعني ذلك أن البلاد التي قسموها موحدة! إربد مركز رجال الدولة العربية الآن. فيها تركي الكايد، وسليمان السودي، وعبد الرحمن إرشيدات، وعلي خلقي، وأحمد مريود، ونبيه العظمة، ورشيد طليع والبقية. وكأن الحكومة هناك وريثة الدولة العربية في دمشق! سيطلب الفرنسيون طرد رجال الدولة العربية من شرق الأردن، وسينفذ الإنكليز ذلك في امتنان!

لم يعش قدري حتى أيام حكومة علي رضا الركابي في الأردن، والأيام التي كان فيها أحمد مريود نائبا عن العشائر. ولا أيام سقوطها. لكن سعيدا الذي سيعيش حتى مطلع الثورة السورية سيعرف أن عبد القادر العظم، زوج ابنه شفيق المؤيد شهيد أيار، الذي نقله يوسف العظمة إلى قلم المطبوعات عشية ميسلون ليحميه، لام قريبه حقي باشا العظم لأنه حمى غورو بكتفه وقت هاجمه الثوار في طريقه إلى القنيطرة: أتحمي محتلا وتجرح عنه؟! رد حقي باشا: لو قتل غورو لخربوا الشام! أهذه حجة؟! هل حمل أبناء شكري الطباع عربة غورو لينقذوا الشام؟! أم أفاد منهم غورو ليقول لمدينة تبكي شهداء ميسلون: تفرجي، هؤلاء

جروا عربتي كالخيل فردوا عليك! وسيسمع سعيد في بيت السودي خبر العملية التي وصل بها الثوار إلى مزيريب وصادوا دورية فرنسية في باب سريجة في دمشق. وسيعرف إنذار الإنكليز للأمير عبد الله كي يطرد رجال الدولة العربية من شرق الأردن. سيقول له سليمان: الخطر أن تضم شرق الأردن إلى فلسطين فتصبح مهددة، هي أيضا، بالهجرة اليهودية! ذلك مشروع الصهيونيين! لذلك سيرحل رجال الدولة العربية إلى العراق. سيرحل بعضهم إلى الحجاز. فلنتذكر كلمة قدري عن أرض يبدأ منها الثوار! يا سليمان باشا، صارت تلك الأرض في طرف الخريطة، بينها وبين بلاد الشام الصحراء! نعم يا سعيد، الوضع الآن سيء. الفرنسيون في لبنان وسورية. والإنكليز في فلسطين وفي الأردن. واليهود يستوطنون فلسطين! فهل اخترنا نحن ذلك؟ وهل سنقبله؟!

لم يكن مبالغا! كانت ثورة هنانو قد اشتعلت في الشمال. وانتفاضة صالح العلي قد ومضت وخبت في الساحل. في 22 تموز سنة 1921 كانت محاولة اغتيال غورو. في تشرين الثاني من السنة نفسها سينفجر التمرد المسلح في دير الزور. في نيسان سنة 1922 سيزور كرين سورية فتودعه المظاهرات التي تطلب الاستقلال. وسينفى السياسيون السوريون إلى أرواد. وسيعتقل أدهم خنجر فيهاجم سلطان باشا الأطرش المصفحات الفرنسية. وفي سنة 1924 ستظهر العصابات الوطنية في الشوف وبعلبك. وفي أيلول سنة 1925 سيزور بلفور دمشق فيستقبل بالمظاهرات ويخرج هاربا من دمشق! وستبدأ الثورة السورية. وستعود في إضرابات ومظاهرات يخرج فيها جيل جديد منه زياد العظم، حفيد شفيق المؤيد شهيد أيار. سيهرب زياد من السنغال الذين يلاحقون المتظاهرين، فيدخل بيت العظم في سوقساروجا، ويعبر الباحة، التي مشى فيها محمد فوزي باشا العظم ليلة إعدام شهداء أيار باكيا، إلى بيت اليوسف ويخرج آمنا من حارة أخرى.

هرب جمال وطلعت وأنور مع الجيش الألماني المنسحب في سنة 1918. وصل أنور إلى برلين. من سيستخدم هذا المغامر الطموح؟ رتب له لقاء بكارل راديك المسجون في برلين كي يتصل بالحكومة السوفيتية. الاقتراح حلف بين البولشفيك والألمان ضد الإنكليز. رتب رئيس الجيش الألماني الجنرال الألماني هانز فون سيكت سفر أنور إلى موسكو. في الطريق سقط مرة في سجن ليتوانيا، ومرة في سجن لاتفيا، كجاسوس. وتقمص شخصية يهودي ألماني. وصل إلى موسكو في صيف 1920 وكتب منها إلى فون سيكت: "هنا حزب قوي، وتروتسكي من هذا الحزب". وطلب مساعدة غير رسمية منها السلاح. لماذا اهتم أنور بتروتسكي؟!

في أيلول 1920 حضر أنور، كضيف من ضيوف الكومنترن، مؤتمر شعوب الشرق في باكو. مثل الكومنترن في المؤتمر كارل راديك وزينوفييف. قدم زينوفييف أنور باشا، ومع ذلك بدا في المؤتمر كشريك للاستعمار الألماني وكقاتل الأرمن. أعطى أنور ورقته لتقرأ بدلا من أن يقرأها بنفسه، ومع ذلك قوطعت بالاحتجاج والصراخ. ادعى أنور فيها أنه يمثل اتحاد منظمات ثورية من مراكش وتونس والجزائر وطرابلس ومصر والجزيرة العربية وهندستان!

في سنة 1921 رجع أنور إلى موسكو ضيفا على الحكومة السوفياتية. شهدت الكاتبة الأمريكية لويز بريان التي عاشت في بيت مجاور له ستة أشهر "فيه شيء ساحر رغم انتهازيته وقسوته وغياب ضميره". وكان يلبس الطربوش ليدهش الناس.

قصف انتصار مصطفى كمال حلم أنور بالعودة إلى تركيا. فانتقل إلى القفقاس وأقام في باتومي. منعه السوفييت من التسلل مع مجموعاته إلى تركيا. بقي له دور في آسيا الوسطى! بخارى مكان مناسب للمغامر! بخارى بلد الحضارة الإسلامية، ذات المكتبات الضخمة وسوق المخطوطات، ذات الأسوار والجوامع المطرزة، بلاد الفواكه والثمار والخضار، مركز التجارة ومعبر طرقاتها، مهد الأتراك! لكن أميرها عبد السيد مير عليم اتصل بإنكليز الهند وعادى جارته السوفياتية، فقطع طرق التجارة وأفقر البلاد. خلال الثورة عليه هرب إلى التلال ودخل فرونزه إليها مع الجيش الأحمر. في 1921 وصل إليها أنور. وجد قادة بخارى الفتاة مثل قادة تركيا الفتاة! بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى بخارى خرج مع

رئيس الحكومة ومفوضي الداخلية والحرب كأنهم في رحلة صيد. اتصلوا برسل الأمير الهارب واتفقوا أن يكون أنور قائد المجموعات المسلحة لتحرير البلاد من السوفييت. كسب أنور الشيوخ بدعوته إلى دولة إسلامية في آسيا الوسطى، ومسلحي الأمير وأمواله. وأمير أفغانستان حيث يوجد جمال باشا كمستشار للأمير. ختم أنور الأوراق الرسمية بخاتم ذهبي باسم "قائد جميع جيوش الإسلام، صهر الخليفة وممثل النبي". فأغضب أمير بخارى الهارب، وأخاف أمير أفغانستان. في سنة 1922 طلب من الحكومة السوفياتية الانسحاب والاعتراف بدولته المسلمة. فطارده الجيش الأحمر في التلال وقتل هناك!

رحل جمال باشا في سنة 1920 إلى أفغانستان. قنع بمكان مستشار أميرها أمان الله خان، بعد طموحه الواسع؟! كتب أميرها إلى لينين: حدثنا سيادة جمال باشا عن أفكار الجمهورية السوفياتية ونواياها لتحرير الشرق كله. صاغ جمال باشا مسودة دستور لأفغانستان، ونظم جيشا. خدم في مقاومة الهند الإنكليزية. وأسس الرابطة الإسلامية الثورية لتحرير الهند من الإنكليز.

هذان الرجلان المغامران حكما بلاد الشام ذات يوم! وساقاها في مغامرة الحرب العالمية. وقررا إعدام رجال أيار!

نزل قدري مع سعيد إلى حيفا. منذ متى تودعني يا خالي وأنا مثل المكوك بين بيروت وطبرية؟ لا أودعك بل أريد أن نسهر معا! في تلك الليلة قال له قدري: سيجبرني الإنكليز على "الاستعفاء". ما رأيك في أن نشتغل أنا وأنت في التجارة؟ أية تجارة تقوم بي وبك يا خالي؟ تعودنا أن ننفق المال لاأن نكدسه! تأسرنا الوظيفة، ونتوهم أننا نبني بها بلادا. وعندما نزاح عنها نكتشف أنها أكلت عمرنا، لكننا دونها لا نعرف كيف نعيش! تابع قدري البحث عن النجاة: أحتاج ابنا يساعدني، وأثق فيه. التجارة؟ نتعلمها! ما هي؟ تجارة بالأجواخ الإنكليزية! اتصلت بتجار حيفا لأفتح محل أجواخ إنكليزية!

الحزن كالسكر، يترنح فيه الإنسان! التفّ سعيد على حزن قدري بالمرح. يا خالي، يطاردك الإنكليز في عملك، وتكرههم فتسوّق بضائعهم؟ كأنك تنتقل من تحت الدلف إلى تحت المزراب! وهل تثق في تجار حيفا الذين تتصل بهم؟ ألا تخشى أن يسلبوك مالك كما سلب اليهود أبي أراضيه؟ الحياة للواقف، يا خالي! ويناسبك أن تكون واقفا كما كنت حتى اليوم! إذا لم أسوّق بضاعتهم، يا سعيد، سوّقها آخرون! كيفما تحركنا الآن نحن في حضن الإنكليز!

من لا يمر ببرهة حزن! لكن الرجال يجب أن يبعدوا عن العيون هشاشة تلك البرهة! سيفكر كثير من السياسيين الخائبين في تجارة يصرفون فيها هوى العمل، وينشغلون بها في المنعطفات التي يهزم فيها مشروعهم الواسع. في نهاية القرن الذي يعيش فيه قدري، سيصبح بعض السياسيين اليساريين تجارا في البلاد الاشتراكية بعد سقوطها، ممثلين وكالات العالم الرأسمالي الذي يهاجمها. لكن السياسيين الذين يعجزون عن ذلك سيستبقون، الحاجة إلى الأمل، واتصال المستقبل بالحاضر. فهل بحث قدري قبلهم عن الثبات في زمن عاصف يطوي الماضي في قسوة مبددا رجاله وروحه!

تأمل سعيد شجون قدري. ليس قدري خاله الذي يدله ويفتح له بيته، بل الوطني المفجوع بالمشروع العربي، السياسي الذي يستبعد، صاحب البلدية الذي زها بكهرباء طبرية وبحديقتها الجميلة. انكسر التوازن الذي حفظه بلباقته! لم تعد علاقته بالحاخام تجدي! سيجرف اليهود طبرية التي يؤمنون بأنها مقدسة، وباسم استعادة مكان ديني سيملكون أراضيها الخصبة وموقعها الجميل!

فهل يستطيع سعيد الذي لا يحب المآسي أن يتوقف أمام مأساة خاله؟ هل يستطيع شاب مثله، يتصور أن الحياة مهما كانت صعبة في الاحتلال، مفتوحة له، ويؤمن بأن جيله سيغيرها، أن يتقاسم مع جيل آخر الحزن؟ قدري ورقة تقلب في زمن سيفرض رجاله. يحاول أن يمسك بمشروع ليس ممنوعا عليه ليندفع فيه! لكن سعيدا ابن الزمن الذي سيبزغ!

بعد سفر سعيد وصل سليمان السودي إلى بيت قدري. ضحك قدري عندما قال له سليمان، أتيت إلى طبرية لأبحث عن طريقة أستورد بها "ببّور" طحين! كفانا الطحن على الحجر! انصحني، هل أطلب "الببّور" من باريز أم من لندن؟ لكن ما الذي يضحكك يا قدري؟ تبحث أنت أيضا، يا سليمان باشا، عن مشروع نعوض به مشروع الدولة العربية؟ قالت شفيقة: لم يضحك قدري إلا عندما أتيت! واستبقته مع رجاله الستة للغداء.

رأتهما شفيقة يتحادثان وحدهما زمنا طويلا. فقدرت أنها يجب ألا تستعجل الغداء. وظلت تراقبهما من بعد لتتبين متى سيشبعان من الكلام. في فلسطين الآن هربرت صموئيل! أول رجل دولة إنكليزي طلب وطنا صهيونيا في فلسطين ترعاه بريطانيا! طلبه مبكرا في بداية الحرب، يا سليمان! فأي صهيوني متعصب! عين مندوبا ساميا لينفذ وعد بلفور! يا قدري، شرق الأردن ليس أحسن حالا الآن! ترسم خريطتنا كلها!

لم يستند قدري فقط على حدسه. بل على رسالة من عثمان باشا في مصر! في آذار 1921 اجتمع تشرتشل وزير المستعمرات بموظفي وزارته في بلاد المنطقة. بيرسي كوك المندوب السامي في مابين النهرين، وهربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين، غرترولد بل، لورنس.. مشروع تشرتشل تخفيض نفقات الاحتلال. شكل آخر تكفي فيه القواعد الجوية والمعاهدات مع حكام ولاؤهم بريطاني. رسم مؤتمر القاهرة حدود البلاد وعروشها في مشروع تشرتشل الذي يفضّل محميات عربية. "طموحي أن يكون العرب أول دمينيون أسمر لنا، لا آخر مستعمرة سمراء لنا". اللّنبي، غرترولد بل، لورنس، في مشروع تشرتشل: استقلال صوري لمصر، واختيار أولاد الشريف حسين حكاما. بذلك تخمد الانتفاضة في العراق، ويهدأ شرق الأردن. وترسم مصالحة بين وعود مكماهون وبين وعد بلفور: وطن صهيوني في فلسطين غرب الأردن، وكيان عربي في شرق الأردن. خلال المؤتمر وصل الأمير عبد الله إلى عمان مع ثلاثين ضابطا عربيا. ليقلق الفرنسيين في سوريا المحتلة! ألا يسند ذلك مشروع تشرتشل عن أبناء الحسين؟ أيد

ذلك لورنس: عبد الله عميل إنكليزي مثالي في المنطقة "لأنه ليس قويا جدا، وليس من أهل شرق الأردن، بل هو شخص يعتمد على حكومة صاحب الجلالة ليبقى في وظيفته". عارض هربرت صموئيل الصهيوني استبعاد شرق الأردن من وعد بلفور: لا يجوز سلخ شرق الأردن عن فلسطين وتغيير صك الانتداب الذي قررته عصبة الأمم! وقد يصبح شرق الأردن قاعدة ضد الصهيونية! لكن تشرتشل سيعدل نص الانتداب. وسيقلق ذلك الصهيونيين. كتب وايزمن إلى تشرتشل سنة 1921 أن اتفاق بريطانيا وفرنسا "يقطع فلسطين عن الليطاني، ويمنعها من حيازة الأردن العلوي واليرموك، ويحرمها من السهول الخصبة شرق بحيرة طبرية التي تعتبر أفضل مكان للمستعمرات اليهودية". وفي السنة نفسها كتب الصهيوني الأمريكي جستيس برانديس منبها إلى ضياع نهر الليطاني وإلى أهمية سهول الأردن الاقتصادية.

تحدث قدري وسليمان عن غضب وايزمن والصهيونيين على تغيير حدود سايكس بيكو بين إنكلترا وفرنسا. يا سليمان، كأن بلادنا لهم، ويحرمهم آخرون منها! تنقلب الحقائق إلى عكسها! يا قدري، هل سمعت في حياتك أن وطنا ينتقى كأنك تشتريه من مخزن؟ لنا، السهول والصخور ثمينة! أزورك يا قدري، لكني لن أترك سما لأسكن طبرية أو حيفا! وهل سمعت، يا سليمان، أن غرباء يبيعون وطنا لا يملكونه، ويقطعونه قطعة لهذا وقطعة لذاك؟

قبل مؤتمر القاهرة كان تشرتشل يعرف من لورنس أن فيصلا مستعد للمباحثات دون العودة إلى مسألة الاحتلال الفرنسي في سوريا، ودون مطالب أبيه في فلسطين: "ميزة بدايته من هذا الموقع الجديد للمباحثات أن جميع مسائل المطالب والوعود، المنفذة والمكسورة، قد وضعت جانبا". هل يجهل لورنس أن فيصلا يمكن أن يجمع بعض رجال الثورة العربية؟ فيصل إذن شخصية مناسبة! رتب مؤتمر القاهرة، أيضا، كيف يرشح فيصل في العراق ملكا! كما وصلت إلى المؤتمر أخبار عن عبد الله في شرق الأردن، وصلت إلى المؤتمر أخبار عن حركة سيد طالب، زعيم البصرة. اتفق مع النقيب، زعيم بغداد، على "عراق للعراقيين"! فأسرع بيرسي كوكس إلى العراق. دعا سيد طالب إلى بيته. استقبلته زوجته. وعندما انصرف اعتقله كوكس ونفاه إلى سيلان.

يا سليمان، أنجزوا إذن في مؤتمر القاهرة خريطة جديدة! فيها مصيرك ومصيري! بعد المؤتمر، أتى تشرتشل إلى القدس. تعرف أننا لسنا فقط من اجتمع به لنحتج على الوطن الصهيوني! اجتمع تشرتشل بعبد الله أربع مرات. سيبالغ

الإنكليز فيدعون أنهم نصبوه. لكننا نقول اجتمع طلب عبد الله بحقوقه، بقرار تشرتشل، فأصبح حاكما موقتا على شرق الأردن! يا قدري! في شرق الأردن رجال الدولة العربية الذين تعرفهم. والضباط الذين كانوا في الجيش العثماني ثم في الجيش العربي. والملاحقون في سوريا. شرق الأردن معبأة بالثورة. لن تضبطها فرق بريطانية. ليس الإنكليز أغبياء. يعرفون هذه الحقيقة. على مقربة منا جون فيلبي، يدرسنا! لذلك استنتج تشرتشل أن حاكما من أبناء الشريف حسين، يذكّر بالثورة العربية، هو أقل كلفة من جيش بريطاني. ولينظف الإنكليز، الذين خانوا العرب بوعد بلفور وتجاهلوا وعود مكماهون، ضميرهم! لكني أرى أن الأمير عبد الله رجل يحب الشعر والحديث، وسيترك لمستشاره البريطاني أن يحكم! وقد تكون موهبة عبد الله في الجمع بين أوامر البريطانيين وبين ولاء أهل شرق الأردن للدولة العربية ورجالها المتآخين مع اللاجئين السوريين. وفهم مكانها الجغرافي كقطعة من حوران من جانب، وكقطعة متصلة بفلسطين من جانب آخر، معتمدة على أسواق بلاد الشام هنا وهناك، ومتأثرة بروحها. لكن الخطر الآن أن الضباط العرب المخلصين سيجدون أنفسهم، وهم يلتحقون بفيصل في العراق وبالأمير عبد الله في شرق الأردن، في مدار بريطاني. من يرفض ذلك، متشبثا بولائه الوطني أو العثماني، سيكون معزولا عن مسار الحياة السياسية. أعلن عبد الله "أن البريطانيين أصدقاؤه، وأن الحكومة البريطانية تحترم وعودها للعرب واليهود سواء"! ياسليمان، بدأنا إذن من الاعتراف بالوطن الصهيوني! لكننا خلصنا، ياقدري، شرق الأردن من ذلك الوعد! سيجتمع مجلس الوزراء البريطاني ليعدل حدود الانتداب! سيحكم عبد الله شرق الأردن بمستشار بريطاني وقاعدة جوية بريطانية!

لا يعرف قدري وسليمان التفاصيل جميعها. لن يعرف قدري رسالة تشرتشل إلى كرزون: "أصبح عبد الله تماما ضمن معالجتنا للمشكلة العربية. آمل ألا يقص أتباعه رقبته". ولن يعرف سليمان باشا رسالة لورنس لتشرتشل: "أعرف عبد الله. لن تطلق من هناك طلقة واحدة"! ودفاعه عنه: "يكلفنا أقل مما تكلفنا كتيبة". سيحمل لورنس معاهدة إلى الشريف حسين تعترف به ملكا على الحجاز وتؤدي له راتبا سنويا، شرط أن يعترف بالانتداب على سوريا وفلسطين. سيرفضها الشريف حسين فيوقعها عبد الله! سيكون جون فيلبي الخبير في الجزيرة العربية مستشار عبد الله! وسيشكل بيك، صديق لورنس، قوات من البدو ستصبح فيما بعد تحت أمر غلوب! يا قدري، رسموا خطوطا لبلادنا، لكنهم لا يستطيعون رسم شعورنا! كل مافي الأمر أنهم يرموننا في اضطرابات قادمة. ويؤسسون البعد بين الشعب

وبين حكامه! ياسليمان، لنلعن سنة 1921! لا تتسرع ياقدري! فقد نلحق بها السنة القادمة!

كانا في نهاية شهر آذار، وزهور حديقة طبرية متفتحة، وفي بستان قدري أزهار البرية الصفراء ومن الهواء يفوح التراب والسماد.

في ذلك اليوم فقد أمين، ابن قدري، طاقيته المزينة بليرات ذهبية. سأله سليمان باشا عم تبحث؟ سلامتك يا باشا! جمع رجاله وقال لهم: أعيدوا ما أخذه أحدكم من بيت مضيفنا! وقال لقدري: أتيت لأشتري ببّور طحين فكدت أعود بطاقية! تخيل يا قدري مصيرنا لو أصبحت أنا صاحب ببّور طحين، وصرت أنت تاجر أجواخ إنكليزية! هل كان يوحي لقدري بأن قدر بعض الرجال أن يبقوا في مشروعهم ويواجهوا مصيرهم فيه، لا خارجه!

بعد انصراف سليمان السودي إلى إربد، سقط قدري في الكآبة كما يسقط طفل في بئر. ألأنه لا يستطيع أن يكون تاجرا؟! لم يشعل في غرفته ضوءا، وبقي طول الليل جالسا ووجهه إلى النافذة المعتمة. في الصباح لمست شفيقة جبينه براحتها وتنهدت: مريض! هل تخمن ما به؟ مرضه إعلان عن فشله! اعتراف بأنه إنسان أبعد عن مساره. قاوم قدري انهياره كقائد يبحث عن الخلاص في معركة. نادى نفسه: يا قدري، انهض! ألم تكسب من صحبة الضباط الألبان والأتراك والعرب الذين استضفتهم، قوة المهزومين؟ استحضر أصحابه وضيوفه كي يخجل بضعفه! وبّخ نفسه: انظر، يحمل آخرون البلد معك! وبعدكم سيولد رجال يناسبون الزمن أكثر منكم فلا تقلق! عزى نفسه عندما تعب من الصراع مع نفسه: لم تمرض يا قدري حتى اليوم. فلا بأس في برهة مرض!

رأى تورنس في مرض قدري أمرا آخر. بينهما صحبة تبيح له أن يفهم وهن قدري. حمل هذا الرجل اجتماعات مجلس المبعوثين، سافر إلى استنبول وبيروت ودمشق والتقى فيها بالسياسيين. حمل بلباقته الصراع الخفي بين العرب واليهود، كان بقلبه عربيا لكنه، كصاحب بلدية، كان للبلد كلها. استقبل الضيوف الغرباء والعرب. لم يبخل على نفسه في اللهو وسهر كأصحابه مع المغنيات اليهوديات. في أيام الحرب ابتعد عن فلسطين بعض الأجانب فترة قصيرة. وترك تورنس أملاكه أمانة عند قدري فرعاها كصديق أمين. يعرف تورنس أن قدري لا يحب الإنكليز، ويفضل أن تبقى الدولة العثمانية، لكن تورنس وقدري وصلا إلى صداقة جعلت كلا منهما يقدر الآخر. لم يخف تورنس الأب على قدري أن الممرضة التي اختارها ابنه، بشعة لا تستحقه! فهمس له قدري: رأيي مثل رأيك، لكنه هو الذي سيعيش معها! وحضر قدري العرس. فهم قدري دور الإرساليات والمؤسسات الأجنبية المزدوج. كم أنقذ تورنس من المرضى! كم ساعد من الناس! وهل غابت عن تورنس كفاءة قدري خلال النكبة التي نزلت بالعرب؟ هل يستطيع أن ينكر أن الإنكليز غشوا العرب؟ يعترف تورنس لنفسه بأنه لم يشعر بضيق في أيام الدولة العثمانية. استقبلت مستشفاه أهل طبرية وغيرهم دون قيد. لكنه يرحب بانتداب الإنكليز لرعاية فلسطين!

تورنس يقوي قدري؟ كيف، وهو مجروف بالأوهام بأن فلسطين تسع المهاجرين اليهود وأصحاب البلاد العرب؟ ليست الدنيا سوداء وليس المستقبل أسود كما تراه يا قدري! يأتي إلى فلسطين المعذبون في روسيا وبولونيا. ألأننا لم نضطهد اليهود حكم علينا بأن نفقد بلادنا، يا تورنس؟ اسمع يا قدري، كثيرون من الإنكليز في الإدارة البريطانية ضد الصهيونية، وضد وعد بلفور! رتشموند، صديق ستورز، رجح اختيار أمين الحسيني للإفتاء مع أنه اشترك في حوادث سنة 1920 وحكم عليه بعشر سنوات. مس نيوتون ليست بعيدة عن ذلك! اسمعني أنت أيضا، يا تورنس! كأننا بين أمرين أحلاهما مرّ! يا قدري كن سياسيا! هل لنا الخيار حقا، يا تورنس؟

هذه سنة 1922 الفاصلة. طوال السنة الماضية اجتهد العرب ليمنعوا صك الانتداب. لم يجهل تشرتشل حوادث شباط 1921 قبل مؤتمر القاهرة. ولم يجهل حوادث أول أيار في يافا بعد مؤتمر القاهرة. مظاهرة يهودية من المستوطنين الغرباء في وسط يافا العربية! كيف يمكن أن يقبل العرب ذلك؟ باسم عيد العمال، تظاهر المستوطنون الصهيونيون الروس في وسط مدينة عربية! فرأينا غرباء يحتلون بلدنا. انتشرت الاضطرابات في فلسطين كلها! لكن تشرتشل لم يستنتج منها الحقائق. لا تؤاخذني إذا قلت إنه، مثل جابوتنسكي، استنتج العكس. ذاك كرر للوفد العربي في لندن أنه سينفذ وعد بلفور، وهذا استنتج أنه يجب أن يؤسس كتائب مسلحة ليهاجمنا! ياقدري، أنا مثل كثيرين من موظفي الإدارة البريطانية، أرى أن المشروع الصهيوني خيالي لن ينفذ! يا تورنس، مشروع لا يقبله العقل ولا الضمير. لكنه ينفذ بالقوة.

منذ قابل قدري، كعضو في الوفد العربي، تشرتشل في القدس في الثلاثين من آذار سنة 1921 بعد مؤتمر القاهرة، أيقن بأن البلاد ستضيع. قال لنا تشرتشل: يجب أن يكون لليهود المتفرقين في العالم، مركز قومي، وطن قومي. وأين يمكن ذلك إذا لم يكن في فلسطين التي ارتبطوا بها منذ ثلاثة آلاف سنة؟ نعتقد بأن ذلك جيد للعالم، وجيد لليهود، وجيد للامبراطورية البريطانية، ولكن جيد أيضا للعرب في فلسطين.. سيفيدون من مكاسب الصهيونية وتقدمها. نعم، قال ذلك يا تورنس! لا أفهم كيف يتذرع تشرتشل باضطهاد اليهود في روسيا ليبرر اضطهادنا! ولا كيف يذكر أنهم مضطهدون وهو يقول إنهم يحملون المال والتقدم! يا قدري، تذكر أن تشرتشل استبعد شرق الأردن من مشروع الوطن الصهيوني! مع أن بلفور أفهمه أنه قصد بالوطن الصهيوني فلسطين كلها! هذه تفاصيل،

تفاصيل ياتورنس! فالبلاد كلها ستضيع!

واضح لتورنس أن سبب مرض قدري فشل العرب في أن يلغوا صك الانتداب. سافر وفد يمثل المؤتمر العربي إلى لندن في آب 1921 فسمع من تشرتشل ما سمعه منه قدري مع وفد القدس. وربما أكثر سوءا. قال لهم تشرتشل إذا أراد اليهود أن يطوروا أرضا صحراوية ويجعلوها خصبة فلهم الحق في ذلك! وضع اليهود المهاجرين أصعب من وضع العرب. فالعرب يستمتعون بأملاكهم، أما اليهود فسيؤسسون من أرض قاحلة سكنا. لم يكن تشرتشل مهذبا! قال لهم: "ستنفذ الحكومة البريطانية وعد بلفور. قلت لكم ذلك مرات. قلت لكم ذلك في القدس. وقلت لكم ذلك أمس في مجلس العموم. وأقول لكم ذلك الآن. سننفذ وعد بلفور. سننفذه".

لكن سنة 1922 هي الفاصلة! أعطى تشرتشل مشروع الكهرباء والري على نهر الأردن والعوجا للمهندس اليهودي الروسي روتنبرغ. ودافع عن ذلك في مجلس العموم: قيل لي إن العرب سينفذون ذلك بأنفسهم. من يصدق ذلك؟ لو ترك عرب فلسطين لأنفسهم ألف سنة لما تقدموا خطوة إلى الري والكهرباء في فلسطين. ولاستمتعوا كحفنة من الفلاسفة بالتجوال في سهول تحرقها الشمس تاركين مياه الأردن تجري إلى البحر الميت! أليست كلمات تشرتشل مسددة إلى قدري الذي أنار طبرية؟!

ربما كان تشرتشل ينفذ مشروع حياته ويريد أن يسجل لنفسه النجاح. لكن مشروعه يقتل قدري ويبدد حياته ويغير بلده. في 21 حزيران 1922 صوت مجلس اللوردات على رفض الانتداب على فلسطين. في 4 تموز هاجم بعض النواب تشرتشل في مجلس العموم. فذكرهم بما قالوه فيه قبل ذلك. ودافع عن ضرورة أن تحترم بريطانيا وعودها! خفض نفقات استعمار فلسطين وسيساعده مشروع روتنبرغ على استعادة ما أنفقه. كسب تشرتشل التصويت، فألغى قرار مجلس العموم قرار مجلس اللوردات! وفي 22 تموز 1922 صدقت عصبة الأمم الانتداب الذي أعيدت صياغته، ويتضمن تنفيذ وعد بلفور. وهكذا يا تورنس، نقاتل الآن على الزمن وفيه. نحن الجانب الضعيف في هذا العالم الوحشي لأننا الجانب الإنساني!

زار تورنس قدري يوميا خلال مرضه. كانا يغلقان الباب ويتحدثان. أخيرا قال تورنس لقدري: دعنا من السياسة! مرضك تعب متراكم. وهو أيضا حزن! لعن الرب هذا الزمن يا تورنس! متى كان قدري يمرض من التعب؟ كان الماء يكفي

لغسل التعب عنه. قال تورنس: اسمع يا قدري! يجب أن نفهم أنا وأنت أننا لا نستطيع أن نتجاهل العمر! لكنهما معا فهما أن مرض قدري لا صلة له بذلك!

هل راقب تورنس الصراع في روح قدري؟ يجب أن تتغير نتائج الحرب كي تشفى يا قدري! نعم يا تورنس، لكننا لا نستطيع أن نغيرها! رمينا بين البولوني بن غوريون الذي يريد أن يثير الفلاحين العرب على الملاكين العرب كأنما تمكن وحدة العرب مع اليهود المستوطنين في مشروع، وبين الروسي جابوتنسكي الذي يؤسس جيشا صهيونيا! هز تورنس رأسه. يعرف تورنس مشروع تشرتشل منذ سنة 1920. "إذا أسست في حياتنا دولة يهودية على ضفاف نهر الأردن، تحت حماية التاج البريطاني، تضم ثلاثة أو أربع ملايين يهودي، فسيكون ذلك حدثا في تاريخ العالم .. متناسقا مع المصالح الحقيقية للامبراطورية البريطانية"! مرض قدري حزن أو يأس. هذا رجل في مأتم. يا للشرقيين القادرين على الحلم إلى هذا الحد حتى لتبدو حياتهم كلها معلقة بأحلام! يجب أن يغلب العقل هذا الهوى! كيف يرجح تورنس مقاومة قدري؟ ما أعجب الموقف بين هذين الرجلين! يفترض أن يجعلهما انتصار الإنكليز عدوين لكنهما صديقان. كان قدري أول من زارهم تورنس بعد غيابه، شاكرا حمايته مستشفاه. وقال لقدري: رشح لي من تريده ليعمل في المستشفى عندي!

في أحد الأيام قال تورنس لقدري: كفى! يجب أن تقطع سلسلة الموت في أسرتك! ووصلت قدري برقية من سعيد في ذلك اليوم: سأترك بيروت لأبقى معك! لا تزد في هذا الموت العام الذي يصدح من دمشق إلى حيفا إلى بيروت! قال له تورنس: يا قدري، ستنهض لتنزل إلى بحرة طبرية ونأكل على شاطئها سمكا!

وقف قدري أمام النافذة. أمامه البحرة، والطريق ومدرجات البستان المزروعة بالماندرين. وسلم واسع يصعد إلى البيت. خلف البيت بستان آخر، مدرجات مزروعة خضارا. زرع قدري الماندرين من غرسات أخذها من بيارة يوسف في حيفا. يقصد الناس بيت قدري للفرجة على البستان، وعلى لمبات الكهرباء التي تزين الأشجار وقت الدعوات والحفلات. أضاء قدري طبرية بموتور الكهرباء قبل أن تعرف حيفا وصفد الكهرباء. يطل الديوان على الأشجار المزينة بالأنوار، وأمام الديوان، "التمر حنة" التي زرعها قدري ليفوح عطرها على المضافة.

في سهرات بيته كان فندق غروسمن يجهز له الطاولات والطعام، وتصدح الكمان والناي والأعواد. هل نسي السهرة التي دعا إليها رئيس بلدية صفد نايف الصبيحي إلى حفلة أقامها له في المضافة؟ أرسل أخته وزوجته وأولاده في تلك

الليلة إلى بيت الطبري. وبقيت سميحة وسعاد وسعيد فقط. تفرجت سعاد في تلك الليلة من فتحة الباب على امرأة سوداء جميلة! شهقت: في عمري لم أر أجمل منها! معها مغنيات أخريات. عندما غنت خبت الأصوات وبقي صوتها. أصبح الصوت الوحيد الممكن هو همس النفس. وبدا لسعيد أنها سكتت كي يستعيد الحاضرون أنفاسهم التي حبسوها. غنى رجلان ورقصت ثلاث نساء يلبسن سراويل طويلة. لكن سعيدا لم يرهن إلا خطفا. تسمرت عيناه على الجميلة السوداء.

عندما نهضت السوداء لتغني مرة أخرى بدأت بآه طويلة. فتنهد نايف الصبيحي، وبدا لسعاد أنه يحفظ توازنه بصعوبة. وبدا لها خالها قدري رائعا لأنه يجلس متزنا، يتحدث في البرهة اللازمة فقط. ينظر إلى السوداء مبتسما، لكنه لايتحرك من مقامه. قال سعيد لنفسه: خالي شبع من الرقص والغناء والسهرات، أو ربما رأى مغنيات أجمل من هؤلاء. وقال أيضا ربما يعرف خالي المغنية. رغم طرب قدري كان يتفرج من فوق على ما حوله. أم تراه كالمضيف لا يأكل حتى يشبع مضيفه؟

كفى يا قدري! انهض! واجه مصيرك واقفا! فلير هربرت صموئيل رجلا قويا! لا تهجر مكانك إلا عندما يرغمك على ذلك. لا يقتل الرجال كما قتل خالد آغا في ميسلون فقط، بل وهم يقاتلون دون حرب أيضا!

لو عرف قدري مصير نايف الصبيحي لندم على أنه تذكره وعلى أنه دعاه! سيبيع نايف أراض لليهود، وسيقتل الثوار ابنه وابن أخيه لكنهم لن يطالوه لأنه حرس نفسه. ومع ذلك سيهجّر، وسيقال فتحت ابنته بيتا "عموميا" في القاهرة.

في بيروت قال بهاء لسعيد: شفي قدري، فلا تنزل إلى طبرية الآن! خذ جنسية لبنانية! يا للسخرية يا بهاء! علينا أن نختار فلسطين أو لبنان أو دمشق؟! سيكون إخوتك في دمشق سوريين! وستكون أنت في بيروت لبنانيا؟ أختي وخالتي وخالي وقبور أمي وأبي وأهلي في فلسطين لذلك يجب أن أكون فلسطينيا! يدفعوننا إلى طلب الرحمة على الدولة العثمانية! بيروت واسعة، يا سعيد! لم يبق بلد واسع يا بهاء! يمسك بك هوى فلسطين؟ وربما القرب من سعاد! بين بيروت وبين طبرية رمية حجر! بين أي بلد في فلسطين وبين بيروت رمية حجر! لكن بيننا بازابورت!

سيزور طبرية هربرت صموئيل، أول مندوب سام إنكليزي. كان قدري يتوهج كالنشوان عندما يستقبل زوار الحمامات. يطربه أن يرافق ضيوفه وأن يبهرهم بكرمه ودماثته. تمتعه السهرات معهم. نعم، يحب المناسبات التي تتيح له أن يظهر أناقته وثقافته ومهارته في الحديث! لعل المغنية تشعر بمثل نشوته عندما توصل مستمعيها إلى قمة الطرب! في العلاقات أيضا يعبر الإنسان مسافات مضنية قبل أن يملك قامته وحركته وحديثه! وقد ملكها قدري واستمتع بذلك! لكن قدري اللبق، الماهر في استضافة السياسيين العرب، يعجز الآن عن إخفاء روحه! ويستسلم للغم لأنه مضطر لاستقبال هربرت صموئيل! قال لشفيقة: اختاروا مندوبا ساميا يهوديا! لينفذ وعد بلفور بمستوطنات يهودية! يستوردون سكانا لفلسطين من أنحاء الدنيا! ستكون فلسطين دولة دينية، بعد أن كانت بلد الأديان الثلاثة!

كان لقاؤه الأول بهربرت صموئيل مرّا. قال له هربرت صموئيل: صاحب طبرية عربي وهي مدينة مهمة في التاريخ اليهودي؟! رد قدري: ومدينة مهمة في التاريخ العربي! على شاطئ البحيرة قال المتنبي قصيدته في البحيرة! يا مستر قدري، قيل إنك تكره المسيحيين، فتدخن لتحرق الصليب المرسوم على السيجارة! أدخن سيجارة صمصون يا مستر صموئيل! عليها ما يشبه الصليب، وكان يمكن أن يكون عليها ما يشبه الهلال. ولكن هل يغيظكم حقا حرق الصليب؟ يجب إذن ألا تهوّد بلاد المسيح! قال هربرت صموئيل: يفهم كل منا الآخر تماما يا مستر قدري! ستبقى في مكانك حتى تصبح في طبرية أكثرية يهودية!

هل كانت جلافته من تكبّر الامبراطورية الإنكليزية أم من حقد الصهيونية؟ لا يخفي أنه يتعاون مع الوكالة اليهودية الموجودة كجهاز رسمي ينسق تنفيذ الوطن الصهيوني! واجبه!

لكن هربرت صموئيل لم يأت في هذه المرة للحديث مع قدري. بل لتدشين مستعمرة يهودية. أتدشن مستوطنة صهيونية وقدري مسؤول عن البلد؟ تأوه: يا شفيقة ماذا يعمل من لا رأي له؟ قالت: لا تحضر التدشين! أكثر من القرد ما مسخ الله! ونادت سعيدا: لا تترك خالك وحده!

قصد سعيد بيت الشيخ عبد السلام الطبري في منتصف الليل. قفز فوق السياج وتسلل في الحديقة حتى نافذة صدقي. نقر النافذة: صدقي، افتح! ما الذي

أتى بك في هذا الليل يا سعيد؟ أولا افتح لي الباب! إياك أن يفيق أبوك! نبحت الكلاب حتى دخل سعيد. هل كانا في تلك الليلة الجميلة والمحزنة في بيروت سنة 1913 والمدينة مغلقة بالإضراب العام يتنبآن بأن مثل هذا اليوم قادم، لذلك غمرهما الشجن يومذاك؟ اسمع يا صدقي، يجب ألا يذهب أبوك غدا إلى التدشين. هذه مستوطنة صهيونية. إذا لم يفهم الشيخ أن الاحتفال لتدشين مستوطنة صهيونية، هدده بالانتحار! خذ هذا المسدس! سأله صدقي: فارغ أم ملآن؟ فارغ!

أفاق المفتي على نباح الكلاب. يخاف الشيخ عبد السلام الطبري على ابنه من السل الذي خطف ابنه الآخر، زوج شفيقة. فيرجوه أن يبكر في النوم. لماذا اشتعل الضوء في غرفة صدقي الآن، وعلى من نبحت الكلاب؟ فتح باب صدقي. هذا سعيد؟ نعم يابا! عرف سعيد أني سأنتحر لأنك ستذهب غدا إلى تدشين مستوطنة صهيونية! جاء خائفا علي! مستوطنة؟ قال المندوب السامي مشروع إنساني، وطلب مني أن أحضر الاحتفال! يستغبوننا يابا! سأل المفتي سعيدا: هذا رأي قدري؟ نعم! إذن لن أذهب! يخربون بيوتنا ويريدون أن نوقع على ذلك؟! لا يصير هذا أبدا!

كم يختلف الصباح عن المساء! في الصباح كان سعيد ورشدي وصدقي الطبري يتنزهون. مروا بحديقة البلدية، عبروا البرك والأشجار والزهور. قال صدقي لسعيد: شف هذا الملاك! في الحديقة كانت سميرة تقف مع زميلاتها. سميرة مسيحية من عكا، جميلة جدا، طويلة، حنطية. أتت لتزور أقرباءها بيت الملكي الذين كانوا ذوي نفوذ في أيام الأتراك. قال سعيد: ما رأيكم في أن أقف إلى جانبها ولو برهة؟ رد صدقي: الشرط سيران إلى البطيحة! لا تقلّ كلفته عن خمس ليرات! دخل سعيد إلى الحديقة، تقدم ووقف قرب سميرة. التفتت إليه دهشة: نعم؟ قال: عفوك، بيني وبين صديقي شرط. قلت إني أطول منك وقالا بل أقصر. ابتسمت. توافقين أن أعرف الحقيقة وتحكم على ذلك زميلاتك؟ وقف إلى جانبها وصديقاه يتفرجان عليه من بعد. نعم، أنا أطول منك. ودعها: لا أجرؤ على دعوتك إلى السيران في البطيحة، لكنك ربحت معي الشرط! أشكرك! سألت صاحباتها: من هذا؟ لا تعرفينه؟ سعيد! هو كما يروى عنه، لطيف وظريف. قالت إحداهن: محظوظة من تكسبه. لو بقيت سميرة في طبرية أكانت تحاول ذلك؟

عاد سعيد إلى صدقي وابن عمه رشيد. قال صدقي: سلمت عليها، وقفت قربها، وقست طولها بطولك! هيا إلى البطيحة! ما يزال اليوم في أوله! مرا في طريقهما بالشيخ الشاذلي خليل الذي يلف أغباني حول طربوشه. نادى سعيدا: يا

ابني، اترك البنات في دربهن! كيف أتركهن يا شيخ خليل وهن زينة الدنيا؟ هل اعتديت عليهن أم سلمت عليهن؟ اسمع يا سعيد، الشابات، مسيحيات ومسلمات، أخواتك في البلد! لذلك سلمت عليهن يا شيخ خليل! هل خطئي أكبر ممن يبول في حديقة؟ ابتسم الشيخ. رأيتني يا سعيد؟ سامحك الله يا ابني!

أينتهي مثل هذا اليوم الجميل، بعد النزهة في البطيحة بهذا الخبر؟ صدمه حزن قدري. يبدو أن الفرح صار ممنوعا يا صدقي! فتح صدقي النافذة فبدت ظلمة البحيرة مرقشة بأنوار الصيادين. من يملك البلد يا سعيد يملك أفراحه وأحزانه! وقف سعيد قربه. تحت هذه العتمة الممتدة أهله، أبناء بلده، أصحابه. أيمكن ألا يبقى ذلك كما هو الآن؟!

نعم، سيضع هربرت صموئيل حجر الأساس للمستعمرة اليهودية على الجبل! وسيفرض على قدري وعلى مفتي طبرية ورجالها أن يحضروا الاحتفال! لكنهم لن يحضروه!

مر قدري بالبيت الذي كان يسكنه على السور. توقف قرب درجات بابه. كان موج طبرية يتدفق إلى الصالة ثم ينط على الدرج عائدا إلى البحيرة. هنا عاش قدري زمنا. وهنا سكنت منور بنت فاطمة! من هذه النوافذ مدت سلتها إلى الصيادين وتناولت منهم السمك الطازج! من هذه النوافذ رمت أول وجبة طبختها وفشلت فيها! في تلك الشرفة استقبل قدري أصحابه! وهذا هو الجامع القديم بجانبه والدرجات التي تنزل إلى البحيرة. لماذا قصدت يا قدري بيتك القديم؟ تستعيد حياتك كالراحلين؟ لا يتوقف السعداء في الذكريات ولا يستعيدونها! وأنت المشغول بيومك وغدك لم تتعود أن تلتفت إلى الأمس! تذكر قدري أنه قال لبهاء عندما انتقل من راشيا إلى طبرية: ساير أبو السعود الطبري! فرد بهاء: هذا يرتشي! قال له قدري: يرتشي؟ هذا غني يملك البلد! لكن العادة هنا ألا ترد هدية الناس لك بل أن تهدي مثلها! كان ينصح ويشير فمن ينصحه الآن؟ أمام هربرت صموئيل ماقيمة عائلة الطبري وما وزن منظومة الأخلاق والقرابة والصداقة؟ سيفككها هربرت صموئيل، وسيغرس أخرى لا مكان فيها لقدري ورجال طبرية!

رجع قدري إلى البيت وهو يشعر أنه الليلة لا يملك السهرات والمضافات! كأنه كفّن بزمنه ورمي في قبر ليبدأ زمن آخر! لكنه من الرجال الذين يصعب عليهم التمييز بين أنفسهم وبين بلادهم! فلا يستطيع أن يبكي مجده الشخصي دون أن يبكي بلده. اغتسل ولبس قنبازه الأبيض. لم يتعطر على عادته. نادى زوجته: يا عزيزة، هاتي ما عندك لمن سيشرب! يحتاج قدري أن يبوح بما في قلبه! ويحتاج من يسنده! يعرف كلمات التشجيع والتعزية التي ما أكثر ما قالها للآخرين كي يثبّتهم أمام مشكلة أو همّ. لكنه يحتاج أن تقال له الآن! ربما كان يستهويه أن يكون الأقوى بين من حوله، وكان ذلك يدعوه إلى أن يفيض بالعون. لكنه يتمنى الآن لو يجد آخر مثله أقوى منه يستطيع أن يعينه على حمل الهم الذي لا يستطيع أن يحمله وحده. أعلن لسعاد: يريدون مني أن أحتفل بتأسيس مستعمرة صهيونية! ولا أستطيع ذلك! لكني صاحب البلدية وهربرت صموئيل هو الحاكم! هل وضع في مواقع الرجال الذين عرفوا وسيعرفون بعده أن عليهم أن

يموتوا منتحرين أو مقتولين أو أن يوقعوا على الاستسلام؟ أعلن خياره: سأنتحر! ردت شفيقة: بل قاومهم! هذه بلادنا! لماذا لم يسمعها اليوم؟ وضع قنينة العرق على الطاولة. فانسحبت شفيقة. لا تتحمل أن ترى قدري يعلن حزنه! ولا تقبل الحزن الذي يرتكب الإثم! يبيح قدري لنفسه أن يشرب العرق أمام سعاد وعزيزة! كان شقاؤه أكبر من أن ينتبه إلى ما أشار إليه انسحاب شفيقة. تركته. لن تضع الحزن في الجرن! ستبحث عن سعيد!

شرب قدري العرق دون ماء. ولم يتناول إلا لقمة من اللبنة. سألته سعاد: لا تعجبك السفرة؟ النعناع الأخضر، الفاصولياء بالزيت، صحن الرز بالبندورة، مخلل الباذنجان المحشو بالفليفلة الحمراء والثوم، مخلل الخيار، المكدوس، أنواع الزيتون المكبوس بالزعتر أو بالفليفلة. الكبدة المشوية. يتمنى أن يموت فجأة! ولا يبالي بمهابته أمام سعاد وعزيزة. احكي يا سعاد! ماذا أحكي يا خالي؟ احكي أي شيء! فهمت سعاد أن خالها في خطر. وأنها يجب ألا تتركه. يا خالي، ما أحلاك وما أقواك! لا توجد شعرة بيضاء في رأسك! خالتي الست شفيقة تشيب بسرعة!

رأى قدري زوجته تكاد تغفو. سألها: نعست يا عزيزة؟ ردت: نعم. قال: نامي! نهضت فاستوقفها وصفعها. هب قلب سعاد. سألته عزيزة: لماذا؟ قال: لا تترك الزوجة الوفية زوجها في هذه الحال لتنام! قالت سعاد بينها وبين نفسها: يا خالي، كنت تتركها وتسهر مع أصحابك. ويقال إنك تحضر سهرات الغناء، فهل يفعل الرجل الوفي ذلك؟ هل أكدت سعاد وقتذاك قرارها بألا تتزوج مرة ثانية إلا ممن تستطيع أن تكون له ندا؟ هل اكتشفت في تلك البرهة أنها تحب خالها، لكنها لا تتمنى أن تتزوج رجلا مثله؟ تقبلين يا سعاد أن تكوني مستثناة لديه وتستمتعين بذلك! لا تتحملين أن تكوني في مكان زوجته، ولم تحمّليه قبل اليوم أبدا ذنبا. ترفضين أن تؤدى لك الواجبات ويعيش زوجك خارج البيت حياة بعيدة عنك، لكنك تهمسين لنفسك: عزيزة قبلت ذلك! كي تنجي بخالك من اللوم! هاأنت تواجهين ذلك أول مرة اليوم! فهل استوقفك أن عزيزة سألته أول مرة في حياتها: لماذا؟ أم استوقفك أن قوة الضعيف تتلامح عندما يضعف سيده؟ لكن يا سعاد لماذا لم يخطر لك أن السعادة أيضا يمكن أن تثبّت الرخاوة في علاقة الرجل بالمرأة؟ آه، ليس ذلك! لا! لا يستطيع قدري أن يصفع هربرت صموئيل فصفع عزيزة!

لم يرفع قدري يده على أولاده، ولم يقل لعزيزة كلمة مهينة حتى هذه الليلة. لابد أنه سكر إذن! كان يعتد دائما بأنه لا يمكن أن يسكر. ولم يعترف أبدا بأن النشوة التي تجعله مرحا، وتطلقه ماشيا في الليل مسافات طويلة، وتجعله مبهجا

للنساء، وأن شفافيته وقتذاك هي أيضا سكر. فرغم سعة عقله، كان يعترف بنوع واحد من السكر هو الذي يتأرجح فيه رجل لم يتعود الشراب ويسقط على الأرض! فماذا تقول يا قدري في نفسك الليلة؟

في الصباح غسل قدري حزنه في الحمام. وقصد أن يمسك كف عزيزة ويقول لها أمام سعاد: أكلك طيب وسفرتك عظيمة. فدمعت عيناها. فهمت اعتذاره المتكبر.

في الصباح الباكر نزل الناس من الجبل إلى بيت قدري. ووصل مفتي طبرية: يا قدري ما العمل؟ رد قدري: لا تحضر الاحتفال! قال المفتي: سيهينونني! قال قدري: تتحمل أن يهينك عدوك أم أن يهينك أبناء بلدك؟

في الساعة التاسعة امتلأ بيت قدري بالرجال. وامتلأت بهم الحديقة. لكن ذلك يشبه اجتماعا في جنازة! وقف قدري على درجات السلم. تحدث إليهم والمفتي قربه. لا يريد اليهود الغرباء مأوى كما يدعون. يريدون أن يشلحونا بلادنا. ينفذ ذلك بالمستوطنات على أراضينا! وعد بلفور ببلادنا غرباء وهو لا يملكها!

تفرجت عزيزة على قدري من النافذة. انتهى الصراع والنزاع في روحه. كان وحيدا أمس لذلك كان ضعيفا ومهموما. ولذلك صفعها. وقد نسيت الصفعة وسامحته. مركزه وربما حياته أصبحت الآن في خطر. قد تضيع عزيزة السعة التي تعيش فيها. وتقبل ذلك. تريده فقط أن يبقى حيا. لكنها فهمت أن حياته التي تمنتها طويلة لن تكون كذلك. ففي هذه البرهة رسم حدودها الأخيرة!

رغم غياب قدري والمفتي ورجال طبرية عن الاحتفال، وضع هربرت صموئيل، اليهودي الإنكليزي، حجر الأساس لمستعمرة يهودية على الجبل. وستشيد. ينفذ هربرت صموئيل وعد بلفور! ألم يقل لقدري: عندما تصبح في طبرية أكثرية يهودية سنختار غيرك! هاهو يؤسس فيها أكثرية يهودية!

أوقدت عزيزة الحمام وقدري ما يزال نائما. يغتسل دائما قبل أن يلبس قمصانه البيضاء ويخرج إلى عمله. ولذلك تفيق مثل الست شفيقة مبكرة. تحضر معها الفطور وتسلق البيض وتغلي الحليب وتوقد الحمام. فيجد قدري والأولاد البيت نظيفا ومرتبا وطعام الصباح جاهزا ساخنا. وفي الطابون في البستان تكون زوجة البستاني قد خبزت عجين الأمس، فتضعه شفيقة على الطاولة المنخفضة في المطبخ قرب الفطور.

يستمتع قدري برائحة الحطب الذي توقد به عزيزة الحمام. ويعرف أن الماء الساخن في انتظاره. فلماذا لم يظهر بقميص النوم الأبيض في باب غرفته؟ قالت شفيقة: تعب الأمس والمصائب التي أنزلها علينا هربرت صموئيل! لكنها شعرت بالقلق على قدري بعد دقائق من كلامها. لم تفتح باب غرفته حتى اليوم لتوقظه. لأنه كان يقدّر دائما متى يستيقظ. لكنه في حياته كلها لم يتأخر حتى تملأ الشمس المطبخ كما تملأه الآن. قررت أن تتفقده عندما تبتعد عزيزة.

رأته في فراشه. لم يجبها عندما نادته. كأنما عصرت يد قلبها. لا، كل شيء إلا ذاك! لمسته: قدري! بقي هادئا. قدري! لم يجبها! ركضت إلى البستاني: اطلب تورنس! اركض!

هل تتصورين يا شفيقة أن الموت لا يستطيع أن يدخل إلى بيت تحرسينه؟ أو أنه يؤجل خطف من يجب أن يعيش حتى يكبر أولاده، أو يصالح محبيه، أو يرد الظلم الذي يجب أن يرده؟ من يعجز عن دفع ظلم يمت من القهر. رد مستوطنة عن طبرية لا يستطيعه قدري! فقولي قتله هربرت صموئيل! وكم سيقتل بعده! قولي بدأ موت قدري يوم سقطت الدولة العربية في ميسلون! وأيام تقسيم بلاد الشام! واكتمل موته اليوم بالمستوطنة الصهيونية! أنتم؟ أنت وأولاده وعزيزة لم تكونوا وحدكم حياته، بل كانت بلاد الشام مركز حياته! لو كانت زوجة شكري العسلي وابنه الصغير مركز حياته لما اندفع في مشروعه حتى المشنقة! لو كانت زوجة يوسف العظمة وبنته مركز حياته لما اندفع إلى ميسلون! كنتم، رغم حبه لكم، في ظلال مشروعه! لا تحزني يا شفيقة! سترين رجالا وضعوا أولادهم وأسرهم فوق مشروعهم الوطني وسيرعشك ذلك السقوط!

لا تعزي الجنازات الكبرى أهل المفقود! لكنها تسجل للبلاد أنها تحترم

ذاكرتها. كانت جنازة قدري تليق بعضو في مجلس المبعوثين، بعضو في المؤتمر السوري، عرف رجال أيار، وصاهر أسرة الطبري، وخدم مدينته، واستقبل السياسيين العرب زوار طبرية وصادقهم. لكن جنازته كانت فوق ذلك ردا على احتفال هربرت صموئيل بتدشين مستوطنة صهيونية. تمنت شفيقة أن تمشي في صدر الجنازة لترافق قدري في آخر خطواته. قالت لأولاده: امشوا في الجنازة! هذا ليس مأتما! هذا احتجاج على هربرت صموئيل! صار هذا الغريب يقرر لنا مصير بلادنا! ودّعت قدري من نافذة البيت، فرأته يمر قرب بحيرة طبرية آخر مرة! وبقيت ترد عزيزة عن العويل، وتهدئ سعاد التي تبكي على كتف سيرين.

بعد موت قدري مقهورا، هل تستطيع شفيقة أن تزور زوجة الحاخام باشي؟ هل تستطيع أن ترسل إليها الفواكه وقدور اللبن في عيد الفطير؟ أتى الإنكليز ليرتبوا وطنا يهوديا في بلادنا فحفروا برك الدم بين اليهود والعرب. وحملت الحركة الصهيونية المستوطنين الغرباء إلى بلاد لا تضطهد اليهود فخربت الود بينهم وبين أهل البلد! لكن أنت يا زوجة الحاخام باشي إلى أي جانب ركضت؟ لا تريد شفيقة أن تفكر في أنها فقدت أصحابها اليهود وهي تفقد قطعا من بلدها!

عندما هدأ الحزن في بيت قدري، لامته شفيقة بينها وبين نفسها: حققت أمنيك فمت! تركت عشرين مجيديا فقط! "تركت الشقا على من بقى"! يا سعاد، يجب أن نشتغل ليبقى البيت مفتوحا في غياب قدري كما كان مفتوحا في حياته! وأنت يا عزيزة اهتمي بالأولاد! أخذ الموت زهرة البيت ولكن لا وقت للحزن!

تبينت شفيقة ما كانت تخمنه: لم يترك قدري ما يتركه الأغنياء. عاش مضيافا، سفرته ممدودة للقريب والبعيد، يستقبل زوار الحمامات كأنهم زوار بيته ويولم لهم، ويرتب لهم نزهات طويلة عريضة. صرف على السياسة ولم يجن منها. ولم يقصر في الإنفاق على النساء. تصور أن الدنيا باقية له كما يريدها، مع أنه سياسي يجب أن يعرف أن الدهر دولاب! وهاهي الحرب جرفت البلاد، وهربرت صموئيل غرس مستوطنة يهودية، والمهاجرون اليهود أتوا من أطراف الدنيا إلى طبرية. فلم يتحمل قدري ذلك القهر!

وماذا وفرت هي؟ تنازلت عن الأملاك التي ورثتها من زوجها أمين الطبري. قال قدري يومذاك: يكفي الشيخ عبد السلام الطبري أنه فقد ابنه. فهل يجب أن يفقد أيضا أملاكه؟ كان قد سجل قرى باسم ابنه الذي مات مسلولا. والإرث في الأراضي الزراعية ليس كغيرها. أتى قدري بلجنة من الطابو سجلت تنازل شفيقة عن كل ذلك لحميها. هل بكى الشيخ يومذاك؟ قال له قدري: لا يشتري المال

أصدقاء، لكنه قد يفقدهم! بيننا خبز وملح! ظل عبد السلام الطبري يردد: يا حبيبنا قدري، خبرناك أيام مصيبتنا!

يمون الناس القمح ليرسلوا منه إلى المطحنة ما يحتاجونه كل شهر فيخبزون الطحين طازجا. وصلت إلى شفيقة من الشيخ عبد السلام مؤونة القمح للسنة، فقالت: لا! هذا القمح بثمنه. لكني أقبل أن يكون بثمنه على البيدر. فكاد عبد السلام يغضب. ستبيع شفيقة حليها وستعمر طابقا فوق بيت قدري ستجعل له درجا مستقلا، وستؤجره.

جلست إلى ماكينة الخياطة. العمل ليس عيبا! الكسل هو العيب! هكذا ستبقي بيتها مفتوحا للأصحاب. وسيزورها أصحاب قدري المخلصون فتمد لهم السفرة كما كان يمدها. وفي السهرات التي تصبح النساء فيها شاعرات يغنين ويخترعن الكلمات، سينشدن: "اعلي يادار، والحزن راح بلا ردة"! لكنهن سينحن على السطح الذي صار بيتا يؤجر، وسترد عليهن شفيقة: وهل كنت أستطيع أن أنصب أنوالا للحرير وقصرت؟ قدرت شفيقة لكل من أولاد أخيها مساره. واحد في مدرسة سمبل التي أسسها مستر سمبل في صفد، ثم نقلت إلى القدس، يقدم فيها الطلاب "المترك". واحد إلى الأحمدية في عكا. وستزوج سميحة من قريبها في عكا. أما الاتفاق القديم على زواجها يوم تكبر من بيت الطبري فكلام جرى بين عائلتين في أيام سعيدة، تبدد في الحرب حتى قبل أن يموت قدري! وسعاد؟ تخشى عليها أن تدخل في متاهات الحب المجنون وهي ترى حمدان يداوم في أيام العزاء بقدري كأنه ما يزال زوجها. يرجو رضاها؟ لماذا إذن عذبها؟! لتعترف شفيقة بعد أن رأت الموت ينهي الحياة في برهة: لايشترى الحب بالحلي والمال! قدر لشفيقة ألا تعرف الحب، لكن هل تستطيع أن تفرض ذلك على سعاد؟ فوق تفكيرها بمصير أولاد أخيها يجب أن تفكر في سعاد! لو كانت سعاد بشعة لهان الأمر. فالجمال مصيبة. يطمع فيه، فيفرض حراسة المقربين عليه!

أتى صدقي الطبري! ليتذكرا قدري أم ليتذكرا زوجها، أخاه؟ يشعر كل منهما بأن الأحياء لا يتبددون بل يتركون أطيافهم في البيوت التي عاشوا فيها، ويحومون حول النوافذ التي تأملوا منها البحيرة والمساء، يتفقدون الأشجار التي غرسوها، ويلمسون صورهم المعلقة على الجدران، ويعيدون ما مال منها إلى توازنه. هل شم صدقي عبق قشر الليمون في كأس الشراب التي قدمتها شفيقة له، لذلك نظر إليها طويلا وهو يدورها بين أصابعه؟

مع ذلك لم يخمن صدقي الطبري وشفيقة أنهما سيفقدان هذا البيت وهذه

المدينة، وأن أطياف الموتى ستطرد منها وتصبح غريبة وعندئذ تستكمل موتها!
في دمشق سيلتقي صدقي بشفيقة. كان أولاد أخيها الذين درستهم ليكون كل منهم في وظيفته في بلده، قد صاروا جميعا لاجئين في سوريا ولبنان. بقيت شفيقة رشيقة الجسم، طويلة نحيفة، قوية حتى يوم مرضها. جلس صدقي يومذاك إلى جانبها ثلاثة أيام وحضر وفاتها في آخر السهرة. وكم كان موتها سريعا ورشيقا!

في سنة 1923، بعد موت قدري، نشر تشارلز كرين مقالة توضح ماجرى. قرأها بهاء في بيروت وقال: هذا تأبين قدري! كان كرين قد زار دمشق في نيسان سنة 1922. نزل في فندق داماسكوس بالاس، وطلب اللقاء بمن استمع إليهم في سنة 1919 وقت كتب لمجلس السلم تقريره عن أماني السوريين. التقى بنساء الشهداء في بيت شكري العسلي في المهاجرين. ذكرنه بالمشروع القومي الذي مات في سبيله شهداء أيار. قالت له زوجة رشدي الشمعة: إذا لم تبالوا بالأحياء فاحترموا القتلى!

زار كرين نازك العابد، ابنة مصطفى باشا العابد، مؤسسة مدرسة بنات الشهداء. سألها عن مدرستها نور الفيحاء. فقالت له إن مدير المعارف محمد كرد علي أمر في شباط 1921 باحتلال مدرستها في الليل. فأرسلت مديرتها إلى حقي العظم تسأله هل بنات الشهداء ومعلماتهن عصابة لذلك هاجمهن رجال مدير المعارف؟ عرف مستر كرين أن الهدايا التي أرسلها من باريز إلى المدرسة صودرت.

اجتمع كرين برجال دمشق في حي القصاع والميدان ومع طلاب الحقوق والتجار الذين حكوا له عن دمار الاقتصاد الوطني من الحواجز الجمركية والضرائب وقدموا له أرقاما وإحصاءات. وسجل ذلك. كان وداعه مظاهرة تردد فيها النشيد الذي كانت يتردد في أواخر أيام الدولة العربية: نحن لا نرضى الوصاية، لا ولا نرضى الحماية. عندما وصلت سيارة كرين إلى سوق مدحت باشا استوقفتها أخت شكري العسلي وزوجة عبد الرحمن الشهبندر وهتفتا: عاش الاستقلال! فرددت الجموع هتافهما. وأمام المجلس البلدي هتفت المرأتان للأمة العربية.

بعد سفر كرين اعتقل المشاركون في استقباله ووداعه. فتظاهرت النساء في حي عرنوس ومشين في طريق الصالحية إلى القنصلية الأمريكية ثم إلى القنصلية الايطالية. وهتفن للاستقلال ولحرية السجناء. مررن بسوقساروجا فقطعت طريقهن السيارات العسكرية قرب المستشفى العسكري وفرّقتهن.

في سنة 1923، كتب كرين: سعى الحلفاء في فرساي إلى تنفيذ المعاهدات السرية.. ولم يكن شرفهم مرتبطا بالبيانات العلنية التي حرروا بها شعوب العالم.

كانت العهود في البيان الإنكليزي الفرنسي في 8 شباط سنة 1918: تحرير جميع الشعوب التي ظلمها الترك، وإنشاء حكومات وطنية تستمد سلطتها من الإدارة الحرة لتلك الشعوب وخيارها. وكانت قبل هذه التصريحات عهود بين الحلفاء والعرب وخاصة عرب سوريا. وبما أن وقت إنجاز تلك العهود قد حان، جرت انتخابات في ربيع سنة 1919 في جميع سورية وفلسطين لمؤتمر يجتمع في دمشق. فانتخبت هيأة ممتازة من الرجال من مسلمين ومسيحيين، واجتمع المؤتمر لتأسيس الحكومة الجديدة. إن التنظيم والمناقشات والطرائق العملية والمبادئ التي أعلنت تزهو بها أية هيأة من هذا النوع. وقد انتخب فيصل قائد الجيش العربي الذي اشترك مع الحلفاء، ملكا، وطلب المؤتمر أن تكون سورية متحدة مستقلة وفيها فلسطين، وتمتد من جبال طوروس إلى العقبة، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء.

يتكلم أهل جميع تلك الأنحاء اللغة العربية. وشعبها مختلط بالتزاوج، وبين الأهلين صلات رحم، والتجارة تنتقل حرة في جميع أقطارها منذ عصور. وقد رجا المؤتمر للأسباب نفسها أن يدخل العراق في ذلك..

لا معنى للقول إن هذه الشعوب غير أهل لتحكم نفسها بنفسها. فالكلية الأمريكية، التي هي من خيرة معاهد العلم والتربية، مازالت تخرج لسورية، برئاسة الدكتور بلسّ الأب وابنه، رجالا من جميع الأديان والعناصر، مدربين علما وأخلاقا. كان الشرق منذ أربع سنوات في خير حالة روحية، وكان يشتاق إلى التفاهم مع العالم الغربي، وأثرت فيه المبادئ الأربعة عشرة تأثيرا عميقا كأساس للتسوية. لكن خيانة الحلفاء عهودهم بأفظع طريقة همجية خلق في الشرق كله تيار كره عميق ضد الغربيين.

عندما تحقق الدكتور بلسّ سنة 1919 من الخطر على صحته، وأراد أن يقدم الخدمة الأخيرة للبلاد التي وقف حياته عليها وأحبه الجميع فيها، طلب من الرئيس ولسن أن يحمل الحلفاء على تعيين لجنة منهم لدراسة رغبات أهالي سورية وفلسطين. فوافق الحلفاء إسميا على ذلك. فسافر القسم الأمريكي من "لجنة الوصايات الدولية في تركيا" ووصل إلى بئر السبع في 6 حزيران سنة 1919 وبعد شهرين بلغ حلب وزار نيفا وثلاثين مدينة.. كانت الجماعات التي قدمت له العرائض عارفة ماذا تريد وكيف تعبر عن رغباتها. ركب وفد من البدو ثلاثين ساعة ليصل إلى المكان المعين في الساعة المعينة. وكانت الثقة بالبعثة الأمريكية أعظم ما يؤثر في النفس. لكن خطّط أمر آخر. عندما كان أعضاء

اللجنة يبذلون أقصى الجهد لاستخراج رأي حر من آمال السوريين، أجري كل شيء في باريز لإبطال أعمالهم. بيعت البلاد. نشأ تيار شعور عميق بالكره للغربيين في الشرق كله. إن المظاهرة العمومية التي جرت قبل عيد الفصح في دمشق قد أقنعتني كمندوب أمريكي سابق بالاستياء العميق من الاحتلال الفرنسي. لا حريات للصحافة ولا اجتماعات..

في 4 نيسان سنة 1924 كانت توصيات كينغ كرين، وأحلام بلسّ قد طويت من اللقاءات الرسمية بين الحلفاء. وكان قدري قد شبع موتا. نص الاتفاق الفرنسي الأميركي: تقبل الولايات المتحدة أن تدير فرنسا سورية على أساس المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم المتحدة التي أدخلت في معاهدة فرساي، كنتيجة للحرب. كان الانتداب قد أصبح نافذا منذ 29 أيلول سنة 1923 ..

في سنة 1923 كتبت حكومة روسيا إلى انكلترا وفرنسا وايطاليا معترضة على: "فرض ما يسمى نظام الانتداب على أراضي فلسطين وسوريا. لا تعترف حكومة روسيا بهذا الشكل الجديد من أشكال السيطرة الامبريالية". لكن لذلك قيمة وثائقية فقط. فروسيا الجديدة مشغولة بالاضطرابات فيها وحولها. وما تزال فيها صهيونية قوية. والصراع بين اليهود الذين يرون حل المسألة اليهودية في بلادهم نفسها، وبين الصهيونيين الذين يرون أن الحل في دولة يهودية في فلسطين، لم يحسم بعد! ومع ذلك تمنى قادة ثورة 1920 في العراق في مذكرتهم دعمها السياسي والمادي.

لم يعرف سعيد التفاصيل السرية. لكن رجال المؤتمر السوري الذين قدّرهم تقرير كينغ كرين خمنوها، ومنهم قدري.

على شاطئ البحر في بيروت استعاد سعيد أمام بهاء حديث قدري عن المبعوثين الغرباء. يا بهاء، أليس من العجيب أن يقترحوا للسياسيين الغربيين مصائرنا؟ أصغى إلينا بيل، لكن صلاته باليهود أثارت شكنا. كينغ وكرين مختلفان عنه. بدأ بيل كمخبر موظف، هما أكاديميان يدرسان الحالة التي أمامهما على أساس طلب بلسّ من ولسن. حملتنا الحماسة إلى اللجنة وكنا صادقين في الحديث معها. اندفعنا في الأمل وفي الحلم بدولة تجمع الكفاءات العربية. فاتنا أن الاوربيين الذين ادعوا غيرتهم على "ترقيتنا" لن يقبلوا دولة فيها تلك الكفاءات! بماذا يبررون تدخلهم إذا لم يدعوا تخلفنا؟ أيقنا من تآمر الإنكليز علينا. لكن أمريكا.. ما هذه القارة الجديدة؟ هل كانت أقرب إلينا منها إلى حلفائها؟ هل كان

يستطيع ولسن أن ينفذ مبادئه الأربعة عشرة؟ مهانة أن ينظر إلى العرب كشعب ليس أهلا ليدير نفسه! هل تذكر كيف هتفت دمشق: لا انتداب ولا وصاية!

يا سعيد، منذ اكتشف النفط في جنوب العراق في بداية القرن قال اسماعيل حقي في مجلس المبعوثين: كل شيء في البصرة إنكليزي! كان امتياز الملاحة النهرية لشركة لنتش الإنكليزية. والإنكليز يدعمون تجار العراق اليهود. والإنكليز في الكويت والأهواز يطوقون النفوذ الألماني. وفي لبنان المصالح والمدارس الفرنسية. وللألمان خط بيروت هامبورغ البحري. حسمت الحرب الصراع علينا. من مقدماتها خلع السلطان عبد الحميد الذي رفض أن يبيع فلسطين لليهود، ورفض 150 مليون ليرة إنكليزية ذهبية. بلّغه قراصو اليهودي خلعه، وحرسه اليهود في معتقله في سالونيك! نحن اليوم في بداية صراع طويل! فاحرس روحك يا سعيد، واحرس صحتك! وأضف يا بهاء: وإياك أن تصدق الإنكليز! طمأن كلايتون السياسيين السوريين في القاهرة سنة 1917 إلى أنه بلّغ بلفور خشيتهم من الصهيونيين على فلسطين وبلاد الشام كلها، ورفضهم إنشاء دولة يهودية. أكد لهم كلايبتون أن هجرة اليهود لا تعني حقهم في دولة. كان ذلك سنة 1917 يوم كان الإنكليز يحتاجون العرب في الحرب! ما أبعد ذلك التاريخ!

عندما عادت سعاد إلى طبرية بعد طلاقها من حمدان كانت أحزان وداد قد انتهت وأفراحها قد بدأت. وكانت سيرين قد ألفت وضعها. مسحت وداد وسيرين عن سعاد أثر حمدان يومذاك. لكن هاهو قدري يموت ويغرقهن في الحزن. تلبس سيرين ووداد السواد عليه مثل سعاد. لكن يجب أن يخرجن معها من هذه العتمة!

زارت سيرين أهلها في القدس وعادت بمحفظة من الثياب الثمينة. نشرتها أمام سعاد: هيا نفتقها! نفتقها كي تخيطي مثلها لصاحباتي! وأتت بهن إلى سعاد. قياس الكم.. قياس الخصر.. والصدر.. والورك.. الطول..! غرقت سعاد في الخياطة. يستهلك الجاهل الوقت! صححت شفيقة أخطاء سعاد. انتبهي! تصحح الأخطاء في الخياطة لكنها لا تجوز في التفصيل! قصّي جريدة أولا! قصّي هذه القطعة من الخام أولا، ولنرمها إذا تلفت! تبدأ المتعة بالمهنة بعد أن يتقنها صاحبها! عندما يصبح حرا فيها فيستطيع أن يضيف إليها وأن يغير قوانينها! خلال ذلك قد يخطر له أنه فشل وأنه غير قادر على اجتياز طريقها الطويلة! هكذا خيل لسعاد أنها أسيرة عمل لا تحبه وليست مؤهلة له فجلست حزينة. فاجأتها سيرين وقتذاك!

تفيد سيرين من سمرتها في المزاح. قالت لشفيقة: ذهبت مع وداد إلى طبيب الأسنان. عني بها وتركني. يحب البيضاوات. ظنني عبدة حبشية. لم ير "الأكابرية" على كتفي! أفهمته أني لست جاريتها! فحص أسناني دون شهية. ومن وداد يا ست شفيقة كي أرافقها؟ لا أقبلها جارية!

ضحكت. يبدو أن أحد أجدادي من الحبشة! زرت صديقتي واستبقتني في الليل عندها كيلا أعود متأخرة. تعرفين يا ست شفيقة أني أدخن وأشرب القهوة! سعلت في الليل فأيقظ سعالي الأولاد. سمعتهم يقولون لأمهم: عندنا غولة! لذلك فتحت الباب في الصباح الباكر وخرجت إليك. ولم تقولي لي، من الحب، ماذا أتى بك قبل الشحاذة وبنتها! هكذا صرت يا ست شفيقة غولة! هل تذكرين يا سعاد كم أضحكنا صاحباتنا عندما وقفت خلفك ومددت يدي كأنهما يداك ونحن نسأل الحاضرات ما يجب أن يحزرنه؟ يدان سمراوان ووجه أبيض! لكني يا سعاد أرجوك ألا تختاري زوجا غامق السمرة مثلي كيلا يظنه أولادك غولا!

ابتسمت سعاد لكنها بقيت هامدة. اسمعي يا سعاد! لكل منا هم يغطيه. لكننا

لن نضع الحزن في الجرن ونستمع إلى رنينه! سنفكر فيمن بقي! فليكمل سعيد دراسته حرا!

عدّت سيرين من خطب سعاد: صاروا ثلاثة! اختاري واحدا منهم يا سعاد! هل تكرر شفيقة: عندنا لا تتزوج المرأة إلا مرة واحدة؟! لو قالت ذلك لسألتها سيرين: لماذا يا ست شفيقة؟ حرام؟ عندما خرجت الست شفيقة من الغرفة قالت سيرين: الست شفيقة على العين والرأس، لكنها تريدك أن تكوني مثلها!

قالت سعاد عندما عادت شفيقة مع وداد: من يتردد إذا كانت أسرة الخاطب ذات جاه ومال؟! فردت شفيقة: بنات هذه الأيام لا يصبرن! لو كنا مثلكما لما بقيت امرأة عند زوجها ولما ولدتما! ضحكت سيرين: ليتنا! لو لم نولد لخسرت أمهاتنا عشرتنا الحلوة وبقي لهن علقم آبائنا! لكن أنت لا تندبي حظك يا سعاد! وزنوك بالذهب! وأخذوه يا حبيبتي! لن تنافسيني يا سعاد! أنا لم أر في زواجي يوما يمكن أن أحكي عنه بالخير! والآن يا ست شفيقة قيل لي إن عندي شحم في الرحم! يا وداد، لا تصدقي إلا تورنس! قال لك تورنس: ضيق في الرحم! يسعد بك الرجل، لكن يصعب أن يكون لك أولاد! نسيت ذلك! وكنت قاسية على زوجك! نزل عنده أخوه مدير البنك مريضا. أتى ليستشفي في الحمامات. معه أخته وزوجته وهي بنت خالة السيد الهادي اليشرطي، فلم تتحمليه ولم تراعها! قلت لزوجك سأنزل إلى عكا! فقال لك: أخي في خطر وقد يموت غدا فكيف تتركينه؟ وقال لك: اذهبي لعند الست شفيقة. أتى لعندي وقال لك أمامي: أختي قوية، صحيح. لكنها ربتني ولا أرد ما تريد! أسايرها فسايريها أنت أيضا! ابقي، لا تذهبي إلى عكا! قلت لك أنا أيضا: ابقي يا وداد! لا تسافري إلى عكا! لا ألومه لأنه أنذرك: إذا ذهبت طلقتك! قلت له بوقاحة: طلقني! وسافرت إلى أهلك فطلقلك. كنت تظنينه يمزح؟ آه يا ست شفيقة! ندمت!

انشغلت سعاد عن مصيبتها بوداد. قالت شفيقة: الدنيا دين ووفاء يا سعاد! احتضنتك وداد عندما عدت مهمومة، فاحتضنيها في مصيبتها! انشغلي بها! حق الحي علينا أن نفكر فيه وننسى الميت الذي استراح!

مات أخو زوج وداد في اليوم التالي بعد سفرها إلى عكا. كان يجب أن تتحمل سلفها وأخته ولو كانت أخته كجهنم الحمراء! هل تحضر وداد المأتم؟ أرسلت لها أخته: لا تحضري! لكن فاطمة اليشرطية قالت لها: احضريه! فحضرته. استقبلتها أخته كأنها هي صاحبة البيت. لم تكلمها، فلم يجسر أحد أن يتحدث مع وداد. تفاداها زوجها أيضا. خاف من أخته. فغضبت وداد: لا أريد

رجلا يحتاج إذن أخته ليرحب بزوجته ويقبل تعازيها! عادت إلى عكا. من يغسل ثيابه ويحضر له الأكل ويحنو عليه؟ أخته! لذلك لن يشعر بغياب وداد!

زارت شفيقة زوجة أخيه: وداد مخطئة، لكنها ليست سبب موته كي نغضب عليها! عندك بنات فلا تجوري على امرأة! خراب البيوت حرام! ردت زوجة الأخ: والله لم أحرضه! إذن اذهبي إلى عكا وعودي بها! ردت: لا أستطيع! تغضب أخته!

فهمنا السبب إذن! سافرت شفيقة إلى فاطمة اليشرطية في عكا: يا ستنا فاطمة! المسألة هاهي وحلّها في يدك! أنا عجزت عن حماية من طلبت مني أن أحميها! أمرت فاطمة اليشرطية: أريد نجلاء العاقل! كانت في الزاوية فصعدت إلى الست فاطمة: يجب أن يعود مفتاح البيت إلى صاحبته! الست شفيقة هنا لتأخذه. احترقت نجلاء. قالت لشفيقة: لماذا تريدين أن تعيدي وداد لزوجها؟ ما عندها أولاد تخافين عليهم. وليست صديقتك، ولن تلبسك فروة. تدخلت فاطمة اليشرطية: هذا الكلام لا يقال للست شفيقة. ولا يقال أمامي! انزلي إلى تحت لعند أهلك!

أخذت شفيقة زوجة البستاني والعربجي وسيرين وسعاد لينظفوا البيت لوداد. صار مثل الفلة. قالت سيرين مازحة: لم أره في زمن وداد نظيفا هكذا! هل هذا البريق من النظافة فقط يا سيرين؟ بل من فرح البيت بعودة وداد بعد أربعة أشهر من الغياب! والآن يا رشيد، يا ابني، اذهب إلى عكا وعد بزوجتك! لا أذهب وحدي! لا أجسر! لاحظت شفيقة أن وجهه اضطرب. لو كان امرأة لاحمرّ. أعرف يا رشيد كم هي عزيزة عليك وكم تحبها! تصبر دون أولاد لأنك تعشقها، وتعرف هي ذلك لذلك طمعت فيك! فلنذهب معا إلى عكا. جينا وجينا وجينا، جبنا العروس وجينا، ومن طبرية لعكا سمعوا صوت غنانينا! ضحكت سيرين: "العين تطرقك" يا وداد، كم مرة تريدين أن تزفي؟! شبعت الست شفيقة من الطريق بين طبرية وعكا!

هل دفعت الحياة نفسها سعاد خارج العتمة؟ وشغلتها هموم صاحباتها عن حزنها؟ قالت لها شفيقة ذات يوم: اخرجي لعند سيرين! تنفسي! لا يحب الناس أن يزوروك فقط! ردي لهم الزيارة! خرجت سعاد من البيت ففاجأتها السعة. وجدت في بيت سيرين ودادا والعود في يدها. تركت وداد العود. ولكن من يستطيع أن يخفي أثر الضحك والفرح على وجهه؟ قالت سعاد: سأخرج إذا كنت سأفسد الجو عليكما! وتناولت العود ووضعته في حضن وداد: اعزفي لي! ترنح العود في

يدها. ثم استقامت النغمة. غنت وهي تبكي أغنية من آه يا أنا للشيخ سلامة حجازي. كيف عرفت يا وداد أن هذه آخر أغنية سمعها قدري؟! كيف عرفت؟

شغلت وداد سعاد وسيرين مرة أخرى. لكن ذلك كان تسلية في السر عن شفيقة. تعرف وداد أن زوجها يهواها. لو رأته مع امرأة لما صدقت عينيها! لكنه تأخر في حيفا ثلاثة أيام. وصلها منه تلغراف: انشغلت، لا تقلقي. ولم تقلق عليه لكنها فرصة كي تزور المنجمة! شكت لفطّوم الساحرة: قلبي مثل النار عليه! قال سيغيب يوما فغاب ثلاثة أيام. كتمت سيرين وسعاد ضحكتهما. وتفرجتا على المسرحية التي تمثلها وداد. جلست فطّوم في العتمة. غرفتها رطبة والستائر مسدلة. وأمامها منقل رمت فيه البخور ففاح عطره في الغرفة وانتشر فيها ضباب. هل قرأتهن نظرة فطّوم الذكية ففهمت أنهن يلعبن معها ولذلك ستلعب معهن؟ قالت في مهابة: كتبوا له! قالت وداد: متعلق بامرأة أخرى في مدينة أخرى؟ ردت فطّوم: أنت مرحة والرجال يحبون الضحوك الرضية. لكن لا أمان للرجل! قد يفكر في امرأة أخرى حتى وهو في فراش زوجته!

تناولت فطّوم إبريقا وخرجت إلى حمام مهجور في فناء البيت يخزن فيه الفحم. وقالت كلمات غير مفهومة ونفختها على الإبريق. وقالت لوداد: ارجعي إلى بيتك، سيعود إليك زوجك. قالت لها وداد: علميني ماقرأته ونفخته على الإبريق! لن ينفعك ذلك! لن تطيعك الجن! لكن خذي هذه الورقة وضعيها في إبريق يشرب منه! لا تتركي أحدا يفتحها وإلا صار حنكه فوق أذنه!

قالت وداد: أسقي حبيبي من إبريق نقعت فيه هذه الورقة؟! لا والله! ضحكت سيرين: تسقي بعض النساء أزواجهن بولهن كي يطيعهن الزوج! فتحت وداد الورقة التي أدخل أحد طرفيها في الآخر. قرأت: يا زوبعة يا لوبعة، يا أولاد الجن السبعة، هاتوا ابن حواء أم البشر، أكان واقفا أم قاعدا أم نائما، بحق العفريت الأحمر... ضحكن، ضحكن. متعلمات ونطلب العون من فطّوم الساحرة؟! لم يصبح حنكي فوق أذني! لكنهن اعترفن أن فطّوم الذكية فهمتهن. لعبت معنا كما لعبنا معها!

تنهدت شفيقة وهي تنجز خياطة قميص: وداد في بيتها! لم يعاتبها زوجها بكلمة. وستبقى سعيدة معه، لا يظهر ولا تظهر أنهما يتمنيان الأولاد، حتى يحتل اليهود فلسطين. ستترك يومذاك العود في غلافه الأبيض المطرز. ستترك الريحان الذي تحبه. وشجرة ذات عناقيد من الزهر الأحمر كانت تسميها: المشنشلة! وسيترك زوجها تجارته في حيفا وطبرية التي احتلها اليهود. وسيقول لوداد في

بيروت: يبدو أننا أنفقنا مالنا على السعادة! وسترد: تصورنا أننا سنبقى في بلادنا ولم يكن وراءنا من نخبئ له المال في الشام ومصر! سيتركها عند أهلها في بيروت وسيفردون لها غرفة. وسيذهب ليعيش عند أخته في طرابلس. وسيزورها أحيانا!

عاش محمود، أبو وداد، مع تيريز. أنجبت له ثلاث بنات وصبيا. لكن الصبي لعب في أيام ثورة 1936. قدر الإنكليز يومذاك لكل ضحية من ضحايا الاغتيالات مائة وعشرين ليرة، فكان يعلن الموتى ضحايا ويتقاسم التعويض مع أهلهم. طريقته في مقاومة الإنكليز! خسف الإنكليز راتب أبيه وسرقوا منه مجده أيام الدولة العثمانية، فليدفعوا ثمن ذلك! في الصباح كان يصل الفلاحون إلى بيته حاملين البيض والحليب واللبن. فتوزع تيريز الرزق على الفقراء. وستلجأ بعد احتلال فلسطين إلى أهلها في بيروت لكنها ستعرف الفقر.

ستترك سيرين أولادها فيما بعد عند شفيقة وتقول لها: نازلة إلى أهلي في القدس! توصيها شفيقة: لا تتأخري هناك يا سيرين! فترد: لن أتأخر! وتعرف كل منهما أنها ستتأخر. سيرفض ابنها الأكبر مرة أن يأكل الباميا، وستؤنبه سعاد. وعندئذ ستدخل سيرين. وستضحك: سأتعلم منك أساليب التربية الحديثة! وستلومها الست شفيقة: تأخرت ثلاثة أيام يا سيرين! فترد مازحة: يا خالتي، كدت لا أعود أبدا! وجدت عريسا! وستظل شفيقة تساعد سيرين التي مات زوجها فتحمل أولادها لتوفر لها زيارة أهلها في القدس حرة وخفيفة، حتى تحتل فلسطين.

هل كانت سيرين ووداد وسعاد يكتمن القهر بالفرح والنكتة في تلك الأيام؟ أم كن سعيدات حقا؟ تساءلت سعاد فيما بعد وهي تبحث عن أصحابها بين بيروت ودمشق وطرابلس وحلب. وقالت لنفسها: نعم! رأيت دموع المرأتين مسكوبة، وسكبت دموعي معهما. لكننا كنا في بلادنا!

بعد موت نوري، قررت سعاد أن تتزوج. وكان حمدان يفرش حبه لها من الناصرة إلى طبرية، وينام على عتبتها. وكان وسيما وغنيا، فتزوجته. بعد موت قدري قررت أن تختار رجلا ممن يطلبونها. لتؤسس أسرة ويكون لها أولاد فتعوض بنسلها من مات من أهلها، وتخلص سعيدا من القلق عليها. وكانت ما تزال في ثيابها السوداء.

زارتها مع بنات الطبري امرأة أنيقة متزنة من أسرة الكستي، قادمة من لبنان لتزور الحمامات. تحدثت عن زواجها الأول والثاني كأنها تنصح سعاد. قالت: خطبني رجل قبله أبي. في ليلة العرس كحّلوني بالصمغ كي أظل مغلقة العينين. في صباح اليوم التالي غسلت وجهي فرأيت زوجي. عندما أتى أبي لينقّطني في صباح العرس قلت له: لا أريد زوجي، ولن أبقى معه! رجاني: اصبري كيلا يشاع أنك غير عذراء. أمهليني أربعة أشهر فقط. قلت له: ولا يوما! فاتفق مع زوجي فطلقني بعد أسبوعين، ورجعت إلى بيت أهلي. بعد سنة قال لي أبي، يطلبك ابن بيضون. قابليه لتقرري هل توافقين عليه أم لا. وأنت مسؤولة عن قرارك! قابلته وحدي. طلبت أن أراه مرة أخرى. عندما طلبت لقاء ثالثا قال لي أبي: معنى ذلك أنك تريدينه! تزوجته، ومازلت أعيش معه! فحصت شفيقة ضيفتها اللبنانية. تريد أن تبذر التمرد في بيتي؟ لا ينقص سعاد ذلك الدرس! قالت: هذا يمكن أن يحدث عندكم في لبنان، في فلسطين صعب! ردت سعاد: الصعب يا خالتي أن تتزوج شابة رجلا لا تريده! قالت سيرين: يا ست شفيقة، رأيت شابة وضعوا في حضنها منديلا يوم العرس، وقالوا لها لا تحركي نظرك عنه! فبقيت المسكينة مخفضة البصر لا تنظر إلى العريس! هذا عدل؟

لم تنتظر سعاد الضيفة اللبنانية لتعرف كيف ستتزوج! بالأمس طلبها من الست شفيقة رجل تخرج من المدرسة الأحمدية في عكا، وعين معلما براتب ثلاث ليرات. قالت له شفيقة: يا ابني، معاشك لا يكفي ثمنا لحنة شعر امرأة. لا تطمع في سعاد أبدا! لكن سعاد قالت لها: في المرة القادمة لا تجيبي عني! صالت سعاد وجالت، ما شاء الله، دون رأي شفيقة! كانت تدرّس ابن الطبري الصغير، وعمره اثنتا عشرة سنة. فقال لها: نحبك يا ست سعاد! يعني بيت الطبري؟ قال وأخي أيضا! ليتك تتزوجينه! قالت: لا أتزوج شابا على رأسه لفّة! يناسب أخاك أن يكون خطيبا في جامع لا خطيبا لي. في اليوم التالي سألها الصبي: ألم تري أخي في

الكوفية والعقال؟ ضحكت سعاد ووصلت ضحكاتها إلى شفيقة. فهل تستطيع أن تردها؟! استقبلت شفيقة عازر، رفيق سعيد في المدرسة. أتى يطلب سعيدا أم يطلب سعاد؟! كان أبوه مزارعا في الشجرة، وأنزله في بيت يوسف في حيفا ليتعلم، فبقي مع سعيد حتى دبّر له بيتا. قال لها عازر: أحمد الصفدي يطلبك، ويلحّ! قال لي، لن تتزوج غيري ولن أتزوج غيرها! قابليه! قالت: سأقابله عند سيرين! التقت به هناك. ارتجفت كفه وهو يصافحها. سألته: من يملك الثقة بأن امرأة له إذا لم تقل له ذلك؟! ارتجف! اسمع، لا تفكر فيّ، لكني أنصحك، لأنك رجل متعلم ومهذب، بأن تتزوج بنت الحاج خليل. بعد بنات الطبري لا يعلو عليها أحد! يهمك أمري إذن يا ست سعاد! سأنفذ وصيتك! رجعت سعاد من بيت سيرين راضية. ستصادفه في دمشق بعد عقود من الزمن وهو ذو أولاد وهي كذلك، وستهديه أزرار قميص ذهبية تعتز بها. وستقول في ذلك اليوم: يا بنات احفظن كرامة الرجل الذي يحبكن! احترمنه. واحفظنه صديقا للدهر، فالحب يطير لكن صداقة الرجال كالقرش الأبيض لليوم الأسود! وستسأل: سمعتني يا ليلى؟! فترد ليلى: أعرف ذلك! فتعلق سعاد ساخرة: تعرفين ذلك وأنت بعد في العاشرة من العمر؟!

تابعت شفيقة جولات سعاد كلها. نادتها لتعود من الحديقة كلما خرجت إليها دون ملاءة. لم تجهل أنها ذهبت مع سيرين ووداد إلى المصور "فأخذ" لهن صورة عدن بها كمن يحمل كنوز الدنيا. بعد تلك المقدمات الطويلة شعرت شفيقة بالعجز. لن تستطيع أن ترد سعاد عن مقابلة عبد الرحيم! قالت سعاد: اسمعي يا خالتي، سأراه ويراني وحدنا! أتمنى ألا تقطعي ذلك بعصير البرتقال وشراب الليمون! وأتمنى ألا يجلس أولاد خالي معي، وألا ترسليهم ليطلبوني! هربت الدنيا من قبضة شفيقة! فلتقابل سعاد عبد الرحيم! ولتتزوجه، ولتسترح منها شفيقة!

جلس عبد الرحيم أمام سعاد. يفحصها أم تفحصه؟ ملأ نظره لونها وبريق شعرها الذي تلامح من طرفي منديلها الأسود. قريبه القاضي محق في الإعجاب بهذه الشابة! عرض لها ما لديه: بيت في صفد، ورثه مع أخيه. ومكتب. وأم عاجزة تقريبا. ستكون سعاد في بيته معززة مكرمة! ضحكت سعاد بينها وبين نفسها عندما عرفت أن أخاه هو الرجل الذي انتقد سهرات سعيد في إربد، فسعى سليمان باشا السودي لفصله. ما أصغر الدنيا! قالت لعبد الرحيم: أمري بيدي. لكن أرجو أن تقدر لماذا لم أطلب أخي ليكون حاضرا اليوم! وألا تتصور أن المرأة التي فقدت أباها وخالها ضعيفة! رد: نحترم الحزن يا ست سعاد! ولا نلاحظ غيره! كان قدري صاحبنا في المؤتمر السوري! سجلت سعاد لجوابه علامة كبيرة.

وسجلت علامة أخرى لأنه قال لها: صفد ضيقة على من عاشت في حيفا وبيروت! لكن لعل اللقاء طمأنه فسقط. قال لها: اخلعي ياست سعاد الثياب السوداء! التفتت إليه كمعلم حازم: قلت إنك محام! فهل هذا أسلوب يوصلك إلى كسب القضايا؟ الثوب الأسود حداد على رجل أعز علي منك. فكيف تطلب أن أخلعه لأجلك؟ إذا كنا سنبدأ من هنا فانصرف في طريقك! شتم عبد الرحيم نفسه "مجنون، تكاد تضيع هذه الجوهرة"! أطرق واعترف: مذنب! اقبلي اعتذاري عن الفجاجة!

تعلم يا عبد الرحيم كيف تخاطب سعاد! قررت أن تتزوج رجلا لا تشقى معه، فإياك أن تبدأ كرجل سيشقيها! عاد بعد أيام إلى ما كاد يبعدها عنه، مفسرا: لا أشترط عليك شيئا يا ست سعاد، لا الآن ولا في المستقبل. لكن أرجوك ألا تدخلي صفد بملابس سوداء كأن الزواج مني يحزنك! مع ذلك أنا تحت أمرك. ما تقررينه سينفذ! تأملته. فحصت الصدق في كلامه. وقالت: إذن سألبس ثوبا نيليا!

قبل زواجهما استأجر عبد الرحيم سيارة ركب فيها إلى جانب السائق، وركبت سعاد في المقعد الخلفي مع شفيقة، ليعرض لهما بيته في صفد. واجهت سعاد بعد الباب نافذتان في كل منهما يمكن أن تمد سجادة. ما أعرض الجدران! زجاج النوافذ الملون من استنبول. على طرفي البهو غرف. في الطابق الأول على الطرفين مكتبة، ستنقل إسرائيل كتبها، بعد الاحتلال، إلى الجامعة العبرية. إلى اليسار غرفة واسعة ذات أربعة أبواب، واحد يوصل إلى المطبخ، وآخر إلى الحمام، وآخر إلى الخدم والطباخين، وآخر إلى المؤونة. جميعها غرف واسعة. في المطبخ موقد يمتد على طول الحائط. وفيه خزانة للحطب. وللمطبخ باب يطل على الحديقة. في الحديقة موقد وحلة للغسيل. قال عبد الرحيم: هندس البيت لأبي مهندس من استنبول. لكن الاحتفالات بالبناء جرت على طريقتنا. والبناؤون أبناء البلد. احتفل أبي وأصحابه باليوم الذي سكبوا فيه الطوبار. الحجارة الرقيقة التي يقوم عليها البناء. ثم بنوا القناطر العقد. دقوا الرش في أسفل الحائط، سميكا جدا، ومدوا فوقه سجادة بعد سكب الطوبار. انتظروا ثلاثة أيام أو أربعة وقالوا مضت على خير. ضبط الطوبار! وذبحوا الخرفان. ترين الحائط عريضا عند النوافذ لأن أبي بالغ في سمك الجدران. وأكثر من الخزائن في الحيطان. اليوك عريض أيضا. في الحديقة بئر جمع مبني تحت الأرض. قياسه ثلاث عشرة حصيرة. والأقنية مسلطة على البئر، وللبئر باب ومضخة.

سألته سعاد: سنعيش في هذا القصر؟ أين الخدم والحاشية إذن؟ ابتسم! ورأت

أنه فرح لأن البيت أعجبها. لكنها فكرت لما سمته قصرا بمشروع أكثر سعة من السكن.

قررت سعاد اليوم الذي ستنتقل فيه إلى صفد. طلبت عبد الرحيم وقالت له: غدا! استأجر سيارة نقلتهما مع حقيبة ثيابها ووسائد من الريش وشراشف مطرزة. رتبت سعاد سريرها بنفسها وأطلت من نافذتها على جبل الجرمق. وفي ذلك المساء جلست إلى أم عبد الرحيم، وتعشت معها. وأعجبها أن زوجها لم يحدثها عن الحب. رأت حبه في صمته وتهيبه. يكفيها ذلك!

زارتها نساء البلد. لم يجسرن على تهنئتها وهي تلبس الثياب النيلية. فدعونها إلى اجتماع. سمي ذلك التجمع اتحادا نسائيا. من النساء فيه؟ زوجات عائلات الأسدي والنحوي والحاج عيسى والخضرا. الصبايا؟ لا! الصبايا في انتظار الزوج الذي سيحدد مسار زوجته. نظرت إليهن سعاد معتدة بأنها سترسم مسار حياتها إلى جانب عبد الرحيم وأحيانا أمامه. ستخطف منه مشروعه كأنها هي التي اختارته قبله! تحدثت النساء عن الاستيطان وعن المهاجرين اليهود، وعن اجتماعات القدس. عندما شربن القهوة قالت سعاد: البيت دون امرأة قوية لا يقف على قدميه، والبلاد مثله! تشاركها سلفتها ذلك الايمان! أليست هي حاكمة البيت؟ لا يخرج الرجل عن "شورنا"! لكن كلمة رجالنا في البلاد هي الفصل! نظرت سعاد إلى خضرا. فلتهنأ ببيتها! وقاست خضرا ما يميز سعاد عنها: تحكي عن البلاد كأنها زعيمة! نقل زوجها ذلك إلى عبد الرحيم. فسألها مازحا: عندك مشروع لتأسيس حزب؟ فهمت سعاد مسار الخبر. خضرا التي تفحصها وتزنها! خضرا الماهرة في الكلام إذا اجتمعت بخمس نساء، الصامتة إذا تجاوز عددهن عشرا! يا عبد، لن أؤسس حزبا في صفد، كيلا تكون من أعضائه الست خضرا! "التقطتها على الطاير" يا سعاد؟ قوة خضرا في سندها الصفدي، يا عبد! أنا بنت بلاد الشام! ولدت في حيفا وعشت في طبرية وتنقلت بين دمشق وبيروت وإربد وسمخ وقلقيلية. وهل يغيب أهل أمي وأبي من عكا ودمشق ومصر؟ في الناصرة كنت، يا عبد، صغيرة وسجينة. لكني اليوم كالصفديات!

جرت سعاد مع النساء. هن باطن ما تراه العين من البلد! تقدّر شطارتهن وجمالهن، وتزن ما يمتع في رواياتهن وما يوهنها! تفهم سعة عالمهن وضيقه. إذا خرجت عنه خرجت عن المدينة. وإذا غرقت فيه فقدت. لذلك ستستمر في تقاليد أسرتها!

اختارت سعاد جزءا من البيت مكتبا لعبد الرحيم، وجزءا للسكن. رددت

مرات: هذا ليس بيتا! هذا سرايا! ورأت أن يؤجر دارا للبلدية. عينت ماذا يجب أن يرمم فيه. راقبت النجارين، ودللتهم بالطعام. عوضت الزجاج الملون المكسور بمثله من الشام. أنفقت على البيت ألفا وخمسمائة ليرة فلسطينية. أعادت إليه مجده! وهل كان يمكن أن تتنبأ بأن تلك "السرايا" سينسفها الإنكليز؟

ستتذكر سعاد زيارتها الاولى البيت، يوم ستقابل حاكم اللواء الإنكليزي. ستقول له: كلف البناء ملء الحضن من الذهب! وسيرد: كلفنا "قازانات" طيران كي نستطيع نسفه! أنذرنا أصحاب الدكاكين حوله وهرب أصحاب البيوت المجاورة. وكان ذلك في سنة 1938 وعبد الرحيم في المعتقل.

تبينت سعاد أن زوجها مثل خالها! نعم، السياسة عمل وطني، تطلب أن تنفق عليها يا عبد الرحيم! يمكن أن يجمع المحامي ذهبا، لكن يبدو أنك تكافأ بالدجاج والبرغل! لذلك لابد لنا من مشروع! خططت سعاد أن تزرع التبغ. قالت: هذه الأرض تشبه جبل لبنان! واهتدت إلى يوناني وزوجته. استأجر لهما عبد بيتا قرب بيته. بدأت زراعة التبغ وبدأ الحديث بالتركية! قالت خضرا: هذه العاقلة أتت بالدب إلى كرمها! فتساءلت سعاد: من الدب ومن الكرم؟!

ثم رأت سعاد أم يوركي جالسة مع عبد. يتحدثان بالتركية عن التبغ. الله معهما! ولكن أين أبو يوركي؟ في المرة الثانية صادفت أم يوركي تحمل فنجان القهوة لعبد: خذ من يدي! عندك وقت لهما، يا عبد، مع أنك لا تبالي بالتبغ! في المرة الثالثة سألته: من أي باب تدخل المدام؟ قال: من باب الحديقة! فتناولت المفتاح ورمته في البئر: أنا صاحبة المشروع، ولتدخل أم يوركي من الباب أمام الناس! هل تذكرت منور ذلك يوم قالت لليلى: تظنين أن أزواجنا وصلوا هكذا؟ لم تربهم أمهاتهم فقط، نحن ربيناهم!

هل كدّر غير ذلك حياة سعاد في صفد؟ كانت محظوظة بأم زوجها. مهذبة على الطريقة التركية، لكنها تحتاج من يمشطها ويطعمها ويغسلها! ليس ذلك مصيبة! المصيبة تشرتشل! وصلت منه رسالة إلى عبد الرحيم ردا على رسالته! يوم زار تشرتشل القدس قابله عبد الرحيم مع وفد من أهل البلاد، ذكروه بوعود الإنكليز للعرب بالاستقلال، وقالوا له الهجرة اليهودية خطرة على البلاد، وقالوا له يعني الانتداب الوطن الصهيوني. وهاهي رسالته إلى عبد الرحيم تكرر ما قاله للوفد العربي في لندن! يقال من الإنكليز لا تأخذ حقا ولا باطلا! فلنقل اليوم بل تأخذ باطلا فقط! غرقت باخرة فيها مهاجرون يهود فقيل أغرقها الإنكليز ليرضوا العرب. وقيل أغرقها اليهود كيلا يعود المهاجرون إلى اوروبا، وكي يكون لهم

قميص عثمان! لكن الهجرة استمرت إلى فلسطين. فكتب عبد إلى تشرتشل، كما كتب إليه آخرون ممن قابلهم. رد تشرتشل ورأت سعاد رسالته وتفرجت على توقيعه. وحفظت الرسالة كمستند على المراوغة! يوم ستقول لها بنات أحمد العكي تركنا المصاغ في الخزانة الحديد وتركنا فيها أموالنا! ويوم سيقول لها الدكتور زحلان إن زوجته دفنت حليها من اللؤلؤ والألماس تحت القرنفلة، وحليها الذهبية تحت الوردة! ستتنهد سعاد: أخذ اليهود بلادا؟ أخذوا حليا ومالا ومؤونة ووثائق! بقيت صوري، وقصائد سعيد، ورسالة تشرتشل إلى عبد الرحيم، في بيتي في عكا. وأقلها أهمية رسالة تشرتشل!

ألنا وجهان يا سعاد، أحدهما لا يراه سوانا والآخر بين الناس؟ اعترف سعيد لنفسه بأن بنت كرامي تعجبه واعترف لنفسه أيضا بأنه يخشى الزواج منها! ابتعد! وصل إلى إربد وخرج منها مع مجموعة رجال قاصدين سلطان باشا الأطرش. كسرت سنة 1922 الوهم بأن استقلال جبل الدروز خصّه بامتيازات حرمت منها سوريا، وأن مصيره ينفصل عن مصيرها. ظلم ضباط الانتداب الجبل، والجبل ليس كدمشق يكمن منتظرا البرهة المناسبة ليوجع عدوه! لم يحترم الفرنسيون تقاليد الجبل. فاعتقلوا أدهم خنجر أحد المتهمين بالهجوم على غورو. كان في طريقه إلى مضافة سلطان باشا. قيل إن أم سلطان صرخت: عجزت مضافتك عن حماية ضيفك! رفض الفرنسيون أن يحرروا أدهم خنجر. فهاجم سلطان باشا المصفحات التي أرسلت لتنقل الأسير إلى دمشق. اجتاح الفرنسيون القريّا. نهبوا القمح والمؤونة ونسفوا بيت سلطان باشا. وأذاع كاترو منشورا في تموز إلى سكان جبل الدروز: إن الأفّاق سلطان باشا في عصيانه على فرنسا إنما يمهد الخراب النهائي لبلادكم.. احذروا أن تربطوا مقدرات قضيتكم بقضية سلطان الخاسرة.

عاد السلام، فدخل الثوار مع سلطان باشا إلى السويداء في موكب مهيب. وهاهو سعيد يقصد القريّا مع المهنئين القادمين من طبرية وإربد وعجلون. توقفوا في السويداء. بلد من الحجر الأسود، في مركزها ساحة فيها دار الحكومة والقلعة التركية التي يحتلها جنود فرنسيون. عبرها سعيد إلى حارات السويداء. حارات ضيقة، تطل عليها سطوح البيوت. تنفتح البوابات ذات القناطر على باحات فيها خيول وماعز ومعالف من الحجر. استقبلهم علي عبيد، أحد زعمائها، قرب بابه. رجل نحيل يلبس عباءة سوداء، معمم بعمامة بيضاء. جلسوا على مقاعد عليها مساند وأمامهم وسط الغرفة حفرة توهج فيها الجمر. القهوة على المنقل. لا يمكن أن يخرجوا من بيت المضيف دون غداء! دخلوا إلى غرفة الطعام ذات العقد. قدمت لهم مناسف في أطباق من النحاس. ووزع عليهم خبز الصاج الهفهاف.

ركبوا الخيل إلى القريّا. هذا هو البيت الذي نسفه الفرنسيون! بعض الغرف في طرفه ما تزال قائمة! بقيته أكوام من الحجارة. لم يرممها سلطان. قال: البيت الذي لا يستطيع حماية ضيوفه لا يستحق أن يبنى! استقبل إخوة سلطان الضيوف. هذا مصطفى الذي سيقتل في أول معركة مع الفرنسيين. وذاك علي الذي سيجرح. في الساحة حوض حجري يصل إليه الماء بقسطل من نبع. قصدته

بدويات استقين منه. بدا سلطان وفرسانه قادمين من بعد. استمع سعيد إلى حوافر الخيل. ثم تأمل المجموعة التي اقتربت. فرسان ذوو ضفائر، وعيون مكحلة، تتصالب على صدورهم أحزمة الخرطوش، يحيطون بسلطان باشا، الذي يلبس عباءة سوداء وكوفية بيضاء. هزجوا: نحنا بني معروف نرعى الجار لو جار، نهوى المزند فتيلك ما نداريه، وسيوفنا الحدب تبري كل زنار، وسلاحنا لو صدي بالدم نجليه.

أدهش سعيدا التناسق بين الأهزوجة وبين منشديها. لم تكن نشيدا تعلموه في مدرسة، بل كلمات عرفوها منذ تعلموا الكلام. وكأنها صوت الصخور والبيوت الحجرية السوداء. وبدت له ملابسهم وبيوتهم وعلاقات القربى والعادات منظومة تواجه الفرنسيين. لذلك يتجاوز الصراع بينهما الصدام بين قوى محاربة في معركة.

قدم الطعام في غرفة سليمة فيها أكوام من الصناديق والستائر التي نجت من النسف. ورأى سعيد على الجدار صورة ذوقان، أبي سلطان الذي شنقه العثمانيون سنة 1912. اقترب سعيد وتأملها. أكان يتوقع أن يستعيد أخاه نوري في هذا المكان؟! شاهد نوري إعدام ذوقان وهجر بعد ذلك دمشق والدراسة ولجأ إلى العمل في الأرض! فهل يشبه رجل الصورة الذي يراه سعيد الآن ذاك الذي رآه نوري؟ أم جلّل ذاك غبش الفجر وكمد الظلم؟ وهل تبقى ملامحنا نفسها في الفرح وفي الشقاء؟ مع ذلك ما أعجب أن نرفض الموت بهذه القوة رغم انتصاراته التي سجلها! فذوقان بدا حيا أكثر مما لو عاش حياته حتى نهايتها. حيا كما ثبتته الصورة، وحيا كما كان هناك في ساحة المرجة. وكأنه فاض فوهب ابنه سلطانا المهابة التي تأسر من ينظر إليه. رأى سعيد فيه أكثر مما يبدو في رجل متوسط الطول، حليق الذقن، فاتح العينين. وتساءل هل مهابته من تواضعه، أم من مداه خارج هذه القاعة؟ أهو من الذين يستطيعون أن يخفوا الحزم والحكمة بتواضع من لا يحب الاستعراض، لكنهم يجلون قواهم الروحية كلها وقت الحاجة!

نام سعيد تلك الليلة على فراش نظيف. أيقظه مبكرا هواء الجبل. راقب من نافذته السماء وهي تزرق في بطء. وابتعد عندما غمرها الضوء وتبدد اللون الوردي. لماذا خيل إليه في صفاء الفجر أنه يسمع هديرا بعيدا؟ تلفت. كل شيئ هادئ رائق حوله. أيمكن أن يكون هذا هدير سنوات قادمة؟! وضع كفيه على أذنيه وأغمض عينيه.

رافق الفرسان الضيوف إلى خارج القريّا. أنعش سعيدا ذلك الموكب. واستمتع

بركوب الفرس. بدا الأفق أخفض من مستوى نظره. كم أضاع الناس بالمدن إذن يا سعيد! أضاعوا براءة الفلاة الواسعة! صعب أن تقنع هؤلاء الفرسان بأن الدبابات والطائرات أقوى منهم! وربما كان قتالهم، أيضا، لأن هذه الفلاة والسماء الحرة تهان بقوة عسكرية تستخف بها، وتضع سطوة قاسية رمادية فوق سطوتها. لفحه النسيم ورفرفت الكوفيات حوله. قال لنفسه: لكل بلد روحها! لم يع ذلك من قبل كما يعيه الآن في الجبل. ما أغنى هذه البلاد! ما أجمل هؤلاء الفرسان، وهذا الفضاء!

وصل مهنئو سلطان باشا إلى بيت حسن الأطرش. فرأى سعيد قلعة مفروشة فرشا دمشقيا وغربيا فخما. ونام هناك على سرير. أهذا هو الرجل الذي نظم ثلاثة أفواج من المحاربين ساعدت الحلفاء خلال الحرب العالمية، وقدم لهم مئات الجمال المحملة بالحبوب؟ يا ليته لم يقدمها!

قالت منور لسعيد عندما رجع إلى بيروت: مشرد بين فلسطين وبيروت وشرق الأردن لأنك دون زوجة! بنت المملوك حلوة! قال مداعبا: لأن أباها يتصرف بأراضي الحرش؟! لا أحب هذا المزاح يا سعيد! عرض على بهاء أن يأخذ أرضا، للمستقبل. ورفض بهاء عرضه. قال له: في أيام الحرب لم نبع ولم نشتر فهل نفعل ذلك اليوم؟! تنهد سعيد. قلبه في مكان آخر! ليعترف لنفسه: بعد إميلي، النساء سواء! يميل إلى أقربهن منها لكن ذلك يوجعه، لأنه يقيس الفرق بينها وبينهن. لذلك رجح الشفقة، وقد يرجح غيرها غدا! بنت كرامي يتيمة، بلع أهل أبيها ماله بعد موته. أشفق عليها. يصعب عليها أن تتحمل الفقر. جميلة جدا، لكن منور تقول إذا زاد الجمال عن حده نقص. وهذه الشابة زاد جمالها فلم تعد تعرف ماذا تفعل به. مشى سعيد قرب البحر. هاهو يعود إلى ما هرب منه! لا، لا تبرر له الشفقة أن يتزوجها! وضع في ظرف مالا وأغلقه وطلب من البوسطجي أن يوصله إليها. وعاد إلى البحر. لن تعرف ممن! تعوض يا سعيد عن هربك؟ لماذا تركتها تمدّ الحلم بك؟ لماذا باحت نظرتك بما يمتنع لسانك عن التعبير عنه! أأنت من الرجال الذين يعز عليهم ألا يكشفوا ولههم لشابة جميلة!

طلب سعيد من منور أن تزورها. أريد أن أطمئن عليها! يكتفي بوصف منور الآن، بعد الزيارات التي كان يجلس فيها متعبدا جمالها! تستنفر الشفقة كرامة النبيل! قالت الشابة لمنور: لم نقبل حتى اليوم صدقة بل كنا نحن الذين نؤديها! الدهر دولاب، يوم لنا ويوم علينا، ولعل هذا ما يخفف عنا! يا منور خانم أرجوك أن تعطي هذا الظرف لسعيد بك! وقولي له، في الدنيا أمور لا تعوّض! عض

سعيد شفته وهو يتناول الظرف من منور: نعم، يا منور! قد أكون ضيعت ما لا يعوّض! يا سعيد، بدا لي أن بنت كرامي تخاف جمالها! لكنه لم يسمعها.

تنهدت نفيسة: يا إبن الكحال، استراح خالد آغا! لم ير هذه الأيام! قسموا سوريا، وأخذوا منها البقاع. وصار جبل الدروز دولة! فوق ذلك، نزل بلفور في دمشق! رأيت الشباب يضربون فندق فيكتوريا بالحجارة. ورأيت الجرائد بيضاء في إطار أسود! هرب بلفور من طريق بيروت! لكن ما أقل ذلك! محظوظ خالد آغا، لأنه لم ير هذه الأيام! يا نفيسة، لا يصح إلا الصحيح! جبل الدروز الذي جعلوه دولة، بركان! يبدو أن السياسيين يحضرون ثورة! اجتمع رجال من الجبل ورجال من دمشق في بيت الشهبندر. سألته: لماذا لم تخبرني؟ قال: عرفت أمس فقط التفاصيل. كبرت المسألة! أرسل الدروز وفدا إلى سراي ليحتجوا على كاربييه. رفض استقبالهم وتلك إهانة للجبليين! اشتبكت المظاهرات في تموز في السويداء مع موريل، "زلمة" كاربييه. ضربوه فجازاهم بغرامة وبهدم بيوت. طلب سراي وفدا منهم، حضر الوفد فاعتقله ونفاه إلى تدمر. هكذا رمى الضباط الفرنسيون بحمقهم الحطب في النار!

أوصل إبن الكحال لنفيسة أخبار أول معركة بين الدروز وبين الفرنسيين في الكفر في 22 تموز. في المرة الاولى أوصل لها خبرا عاما. وفي المرة الثانية نقل لها التفاصيل واحتفلا بعشاء و"دق" طاولة تركت نفسها تخسره. أكد لي أصحابي، يا نفيسة، أن من نجا من الفرقة العسكرية الفرنسية هو فقط "المخبّر"، فصدق المثل! المعركة كارثة للعسكريين. القتلى مكومون في الكفر! قتل أخو سلطان باشا. أخذ سلطان باشا قيادة الثورة بجدارة! الجبل الآن مركزها. لذلك اجتمع الشهبندر وحسن الحكيم وجميل مردم ونزيه المؤيد وغيرهم وتسللوا إلى الجبل. سجلي: في آب اللّهاب وصل إلى سلطان باشا الشهبندر وحسن الخراط!

دوت أخبار معركة المزرعة في بلاد الشام. هرع إلى سورية الضباط المهزومون في ميسلون، ورجال الدولة العربية المقهورون بها وأبناؤهم. هل تلامح الحلم بدولة عربية ينطلقون إليها من الجبل؟ تؤهل لذلك جلافة الضباط الفرنسيين، وتضاريس الجبل، وتقاليده العربية في الضيافة، وشهامة رجاله، ونفوذ سلطان باشا الأطرش. وصل إلى الجبل حسن الحكيم وسعيد حيدر من زحلة ووادي العجم! وصل من حماة بطريق شرق الأردن منير الريس ومظهر السباعي يحملان وثيقة من زعماء حماة اتفقوا على الثورة! وصل فؤاد سليم من مصر عابرا صحراء سيناء وفلسطين وسورية! جاء مصطفى وصفي متطوعا من الشام عن طريق مصر

فعمان! وأتى من العراق أحمد مريود وأصحابه! وصل سعيد العاص! الرجال الذين سيقول بهاء لمنور إنه كان محظوظا بمعرفتهم!

اتفقوا على الهجوم على دمشق. لكن حملة غاملان على حوران وجهتهم إليه فكانت معركة المسيفرة. هل كانت المسيفرة هزيمة أم انتصارا؟ كلاهما! انتصار لأن الثوار تبينوا شجاعتهم وعزمهم، واندفاع رجالهم. ولأن قيادتهم امتحنت مهارتها. وهزيمة لأنهم تفرقوا قبل الانتصار. هل كان أهل الجبل يحتاجون وحشية المحتلين الذين هدموا البيوت وقطعوا الشجر ليتبدد آخر وهم بالدولة الدرزية؟ جمعت المعارك والاشتباكات أبناء سورية. رأى سعيد العاص وفؤاد سليم أن الثوار يستطيعون أن يسقطوا طائرات فرنسية ويتسلحوا بما يكسبونه من سلاح عدوهم! وسحبت ثورة حماة قوات غاملان إلى الشمال. فاجأ القاوقجي من تصوره ضابطا في جيش فرنسا! تمردت حماة في 4 تشرين الأول. ليته كان قائدا عسكريا وسط بنية سياسية منظمة تحكم المنطقة الوسطى، لابين زعماء ووجهاء يحكمون رجالهم! ربما فهم الوجهاء أن الثورة العامة ليست ناضجة! وربما أخافهم قصف الطائرات التي رمت قنابلها على الحاضر! قيادة سلطان باشا التي أبلغها بثورته بعيدة عنه! توهم القاوقجي أنه يستطيع أن يعتمد على البدو. لكن ولاءاتهم ليست مستقرة! مع ذلك تستمر الثورة!

انتبهت منور إلى الهمس بين بهاء وبين سعيد منذ كان يأتي في زيارات قصيرة أيام الحرب العامة. تفرحها الصداقة بينهما! لكنها لم تعرف إلا بعد الحرب أن بهاء يسّر تهريب القمح من الجولان إلى لبنان يوم كانت تتهمه بأنه مشغول بالسهرات مع الضباط الأتراك. سأله سعيد: يا بهاء لانبوح لمنور بأسرارنا الآن أيضا لأننا لانثق في النساء، أم لأننا لانريد أن نحملهن ثقلا نخصّ به أنفسنا؟ رد بهاء: لماذا أعذبها؟ مع أني أعرف أنها لن تسامحني أبدا! رأيتها تزور فاطمة المحمصاني، وعرفت أن فاطمة أخرجت الأوراق من مخبئها في الضريح وأحرقتها كيلا يهتدي إليها جمال باشا، لكني صمت. فلتمش منور طريقها وحدها في ظلال تلك النساء! فهناك شيء من الأمان. لنا نحن لا رحمة في الخطر! ومع ذلك، محظوظ من لا يخبو قبل أن تنتهي الحياة!

يتخفى سعيد عن منور بسهراته ومرحه. لكن هل يستطيع أن يتخفى بها عن الفرنسيين؟ أتى هذه المرة عابرا العرقوب. لكن كيف يمكن أن نساعد من لبنان الثورة السورية. التقى بتوفيق البيسار وبالشيخ محمد الجسر وبعارف ابراهيم. يابهاء، لحقني اليوم رجل من "التحري" حتى بيتك!

عرف بهاء من سعيد أن الرسائل وصلت إلى الضباط العرب في مصر والحجاز وبيروت كي يشتركوا في الثورة السورية. عبر فؤاد سليم الصحراء من مصر، وصل إلى فلسطين وساعدناه، والآن هو في سوريا. استقبل سلطان باشا الأطرش، وعادل أرسلان، والشهبندر، وأحمد مريود الذي عاد من العراق. ووصل إلى القريّا عز الدين الجزائري. ومن أعدّ لك من رجال الدولة العربية ورجال المؤتمر السوري! عبروا الصحراء من العراق إلى شرق الأردن ومن مصر إلى فلسطين، ومنها إلى سوريا. يعود من أخرجتهم حكومة رضا الركابي بعد ضغط الإنكليز الذي ألغى حكومة رشيد طليع، عابرين شرقي الأردن وفلسطين سرا. لولا حملة عبد الرحمن إرشيدات وسليمان باشا السودي يومذاك لسلم الإنكليز أحمد مريود للفرنسيين. خذ اقرأ نداء قائد الثورة السورية! "يا بني الوطن، ليس لكم بعد الآن على اختلاف المذاهب والفئات إلا عدو واحد هو الحكم العسكري الجائر والاستعمار الأجنبي.. فقايد جيوش الثورة الوطنية السورية يطلب إلى كل العرب السوريين إعلان الإخاء الوطني بين كافة الطوايف.. وقيام الأحياء في كل مدينة بصيانة الأمن الداخلي"..

طالت سهرة سعيد وبهاء في تلك الليلة. كيف سيعلنان لمنور أنهما يجب أن ينتقلا إلى دمشق؟ في الصباح لمحت منور حيرتهما. والتقطت غمزة من بهاء لسعيد. تركتهما لتحضر القهوة. ورجعت تحمل فنجانا واحدا على صينية من الخزف ذات قبضتين من الفضة. لمن منهما؟ ليس لهما! جلست وبدأت تشرب القهوة وحدها. تبادلا النظر. ماذا يعني ذلك؟! سألها سعيد: لا قهوة لنا؟! قالت في هدوء: فليحضّر لك بهاء القهوة أو فلتحضّرها له! تعلن منور إذن أنها كشفت تآمرهما. يجب أن يعلنا لها قرارهما قبل أن تعلن العصيان. قال بهاء: نرى أن ننتقل إلى دمشق.. لأنها الآن أفضل من بيروت. ما رأيك؟ سألته: تطلبا رأيي أم تعلنا قراركما؟ قال سعيد: تعرفين أن رأيك مهم! ردت بهدوء: إذن سأفكر في الأمر، لكن ليس الآن. بعد شهر أو شهرين وربما ثلاثة! وقف بهاء: لا، يجب، يعني نحتاج أن نعرف رأيك الآن! قالت: رأيي إذن، لن أترك بيروت! وقف سعيد: يا أختي دمشق الآن أكثر أمانا! ابتسمت: الثورة أكثر أمانا؟! قال بهاء: يعني هنا يحكم الفرنسيون البلد و.. نظر إليه سعيد: يقصد بهاء أن التحري لحقني أمس، ورأيت كيف أخرجت له كرسيا كي يجلس في انتظاري! سألته منور: دمشق أكثر أمانا لك من فلسطين يا سعيد؟ نهضت منور: نفذا وحدكما قراركما! سأبقى في بيروت!

بدأت مشكلة أخرى يجب أن يتفقا على حلها. كيف يصارحانها بأنهما يجب أن يكونا قرب الثورة السورية، دون أن يبوحا بماض ارتبطا فيه بمقدماتها؟! اقترح بهاء: قل إنك تحمل لي طلبا من رجال الثورة! سأله سعيد: وأنا، ما علاقتي بهم؟ قل إن قدري وصلك بهم! قال سعيد: لكن قدري مات منذ سنوات!

يخافان على منور! فقدت خالها ملوعا بمستوطنة دشنت في طبرية. فقدت أخاها نوري في الحرب. فهل تتحمل أن يندفع أخوها وزوجها في ثورة على قوة عظمى؟

مشت منور أمامهما في البيت في ذلك اليوم معتدة بنفسها. تأملها بهاء وقال لنفسه: تتمخطر كأنها تتحدانا! فقررا في المساء أن يعترفا لها بما يمكن الاعتراف به. معتمدين على حبها سعيدا. قال سعيد: أختنا سعاد الآن في خير. أنت يا منور أمانتنا التي نريد أن نطمئن عليها. هبت منور: اسمع يا سعيد، اسمع يا بهاء! أنا لست قاصرا ولا أريد أن أكون أمانة تنقل من مدينة إلى أخرى! هذه ليست أيام حرب الترعة، ولست في الرابعة عشرة من العمر! عبرت الحرب العامة وخرجت منها سليمة! إذن تكلما في صراحة! تتهامسان منذ وصلت يا سعيد، فماذا

تحمل لبهاء؟ لكن يبدو أن التحري الفرنسي يعرف ما لاتريد أن تقوله لي!

هل يلجأ بهاء إلى موت أبيه خالد آغا كي يبرر ضرورة أن يكون قرب الثورة؟ لا يجسر على ذلك أمام نظرات منور. قال دون أن ينظر إليها: حمل لي سعيد طلبا من رجال الثورة. يجب أن أكون في دمشق! التفتت إلى سعيد: وأنت يا سعيد أفندي، كيف ستساعد الثورة؟ بالشعر؟ ضحكت فجأة: يا مجنونين، تدوران وتلفان كيلا تقولا هذا في صراحة! وكأني لا أخمن ذلك! وكأني لا أسمع الناس يتحدثون عن بداية الثورة في سورية! وكأني لست بنت يوسف وفاطمة، ولست أخت نوري الذي هجر دمشق بعد شنق الدروز في ساحة المرجة! وكأني لم أبك على شهداء أيار! كم سيمر من السنوات والقرون كي يفهم مثلكما أن حبي بلدي ليس أقل من حبكما له؟ أنت يا بهاء لم تفهم لماذا لم أستطع أن أقترب منك في أيام الحرب العامة، ولماذا عدت إليك بعدها؟ لم تفهم لماذا لم أتحمل سهراتك مع الضباط الأتراك؟ ولماذا لم أتحمل أن تقترب مني وصوت الجياع يصل إلى بيتي من الطرقات؟ كم أنا وحيدة في بيتي إذن! ليس الحظ يا بهاء أن تحبني بل أن تفهم أني مثلك! حقك أن تخفي أسرارك علي. لكن لن أنسى لك هذا اليوم! قالت في برود: فلننتقل إلى دمشق! ويا حزني لأنكما لا تثقان بي كأني أقل من الست شفيقة أو من عمتي نفيسة! ويا خسارة الحياة التي عشتها معك يا بهاء! مشت لتبتعد. فركع بهاء أمامها ليقبل يديها. سحبتهما. مثل زوج سعاد؟؟ شدته فنهض. تركتهما. قال بهاء لسعيد: أختك كنز! لكننا انتقلنا من مشكلة إلى أشد منها! من يعلم كم سيدوم غضبها!

مرآتنا عينا المحب. قد تغشنا لهفتها! وقد يختلط ما يراه المحب فينا، فتمتزج ملامحنا بكلامنا وحركتنا وبسنين طويلة بيننا. ومع ذلك هي التي توحي لنا بأننا ما نزال شبابا نتمخطر بجمالنا! كانت عينا خالد آغا تؤكدان لي أني جميلة!

اعتدت نفيسة بأنها تختار ملابسها كي ترضي نفسها. رددت لفاطمة: ألبس لأرضى على نفسي! لكنها عندما أحبت خالد آغا انتقت ملابسها قاصدة أن تعجبه. كانت تحب الألماس وأطواق الفضة قبله، لكنها تزينت بها له. فعلت ذلك في كبرياء كأن ذلك لنفسها. لكن إبن الكحال فقط لاحظ الفرق بين الأمس واليوم. وعرفت أنه فهمها. بعد خالد آغا استبقت نفيسة حنة الشعر فقط. تحب الحنة السوداء! لكنها عندما تمشي في البيت ملفوفة الشعر بمنشفة حتى تستكمل وقت الحناء، تتساءل متى ينتهي ذلك! لم تبين لها المرآة أنها كبرت، لأنها من أصحاب الوجوه المستديرة والخدود الممتلئة. عيناها فقط كمدتا. لا تزال يدها تنزلق بالصابون على ظهر منساب كأنه دون عظام، فتتذكر أنها تمنت أن يلمسه خالد آغا ليسعد بنعومة البشرة وانسياب الخط. لكنها بعده، تلزم نفسها فقط بأن تكون مستقيمة الظهر، فالظهر كشاف الروح.

لذلك انتبهت إلى نظرة بهاء الدين إليها بعد ضجة اللقاء. فحصها! هل نستطيع أن نختار الطريقة التي تغيرنا بها السنوات؟ بعضنا يترهل في سعادته، بعضنا يسمن، وبعضنا يضعف. تدمغنا السعادة والشقاء! ويا للأسى، فذلك هو النضج! عمق النظرة، وكمال الروح! ألا تتغير ثمرة الرمان الخضراء عندما تلوحها الشمس، وثمرة المشمش عندما تصبح مشمشية اللون؟ ابتسمت لنفسها: أصبح بهاء نحاسيا كالرمانة الناضجة! لكن نظرته باحت بأنه لاحظ أنها كبرت قليلا. لماذا تغارين على شبابك يا نفيسة؟ لأنه يعني القوة والهمّة! فكرت لأول مرة بأنها قد تحتاج من يعنى بها ذات يوم. وقالت لنفسها: أنتحر! وتذكرت الكلمة التي ترددها النساء: "لا تثقل بنا أرض ولا تكرّه بنا عبد"! لكن نظرة بهاء أنيسة، رقيقة. ما خمّنته إذن وهم!

أوصلت العربة منور وبهاء إلى بيت نفيسة. قالت: يفرحني أن تقيما عندي! البيت واسع! لكن بهاء قال: ستختار منور بيتا من البيوت التي تركتها لنا المرحومة جنة خاتون. قالت نفيسة: بيت حارة الورد؟ واسع! بيت حارة المفتي؟ مرتب لكنه "مغمّ"! بيت حارة الشالة؟ كبير جدا! ولا أعرف بيوت جنة خاتون

الأخرى. زرت معها مرة بيتا جميلا في الصالحية يطل على يزيد. الصالحية آمنة في هذه الأيام أكثر من سوقساروجا! يسكنها الفرنسيون! لكنك ستكونين هناك بعيدة عنا! وهل تستطيعين أن تنظفي الناعورة وقت تعزيل النهر؟ وهل تستطيعين أن تعيشي مع الصوالحة؟ اسأليني عنهم!! آه، أهل زوج بنتها المرحوم!

يوم حزم بهاء أغراضه وأعلنت منور أنها ستسافر إلى دمشق، قال له المملوك: تخرج من بيروت دون معاش تقاعدي كبير. لذلك اسمع مني هذه المرة واقبل أن أسجل لك قطعة من أرض الحرش. انتفض بهاء: أنقبل الآن ما لم نقبله يوم كنا في مركزنا؟! يا بهاء بك، أصحابك اشتروا البيوت والأراضي أيام الحرب بالخبز الذي كانت الست منور توزعه على العائلات. تستحق أن تعطيك بيروت أرضا ستحتاجها ذات يوم! يا شكري أفندي، أخرج من بيروت نظيفا كما دخلت إليها! أعرف ما ربحه زملائي. لكن فوق ذلك راحة الضمير واحترام النفس! ابتسم: راض بكنزي! تأمله المملوك حزينا عليه. كنزه منور، لكن الله لم يهبه طفلا منها. ألا يفهم هذا الحالم أنه سيكبر وستكبر منور دون أولاد؟ فليكن لهما المال على الأقل! سأله: يا بهاء بك، هل تكتب الشعر مثل سعيد أفندي؟ ضحك بهاء ضحكته الرائقة التي لا تكاد تسمع: أبدا! يبدو أن سعيدا أخذ الشعر كله ولم يبق لي بيتا منه!

لم يستبق بهاء من أثاثه إلا ما اختارته منور. وركب القطار معها إلى دمشق. رأت نفيسة من الخصّ عربة تقف قرب بيتها، نزل منها بهاء فأسرعت لتفتح الباب قبل أن ترى منور. مائة أهلا وسهلا! مائة مرحبا! "ضوّت" الشام! قدمت لهما محلاية وماء معطرا بماء الزهر. جرّت مرجانة حقيبة كبيرة من الجلد مغلفة بالقماش إلى طرف الليوان. سألت نفيسة بهاء: ماذا ستشتغل؟ قال: سنرى! تنهد وكأنه همس لنفسه: سننفق مما تركته لنا جنة خاتون. هي أنفقت على الفقراء، وأنا سأنفق على الثورة!

لماذا فرحت نفيسة بقريبيها العائدين فرحا فيه اندفاع غريب عنها؟ هل أنا وحيدة إلى هذا الحد؟ لم تفكر في وحدتها الممكنة في آخر سنوات العمر، أيام كانت مشغولة بخالد آغا. لكن لماذا تؤرخ عواطفها بخالد آغا كأنه شغل حياتها مثل الحرير؟ لم أعرفه إلا زمنا قصيرا! يبدو أننا نعيش سنوات طويلة في انتظار زمن مليء نحسبه من عمرنا! نعم، ما قيمة السنوات دون عواطف تروي الروح وتكشف لنا فيها ما لم نعرفه!

وصل سعيد وحده، مع حقيبة صغيرة. أظهر لها فرحا أكثر من فرحها.

أعلن: جوعان يا عمتي! أقال ذلك كي يفرحها؟ لا، هو حقا جائع! تأملته وهو يأكل طعامها ويقول: ما أطيبه يا عمتي! لم أذق مثل هذا الشيخ المحشي منذ كنت في بيتك. وهذه التبولة أطيب من تبولة اللبنانيين! لكن إياك أن تحضّري كبة نيئة لأنك لن تنافسي فيها أهل بيروت! يضعون فيها مردقوش وأعشابا أخرى لا نعرفها! تفادت نفيسة أن تتذكر الكبة النيئة التي يحبها خالد آغا، وشغلت نفسها بغرفة سعيد. أفرحته ببيجامته التي حفظتها في الخزانة منذ كان عندها آخر مرة! ضحك: ضيقة علي! سألته: لماذا، سمنت ما شاء الله!

أبقت نفيسة الغرف كما كانت يوم تركوها. لم تغير حتى ألوان الشراشف. فأقامت منور وبهاء في غرفة فاطمة ويوسف. ياعمتي، بلي الناس ولم تبل الشراشف! لا أرمي شيئا عليه آثاركم، يا منور!

ازدحم بيت نفيسة. فابتعد طيف خالد آغا. الكثرة حلوة! انشغلت نفيسة بمنور. كم نضجت هذه الصبية! لكن لماذا نظل نحفظ ما بيننا من سنوات العمر! رفضت منور وصاية نفيسة: هذا ذوقك وليس ذوقي يا عمتي! في بيروت لا يضع الناس هذه الستائر! معي ستائري! اشتغلت بالسنارة عناقيد من العنب حشوتها بالقطن، واشتغلت أوراق دالية لتوضع في أطراف الستائر! ومعي حلقاتها النحاسية!

في سوق الحميدية صادفت منور ونفيسة ضباطا فرنسيين يمشي وراءهم حرس. قالت نفيسة: يخافون على أنفسهم! محبوبين تقبريني! دخل الضباط إلى دكان السجاد العجمي بعد منور ونفيسة. فنفرت منور: لنقصد مخزنا آخر! برد سوق الحميدية لأن الضباط مروا. أحب السجاد العجمي يا عمتي، لكن بيروت مشهورة به أكثر من دمشق! قالت لها نفيسة في سخرية: تقبريني، متى كان لديك الوقت لتعرفي كل ذلك؟ لم تطيلا المشي في الأسواق. البلد على أبواب انفجار! موّنت بيتي بالطحين والرز والسكر!

عندما نصبت منور في المساء الأرجيلة لتدخن غضبت نفيسة! تعملين مثل نساء بيروت، ما شاء الله! أنت صغيرة بعد! لم يعد أحد صغيرا يا عمتي! تركتها نفيسة كابحة غضبها وصعدت إلى الفوقاني. لكنها عندما نظرت من خلال أغصان شجرة النارنج إلى أرض الدار بدت لها منور جميلة وهي تدخن أرجيلتها على رسوم الحجارة البيضاء والسوداء، قرب البركة، وسط خضرة الأشجار. بدت منور كأنها الخط الضروري لتكتمل الصورة. يبدو أن الأقرباء يتباعدون عندما يعيش كل منهم حياته المستقلة عن الآخر! يربّون طباعهم بعيدا عنا. فإما أن

نعترف لهم بحقوقهم فيها، ونكتفي باللقاء بهم وبفوح العواطف من بعد، أو أن نبقى حالمين عاجزين بأن يكونوا صورة منا! يجب أن نكتمل بهم، يا نفيسة! وأن ننتبه إلى ما شعروا به في غيابنا، ونفرح بأنهم خبأوا لنا عواطفهم لنعرفها. هل تسألين الستيتية التي تعشش في سقف الداور لماذا تشرب الآن من بركة أرض الدار، ولماذا تحط على شجرة النارنج؟ فليكونوا هكذا! يكفي أنهم يعششون قربك ويؤنسونك بخفقة أجنحتهم!

مع ذلك اشتاقت نفيسة إلى وحدتها مع أطيافها. وإلى السهرات التي تلعب فيها الطاولة مع إبن الكحال وكل منهما يرعى عواطف الآخر!

نظر إليها إبن الكحال في أول سهرة التقيا فيها وحدهما بعد انتقال منور إلى بيتها في حارة الشالة. وبدا له أنه وحده يفهمها. تحب نفيسة الناس لكنها لا تتحمل أن تعيش مع أحد! تساءل: إلى هذه الدرجة تعودت حريتها؟ رد على نفسه: في هذا العمر لا يتحمل أحدنا أن يرى آخر أمامه طول النهار! قال: كأننا يا نفيسة صرنا نتحدث مع أنفسنا أكثر مما نتحدث مع الآخرين! لذلك نريد أن يصفو ما حولنا! ونحتاج في الوقت نفسه ألا نكون وحيدين! لكن قولي لي لماذا انتقل بهاء ومنور إلى دمشق وأهلها يفكرون في الخروج منها إلى بيروت؟ رفعت نفيسة رأسها عن طاولة الزهر. يقرأ إبن الكحال ضميرها. ربما ما كانت لتتحمل الحياة حتى مع خالد آغا، بل تفضل أن يلتقيا عندما يشتاق أحدهما إلى الآخر. قالت: لم أسأل بهاء، لكن السؤال يلوب في فمي!

لم تترك السؤال يلوب، بل رمته لبهاء فجأة ومنور تحضر القهوة بعد الغداء. زاغت عينا بهاء، وابتعد سعيد. تابعتهما في هدوء. لن يلعب جدي بعقل تيس! لم يترك بهاء بيروت وقت المجاعة، لكنه تركها وهي آمنة، إلى دمشق التي تدق أبوابها الثورة! قالت له: أتمنى ألا يكون التحري في دمشق ذكيا يا بهاء! لماذا احمر وجه منور؟ يبدو أن نفيسة وحدها تجهل ما يعرفه الثلاثة!

في ذلك المساء وجدت بقجة في غرفة سعيد، فيها ملابس فلاح. فقالت له وهما يتعشيان: اشتغل نوري في أرض أبيك، لكن يبدو أنك لم تحب الشغل في الأرض إلا في هذه الأيام! اسمع يا سعيد، افتح لي قلبك لأساعدك. أنا ظهرك!

لم يعترف أحد منهما بأسراره! لماذا تطلب بوحهما وهي نفسها أخفت أنها آوت جرحى من ميسلون؟ ستكون نفيسة الآن وسط الحرب التي بدأت في البلد! فلتستعد! ولكن أي دور يتركون لها أو ستختار!

غاب بهاء فصارت منور تنام في الليل في بيت نفيسة. وسافر سعيد.

لاحظت نفيسة أن منور تنام كالصاحية كأنها تتوقع أن يطرق الباب. وأنها تراقب من النافذة بيتها في أول حارة الشالة، كأنها تنتظر أن يضاء. لكنها لم تعرف أن منور تسخن الماء كل يوم كأنها تعده لبهاء كي يغتسل إذا رجع. هل قدّرت أن عودته ستكون في المساء، بعد غيابه بأسبوع، لذلك بدأت تحضر الطعام الذي يحبه، وتنتظر أن تلمح من النافذة ضوءا في بيتها؟ هل اتفقا أن يضيء الغرفة التي يمكن أن تراها من الغرفة العليا في بيت نفيسة؟ راقبتها نفيسة وهي تقترب وتبتعد من تلك النافذة مرات في المساء. وانشغلت بتطريز خيوط الحرير على صدر قميص من الحرير. ما تزال تحب التطريز على قمصان النوم. قمصان لن يراها أحد غيرك يا نفيسة! بعد موت خالد آغا خطر لها أنه لو بقي حيا واجتمعا، لتمخطرت بقمصان النوم، ولتركت شعرها الأسود ينسدل على بياض الحرير. ولزهت بالتطريز على أكمام الثوب وصدره. ولحشت صدرها بقبضة من الياسمين مثل نساء الشام، ولنثرت الياسمين على السرير النحاسي الذي تنسدل عليه الشراشف البيضاء العابقة بصابون الطيب. لم تحلم بذلك إلا بعد موته بزمن طويل، وهي تلتمس أن تجعل له حضورا دائما في بيتها، الحضور الذي ربما لم تتحمله ولم ترغب به لو بقي خالد آغا حيا!

هل أصبحت نفيسة شاهدة على حب غريب بين منور وبهاء! حب عتّقه الهجر، وهيجه الخطر! لا تعرف مجراه الغائب عنها في بيروت، لكنها ترى الأنوار والظلال في عيني منور الرماديتين. وتكتشف كم تهب العواطف عيني الإنسان ألوانا. بلّغتها منور أنها لن تنام الليلة عندها، ففهمت أن بهاء وصل. كما يراقب الأهل وجه العروس، راقبت نفيسة الأفراح والرضا والسهر على وجه منور. وتابعت الصمت الرائق بينها وبين بهاء عندما زاراها. لكن بدا لها أن سعادتهما العميقة ترتجف من القلق كأنها واقفة على حافة الموت. وقالت لنفسها: من حظهما أنهما دون طفل!

ادعت نفيسة أمام نفسها أنها نزلت إلى السوق لتشتري زعفرانا وعصفرا! السوق؟ أي سوق؟! خرجت من سوق مدحت باشا قافلة من الجمال محملة بأشجار الغوطة المزهرة! صادفتها نفيسة في الدرويشية فرفعت كفيها إلى رأسها: يكسر أيديهم! نخاف على الزهر من هبة الهواء، فكيف قصوا شجر المشمش المزهر؟! تسألين يا نفيسة كأنك لا تعرفين الجواب! ألم تري من سطحك الحرائق في قرى الغوطة؟ تبعت نفيسة مأتم الأشجار. يجب أن يمشي في جنازتها إنسان! ومم تخاف، وعلى ماذا تخاف!

مشت خلفها في الدرويشية. هل ستعرض أيضا مع القتلى في ساحة المرجة؟! رعت نفيسة طول الطريق غضبها. الحق مع خالد آغا لأنه خرج إلى ميسلون! مع ذلك لا تستطيع أن تحيط بالوحشية التي تنتقم من البيوت فتحرقها ومن الأشجار فتقلعها. من أية أزمنة حزينة وصل الدعاء الشرير "يخرب بيتك"، ومازالت تخرب البيوت؟ منذ أيام ترى من سطح بيتها أعمدة من الدخان ترتفع من الغوطة وتقول: خربوا الشام! ماذا لم تر في هذه الأيام؟ على ضفة بردى نساء وأطفال وعجائز يحملون ما استطاعوا أن يحملوه من أثاثهم. بعضهم يجر دوابا عليها صرر أو أطفال. عليهم ملابسهم الزاهية التي تدل إلى قراهم. ربما قتل بعض أهلهم وربما هرب إلى الثورة في الغوطة!

لماذا تحوم نفيسة حول ساحة المرجة ولا تجسر أن تقترب منها وحدها؟ كيلا تتذكر ذلك اليوم مع خالد آغا في أيار منذ عشر سنوات؟ تتفرج على الحرائق، تسمع القصف، تتابع ما يحمله لها إبن الكحال، تقترب من فندق فيكتوريا لكنها لا تقترب من ساحة المرجة! إلى متى تتفادى ذلك؟ يجب أن تمشي إلى هناك!

قالت نرجس: ولي على هذا الزمن! في أيام تركيا كانت هناك فرجة، اليوم "ما عاد في فرجة" إلا على القتلى! لا تلومها نفيسة. تكفيها لهفتها. تطلبها نفيسة فتجدها! يا نفيسة خانم لماذا تطلبين وجع القلب؟! ومع ذلك تمشيان معا إلى ساحة المرجة.

تفرجت نرجس على المندوب السامي، سراي، يوم وصل إلى دمشق في تشرين الأول سنة 1925. حجزوا له جسر فيكتوريا. مشى حول سيارته الخيالة المغاربة. نصبت أقواس النصر في البلد وزينت وفي وسط الزينة مثلثات قيل إنها

ماسونية. رأيته يا نفيسة خانم، وسط الخيالة، ووراءهم خيالة يحملون الأعلام الخضر، ورأيت جمالا تعدو. ظن نفسه الامبراطور غليوم، يا نفيسة خانم! "لابق للشوحة مرجوحة ولأ بو بريص قبقاب"! سألتها نفيسة: ولماذا تفرجت عليه! هذا الذي استقبلته أمر بقصف دمشق وفرض عليها عشرين ألف ليرة ذهبية غرامة، وجمع منها ثلاثة آلاف بندقية وثلاث مائة ألف طلقة، وشغّل العمال ثلاثة أشهر لتطويقها بالأسلاك والاستحكامات! برأت نرجس نفسها: وهل كنت أعرف أنه سيفعل ذلك يا نفيسة خانم؟ تفرجت عليه من بعد. لم أقف على الرصيف كيلا يظن أني أستقبله! الفرجة يا نفيسة خانم لا تعني أنك مع من تتفرجين عليه. يتفرج الناس على السعادين التي يرقّصها صاحبها في الحارات ويدفعون ثمن الفرجة. هذه فرجة "ببلاش"! لم يصفق له أحد! العين تطرقه! قالت نفيسة: يعني، كيلا يقال أهل الشام يجمعهم طبل! يا نفيسة خانم، أهل الشام يحبون الفرجة. لم يفوتوا حفلة استقبال الوالي ولا وداع الجيش. لكن الله فقط يعلم ما في القلوب! أهل الشام يحبون البسط. لكن الفرنساويين حرموهم حتى من الغوطة!

تلومها نفيسة لكنها تحتاجها لترى عرض القتلى في ساحة المرجة! أمسكت بيدها وضغطتها. ما هذا؟ فلاحون مقتولون على الأرض. رؤوس مغطاة بالدم. بطون مفتوحة. دماء. هل نزف بعضهم حتى الموت هنا؟ أحذية منثورة، وشراويل ممزقة. وجنود يحرسون القتلى دون رعشة. هل ما تراه حقيقة؟ في طرف الساحة نساء وأطفال يبكون في صمت. مشت نفيسة إليهم وقرفصت مثلهم. تبعتها نرجس ولم تجسر أن تنهضها. تحدثت نفيسة معهم، وتحركت مثلهم إلى اليمين واليسار كمن يندب الموتى. بيوتنا احترقت ورجالنا قتلوا! وأطفالنا ما يزالون على الأذرع! ومع ذلك سيبقى القتلى معروضين في برد الليل وحر النهار! يمتهن الفرنسيون الموتى كي يخيفوا مدينة! يخيفونها؟ أية جرأة الآن في نفيسة! لو طلب الثوار عينيها لقدمتهما لهم! عادت مع بعض النساء والأطفال إلى بيتها. سيبقون عندها حتى يفرج الله الكرب. وستوزع بعضهم على بيوت الحارة. الناس للناس!

دهشت مرجانة عندما رأت أسرة مع أطفالها تدخل البيت مع نفيسة. غرفة نوري وغرفة سعيد وغرفة فاطمة ويوسف لهم! حضريها يا مرجانة!

دوت قنابل ورصاص، ثم أصوات رشاشات. صعدت نفيسة إلى السطح. هل أصبحت خبيرة في حركة المعارك بين أحياء المدينة؟! هذا الرصاص من حي الميدان! وذاك من حي الشاغور! يا نفيسة خانم انزلي من السطح! يجلو أهل الميدان عن بيوتهم التي سينسفها الفرنسيون، إلى المهاجرين! يمشي أهل الأحياء

القديمة كلهم تقريبا نحو المهاجرين!

قالت مكرم لنفيسة: سأذهب أنا أيضا إلى المهاجرين! يا مكرم أنا لن أترك بيتي! استأجرت مكرم عربة حنطور وزاحمت بها المشاة والترامواي الذي امتلأ بالناس والحمير في طريق الصالحية! بقيت نفيسة على السطح تراقب المعارك بين الفرنسيين والثوار. رأت قذائف تطلق من المزة، وأخرى من القلعة. لكنها في تلك الليلة رأت نارا هائلة. هذه هي الكلاسة! قصفها الفرنسيون بالطائرات. يا ويلي! بقيت النار مشتعلة طول الليل. الله يعين هذا القلب على ما يحمل، يا خالد آغا! رحلت مبكرا واسترحت! هل كانت نفيسة تلومه؟ وصل في النهار إبن الكحال وقال لنفيسة: اخرجي إلى المهاجرين! سألته: وأنت أيضا تطلب ذلك؟! لن أتحرك من بيتي!

وقت سكن القصف خرجت نفيسة من البيت. رأت بيوت حي سيدي عامود الجميلة مهدمة. تحت الأنقاض أثاث الأجداد وثرواتهم. خسرت دمشق ما لايستعاد. في بيت من تلك البيوت استقبل امبراطور ألمانيا يوم زار دمشق! مرت نفيسة بحرائق وخرائب السنجقدار والدرويشية والسنانية. أصيبت المآذن والقباب. تمزق سقف سوق مدحت باشا. في سوق البزورية حريق. قصر العظم مصاب. تكسرت ثروة دمشق! وكم من الناس تحت الأنقاض!

من يستطيع أن يتنقل من سطح إلى سطح غيرهم! تتستر عليهم الحارات. تركوها واستخدموا السطوح لتنقلهم من مكان إلى آخر. ولتظهر دمشق كم هي آمنة! فهل استطاع لص أن يعبر السطوح كما يعبرونها؟ سمعت نفيسة خطوات على السطح فخرجت إلى الداور تستطلعها.

سمعت خطوات خفيفة على الدرج الخشبي نازلة من السطح نحو غرف النوم. ثم سمعت صوت الرجل يقول ما يقال عندما يريد غريب أن يعبر بيتا يقدر أن فيه نساء: يا الله! دستور! فابتسمت: في هذا الموقف "يا الله"؟! تناولت غطاءها الأبيض ورمته على رأسها وخرجت إلى الرجل: سأدلك إلى الطريق! قال: بارك الله بأمثالك! سألته وهي تعبر به الداور إلى الدرج الحجري نحو أرض الدار: ألا تأكل أو تشرب على الأقل قهوة؟ قال: كأس ماء! قالت وهي تشير له إلى مقعد في الليوان ليجلس عليه: يا أخي البيت آمن! لا يدخلون سوقساروجا. لو دخلوه لخبأتك في ضريح الولي! هل تذكرت في تلك البرهة أن أباها لاب باحثا عنها يوم كانت طفلة ولم يخطر أنها في ضريح الولي إلا والليل بدأ؟ لعل طريق نفيسة بدأ من هناك، يستطيع هذا الرجل أن يلجأ في الخطر إلى تلك المحطة!

كان البنفسج قد أزهر مبكرا في أحواض نفيسة حول شجرة الليمون وشجرة الكباد. وخيل إليها أنه فاح وهي تقدم للرجل الغريب قهوتها. جلس على المقعد في أرض الدار مطمئنا. لا يمكن أن يكون العدو في هذه البيوت! وإلا لما استطاع الثوار أن يتنقلوا من أول المدينة إلى آخرها! لاحظت نفيسة أنه رفع نظره وتأملها فاحصا. رأت عينين سوداوين وبشرة بيضاء لم تدمغها الشمس. ولاحظت أن يديه اللتين حملتا فنجان القهوة ليستا يدي فلاح من فلاحي الغوطة. من هذا الرجل إذن؟ فلاحو الغوطة هم الذين يحملون الثورة، هم الذين يملكون رشاقة التنقل على السطوح، هم الذين رأتهم مكومين في ساحة المرجة. رجال دمشق الذين يشتركون في الثورة ليسوا قادرين على القفز فوق السطوح؟! بل تحمل دمشق وغوطتها معا الثورة! المدن السورية والريف السوري! وهذا الرجل ابن مدينة يتنكر بشروال فلاح ويعبر السطوح! يهرب إذن ممن يطارده! فهل تتركه يخرج إلى خطر ممكن كما تتركه نساء البيوت؟ أم هي نفيسة التي تركب فرسها وتخرج إلى بساتين التوت، ولا تهاب الليل والفلاة؟ صبت له من إبريق القهوة المرة فنجانا آخر: اسمع يا أخي! إذا كنت تحتاج أن تبقى يوما أو أياما هنا فهذا البيت بيتك! وإذا رغبت أن

أصلك بأحد فأنا مستعدة! لم يجبها الغريب لكنه لم ينهض لينصرف. يثق بهذه الغريبة كما يثق الثوار بأصحاب البيوت التي يعبرونها. بتضامن مدينة أمام غرباء. بمهابة الثورة التي لا يجسر أحد أن يخونها الآن. ولكن كشف آخرين يطلب ثقة كبيرة. فهل يتحمل هذه المسؤولية؟ كم رجل سيقف مثله معتمدا على حدسه، مغامرا بثقته في رؤيته، قبل ثقة الآخرين فيها؟ كتب الورقة ثم شطب جيدا ما كتبه، ثم مزقها. هل انتبه إلى صرامة نفيسة وسخريتها الصامتة؟ نظر إليها نظرة طويلة: انقلي أنت رسالة من الفم إلى الأذن! الأفضل أن تمشي من طريق العقيبة والعمارة إلى باب توما ومنه إلى القيمرية. طريق طويل لكنه أكثر أمنا. تعرفين القيمرية جيدا؟ .. اقطعي الطالع، ثم العمود القديم الملتصق بجدار البيت بعده، مري تحت السيباط، بعده باب خوخة، غير مدهون. خبري أبا محمود أني عندك، وليرسلوا من يلتقي بي هنا! موافقة؟

هل تعيش فينا قوى متنوعة تظهر عندما تستدعى؟ هاهي نفيسة التي حاورت الضباط والجنود الأتراك كي يفكوا نوري! نفيسة التي سعت لتعرف منهم مصيره في العراق! واستلمت آخر رسالة منه تخبرها أنه جريح يحتاج مالا. ورشت من يستطيع أن يوصل له المال. نفيسة التي عرفت أن أخا بهاء قتل قبل أن يعرف أبوه ذلك. نفيسة التي أرسلت خالد آغا ليحضر وداع شهداء أيار، وكانت أمام أسرهم التي نفيت إلى الأناضول. نفيسة التي مشت في المدينة وقت دخل الجيش الفرنسي إليها وسمعت بكاءها. وبحثت عمن يدلها إلى المكان الذي دفن فيه خالد آغا في ميسلون. نفيسة التي أخذت مكان خالد آغا المقتول فصارت هي التي تتفقد المدينة، ومشت وهي تسمع صوت القنابل. مم تخاف؟ على ماذا ومن؟ لم يبق شيء! حي سيدي عامود الجميل خراب من القصف، وروح نفيسة يبست بعد خالد آغا. رأت أمس على ضفة بردى الفلاحين المهاجرين من قراهم. رأت أشجار المشمش المزهرة المقطوعة. رأت الفلاحين مكومين في ساحة الشهداء. وشعرت أنها هي نفيسة القوية عاجزة وضعيفة ووحيدة! وهاهو رجل غريب يهبط في بيتها، ويكلفها بخدمة!

وضعت يدها على رأسها، وأضافت: من عيني هذه قبل هذه! في غيابي إذا شعرت بخطر افتح باب الضريح الذي سأدلك إليه، واستلق تحت الكسوة الخضراء. استلق من الجهة التي لا تقابل الباب! لا توصني أن أنتبه في الطريق كيلا يتبعني أحد! لا توصني ألا أخطئ الباب! وألا أعلن رسالتك قبل أن أثق بأني في البيت المقصود! أخي، إذا جعت المطبخ أمامك! الطعام في النملية، كل

بامياء ورز، صحّتين على قلبك! مرجانة في خدمتك ولن تفتح الباب لأحد في غيابك!

لبست ملاءتها وخرجت من البيت دون أن تلتفت إليه. "طبقت" الباب خلفها. وعندئذ غفا الغريب الذي لم ينم منذ يومين. مرت بمنور لتستبقيها في بيتها. ثم استدارت فعبرت المدرسة الشامية، نزلت الدرجات ثم صعدت درجات أخرى، مرت ببيت العظم متجهة نحو العقيبة. مشت في الحارات، بنت الشام التي تعرف الحارة "السدّ" والحارة التي توصل إلى حارة أخرى. تسربت وهي تسمع صوت خطواتها. من باب توما انحنت إلى القيمرية.

طرقت الباب المقصود. الإشارات صحيحة! رد صوت امرأة: مين؟ وردت عليه نفيسة: أنا! رأت وجها أبيض وشعرا أسود من باب شق قليلا. فهمت المرأة أنها يجب أن تفتح الباب كله لنفيسة! "تقبريني، فوتي، فوتي! كيف طلعت والبلد قايمة قاعدة؟" على بعد خطوات كان سراي المندوب السامي الفرنسي في بيت العظم فهاجمه الخراط فهرب بملاءة امرأة. وعلى بعد خطوتين حي سيدي عامود الذي قصفه الطيران فاحترق. جلست نفيسة في صالة فيها طقم مصدف، وباقات من ريش الطاووس في مزهريات من الفضة. على القنصل رشاشتا ماء الزهر. هل بدا على نفيسة التوتر أم خمنت صاحبة البيت أن من يمشي في المدينة في مثل هذا اليوم يجب أن يكون متوترا؟ ولذلك أتت بصينية عليها كأس ماء معطر بماء الزهر! اشربي تقبريني، بلّي ريقك!

شربت نفيسة كأس الماء إلى آخره. ثم نظرت إلى المرأة: لم أخطئ، هذا بيت أبي محمود القضماني؟ بيته، تقبريني! وأنا، الداعية، أم محمود! هل نزلت قنبلة في مكان قريب؟ خيل لنفيسة أن غصنا انقصف. فنهضت المرأة: تقبريني، تعالي إلى القبو! عندنا قبو فرشت للأولاد وناموا فيه. أنا وأبو محمود ما غمضت لنا عين طول الليل! يجب أن أرى أبا محمود! فحصتها المرأة: خير؟ ما تشوفي إلا الخير! معي رسالة له! لم تقل المرأة إنه هنا، ولم تقل إنه ليس هناك! بعد زمن دخل أبو محمود وحده. وصفت له نفيسة مكان بيتها: لا يضيع أحدا. مقابل المدرسة الشامية تماما! باب كبير سقاطته مستديرة. في الإطار الحجري حوله، فوق الباب تماما وردة.

لو كان خالد آغا حيا لروت له نفيسة أنها سلكت الطريق إلى بيت أبي محمود مرات فيما بعد، وأن الغريب زارها فيما بعد مرتديا بنطالا كأهل المدن ونقلت منه إلى عنوان دلها إليه مبلغا كبيرا من المال. وستزورها فيما بعد أيضا أم

محمود. هل شعرت نفيسة بالخطر في تلك الأيام وهي تعبر الحارات ناقلة الرسائل؟ شعرت به فيما بعد وهي جالسة في بيتها أمام البحرة التي تفور نافورتها، تشرب القهوة المرة التي قدمتها لضيفتها أم محمود. وهل كان يمكن أن تفكر بالخطر ومدينتها تقصف، وخالد آغا بقي في ميسلون! قالت: في تلك الأيام فهمت لماذا يقال "حرمة"! رغم الوحشية كنا "حرمة"! فوق ما عاشته، كانت أمامها عواطف جديدة لتعيشها. أخبرتها أم محمود أن الرجل الذي اختبأ في بيتها قتل. لماذا تشعر بأسى؟! لأن الموت ليس موتنا فقط، بل موت أصدقائنا، أعزائنا، مع كل مفقود منهم يضيع جزء من عمرنا!

خمنت منور أن سعيدا يتنقل بين الثوار. بم يكلفونه؟ أصابعه الرقيقة لا تعرف تصويب الرصاص! بهاء رجل آخر! ضابط من الضباط الذين استدعتهم الثورة. فهل يدرب الرجال الآن في الغوطة أم يحارب معهم؟ أم تراه ابتعد إلى حماة والقلمون؟ كأنما زادت الاضطرابات بعد وصولهما إلى دمشق. نزل الثوار إلى الميدان والشاغور وباب شرقي. وهم في الغوطة في عربين والمليحة وجرمانا وجوبر ودوما.

تعودت نفيسة ومنور صوت الرشاشات والرصاص. وتابعتا كأهل المدينة المعارك من السطح. من قلعة المزة يقصفون المدينة! ولكن قصف الطائرات أرعشهما. أخبر إبن الكحال نفيسة: أسقط الثوار طائرة في عين ترما في الغوطة! قالت له: نفرح بسقوط طائرة؟ خربت المدينة! نزلت "القازانات" على دمشق في تشرين الذي عرف بأنه أيام الذهبيات في الشام، وقيل فيه "بين تشرين وتشرين صيف ثان"! تحترق البلد بقنابل المدافع والطيران. كم "كلّة" نزلت على المدينة؟ ما أقسى أن نتفرج من السطح ياعمتي، على الدخان والنار! نزلت "البومبا" هناك! تلك هي الكلاسة، وذلك الميدان، وهذه الحرائق قربنا تماما في السنجقدار! كانت منور تحب متابعة أسراب الحمام التي تحلق فوق الحارة، وتراقب تداخل "الكشّات" وانفصالها، وهاهي تتابع الدخان والنار! عندما قصف السنجقدار طلبت منها نفيسة: انزلي إلى القبو! فردت: لن أنزل! هم وسط النار ونحن نخاف على أنفسنا؟ شدتها نفيسة: إذا عادوا فوجدوك ميتة ستسعدينهم يا عاقلة؟ أنزلتها إلى القبو. في القبو سبت الفرنساويين المتوحشين. العمى، يقصفون بيوتا فيها بشر! هؤلاء هم الذين وضعوا منتدبين علينا ليحضّرونا، تقبريني! لانقبلهم حتى كتلاميذ يتعلمون منا!

رغم منع التجول منذ السادسة مساء وصل إليها إبن الكحال عابرا أزقة لا يجسر الفرنسيون على المرور فيها. وصل إلى سوقساروجا من العقيبة. أغضت عندما لمحت لهفته! أيكون ما بينهما أكثر من الحب القديم؟ لا أحد بعد خالد آغا! لا أحد أبدا! حضرت له العشاء وأقسمت: ستنام الليلة عندنا. "مو كل مرة تسلم الجرة"! قد يصيدونك في العودة! عندما يفاجئ منع التجول الناس يبقون حيث هم! بقيت نرجس أمس في الصالحية!

عرفت نفيسة منه أن الغوطة فصلت عن المدينة. ومع ذلك تسلل الثوار إلى

القيمرية! المسألة أن أهل المدينة هم الثوار لكنهم يلجأون إلى الغوطة! أتاها بخبر آخر: احتج القناصل على قصف دمشق. أعتقد أن هذه نهاية غاملان وسراي! قالت له: إلى جهنم! لكن البلد احترقت!

حدثها إبن الكحال عن غليان دمشق بعد جمع الغرامة بالليرات الذهبية، وآلاف البنادق! قالت: ألزمونا بالعملة الورق، ويطلبون الغرامة بالليرات الذهب! حرامية! وألزمونا بأن نجمع لهم بأنفسنا سلاح الثوار! تنفذ شروط غاملان وسراي كما نفذت شروط غورو، يا نفيسة! للظالم يوم، يا إبن الكحال! انتهت فرنسا في سورية بقصف دمشق! المسألة مسألة وقت! ليت عبد الرحمن اليوسف حي ليرى! رد: غيره موجود! حقي العظم رافق سراي! قيل إن الأمير سعيد الجزائري، الذي يحسب على الفرنسيين، حاول أن يتوسط ليوقف الفرنسيون القصف، فطردوه! سألته فجأة: هل تعرف القتلى في مدن أخرى؟ خفض نظره: لا! لكني سأحاول!

تساءلت نفيسة فيما بعد: لماذا قصدت أن تخرج مع نرجس لامع منور إلى ساحة المرجة؟ ألكي تقيم المأتم للقتلى المعروضين فيها، فقط؟ أم لتتبين رجلا تعرفه! كتمت جولاتها مع نرجس عن منور. لماذا تختارين نرجس يا نفيسة؟ ربما لم تبرأ نرجس من حب بهاء! فلماذا تخصينها بهذه القسوة؟ ردت على نفسها: الحب من بعد أقدر على الصبر! نرجس كبيرة، أكبر من منور وبهاء، والناس يجورون على الكبير لا على الصغير. وربما تكرّم نرجس أيضا بأن تكون أول من يرى القتيل الذي تبحث عنه وتشترك معها في الحزن عليه!

يا نفيسة خانم، أنت لم تتفرجي على سراي، ولا على جمال باشا، فلماذا تريدين أن تنزلي إلى المرجة كلما عرض فيها القتلى؟ مالي قلب والله! اسمعي يا نرجس خانم، أنت لم تتفرجي على هرب بلفور من دمشق، أنا تفرجت على الناس الذين ضربوا فندق فيكتوريا بالحجارة حتى فرّقتهم الخيالة المغاربة. بقي بلفور مختبئا في الفندق حتى هرب من طريق بيروت! سنخرج يا نرجس إلى المرجة، لأن قلوبنا على أولادنا!

رأت نفيسة مجموعات من القتلى معروضة على الأرض في ساحة المرجة. فحصتهم وروحها ترتجف. لم يكن بينهم بهاء ولا سعيد. ولكن أليسوا أبناء بلدها؟ نسيت أنها قصدت أن تبحث عن أعزائها بينهم. حدقت في الموت المبلل بالدم. وهالها أن يكون الإنسان الحي الجميل ملقى هكذا. وأن يزهو قاتله بموته. أمسكت بطنها كأنها مصابة بالوجع. وسمعت نرجس تقول لها: كفى يا نفيسة خانم، لنعد! لكنها استمرت تطوف حولهم حتى لم تعد تستطيع أن تحزن أكثر مما حزنت ولم

تعد تستطيع أن تغضب أكثر مما غضبت.

ومع ذلك عادت إلى ساحة المرجة مرات ونرجس معها. شمّت حفاوة الجنود بقتل حسن الخراط. عرضوه ليقولوا قتلنا أسطورتكم! لكن أهل سوقساروجا ردوا على نرجس: قتلوا شبيهه! أمس طلبوا نجدات من المصفحات ليطوقوا عربين لأنه قاتلهم فيها! ثم أخبرها إبن الكحال أن ابن حسن الخراط يحاكم مع رجلين وسيحكم عليهما بالإعدام. ورأت الرجال الثلاثة معلقين وحولهما الجنود. وزعت صور المشنوقين على المخازن! وعلقها الناس ليرعوا غضبهم لا ليرعوا الخوف الذي أراده موزعو الصور. هل قدر لنفيسة أن تودع جميع القتلى الذين تحملهم العربات إلى ساحة المرجة؟ رأت عربة من تلك العربات كوموا فيها. فقالت: لا حرمة للموت! وأذهلها أن الجنود ينظرون إلى الموت دون حزن. فهل كانت تستطيع هي أن تكون مثلهم لو كانت مكانهم؟! لا تستطيع أن تتعود الموت! ترتعش بعد طوافها دائما من الغضب ثم تصاب بكآبة ترميها في الصمت طول المساء. وتنهض في الليل خافقة القلب لاهثة، تشرب كأس ماء وتحاول ألا تشعر بها مرجانة.

توقعت أن تصادف بين القتلى ذات يوم بهاء. لم تصادفه. رأت سعيدا! لا تصدق عينيها! أقدر لها أن تلحق نوري يوم أخذوه في عربة المحكومين كفراري في هذه الساحة، وأن تستقبل رسالته الأخيرة من العراق، ثم أن ترى سعيدا معروضا مع القتلى في الساحة نفسها؟ كان بملابس فلاح لذلك لم تتبينه في البرهة الاولى. فحدقت في الوجه، ثم حدقت في اليدين. ثم تبينت قميصه المطرز تحت القنباز، قميصه الحريري الذي يحبه! أي فلاح أنت يا سعيد! لن تعرف إلا فيما بعد من إبن الكحال لا من بهاء، أن العسكر التقطوه ورموه بالرصاص من بعد. كان يحمل رسالة شفوية وصل بدلا منها رتل القتلى الذين كوّموا في آخر المساء في عربة واحدة ساقوها إلى ساحة المرجة!

لطمت نرجس وجهها عندما تبينت سعيدا. فأمسكت نفيسة بيدها. هس! بينها وبين سعيد العسكر، ورجل يأخذ صورا للقتلى. يتسلى؟ رفعت كفها وصفعته بكل قوتها فأمسك العسكري يدها ولواها. صاحت: أنزل يدك! تراجع المصور، وهبطت يد العسكري. هل خاف حزنها أم توحشها؟ بقيت واقفة تتأمل جثة سعيد، فأبعد العسكري كتفه قليلا كي يتيح لها الرؤية. بقيت جامدة تتفرج على الوجه وتحاول أن تتبين المكان الذي بدأ منه النزف. لا تستطيع أن تبلع ريقها. وضعت كفها على فمها كيلا تبكي. يا قلبي يا سعيد، أين الشعر الذي كنت تخترعه لي؟ أين

ضحكتك الحلوة؟ هل كتب على يوسف أن يوزع أبناءه في بلاد الشام بين دمشق والعراق، وأن يبقى في حيفا وتبقى فاطمة في طبرية؟ لو تستطيع أن تنادي كالندّابات الناس ليتأملوا هذا الظلم! لتسأل عنه الذين أرسلتهم عصبة الأمم كي يكونوا مسؤولين عن سوريا ويحضرونها لتحكم نفسها بنفسها! لتقول لهم تعالوا تفرجوا كيف جعلتم شابا يكتب الشعر ويعزف على العود ويحب النكتة يتنقل بين الثوار ليوقف ظلمكم! يا ويلي، هذا الدم في رقابكم! هدمتم مدينة جميلة، أحرقتم شجرها وقتلتم أبناءها! وليّ عليكم، وليّ!

آه، تذكرت نفيسة مرة أخرى ما يقوله أهل الشام عندما يدللون عزيزا: تشكل آسي، تطلع على قبري! نعم، المنى أن يعيش المحبوب بعدهم، وأن يكون هو من يدفنهم لا هم من يدفنونه! قدرها أن تدفن أحباءها! أخاها وأولاد أخيها والرجل الوحيد الذي أحبته حقا! بيني وبينكم يا محتلين بحر لا يمكن أن يقطعه أحد منا إلى الآخر!

ما أشق أن تفرض نفيسة على نفسها التوازن كي تسند منور! قالت لها: اسمعي، نجا واحد منهما وكان يمكن أن يقتل الاثنان! آمني بالقدر! القدر؟ لماذا يختارنا نحن؟ اسكتي، القتلى تحت أنقاض حي سيدي عامود لا أهل لهم؟ والفلاحون القتلى في ساحة الشهداء؟ فرض علينا التماسك يا منور، تذكري ذلك!

عندما عانقتها نرجس فهمت أن حدثا كبيرا لا تريد أن تعرفه وقع. حضر بهاء. المقتول إذن هو الغائب! صرخت: لا تقولوا لي إن سعيدا قتل! قولوا جريح! بكت نرجس وجلست على الكرسي غائبة عن نفسها. فقالت نفيسة: يا منور فكري هل يريد سعيد أن نصرخ ونقع على الأرض ونولول؟! خذي هذا المنديل وعضّيه! أطرقت منور وأغمضت عينيها. يا ربي ساعدني على الصبر!

بقي سعيد يوما طويلا تحت الشمس وتحت الليل في ساحة المرجة. ركضت نفيسة إلى إبن الكحال ليتوسط كي يسحب سعيد ليدفن. وكانت خجلة وهي تطلب ذلك منه. فكيف يحق لها أن تستثنيه من اولئك الذين لا يريد أن يستثنى منهم! ابتكر الناس سترة أخرى، فنثروا الزهر على الجثث. رموها من بعد ومن قرب. قطفت نفيسة آخر الفل من أصصها، قطفت الياسمين من عريشتها، وقطفت آخر زنبق شامي في هذه السنة. من يرانا يا نرجس نحمل هذا السلة من الزهر يظن أننا ذاهبتان إلى حفلة! وهل يذهب الناس إلى الحفلات يا نفيسة خانم في هذه الأيام!

في الليل حمل سعيد إلى بيت نفيسة كي تخرج الجنازة من سوقساروجا إلى الدحداح. وقتئذ أتت نفيسة ونرجس إلى منور وقالتا لها: البسي ملاءتك! وقتئذ غاص قلب منور وكادت تصرخ لكنها كتمت صرختها! وفي الخطوات القليلة بين بيتها وبين بيت نفيسة تذكرت الصمت الذي فرضته أمها فاطمة يوم وفاة أبيها، وفهمته! يخاف الحزن العميق من الدموع. كيلا يخرج من القلب، كيلا يسيل مع الدمع. كأن صاحبه يصر أن يستبقيه إلى آخر العمر! وفاء؟ ليتذوقه كما كان يتذوق الحب؟ ليكون قادرا على استحضار الغائب؟

رأت منور سعيدا شاحبا. أزاحت قنبازه وكشفت القميص الحرير المطرز الذي كان يحبه. وغمرت وجهها به. يا حبيبي! أتيت من طبرية، إلى بيروت، ومن بيروت إلى دمشق لتموت؟ كم كان دربك طويلا! صرخت نفيسة: اسكتي يا منور،

اسكتي! ومسحت عينيها. لم تسمعها منور واستمرت في حديثها الهادئ مع سعيد: لو تزوجت أما كان أفضل لنا، لتبقى منك ذكرى، امرأة أو ولد أو بيت؟ أكنت تعرف مصيرك لذلك تفاديت أن تمشي حتى النهاية إلى امرأة؟ ولذلك كنت تتنقل في بلادك كأنك تريد أن تشبع من الدنيا؟

قفزت منور إلى الباب كأنها تريد أن تستبقي النعش. فأمسكت بها نفيسة. وصعدت بها إلى السطح. في صدر الجنازة مشى بهاء مطرقا متصالب اليدين فوق بطنه. ووراءه وحوله أهل سوقساروجا، رجال عرفتهم منور ورجال لم تعرفهم. سمعت من مسجد الشامية الصلاة عليه. بقيت على السطح حتى خرجوا بالنعش وحملوه إلى الدحداح! كأن خالد آغا رتب قبره وزرع الخبيزة حوله ليتركه لسعيد! ولتزور نفيسة اثنين معا، من فيه والغائب عنه!

خلال جنازة سعيد دوت القنابل والرشاشات، وسمع قصف بعيد. حاول بهاء أن يتبين المواقع التي تقصف. قال لنفسه: هذه القنابل من جهات برزة وحرستا والقابون. وهذا الرصاص من جهات باب شرقي ومن جهات الميدان. منذ أشهر يقصف حي الميدان! نسفت بيوت الثوار فيه وفرضت عليه غرامة، ولم يفد وجهاء الحي أن يقدموا احتجاجا للداماد في فندق فيكتوريا. هذا الرصاص من جهة كفر سوسة!

قالت نفيسة وهي تصعي إلى صوت الرصاص: هذا تحية لسعيد! ليفهم الفرنساويون أن موت الثوار لا يوقف الثورة! امسحي دموعك يا منور! عيب! لم تبك النساء اللواتي احترقت بيوتهن! حملن أطفالهن ورحلن إلى المهاجرين! قالت منور: يعوض البيت يا عمتي، لكن من راح لا يعوض! ردت نفيسة: من قال لك إنهن لم يفقدن رجالهن؟ فوق مصائبهن يبعن أثاثهن وحليهن ليدفعن الغرامة التي فرضت على بيوتهن المهدومة! فكري بمصائب الناس! روى بهاء لمنور أن الفرنساويين قرروا فتح طرقات ليباعدوا مابين الأحياء والبساتين. ستهدم بيوت دمشق بحجة أخرى: تنظيم المدينة!

يفيد الحديث لأنه يملأ الفضاء حول منور. تحاول أن تمسك بالكلمات لتخرج من بئر الحزن، وتلهث! لكن آه، لماذا تتصور منور أنها هي التي يجب أن تعزّى لأنها أكثرهم حزنا؟ صحت ونظرت إلى بهاء وإلى نفيسة. انثنت على نفسها وبكت وهي تشهق كأنها كانت تبكي منذ ساعة. أشارت نفيسة لبهاء كيلا يلمسها. فلتفرغ ما في روحها من قهر! منع بهاء نفسه بالقوة من البكاء، وأدارت نفيسة وجهها نحو النافذة. ثم حملت لمنور كأس ماء معطر بماء الزهر. اشربي يا روحي،

اشربي! من فقدناه لا يستعاد بالبكاء يا منور. قلعوا قطعة من قلوبنا! لكننا لسنا وحدنا في الهمّ. تبكي البلاد كلها شبابها القتلى! للحزن كرامة، احترامها من عاداتنا. وعلى قصف البلاد جواب، احترامه أيضا من عاداتنا! من كان يمكن أن يسكت على الظلم لن يسكت اليوم كرامة للقتلى!

سقت نفيسة منور كأسا من البابونج. بالقوة؟ بل كانت منور بعد هيجانها ضعيفة، شربت الكأس وهي لا تعي ما تشربه. بقيت دون طعام يومين كاملين. ربّت بهاء على يديها، ربّت على شعرها. وكان هو نفسه يحتاج من يعزيه. بكى أمام نفيسة كالطفل. هذا أخي وصاحبي! صرت وحيدا، يا نفيسة خانم! خسرنا جوهرة، يا نفيسة خانم! هذا كاتب كان يمكن أن يكتب شعرا جميلا، ومقالات جريئة. كان يحب المسرح. كان يترك مكتبة أينما أقام. كان يتهيب نشر قصائده ويظل يصححها ويغيرها. يجب أن نخبر أصحابه وأصحاب قدري، وخاصة سليمان باشا السودي في إربد. كان آخر من زاره!

من نحن؟ ألسنا تربية أسرة وزمن وأصدقاء؟ ربى يوسف وفاطمة الكرامة في سعيد. لكن أصدقاء يوسف وقدري نشروا له صراعات الزمن، واقترحوا خياراته. لم يقصد سعيد أن يكون من طليعة جيله. لكن القدر دفعه إلى هناك! فدار في المحيط الذي صاغته "العربية الفتاة" رغم الفرق في العمر بينه وبين رجالها. تمرد طبعه على تنظيم الأحزاب. لكن السياسيين أفادوا من سعة تنقله وهيأوه كي يساعدهم. يساعدهم؟ رمى نفسه على ما اقترحوه، لكنه كان أكثر من ذلك! كان يستنبط، يقترح، مغلفا جولاته الخطرة بمرحه وسهرات الغناء والطرب. لذلك قال سليمان باشا غاضبا على القائمقام الذي اتهمه بإفساده الرجال بالسهرات خارج بيوتهم: لا نتحمل عقل الموظف التركي الضيق! يقول بعض الناس إن شرق الأردن يحكمه سوريون كي يبرروا إبعاد الوطنيين الاستقلاليين عنه، لكنهم يسكتون على أمثال هذا الموظف! طلب سليمان باشا من الأمير عبد الله أن يبعد علي رضا. فهل يهمل الأمير رغبة زعيم الروسان!

ربما فهم سليمان باشا سعيدا أكثر مما فهمه قدري! يفهم الغرباء أولادنا أحيانا أكثر مما نفهمهم، لأنهم يفحصونهم في نضجهم. ونكون نحن تحملنا طيشهم قبل النضج! فهل وهب سعيدا التنقل بين بيروت والشام وشرق الأردن رؤية تحيط بالأحداث والأشخاص فتقدر مسارها؟ ستر تواضعه مهارته في استنتاج الجوهر من التفاصيل! لكن سعيدا كان مزاجا صافيا. فلم يتحمل كل من يجتمع في المضافات. عارض أن يفرض الثوار في دمشق مساعدة القرى لهم كأن المساعدة غرامة. وحدثني عن خطر التنافس بين قادة الثورة في الغوطة. يفترض أن يكون الثوار عصابات، لكن يفترض أن يكون ولاؤهم لقيادة واحدة، مهما حرّكتهم العلاقة بزعماء مناطقهم. يندفع بعضهم بفكرة الجهاد القديمة، أو بشهامة الفرسان القدماء. في هذا الاندفاع هل يقدرون متى تجب المعركة وأين!

قال سليمان السودي لسعاد وعبد الرحيم: نحن الذين خسرنا سعيدا! وتذكر أن سعيدا قال له: هذه المعارك بيننا وبين الفرنسيين تجربة لثورة قادمة تجتمع فيها أحزاب مع مقاتلين! محظوظ من سيعيش ليراها! خلال تلك الأحاديث كنت أغبطه لأن الحكمة لا تضبط صراحته. لو كنت مكانه لكنت مثله تماما! لكني رئيس عشيرة يجب ألا يهجر الحكمة!

استمعت سعاد إلى سليمان السودي في انتباه. جمعتّ ملامح سعيد التي

لاتعرفها! تزهو بقتيل؟ ببطل؟ أصبح كذلك لأنه قتل؟ تفضل لو بقي حيا! لكنها خلال حديث سليمان باشا عنه فهمت أنها حررت سعيدا بزواجها من عبد الرحيم. ويسرت له أن يستسلم لقراره. بكت سعاد طول الطريق إلى إربد ثم إلى بيت السودي في سما. ربما لأنها لم تجسر على البكاء في دمشق. فالحزن الذي عبق من خرائب المدينة ألزمها بأن تضبط الحزن بالحد الذي ألزمته به نفيسة ومنور. رأت المخازن والبيوت المحروقة في الدرويشية والسنجقدار مع أن الفرنسيين فرضوا على أصحابها أن يصلحوها وإلا دفعوا غرامة. حي سيدي عامود خرابة! وفي مقبرة الدحداح كثير من القبور الطرية، وما أكثر ما رأت من النساء اللواتي يحملن حزم الآس مسربلات بملاءاتهن السوداء! قالت لبهاء: وصل سلطان باشا الأطرش إلى الأزرق، وثوار الغوطة إلى عمان، وبعضهم وصل إلى فلسطين. فهل ننتظرك عندنا؟ يا سعاد، يبقى هنا من يستطيع أن يبقى! أنا أستطيع ذلك! نعم، كان ملتزما بقانونه: "كلما كنت حذرا حميت الزمن الذي تستطيع أن تخدم فيه مشروعك"! ربما نجّاه أن الجواسيس لم يعرفوه، لكن الحظ نجّاه أيضا فلم يصب برصاصة.

طلبت سعاد من زوجها، وهما في دمشق، أن يزورا سليمان السودي في سما: لو كان يستطيع أن يزورنا لأتى! لكنه يستقبل التعازي بأصحابه! واجبنا أن نشاركه حزنه! كانت تريد أن تجمع آخر صور سعيد من أصحابه! وفهمها سليمان باشا.

هل يتيح لنا الموت فقط أن نعرف أصدقاءنا وأحباءنا، لأنه بنقطة النهاية يكون قد أكمل مسارهم فيمنع أن يزيدوا فيه، ويمنع أيضا أن يرتدوا عنه! أم لأننا نصبح أحرارا في الحديث عنهم مستبعدين ظلالهم، مستبقين ضوءهم كي نزيد الخير في الأرض؟ ولأننا بحديثنا نوهم أنفسنا باستمرار حياتهم! أحب سعيد أحمد مريود، لكنه لم يحب آخرين! قلت له: في الأيام الصعبة يجب ألا يقودنا الهوى، بل العقل! رد: بل دائما! لكني لا أفصل الهوى عن العقل! حقا، أحب أحمد مريود وسلطان الأطرش لأن عقله قاده إلى ذلك. حبه النساء؟ لا أدري! تلك قضية ثانوية! لو تقول له سعاد: ثانوية؟! شلّحت اليهوديات رجال العرب أراضيهم وأموالهم! صمتت. لكن كأنما فهمت وقتئذ هرب سعيد من الاستسلام للحب!

قصدته سعاد لتسأله: كيف قتل سعيد؟ لكن زيارتها إليه انتهت. ستخلو بالنساء وسيخرج ليستقبل زواره! وقفت أمامه منتظرة أن يصارحها. قال: كان مع ثوار الغوطة الذين لاحظوا حشدا فرنسيا يستعد للهجوم على جباتا الخشب. ربما

ذهب ليحذّر أحمد مريود! أتعرفين يا بنتي من كان هناك مع آل مريود؟ عز الدين الجزائري وثوار دمشق! يا بنتي هل أعد لك من قتل من آل مريود؟ هل أعد لك من قتل من أبناء العسلي الذين سميت أمهم أم الشهداء؟

خطر لسعاد وهي تتفرج على زهر البرية في طريق العودة في أوائل حزيران سنة 1926 أنها تلمس صلة بين زهر البرية وبين الشهداء الذين بقوا فيها. وإلا لماذا يبدو الزهر متنوعا وجميلا، ووحيدا هكذا كل سنة! هل يكفيه ماء المطر حقا؟ ولماذا يبدو لها كأنه اختار ذلك المدى الحر تحت السماء الواسعة؟ لن تفكر في مأساة أن يكون سعيد فشل في أن يوصل الخبر الذي يحمله، أو في عظمة أن يكون أوصله. فمن يستطيع أن يحصي النجاح والفشل في صدامات كثيرة؟ شعرت بألم في معدتها لكنها خجلت أن تذكر ذلك. لاحظ عبد الرحيم أنها تنتشي على نفسها. لكن هل تليق بحزنها كلمة يقولها؟ هي التي هدأت نفسها: لعله في ذلك اليوم كان حرا أكثر مما كان طول حياته! فما جدوى الحرية التي لا تعبر عن اختيار!

تحدث سليمان السودي، بعد انصراف سعاد وعبد الرحيم، إلى المعزين بأحمد مريود وشهداء جباتا الخشب. أعلنت إربد وقراها وعجلون الحداد. فليفهم معنى ذلك من ظنوا أنفسهم منتصرين!

استعاد سليمان للحاضرين الأحداث. تذكر أحمد مريود عضو المؤتمر السوري. رفض أن نقترح على لجنة كينغ كرين طلب المساعدة من بريطانيا. قال: لا فرق بين فرنسا وإنكلترا وتركيا إذا أرادت استعمارنا! ذكرنا بأننا كنا نعيش في دولة واحدة هي الدولة العثمانية. وقال: بعد الثورة العربية سنعيش في دويلات تحكمها فرنسا وإنكلترا. فهل نستطيع أن نقنع الشعب بأننا تحررنا؟ سيحتقرنا شعبنا!

عندما اجتمع فيصل في قصره بأعضاء المؤتمر السوري ليعرف موقفهم من الإنذار، قال له مريود: أمروا غورو باحتلال سورية، وبريطانيا شريكة في المؤامرة. وليس لنا إلا المقاومة. واقترح أن تنتقل الحكومة العربية إلى شمال سورية وتنقل معها الوثائق والأموال. هل كان ضد فرنسا؟ بل قال: فرنسا دولة متحضرة نريد أن نتعلم منها ونحن أحرار، لكننا لا نقبل انتدابها أو انتداب غيرها علينا.

تذكر الحاضرون معارك الحولة ومرجعيون والجولان في سنة 1919 ألم يبدأ الصدام باحتلال فرنسا البقاع والأقضية الأربعة؟ وتذكروا مريود وزير العشائر في حكومة الأردن. تذكروا اجتماع السودي والعبيدات ووجهاء إربد في بيت عبد

الرحمن إرشيدات يوم استعد الإنكليز لتسليم مريود للفرنسيين، ففرضوا إلغاء الأمر باعتقاله! كان بين الحاضرين في مضافة السودي من استلم نداء مريود إلى رجال الدولة العربية وضباطها للاشتراك في الثورة السورية. لم يكن أحمد مريود يفكر بعصابات بل بجيش دولة عربية. وكانت قيادته في معارك 1919 مجلسا فيه ضباط مهمون من ضباط الجيش العربي. ومن ضباط الدولة العربية؟ تذكروا يوسف العظمة الذي تخرج من استنبول ومن برلين، وسعيد العاص خريج استنبول، أحد قواد دمشق في سنة 1913، رجل معارك جوبر والميدان والمليحة! تذكروا فؤاد سليم الذي تسلل من مصر سرا عابرا فلسطين إلى سورية ليشترك في الثورة السورية!

كان في الحاضرين قبل الحديث عن مريود وأحداث الثورة ورجالها، زهو المسنود بتاريخ طويل يمتد إلى الدولة العربية الكبرى التي نشرت الحضارة، وبرجال سياسة كصلاح الدين ونور الدين الشهيد والظاهر بيبرس، وبخلفاء كعمر بن الخطاب وهارون الرشيد والمأمون، وبشعراء كالمعري والمتنبي. سقط من ذاكرتهم غزو تيمورلنك وهولاكو والصليبيين. فأضافوا بطولة مريود ورفاقه إلى ذلك الإرث. وردوا حزنهم بايمانهم بأن المنتصرين دون مستقبل في هذا البلاد لأنهم دون أصل فيها. واستعادوا رواية معركة جباتا: تنقل المقاومون منسحبين ومقاتلين بين بيت تيما وسعسع وبيت جن وعرنة وحضر. في الشوكتلية قوات الغوطة، وفي جباتا الخشب مع مريود قياديو الغوطة، آل العسلي، وعزالدين الجزائري. تسللت الآليات إلى جباتا في الفجر. ضربوها بالطائرات والمدافع ثم هجم عليها الفرسان الفرنسيون. هل نشروا الخوف بعرض جثة مريود في ساحة المرجة؟ نشروا الكره لهم والحب له! فدفنه أهل دمشق في مدينتهم لا في بلده!

تحدث سليمان عن أحمد مريود الذي يعرفه أكثر الحاضرين. ذكر أسماء آخر مرافقيه. وهو يعرف أن الزمن سيبقي اسمه فقط كرمز لمجموعات، كأن الأسماء تثقل على ذاكرة الناس. ولكن أكان مرافقوه يعترضون على الاجتماع فيه لو نهضوا من موتهم! بدا لسليمان أنه ثبت مريود في المركز كي يبين جوهر الأحداث وصوتها. لذلك تجول حرا في ذكرياته بعد انصراف آخر المعزين. وفكر في سعيد. شعر بأنه ساعده على موت مبكر لا يناسبه جلاله. هل الهزيمة خسارة أرض ومدن؟ بل خسارة بشر ربيناهم نحن والزمن! عاش سعيد في ظلال رجال الدولة العربية. لم تدمر تلك الدولة ويلاحق رجالها فقط، بل شباب عاشوا في فيئها! هنا في بيته في سما قال سعيد: ربما صاغت جمعية "العربية الفتاة" مناخ

زمننا. فجمعت رجالا من بلاد الشام في الحلم بالدولة العربية. كانت الدولة العربية مشروع حرية كبير، مشروع تقدم، حكمها رجال متعلمون متنورون. فلماذا ذبحها الاوربيون الذين يدعون أنهم قرروا الانتداب ليحضّرونا؟ بالقوة ألغوا مشروعنا الحضاري!

تساءل سليمان يومذاك وهو يستمع إليه أهذا هو الشاب الذي ينشد الشعر ويغني ويعزف على العود؟ وقال لنفسه: أنا مسنود بعشيرتي. في بلدي نفوذ إنكليزي؟ سيزول! لكن المستوطنين سرقوا بيت سعيد وأرض أبيه! يوجعه احتلال سوريا والهجرة التي تأكل بلده! مع ذلك قال له: من ير ملامح وجهك الرائقة يتصور أنك بعيد عنا! رد سعيد: هذا هو المطلوب يا سليمان باشا! أما ملامحي، فالشباب! كاد يسأله: وقلبك، دون غضون يا سعيد؟! لكنه عبر له عن الحب بنظرة طويلة. يخاف عليه؟ لم يعد الحب يناقض خوفنا على المحبوبين! نودعهم ونحن نعرف أنهم قد لا يرجعون!

في تلك الأيام هدأ سليمان سعيدا: لا تعلن أنك تكره الركابي! نملك التعبير عن الحب بمقدار، لكننا لا نملك إعلان الكره! فذلك يعني إعلان العداوة. وإعلانها يعني أننا وسعنا معركتنا! فلماذا نبدد أنفسنا على جوانبها؟! لكنه قال لنفسه: لم يخطئ سعيد في حبه وفي بغضه. أحب أحمد مريود، ومعه الحق! أحب فؤاد سليم، ومعه الحق! يوم التقى بفؤاد سليم بدا مسحورا به! وقال لسليمان: لو تعرف ماذا وهبتني! تسلل فؤاد سليم من مصر إلى فلسطين إلى سوريا ليشترك كضابط في الثورة السورية. نظم المتطوعين ودربهم. حارب المحتلين الفرنسيين في وادي التيم وحاصبيا وراشيا. وقتل في مجدل شمس في 13 نيسان 1926 ودفن في تل الأسود.

هل سيرضي ضمير سليمان أن يتذكر أن مكتب حزب الاستقلال في جنيف تلقى طلب وايزمن اللقاء به، ورد عليه بعد اتصال المكتب بدمشق: على وايزمن أن يعلن في مؤتمر صحفي أن فلسطين عربية! وأن يكون الحوار بين وايزمن وبين الحزب في مقر عصبة الأمم في جنيف! ليت سليمان يستطيع أن يطمئن سعيدا على المستقبل الذي لن يراه!

وصل إلى إربد والزرقاء وعمان رجال الثورة السورية المنسحبين من سوريا. عبروا الأرض التي كانوا يعبرونها في الاتجاه المعاكس بمشروع يرد المحتلين. استقبل سليمان بعضهم في سما. سيرحل بعضهم إلى العراق، وسيرحل بعضهم إلى مصر والحجاز! لكن هذا العبور موقت! لا تصدقوا أننا لن نجتمع مرة أخرى!

جمعت مصر مساعدات لضحايا القصف في سوريا. ووصلت إلى المجتمعين في مضافة السودي في سما قصيدة شوقي. وقف شاب أنشد القصيدة التي سترددها أجيال كثيرة. خيل للسودي أن سعيدا عاد، وهو الذي ينشد تلك القصيدة فدمعت عيناه. وردد بصوت منخفض الكلمات التي أنشدها الشاب.

سـلام مـن صـبا بـردى أرق ودمـع لا يكفكـف يـا دمشـق

وبـي ممـا رمتـك بـه الليـالي جراحـات لهـا فـي القلـب عمـق

وللمسـتعمرين وإن ألانـوا قلـوب كالحجـارة لا تـرق

وللأوطـان فـي دم كـل حـر يـد سـلفت وديـن مسـتحق

قبلت منور دعوات نفيسة إلى الغداء والعشاء. بل طلبتها! لأن الناس احتجبوا في البيوت والحارات؟ لأن الثورة قربت كلا منهما من الأخرى؟ أم لأن منور تخمد قلقها بين المجموعة؟ عانقها بهاء وقت رجع. ثم ابتعد عنها، لكنه قال لها بأسلوب آخر كم يحبها: حكى لها عما عاشه خلال غيابه في الثورة. وداوته كما تداوي روحها بالاجتماع بنفيسة وإبن الكحال! لعل هذه الصداقة خير علاقة ببهاء حتى يشفى كل منهما! تأملت يديه خلسة وتساءلت: هاتان اليدان سددتا الرصاص؟! هذه اليد الرقيقة التي دللتها، وداعبت شعرها، ولمست كتفها، آه..! بكى بهاء على صديقه الذي لم يبكه في جوبر. هناك لا وقت للمأتم! حمله على ذراعيه جريحا، ثم تبين أنه مات. "دمه على قميصي ويدي. لكن لا وقت للحزن. كنا مطوقين، تلاحقنا طائرة"! هربت منور ببهاء إلى بيت نفيسة. سيتحدث بهاء عن الثورة لكنه لن يمس جروحه! تعرف أنه ينهض من فراشه بعد أن تغفو ويلوب في البيت. تسمعه يحضر لنفسه القهوة، وتراه يقف في الداور ووجهه إلى أرض الدار المعتمة. كان يرتب روحه؟

عاش بهاء زمنا طويلا في سنتي الثورة. هو الآن ليس ذاك الذي خرج إليها! حمل معه تجربته في حرب الترعة، لكنه اضطر أن يطوّعها في حرب عصابات. ولو أراد أن يختصر تلك السنتين لقال كنت محظوظا برجال نبلاء، رأيتهم يتركون فراش الريش والأملاك ويأوون إلى الكهوف وينامون على القش، يمشون أحيانا النهار أو الليل، يرصدهم الجواسيس والطيران والموت برصاصة أو قنبلة أو مشنقة. وشاهدت كيف يتحول رجال متنوعون إلى مجموعة تتفاهم على الهجوم وعلى الانسحاب بالإشارة، وتفهم أن الشجاعة تهور إذا كانت دون أصول ومشروع. تبين بهاء في مجموعته موهبة راقية في فهم الأرض، الرصد العسكري الذي يدرس المكان ويرتب خطة تلائمه. نضج الذين حاربوا في ميسلون. ومع ذلك واجهته البطولة الفردية التي تستند إلى الشهامة والفروسية، وأحيانا تهمل الاحتياط من الجواسيس، وتتصور الانسحاب مسا بالرجولة، وتخرق تناسق المجموعة، مع أنها أحيانا تنجدها وتغطيها. قاوم بهاء الاستهتار بالموت، معجبا بالجرأة في مواجهته. وضبط الالتزام بنقل الجرحى. كان يجب أن يعلم مجموعته كيف تحتاط من الطائرات وكيف تصيدها رغم سرعتها. استخدمت مجموعته القنابل التي رمتها الطائرات فعبأتها ونسفت بها الجسور. وقابلت الدبابات بالدمدم

الألماني. وتداولت ما سمته القنينة، ووضعتها في فوهة البندقية الفرنسية. وماذا كان لدى الثوار؟ بنادق ألمانية وقنابل فرنسية. وما أقل المدافع! ولكن من كانت قيادة الثوار! بعض أعضاء المؤتمر السوري! بعض رجال الدولة العربية! بعض ضباط الجيش العربي! بعض من نجا من ميسلون!

مدت نفيسة طاولة الغداء. لم تبالغ في الطبخ، فالبلاد حزينة على شهدائها وخرائبها. وموت سعيد كسر روح نفيسة. لكنها احتفت بهذا الجزء الذي سلم من أقربائها! تحدث إبن الكحال وبهاء بصوت منخفض، ونقلت مرجانة ومنور آخر الصحون إلى الطاولة. قالت نفيسة وهي تجلس: والآن يا بهاء، من أولها! في كل مرة تلتقي به تطلب أن يحدثها عما رآه في الثورة وتقول: من أولها! فيحكي منتقيا ما يبعدهم عن الوجع. تراقبه منور متأملة المسافة بين قلبه وبين كلامه. وتهمس لنفسها ساخرة: كأنه يرتب لنفسه مستقبلا سياسيا لذلك يحكي عن الانتصارات ولا يمس الهزائم! يتصور كالزعماء أن الناس يجهلون الحقائق؟ يتصور مثلهم أنه يملك الحقيقة وأن الناس ينتظرونها منه؟ لا تخف علينا يا بهاء! من تحمل الثورة؟! ألا ترى ثيابنا السوداء؟

كانت نفيسة تتحدث عن أمر آخر: في علمي، اشترط غورو أن نتعامل بالعملة الورق! لماذا إذن لا يعتمدها الفرنسيون؟ سحبوا منذ ميسلون حتى اليوم ذهب سورية بالضرائب والغرامات وتركوا لنا ورقهم! نهبوا الأسواق المحروقة وفرشوا بيوت ضباطهم بالسجاد! قال بهاء: نعم يا نفيسة خانم! ابتكر ضباطهم أنواعا مذلة من الظلم! في الظلم أيضا ابتكار! وصلتنا إلى بيروت قصة قطة الضابط موريل التي ضاعت ففرض على أهل السويداء غرامة بالذهب. وقصص كاربييه حاكم الجبل الذي فرض الغرامات على القرى التي لم تستقبله بالطبل والزمر! وشغّل الشيوخ الدروز في كسر الحجارة. وبذلك فرش الأرض للثورة!

في الليل تحدث بهاء لمنور حديثا آخر. من قلبه. ألأنه شعر بأنه يخون روحه إذا تحدث كمحارب ينفخ نصره؟ أجاب على تساؤله المستمر: هزمنا؟ انتصرنا؟ لكن هل تولد الثورات، يا منور، جاهزة لتنتصر؟! يجب أن يتبدل الناس، أن يكبروا وينضجوا. يتعلم الرجال من أخطائهم. يبدو أنهم يجب أن يهزموا ويحزنوا على رفاقهم ويقدروا الخسائر التي يسببونها أو يتحملونها، كي يعرفوا الصواب ويسيروا إليه. ولكن يجب أن تكون الظروف أيضا وقتذاك مواتية. أترين كم يصعب النصر وكم تسهل الهزيمة؟! مع ذلك في كل هزيمة نصر يا منور. نصر بمقدار ما نفهم خطأنا ونستنتج صوابنا. وبمقدار ما نكسب حتى بالحزن من

حولنا! الهزائم يا منور مدرسة لمن يريد أن يتعلم منها! لكنها قاتلة لمن لا يستطيع الاستنتاج الصحيح منها، فيضيع أزمنة طويلة قادمة. نقول لا يصح إلا الصحيح! لكن لذلك شروط يا حبيبتي! الشروط أن نتعلم ونقوّم أنفسنا. لو كنت الآن بعد المشي في القفر جائعا عطشان مهزوما كما كنت قبل أن أشترك في هذه الثورة لوجب أن أموت! لو عدت مكسور الروح فقط لوجب أن أموت! لكني حزين حزنا لا حدود له، وقوي قوة لا حد لها! كمن يحمل قرارا صارما بأنه يجب أن يعيش عمن لم يعش! حلم يوسف العظمة، حلم عز الدين الجزائري آخر شهداء الثورة السورية، حلم أحمد مريود، قوتهم وعزمهم ومشروعهم فيّ. فلنتمن أن أكون محظوظا كي أحمله، وأن أكون محظوظا بظروف أستطيع فيها أن أنفذ شيئا منه!

عم يحدثها؟ حارب فقط؟ بل كان يكتشف الأشخاص الذين يحارب معهم، والذين يعبرهم وقد يشون به أو يساعدونه. كيف يصف لها أنه كان في كل برهة واقفا أمام موته وحياته. وأن الموت لم يكن شريفا فقط بل كان غدرا وخيانة أيضا! وأنه وهو يتبين قربا أعمق من قرابة الدم بينه وبين من يحارب معهم، كان يتبين أن لا رابطة تربطه بالوشاة المتبرعين بخبر عنه! ومن اولئك؟ قلة، لكن البعوضة تلسع! وصف لها حسن الخراط: عينان شهلاوان. ذكاء وفطرة سليمة. رشاقة وصدق. فجاجة في الصراحة. كل ما في يده لرفاقه. رجل فقير كان حارسا وكان ناطورا، دلته روحه الكبيرة إلى الثورة. وصل إلى الجبل في أيلول 1925. يعني قصد قيادة الثورة ولم يرم نفسه في اشتباكات صغيرة، بل في مشروع معركة عامة. تنقل بين النبك والجبل والغوطة! أتعرفين ماذا خسرنا؟ الانتصار؟ بل رجالا مثل أحمد مريود والخراط، وأبناء العسلي، وعز الدين الجزائري الذي أنقذ من بقي من أهل ومقاتلي جباتا الخشب، وانتقل إلى الغوطة، وفؤاد سليم.. الرجال الذين وهبوا روحهم ومالهم لبلدهم! لو تعرفين كم أحببت اولئك الرجال! كم احترمتهم! وكم فرحت لأن صبري، أصغر أبناء العسلي، بقي حيا! يجب أن نبحث عن أمهم، أم الشهداء، عندما أجسر على تعزيتها بهم! أتساءل يا منور، هل يبقى عادة بعد الثورات الرجال الذين يحاربون من بعد ويهربون بحياتهم ومالهم! ردته منور بيدها: من بقي من ميسلون استمر في الثورة السورية! ومن بقي من الثورة السورية سيستمر في غيرها! ومضت عيناه. تمد له ثورة جديدة، تتوقع أن يخرج إليها؟

يا منور، حرس المحتلون دمشق من الثورة. لكن قرار الثورة بدأ منها. كسبت الثورة العائلات الدمشقية الكبيرة، العسلي، البكري، والقوتلي.. وجمعت رجال الدولة العربية وضباطها من بلاد الشام. دخل الثوار دمشق في 18 تشرين الأول 1925

دروز ونسيب البكري والخراط وديب الشيخ وغيرهم، وأنهوا متاريس الميدان والشاغور الفرنسية. لكن سراي ضرب دمشق بالطائرات والمدفعية وخسرنا حي سيدي عامود ونهب الفرنسيون الأسواق. ضربها أربعة أيام، من الأحد إلى مساء الثلاثاء. أيام قاسية لكم أنتم الذين بقيتم في المدينة. ليت الثوار وقفوا في خطف سراي من قصر العظم! لكننا كسبنا احتجاج القناصل على قصف المدينة.

هزت دمشق معركة الزور. وستعرف ليلى بنت بهاء أبا عبده ديب الشيخ أحد أبطالها، وهو يلعب الطاولة كل مساء مقابل بيتها، باحثة عن رجل بعيد حارب في الثورة السورية! حسن الخراط، منير الريس، البكري، المؤيد العظم، سعيد العاص، أمامي الآن يا منور! استدرج المؤيد العظم العسكر من الميدان إلى ببيلا، ولحقهم سعيد العاص حتى قشلة الميدان. حدث ذلك حقا في بلد يحتله جيش!

أقام بهاء مأتما يوم عرف أن حسن الخراط قتل. تذكري يا منور يوم 21 كانون الأول 1925 يوم قتل الخراط! وسيبقى بهاء طول عمره وفيا ليوم مأتم الخراط. يخرج إلى المقبرة حاملا حزمة كبيرة من أغصان الآس. ومعه منور في ملابس سوداء. وفي المساء يشعل شمعة واحدة ويشرب كأس ماء. لم تفهم منور أبدا سبب ذلك ولم تسأله عنه. أكان العطش سبب ذلك؟ أم كان الظلام الذي يحيط به في الطريق من قرية إلى أخرى؟ قالت له في ضوء الشمعة: سعيد أحب فؤاد سليم! تقصد أن تضيف يوما آخر إلى الحداد؟ قال: كان فؤاد سليم يومذاك مع الدروز بين حاصبيا وراشيا. عاش بعده أشهرا فقط! هو أيضا وصل كالخراط في أيلول إلى الجبل.

بدا لبهاء أن مشروع دو جوفينيل للسلام هو أيضا مما فرق الثوار. استمرت الاشتباكات يامنور، لكننا كنا فيها كمن يحاول أن يجمع الثوار وأن نذكرهم بما يلتقون فيه. أكد اجتماع الثوار الذي اتفقوا فيه على ضرورة الوحدة وعقاب الخونة أينما كانت أصولهم، محاولة لرتق الشرخ. رجحوا الهجوم على اللجاة. لكن صدق المثل: يا طالب النجاة في اللجاة! مع ذلك دخلها الثوار في شباط 1926

اجتمع سلطان باشا وأحمد مريود والشهبندر واتفقوا على وحدة الموقف والخطة، وتعيين مصطفى وصفي قائدا عاما للغوطة. نزل الشهبندر مع وصفي واجتمع بسعيد العاص ومنير الريس والمجاهدين وألفوا في نيسان المجلس الوطني للشمال وعين وصفي قائدا عاما.

لم يتركنا العدو نتنفس. هاجم الجنرال أندريا السويداء في 25 نيسان

1926بالقنابل والطائرات. وانسحب الثوار إلى الأزرق.

بعد انهيار المحور الرئيسي بقيت مناوشات. نرفض أن تنتهي ثورة هزت جيش الاحتلال. من هذا السعي الميثاق الذي وافق عليه سلطان باشا وقدم لفيصل كي يسعى لمعاهدة تشبه المعاهدة بين العراق وإنكلترا. واجتماعات الشهبندر مع سليمان السودي ورجال حوران. ومحاولة القاوقجي أن ينتقل بمجموعة من الثوار إلى جبل الزاوية في الشمال. وأن يحيي التمرد في الغوطة. في 4 اكتوبر تشرين الأول 1926 ترك سلطان باشا الأطرش والشهبندر ونسيب البكري الجبل، إلى شرق الأردن.

قصد فوزي القاوقجي القيادات في عمان ليستمر في الثورة. لكنهم سياسيون يعرفون أن استمرار الثورة مستحيل الآن. مع ذلك أخذ بعض الثوار ودبر مؤونة وسلاحا بنفسه ورحل ليحارب.. كان ذلك مناوشات، فالمجموعات تتبع زعماءها. كانت آخر معارك الثورة السورية قرب تل منين. استشهد عز الدين الجزائري وبكيته. أكان يجب أن يموت في آخر ايام الثورة هذا الرجل الذكي، المثقف، المرهف، الشهم، الذي قلل خسائر المدنيين في معركة جباتا الخشب، وأنقذ من بقي منهم! لكني واسيت نفسي: بقي سعيد العاص حيا!

هكذا تفرق الثوار، في الأزرق واللجاة والصفاة والعراق ومصر والجزيرة. المحظوظ من استطاع أن يعود إلى مدينته! أنا منهم!

الفراق بالمكان ليس مصيبة. لكن بعض رجال الثورة السورية تفرقوا مختلفين. لاتسأليني لماذا! اجتمع الشهبندر بالحاج أمين الحسيني في يافا واتفق معه على حصص المعونات للجبل والغوطة واللجاة. حزب الاستقلال من جهة وحزب الشعب من جهة. والبلاد في حاجة إليهما معا!

كان بهاء مع الذين مشوا مع القاوقجي في رحلة الإصرار على إنقاذ الثورة. مع أنه مؤمن بأن زعماء الثورة وزنوا الممكن والمستحيل في تلك البرهة. لعله أراد أن يشيعها حتى إمكانيتها الأخيرة! تأملته منور وهو يروي ذلك المقطع لها، وكأنها لامته: تصر على الخطر إذن كأنك تريد أن تتركني! وتفادى أن يقول لها إنه فهمها. كان يرفض الهزيمة. فمشى الليل وكمن النهار. لا يؤمن بالعناية الالهية، لكنها حمته بالضباب مرات قرب حسيا. مشى، مشى، وشاهد أهل القرى الذين تفادوا الثوار بعد أن ذاقوا قصف القنابل وثقل قوات الاحتلال. جاع وعطش، وصل إلى مضافات رجال شجعان أفهموا القاوقجي أنهم لن يرفدوه لأن الثورة انتهت، لكنهم ساعدوه فدلوه إلى مسار القوات الفرنسية. اهترأ حذاؤه. برد. ذاق

تنوع التضاريس، فلاة ممتدة، تلال، صحراء وبساتين. تبعته طائرة ورمت قنابلها قربه ودهش لأنه حي. ودهش لأنه لم يجد في جسمه جرحا. يا للجرأة التي تجتاحنا عندما نتبين أننا تفادينا الموت! توهمنا أن الموت لا يجرؤ على القرب منا. أو كأننا بعد أن رأيناه لم نعد نبالي به. ولكن أي مذاق حاد للحياة بعد ذلك! تصبح الشمس عذبة، يصبح الليل البارد منعشا، يصبح التنفس حظا. تشعرين بأنك تعيشين بكل خفقة قلب. ثم تنسين ذلك عندما تتشغلين برصد العدو. ولكن ما معنى أن نعيش يا منور؟ معناه أن يموت الآخر الذي يهاجمنا أو نهاجمه. ذلك مفروض علينا! رأيت شابا فرنسيا مقتولا. قد أكون قتلته أو قتله آخرون. كان موته انتصارا لي. لكن ألم تكن له أم وأخت وحبيبة ينتظرنه كما تنتظريني؟ الفرق بيننا يا منور أني لم أقصده لكنه قصدني في بلدي مرغما أو مجبرا، وانتصاره ونجاته في أن يقتلني.

صمتت منور. لماذا يجب أن تفكر في الموت والحياة في هذا الشكل؟ لماذا فرض عليها ذلك، والعلاقة بالموت والحياة تتجاوز هذا الصراع البشع، إما أنا أو أنت! ألا يجوز أن يكون ذلك الفرنسي الذي ذكره بهاء قاتل أخيها سعيد! كانت الحياة والموت مسألة بين إنسان وإله أو طبيعة، رجاء أو مللا. كانت تسمع الدعاء الأنيق: "ربي لا تثقل بنا أرض ولا تكره بنا عبد"! كأن الحياة والموت أمر شخصي، رغبة أو قدر. لكنها هنا حكم من غريب على حبيب! ألم يقتل سعيد بهذا القانون الظالم؟

ربت بهاء على ذراع منور وبقي زمنا مفتوح العينين. لم يقبّلها منذ وصل. كان قد استحم ولبس ثياب رجل من المدينة، كي يصل في أمان. بقي السلاح حيث يجب أن يحفظ لثورة أخرى. بقيت على بهاء آثار الشمس، وغضون في الوجه لم تكن موجودة. ووجع في البطن أحيانا، وبردية تهزه من الملاريا. لم يقبّل منور لكنها فهمت أن ذلك ليس رغبة عنها بل خجل وحزن. هانحن نتساوى الآن يا بهاء. فصراخ الحياع في بيروت منعني عنك وليس فقط أنك كنت تسهر مع الضباط الأتراك. لكن كلا منهما فهم أن أحدهما لم يكن من قبل أبدا قريبا من الآخر كما هو اليوم! يعشش كل منهما في الآخر كما تعشش الستيتية في هذا البيت. لذلك تبلل منور لها الخبز كل يوم وتراقبها وهي تشرب من بركة البيت، وتمشي قرب منور في أرض الدار.

لمست منور جبينه. قبلته وهو يغفو عدة قبلات كما تقبل أم ابنها. غطته بهدوء، ونهضت. وقفت قرب النافذة وبكت عليه. ياله من رجل حزين، ياله من

رجل مهزوم! ياله من رجل منتصر استطاع أن يمشي البلاد حتى يهترئ حذاؤه وأن يعبر الخوف من الموت، والخوف من الجبن، والخوف من الخائن والعدو، لكن كم رأى من التعاسة! مات أصحابه قربه ولم يستطع أن ينجدهم. نولول إذا مات قريب؟ شيع هذا الرجل كثيرين من الأقرباء إلى قلبه ولم يكن لديه وقت للبكاء عليهم. ولم يكن لديه وقت للتعزية بهم في مأتم! كم خسر البلد من رجال! انتهت الثورة، كم ذلك فظيع! كم عدد البيوت التي تلتف نساؤها مثلي بالسواد اليوم! عاد بهاء، لكن كم بهاء لم يعد! كم شاب قتل مثل سعيد! أما لهذا الليل من آخر يا رب!

ذهبت إلى الثورة لأني أفهم روح بلدي؟ بل عرفتها في الثورة! لعل ما يحمله بهاء من الهزيمة والنصر هو هذه المعرفة. فالغوطة كانت له السيران الدمشقي الذي يخرج فيه كالناس إلى البساتين في أيام زهر المشمش أو في أيام الفول. لم يعرف بهاء سورية الوسطى إلا يوم عبرها طفلا هاربا من ظلم زوجة أبيه إلى دمشق، قاصدا جدته جنة خاتون. ولم يعرف قبل الثورة جبل الدروز. الآن، يعرف روح القرى والمدن لأنه نام على صخرها وترابها، وشرب من أنهارها، وفرح بخبز فلاحيها وكان يمكن أن يموت مع قتلاها.

رأى من قرب بحث الضباط الفرنسيين عن المجد بإذلال رجالها. تأمل من بعد بيت سلطان باشا الذي نسفه الجيش الفرنسي في أحداث سنة 1922، وجلال خيامه التي نصبها حذرا خارج البلدة. عرف أن سلطان باشا اقترح على فيصل أن يلجأ إلى السويداء. لذلك فهم لماذا كان استقلال جبل الدروز عابرا. صنع ليلجم منطقة يتوجس منها الفرنسيون. لم يكسب الفرنسيون أطفال العائلات الذين قدمت لهم منح فرنسية! فتركوا مدارسهم الفرنسية في دمشق وبيروت وهرعوا مشيا إلى أهلهم وقت الثورة. وأي استقلال كان ذاك الذي أعلن لجبل الدروز سنة 1921 والسلطة الحقيقية فيه للفرنسيين! لم يفهموا أن اعتقال أدهم خنجر، قرب بيت سلطان باشا خرق عادات الضيافة والحماية في الجبل، فدفعوا الثمن!

في الجبل بدأ بهاء مشروع مذكراته التي سيعود إليها في حرب 1948 في فلسطين، موجهة إلى منور! كانت الإنسان الذي يحاوره ويحدثه عما يرى. وكان يتبين خلال ذلك أننا ونحن نعيش ونستمع ونخترق الخطر أو نحتفل، نخاطب الأعزاء علينا ليشاركونا فيما نعيش ونرى، وهم محصنون من الأخطار ومن غيرتنا! حدثها بهاء في مذكراته عن برك المياه بين الصخور. عن جمال الأرض البركانية المقفرة ولون السماء الأزرق القاتم فوقها. عن الساحة التي اجتمع فيها الرجال في ذلك المساء واحتفلوا بالثوار الضيوف بألعاب الفروسية. لم يكونوا مضطرين إلى ذلك كما اضطرهم حاكم الجبل كاربييه الذي كان يلزم أهل القرى باستقبالات مزركشة. فبدا الصدق والفرح في عرضهم الذي لم ير مثله. كدست المخدات تحت مرفقه وخلفه في خيمة مفروشة بالسجاد الثمين. دخل مع أصحابه القادمين من الغوطة إلى خيمة الطعام. كانت مفروشة بالسجاد أيضا. صب شاب الماء على يديه من إبريق، وقدمت له منشفة نظيفة من مناشف دمشق المقصّبة.

في الوسط أطباق المنسف الكبيرة. خدم الزعماء الضيوف حتى شبعوا. بعدهم تقدموا إلى المائدة. لتشعري يا منور بأنك قبل صاحب البيت!

في سنة 1924 قتل جنود وضباط فرنسيون في المزيريب وفي القنيطرة وفي دمشق. فاح عبق الثورة حتى بهاء في بيروت. راقبها بهاء كما راقبها سعيد في بيت السودي في سما. أندريا، ميشو، نورمان، بوكسان، ضباط فرض علينا أن نعرف أسماءهم وأن يعرفونا! الطائرات في تلك الفلاة عدوة ظالمة، يا منور! لا شهامة ولا فروسية! لكن المقاتلين أسقطوا كثيرا منها. في حماة ضربت طائرة الحاضر لكن ثوار القاوقجي أسقطوها. أسقط الكثير منها في جبل الدروز. في عين ترما في الغوطة سقطت أمامي واحدة. كم عدد ما سقط؟ ليس أقل من ثمانين أو تسعين في سنتي الثورة! سقوط الطائرة يدفعنا إلى احتفال، فنطلق بنادق الماوزر ومسدسات البرابيللو، مع أننا عانينا دائما من نقص الذخيرة. لا تظني أن الثورة كانت عذابا فقط! فالفرح عميق عندما تتصورين أنه قد يكون الفرح الأخير. في تلك الخيمة في الجبل كنا نقتطع لحياتنا ليلة أمام ساحة مضاءة بالمشاعل التي تغمس بالنفط لتبقى متوقدة. رقص الرجال. خفقت الكوفيات، ارتجفت العباءات، وبرقت السيوف في ضوء المشاعل. نظرت إلى السماء. كم كانت قاتمة! شعرت ببرد رائع. الخوف؟ ربما يكون قبل أن ترمي نفسك في بحر واسع من البحث عن العدو وتنشغلي بصيده، كي يضطر السياسيون إلى الانسحاب من بلدك! كنا في مأمن هناك؟ كانت الخيام محروسة، وهناك رجال على بعد ينصتون إلى السكون، يرصدون صوت حجر قد ينزلق تحت حافر حصان أو قدم رجل. لم نكن في أمان في أي مكان! فالغدر أسلوب في الحرب علينا.

رأيت المدارس والطرقات وقنوات الماء التي نفذها كاربييه المتحمس للعمران. والغريب أن يكون هو الذي أوقد الثورة في الجبل. فترك درسا لمن يريد أن يفهم أن الأبنية والمؤسسات لا تغني عن الكرامة والعدل، ولن ترى إلا كحق لا كمنّة! فالطرقات عبدها رجال أهينوا بالسخرة والسوط! هوس كاربييه بالأمن والطاعة صب الزيت فوق النار في الجبل. وما أسوأ أن يختار مكانا تعوّد الحرية حتى العزلة! "عمر الأسى ما بينتسى" يا منور! والأسى يتراكم منذ دخل الجيش الفرنسي إلى دمشق وأسقط الحكومة العربية!

لكن أتعرفين ما الحكمة من ذلك الاجتماع في الجبل؟ دفعتنا عاطفتنا وايماننا إليه. لكننا أكدنا به أن ثورة الدروز ليست خلافا محليا مع المحتلين، بل حرب وطنية. لا تقدر قيمة سلطان باشا الأطرش لأنه رأى ذلك! معه رجال مثل علي

عبيد وآخرون لا أستطيع أن أعدهم. وهل تظنين أن ذلك الموقف دون ثمن؟ دفع كثير منهم حياتهم وبيوتهم ثمنه! لكني أتبين الآن كم يمدّ الرجال الأحداث وكم يمكن أن يصغّروها! انتهت الثورة يا منور، انتهت! وضع بهاء رأسه بين يديه وبكى. لو كانت منور حاضرة لخفضت نظرها. عاد بهاء إلى مذكراته: لكننا ربما لم نخاطب بها زمننا فقط! وهل خاطب رجال ميسلون تلك الرقعة الصغيرة فقط من حياة بلادنا؟! لولا ميسلون أكانت الثورة السورية؟ نخاطب أزمنة يمكن أن تكمل نجاحنا وتتفادى أخطاءنا. ونجاحنا الكبير أننا نزعنا الطائفية والمذهبية عن الثورة. مقابلنا دروز تطوعوا في الجيش الفرنسي فأضروا الجبل وكشفوا مسالكه وحيّدوا عشائرهم فالعشيرة لا تهدر دم فرد منها! ومعنا دروز قتل كثير منهم، ورحل كثير منهم إلى اللجاة، ويا طالب النجاة في اللجاة! ثم رحلوا إلى وادي السرحان في نجد! ضدنا عرب، مغاربة، وتونسيون، وجواسيس من الغوطة! ومعنا مغاربة وتونسيون هربوا من الجيش الفرنسي! أليس الأمير عز الدين الجزائري شهيدنا في آخر معارك الغوطة! أترين كم تمتد أعمالنا التي نظنها تخاطب زمنا محدودا؟ أعلن القاوقجي ثورة حماة في 4 تشرين 1925 عندما وصلته أخبار عن احتلال السويداء وانسحاب سلطان باشا واستسلام بعض الزعماء لفرنسا. فاضطر غاملان إلى سحب قواته من الجبل ليواجه ثورة حماة. هدأت حماة بعد قصفها واتصال المستشار الفرنسي بوجهائها. لكن العصابات تحركت في الغوطة. فانتقل إليها القاوقجي. ولتتذكري اسم هذا الرجل! ضابط في الجيش الفرنسي انحاز مع جنوده إلى الثورة. أخفق في حماة فطلب الغوطة. لم يفهم أو لم يستطب طريقة عمل العصابات، فرحل إلى سلطان باشا. قصد النبك والغوطة مصرا أن يبقي الثورة مشتعلة. لكن السياسيين فهموا أن الشروط لم تعد مواتية لها! وربما صنعوا ذلك أيضا! أكان بهاء يستطيع أن يتنبأ بأن اجتماع داما في اللجاة صاغ بردّه على دو جوفينيل المشروع الذي سيعتمد بعد عشر سنوات في المعاهدة السورية الفرنسية؟! وأن المعاهدة التي اقترح سلطان باشا الأطرش على فيصل الوساطة لها، في اللقاء بينهما في الصحراء، ستستوحى منه! بدا مشروع داما حلما محبوسا بصخور اللجاة، فرأي المهزومين لا يطلب! لكن المهزومين ثبتوا الحقيقة التي ستصبح معتمدة: استقلال سوريا ووحدتها، وحكومة وطنية ومجلسا تأسيسيا!

كتب بهاء في مذكراته عن آخر معارك الغوطة. قدمت قرى الغوطة المأوى والتموين لنا. تحملت القصف بالمدافع والطيران وحرب المشاة. وتحملت الذين ابتزوا مالها ورزقها باسم الثوار! نهبها الفرنسيون ونهبت باسم الثورة أيضا! آخر

أيام الثورة أقساها. فالنهايات فوضى. ضاعت الطاسة فنهب الشاطر ما تبقى! نظم عادل العظمة مجموعات درك وطنية. لكنها صغيرة وقليلة. صرنا نخشى الجواسيس! صمت زمنا! هل يروي لمنور خلافات الزعماء أيضا؟ الشهبندر لايريد نسيب البكري في الغوطة ويقدم وصفي مكانه. في الغوطة مجلس وطني برئاسة البكري. لكن شوكت العائدي وأمين رويحة يطلبان للغوطة قيادة القاوقجي. يسند عادل العظمة سلطان الأطرش وعادل أرسلان ورشيد طليع. ويبحث الشهبندر عن حلفاء آخرين. في هذا الوقت وصل أول مندوب سامي مدني، دو جوفنينيل، وقال: "السلام لمن يريد السلام والحرب لمن يريد الحرب". اتصل بزعماء وفاوضهم. مالوا إلى مشروع مجلس تأسيسي. لكن الغوطة عزلت وطوقت. استشهد فؤاد سليم، وزكي الحلبي في المعارك الأخيرة. من حظي أني عرفت فؤاد سليم الذي أحبه سعيد! حاربنا في تموز من دوما إلى برزة وكفر بطنا. قصفتنا الطائرات والمدفعية. فشل خنق الغوطة لكن الجزائري والعائدي وغيرهم استشهدوا. بدأ برد الخريف الرطب وقصت عظامنا رطوبة الغوطة. تفرقنا، وبحث كل منا عن ملجأ! أدخلتني فلاحة إلى بيتها، أتت لي بملابس نظيفة. وقالت لي ادفن بارودتك في البستان! لفتها معي بأكياس وقش! عبر بي زوجها وأخوها البساتين. أوصلاني أخيرا إلى بساتين "وراء الدور" على مرمى حجر من سوقساروجا! أفادني أني كنت باسم آخر في الغوطة. عرف الجواسيس ملامحي؟ لكني دون صورة! تفاديت التصوير وليت أصحابي سمعوا نصيحتي فتفادوه! لكن أليست الصور مسؤولية أيضا تثبت هذه الثورة للمستقبل؟

وضع بهاء مذكراته في الدرج. رأتها منور وتجاهلتها. ويوم حدثها في الليل عن الأيام التي غاب فيها عنها في الثورة بدا لها أن روح بهاء تشف. لكنها فهمت أنه لا يستطيع أن يحدثها عن كل ما يؤرقه. ليس لأنه لا يأتمنها أو لأنه يشفق عليها، كما كان في بيروت، بل لأنه يخجل من الحديث عن ذلك الآن! كتب لها في مذكراته: قرأت مثلك يا منور كتب التاريخ. وما أكثر جفافها! فكأن الأحداث فيها دون ناس، أو كأن الناس صخر أصم! فلعلني فهمت في الجبل، والغوطة، وفي جيرود ومحيط حمص الروح التي لا يتحرك حجر دونها، ولا تنطلق رصاصة دونها. لم ينكر الرجال الذين تروى عنهم الأحداث ويصنعونها، قلق الروح والحزن والدموع. فيا عجبا أن ينكرها عليهم رواة الأحداث التي صاغوها! دون حب وقلق، دون دمع وفرح لا ينجز شيء. المسألة أن تسوسي تلك العواطف لا أن تنكريها، أن ترتبيها لا أن تكوني محمولة بها! فلو فكر الثوار في هدوء لما اندفعوا إلى فخ

المسيفرة، فحصدتهم الرشاشات والمدافع والطائرات في أرض مكشوفة!

سكت بهاء في تلك الليلة التي سهرا فيها حتى الفجر، وخيل إليه أنه يسمع تنفسه. استدار إلى منور ورجاها: حفظت هذه الكلمات التي كتبها زيد الأطرش. لعله لجأ إلى اللجاة والصفاة، ولعله الآن في وادي السرحان. اسمعيها يا منور، وغنها بأي لحن أردت!

يـا ديرتـي مالـك علينـا لـوم لا تعتبـي لومـك علـى مـن خـان

حنّـا روينـا سـيوفنا مـن القـوم مـا نرخصـك مثـل الـردى بأثمـان

وإن مـا تعـدّل حقنـا المهضـوم يـا ديرتـي مـا احنـا لـك سـكان

خيل لمنور في تلك الليالي التي استمعت فيها إلى بهاء أنه ينقل لها ما تعلّمه، كأنه يعرف أنها ستعيش بعده. لكنها فهمت أيضا أنه يحتاج أن تعرف بماذا أحس وكيف عاش، وأن يبقي لها ما لا يمكن أن يبوح به لآخرين كي يحفظ "أسرار" الثورة ويحمي بريقها. فهل يمكن أن يبوح بأن الجواسيس سببوا قتل كثيرين من أبناء بلدهم؟ وهل يمكن أن يحكي عن صراع الزعماء؟ هل يجوز أن يحدثها عن خطأ حسن الخراط يوم نزع من الثائر رمضان شلاش سيفه وخنجره والوسام الذي قدمه له الشريف حسين وقال له أنا أحق به منك، ففقدت الثورة عصابة رمضان شلاش! لكن لعله أيضا كشف هشاشة في روح رمضان! قالت له منور: الصراحة ترعش لكنها لا تضر! يجب أن يتعلم الزعماء أنهم خدم الناس لا ملوكهم! ويجب أن يتعودوا حق الناس في أن يحاسبوهم! فليكن الشهداء فقط مقدسين! أما الأحياء فليقدموا الحساب للأحياء! تحمل المدنيون خراب بيوتهم ودكاكينهم، نهبت ثروتهم، قطع شجرهم وخربت بساتينهم، فقدوا أولادهم ورجالهم. دفع الناس ثمن شجاعة الثوار وثمن أخطائهم! ألا يستحقون أن تعترفوا لهم بما قصرتم فيه؟ التفت إليها بهاء وتأملها. رفع يدها وقبلها. ألا يعني كلامها أنه حجب في بيروت عنها أسراره مع أنها هي التي كانت ستتحمل نتائجها؟ رتب ما عاشه من أحداث الثورة وهو يحاورها، وفهم أن عمقا آخر في علاقته بمنور بدأ. كم صبرت إذن كي ترفعه إلى قربها! وكم كان جاهلا أيام شغلته الغيرة عليها كأنها امرأة تميل مع الهوى! لم يفهم يومذاك أنها منيعة عليه وهي تعيش معه، فكيف يمكن أن تميل إلى آخرين والطرق إليها امتحانات صعبة وطويلة! كان يجب أن يتغير، أن يشترك في ثورة يمكن أن يموت فيها، كي يصل إليها! وكي يقول، ما أتعس الرجل الذي يتصور أنه يصل إلى امرأته لأنه زوجها! شعر بأنها

تتفوق عليه ببصيرتها وبنبلها، لكن ذلك لم يغضبه.

عاشا أشهرا وهي تستمع إليه وتحادثه فيستقدمان الأماكن والأشخاص. ويقيمان المآتم التي لم يكن لديه وقت ليقيمها، ويطلقان الرصاص فرحا بانتصارات سريعة لا وقت للاحتفال بها. وكانا خلال ذلك يتجولان في حب فهم فيه بهاء أن منور تجاوزت قيوده كلها وبقيت حرة كنبتة برية، وكشابة ربّيت كي تحكم نفسها. وخبا ما كان يتصوره أفراحا في سهرات سحره فيها حرص الراقصات والمغنيات على رضاه. وأخجله أنهن لبّين نزوات مجنونة تصور فيها أنه يعوض عن إهمال منور في الأيام التي حرصت فيها أن تتفاداه. هل صنف ذكرياته فميز المزيف من الحقيقي في أفراحه؟ كم تأخر! لكن كم يرعبه أن تكتشف منور نزواته القديمة! لذلك قرر ألا يعود معها إلى بيروت أبدا!

باع بهاء قبيل غيابه في الثورة بيتا من بيوت جنة خاتون. كانت "الحالة" راكدة. لا بيع ولا شراء، والبلد مرهقة بالغرامات والضرائب. من في يده قرش يحفظه ليوم أكثر سوادا. لذلك راح البيت رخيصا. لكن بهاء دفع من ثمنه غرامات عن أشخاص لم يستطيعوا دفعها. قال لمنور: يجب أن نبيع بيتا آخر! اختاريه أنت! يجهل بهاء مساومة التجار. وهل الحال بعد الثورة أفضل منها قبلها؟! قالت: سأطلب من نفيسة ومن إبن الكحال أن يساعدانا! أنت وأنا لسنا أولاد سوق!

بعد نهاية الثورة رتبت نفيسة الأوراق التي جمعتها على طاولتها. ابتسمت لنفسها: صرت كالطبري وابن الأثير! هل تزيح تلك الأوراق وتضع مكانها الفواتير؟ أنجزت ترتيب طاولتها وغرفتها كمن رجع من السفر، وخرجت من البيت. ستفكر وهي تمشي! رأت رجلا يحمل البنفسج والمضعف في فرش من الخشب على رأسه. اشترت منه باقة، شمتها، ثم زينت بها صدر ثوبها ووضعت المضعف في مزهرية. خيل إليها أن براعم زهر اللوز تفوح.

وجدها إبن الكحال مزينة بالبنفسج. هكذا يا إبن الكحال، أنجزنا هذا المقطع من العمر! ودعنا نوري في الحرب، وخالد آغا في ميسلون، وسعيدا في الثورة السورية! نظر إليها. لماذا هذا الأسى اليوم يا نفيسة؟ هذا ليس أسى يا إبن الكحال! لكني رتبت اليوم الأوراق التي جمعناها أيام الثورة، فرأيت فيها بعض عمرنا! لو كنا الآن في المساء لقصدت الأموي لألحق ضوء آخر النهار على الفسيفساء!

حملت المصنف من طاولتها ووضعته قربه. تحتفظ ببيان القومندان كاترو المتكبر: إن غاية الحكومة الأفرنسية هي مساعدة البلاد التي تحت انتدابها وترقيتها وإبلاغها لدرجة تؤهلها إلى الاستقلال التام وإدارة شؤونها كسائر الدول الراقية.. وإني أتأمل أن تنبذوا من بينكم كل من يرغب في التفريق والشقاق! لم يفهم، يا إبن الكحال، إذن جرح السوريين من الوصاية! لم يفهم قرار المؤتمر السوري سنة 1919 للجنة الأمريكية! مع ذلك أين تلك النية الطيبة يوم اجتاح الجبل؟ بيانه الآخر سنة 1921 هو صوته الحقيقي: الطيارات تحلق فوق أراضيكم، وقوة أفرنسية عظيمة متوجهة نحو السويداء، فإذا رفعتم أنظاركم أو حولتموها إلى الأرض رأيتم أمارات قوة وسطوة دولة عظيمة!..

كأن هذه الأوراق تسجل حياتنا، يا نفيسة! فهم إبن الكحال يومذاك أن نفيسة تتابع اضطرابات الجبل كرد على مقتل خالد آغا. فجمع لها أخبار الجبل حتى من المتسوقين والدرك. وفي بعض الأيام حمل لها الأوراق التي رمتها الطيارات. أمتعه أن يكون مراسلا لها! وجعلها ذلك تضحك ضحكتها القديمة: نرتب معك سجلات ياإبن الكحال! رد مداعبا مرجانة: نفيسة خانم تحضر حكاية سورية في أيام الانتداب يا مرجانة! هذه النشرات والأخبار تروي حياتنا يا إبن الكحال! تحكي نرجس خانم في اجتماعات صاحباتها الروايات التي كتبتها خالدة أديب! سأروي

أنا ما لا تحكيه نرجس! تناولت منه يومذاك منشورا جديدا وقالت: تلك الغيمات أتت بهذه المطرات! ما يفعلونه لا تجده في نوادر جحا! قلبت بيدها بيان مدير ناحية: لايذهب أحد من المنطقة إلى الجهة القبلية دون وثيقة من الحكومة. لا اجتماعات كبيرة لا في مأتم ولا في عرس. كل شخص يجب أن يخبر عن ضيفه ويعطي "معلومية" عنه. يقبض على كل من ليست في يده إجازة مرور في القرية. تقام نقاط مراقبة على حدود القرية. يلزم حتى المطلوب المريض بالحضور إلى المركز. يدفع أهل قرية أم الزيتون غرامة مائة ليرة عثمانية لتمنّعهم من الحضور إلى العاصمة. خمسون ليرة عثمانية ذهب من أهالي قرية بثينة جزاء.. وخمسون ليرة ذهب من أهالي قرية القحف. الغرامة على تأخير الغرامة من أم الزيتون كل يوم عشر ليرات عثمانية. يجب أن يطيع أهل القرى أوامر الحكومة. الجميع يجب أن يشارك في فتح الطريق. حضّرنا هدية للقومندان ترانكا: سيفا ذهبيا.

تبددت سخرية نفيسة يومذاك عندما بلغها إبن الكحال بيان المشايخ إلى مختار داما في آب 1924: "فليعلم كل من توطن هذا الجبل أو انتمى لحكومته بأن الذي يقصد الذهاب لشرق الأردن يكون جزاؤه أولا إلقاء الحرم على عموم أهل داره رجالا ونساء كبارا وصغارا، حرما شاملا وغضبا كاملا. حتى لو مات أحدا منهم يكون مرجوم غير مرحوم. أيضا بعد مرور سنة على تغيبه تخير زوجته بانفصالها عنه". أعطاها إبن الكحال بيان بعض رؤساء الدين في السويداء: كل قرية تقبل الجواسيس المستأجرين من الشريف عبد الله تحرم ويغلق جامعها. قالت نفيسة: يطاردون الثوار من جميع الأطراف!

يوم دخل إلى دمشق من جهة الشاغور زيد الأطرش ودروز من جرمانا مع نسيب البكري، والتقوا بثوار حسن الخراط وشوكت العائدي ومحمد الأشمر. قالت: وصلت الثورة إلى دمشق! وسألت إبن الكحال: ما العمل؟! تأملها فرآها متوهجة. كأنك يا نفيسة ستشتركين في الثورة! قالت: لكل إنسان يوم يا إبن الكحال! كان يوم خالد آغا يوم ميسلون. فأين يومنا نحن؟

حقا يا نفيسة! متى يومنا الذي نبلغ فيه الذرى ويبدو ما قبله سفوحا، وكأننا عشنا ونحن نحضّر أنفسنا له؟ ولكن هل الضروري أن نقتل فيه، أم يفترض أن يكون منه شروقنا؟ وقال لنفسه: يجب أن أحرس نفيسة! فالبحث عن الانتصارات عن بعد مغر. لم تر نفيسة بعد خراب الحرب!

هل تذكرت نفيسة كلمات إبن الكحال يوم تجولت في خرائب سيدي عامود وحرائق السنجقدار والميدان وسوق مدحت باشا والبزورية وهي تردد: ياويل

الظلاّم؟! صعدت نفيسة وهبطت طوال سنتين! ولتكشف الآن أسرارها! استقبلت بنت القضماني التي عرفتها بعد ميسلون. كان معها جرحى آوتهم نفيسة وداوتهم. ثم أتاها ثائر أخفته نفيسة! هل كان الثائر الذي آوته درزيا؟ وهل كان الجرحى من حماة أم من القلمون؟ بعد قصف دمشق واحتجاج القناصل سحب المفوض السامي سراي وأرسل مفوض مدني اسمه دو جوفنيل. أعلن أنه سيقابل الثوار، وقال "السلام لمن يريد السلام والحرب لمن يريد الحرب". لكنها قرأت بيان دو جوفنيل إلى الدروز: إن الواسطة الوحيدة للانتصار هي أن تتركوا سلاحكم.. اذكروا أنكم لا تقدرون على شيء ضد فرنسا. فقالت: مثل غيره! عدّت المفوضين السامين مع إبن الكحال: جورج بيكو، غورو، فيغان، سراي، دو جوفنيل، بونسو. وتساءلت يومذاك: ماذا تغير يا إبن الكحال؟ قال: تغير أنهم فهموا طلبات البلاد. الاستقلال وحكومة وطنية! ما طلبته قيادة الثوار في مؤتمر داما! لكن لابد من وقت كي يفهموا أنهم يجب أن ينفذوها! لا، يجب أن يتغيروا هم يا إبن الكحال! لازلت أسمع صرخة الجنرال أندريا حاكم جبل الدروز: سأطلع للسويداء مع قوات الحكومة وسأمكث فيها ولن أبارحها بتاتا! كان مع أندريا عشرة آلاف جندي ومدفعية ورشاشات وطائرات. وكان معاونه مثله. قال: اشترى الدمشقيون وأهل شرق الأردن سلطان الأطرش بالدراهم وقادوكم إلى القتل.. الذين يحرضونكم أجانب عن بلادكم.

لماذا خطر لنفيسة أن تجمع بيانات الفرنسيين وقصاصات الجرائد والأوراق المنقولة باليد؟ قرأت بيان كاترو الأول، فتركته على الطاولة التي كان يدرس عليها نوري وسعيد. وضعت الورقة التالية التي حملها لها إبن الكحال. ثم الورقة الثالثة. وعندما قلبت مجموعة الأوراق وجدت لهفتها وقلقها. أرّخت بورقة الغريب الذي خبأته في بيتها، وبورقة أخرى الجريح الذي داوته. قالت: كأنها تسجل حياتها! خذ ياإبن الكحال هذه الورقة التي نسخوها لي! هدية الغريب الذي أقام عندها يومين. "إلى فخامة مسيو دو جوفينيل! أظهرتم إشفاقكم على نساء الدروز وأطفالهم من الجوع وغيره، وفي الحقيقة الطريقة التي اتبعها الجيش الفرنساوي في رمي قنابل الطيارات والمدافع على المنازل والبيوت المأهولة بالنساء والأطفال أشد من الجوع والبرد".

خذ يا إبن الكحال اقرأ هذه الورقة القديمة! هذه شكوى هلال عز الدين الحلبي من كاربييه! أكره القرى على الاستقبالات مع الرقص واللعب والتعظيم وإلا فالغرامة. سجن الناس في مستودع الفحم وقدم لهم الماء المالح أربعة أيام، مع

الضرب.

دارت نفيسة مرات مع إبن الكحال وهي تحدق في الثورة. أبعدت بهاء في تلك الأمسيات لتقرأ الثورة كما تريد. قالت له مرة: مساكين! انتقلوا من الشمال إلى الجنوب لتبقى الثورة! وفي الجبل نادى سلطان القرى المحررة: مؤمل حضوركم جميعا خيل ورجال وبيارق مع مونة! ضرورة قوة في اللجاة ضد حملة أندريا! يا إبن الكحال، تبدو لي بعض النداءات كطلب النجدة. أشفقت على قائد الثورة وهو يطلب "للمصلحة ديناميت جلاتين كم إصبع". وينتصر لأنه وجد جملين لإرسال الطحين. ويدفع مائة جنيه مصري "ثمن حنطة نطحنهم ونرسلهم لقرية داما". فهل يمكن أن ترد الفروسية احتلال جيش عن بلد! هاجمت إحدى وعشرون طيارة السويداء صباحا والناس نيام. وفيها الدكتور الشهبندر وأمين رويحة. ورمت "قازانات" دون رحمة. لكن جمعية من جمعيات الثوار أشفقت على الخونة فقررت في 1926 "قطع اليد اليسرى للمذكورين بدل الإعدام، ينفذه الدرك الوطني". صدّق سلطان باشا على قرار اللجنة في معاملة الخونة لكنه أوصى "بإحالته إلى الأطباء رحمة بالإنسانية". فطلب قائد الدرك الوطني من أطباء مستشفى السويداء: "قطع أيدي الخونة يلزم يكون فني خدمة للإنسانية ورحمة بهم كيلا يموتوا من النزف. أرجوكم إجراء العملية في البنج"! فوجئ إبن الكحال برحمتها وبحزمها. سألها: تطلبين الشدة؟ ماذا تقول يا إبن الكحال! فينا نفّذت الشدة! هز رأسه حزينا. نعم، وقعت المصيبة! نحن هنا في بيوتنا. لكن نساء وأطفال ثوار الجبل رحلوا إلى شرق الأردن. وهل تكفيهم الإعانات من اللجنة المركزية في القدس التي تضبط المعونات!

رفضت قيادة الثورة أن تفاوض الفرنسيين على الثورة في الجبل. قررت في مؤتمر داما في اللجاة الاستمرار في الثورة، وطلبت الاستقلال التام، وحكومة وطنية، ومجلسا تأسيسيا. تنهدت نفيسة: لا يستطيعون الاستمرار في الثورة! لكنهم كيوسف العظمة يسجلون لزمن قادم أنهم لم يتنازلوا عن المشروع الوطني! ويدفعون الثمن!

كانت سنة 1926 موجعة لنفيسة. رأت فيها سعيدا بين القتلى في ساحة المرجة. فقدت البلاد فيها رجالا أغلى من الذهب! أحمد مريود والضابط فؤاد سليم. وقتل في الغوطة عادل النكدي الطالب في جامعة لوزان بسويسرا. ظلت نفيسة تردد شعره كأنها تردد صوت سعيد:

بـالله لا تنـدبوا قتلـي ولا تهنـوا بعدي ولا تغرقـوا فـي النـوح والحـزن

ملأت نهاية الثورة بيت نفيسة بالأسى. أخفى إبن الكحال عنها بعض الأخبار، وأخفت بعضها عنه. لكن وصلت أخبار عن أنصار الفرنسيين الذين هاجموا النازحين من المجدل إلى اللجاة. عادوا بأربعين رأس إنسان لضابط المخابرات الفرنسي، ثمن الرأس مئتان وأربعون فرنكا! وسرقوا مواشي النازحين. وصل نداء النجدة من سلطان باشا: عمال يموت أولادهم من البرد والجوع.. وكتب علي عبيد: "والخلاصة أننا بقينا في اللجاة واحد وأربعون يوما، كل يوم تضربنا الطيارات، وبهذه المدة حصل إحدى عشر موقعة أسقط الثوار فيها أربعة وعشرون طيارة للعدو وغنمنا أسلحة وذخائر.. كنا بغضون هذه المدة نحن وعموم سكان اللجاة، نفترش الصخور ونلتحف السماء والقسم الأوفر يأكل خبز الشعير"..

كان الأزرق رحمة. فهو مراعي الجبل مع أنه في التقسيم أردني. لكن الإنكليز منعوا الثوار من دخوله بعد اتفاقهم مع الفرنسيين على نفط الموصل. فهاجمتهم مدرعات وطائرات أحرقت خيام الأمير عادل أرسلان و"الشوام"، وأمسكت ماء حسان، فبقي الثوار دون ماء ثلاثة أيام. وكان ثمن جرعة ماء تسليم الفرس والبندقية. كتب علي عبيد: حرب سنتين لم تضايق الثوار بمقدار حرب الإنكليز شهرين. لذلك لم تبق للثوار غير اللجاة. فانتقل إليها قادة الثورة حتى هوجمت اللجاة من أنحائها كلها. في سنة 1927 انحسرت قوات الثوار إلى قلب اللجاة. واستمر الهجوم عليهم بالمتطوعة والطائرات. فتوسط شكري القوتلي لدى ابن سعود فرحلوا إلى وادي السرحان في صحاري نجد. وصلوا إليها منهكين من الجوع والعطش والقتال. وسيعيشون على مايرسل إليهم من المساعدات "عن طريق الحاج أمين أو عجاج نويهض".

أوجز شكيب أرسلان برسالته إلى علي عبيد مصير الثوار: سورية لا تقدرون أن تكونوا فيها. وشرق الأردن أخرجوكم منه عندما كنتم في الأزرق. وفلسطين كشرق الأردن وأشد منها. والعراق لا تقدرون أن تلجأوا إليه، ومصر كذلك، واليمن بعيدة..

عندما وصلت أخبار الخلافات بين الثوار قالت نفيسة: الصغائر أشد أسلحة الصراع! فلنطو الصفحة احتراما للقتلى! رددت الكلمات نفسها يوم سمعت نداء رمضان شلاش. قدمه لها إبن الكحال فقرأته ورمته: لن أضعه بين أوراقي! قل لي، كيف هان على رمضان شلاش ماضيه، يا إبن الكحال؟! الحق إذن مع حسن الخراط! "أستحلفكم أن تصغوا إلى نداء رجل وقف حياته رهن أمته وبلاده..

لو رأيت أن القتال وحده يوصلنا إلى أكثر مما يوصلنا إليه السلم الآن لما تركت يوما. وقد قابلت فخامة المفوض السامي الفرنسي المسيو دو جوفنيل فرأيت فيه الرجل الحر الشريف الذي يمكن أن نتفاهم معه"..

لم تقبل نفيسة أن تسمع تفاصيل الخلافات بين قادة الثورة التي اهتم بها إبن الكحال فصمت عن ذلك في حضورها. ما أخطر أن ينشغل الثوار بالصراع بينهم.

قل لي، يا إبن الكحال، أين المساعدة التي وعد بها الإنكليز الثوار؟ ألم يأتي من الرياض في تموز سنة 1926 فيلبي، معتمد الحكومة البريطانية، إلى قرية الكفر قرب معان ليقول لسلطان باشا والشهبندر إن إنكلترا مستعدة لمساعدة الثوار؟ ألم ينزل فيلبي إلى الكرك ليخبر الأمير عبد الله عن ذلك، وكان مع الأمير عبد الله مشايخ حوران وعادل العظمة! هذه يا نفيسة، مثل وعودهم للشريف حسين!

صارت نفيسة تختار المرور بالمرجة. ألم تكن طريق خالد آغا اليومية تمر من هنا وتمتد على ضفة بردى؟ الحب للغائب أكثر حرية من الحب للحاضر. تستطيع أن تحدث خالد آغا طوال طريقها. تسأله ويجيبها. بل خيل إليها أنه يتذوق معها الكنافة في دكان البائع قبل أن تختار علبة منها. جمعت تفاصيل حياته من نرجس وهذه جمعتها لها من رابية خانم. فأصبح خالد آغا أكثر حياة مما كان يوم عرفته. وخيل إليها أنها الآن تفهم الأرامل اللواتي يرفضن الزواج مرة أخرى رغم شبابهن. فالحي الذي يطلبهن باهت أمام الصورة التي يخزنّها في روحهن ويسقينها كل يوم بحوار وتفاصيل جديدة. تعبر ساحة المرجة وتذكّر خالد آغا بما رأته فيها. تقول له: شنقوا ابن حسن الخراط ووقفت لأبكي مع الناس عليه. وتسمع خالد آغا يواسيها: هجم على قصر العظم فهرب منه المندوب السامي فهل ذلك قليل يا نفيسة؟ فتقول له: حكت لي نرجس أن سراي كان كالديك المنفوش في عربته يوم وصل إلى دمشق وعبر الصالحية بين الخيالة. سألها خالد آغا: أما زالت نرجس تتفرج على الوداع والاستقبال حتى في هذه الأيام؟ وخجلت أن تقول له إنها جرّت نرجس مرات إلى ساحة المرجة لتقوم بواجبها في وداع القتلى. روت له أن حسن الخراط عرض قتيلا في الساحة، وأن أحمد مريود حمل مقتولا من جباتا الخشب في الجولان إلى الساحة ليعرض فيها. منعوا دفنه يا خالد آغا وتركوه في الشمس. فجمعنا الزهور وغطيناه بها. هل كان الجنود يستطيعون أن يمنعونا من رمي الزهور عليه! سمعت المارين يقولون له: عشت! خرجنا في مأتمه عندما فكوا أسره فدفنه أهل دمشق في مقبرة قبر عاتكة. يبدو أن الفرنسيين لم يفهموا أن جمال باشا فقد البلاد بعد إعدام رجالنا في أيار! يا نفيسة أكنت تعودين إلى هذه الساحة لولا ذلك؟ وما كانت ميسلون كما هي اليوم لولاك يا خالد آغا! كأن الموت العظيم يمدها ويغنيها! تصل نفيسة إلى البزورية مع خالد آغا. تكرر له في الدرويشية أن حي سيدي عامود دمر كله فضاع ما فيه من بيوت جميلة يعرف بعضها، وسماه الناس الحريقة! تريه سقف الحميدية المنقوش بالرصاص. لا يبتعد عنها خالد آغا وهي تنتقي مؤونتها من البهارات في البزورية، ويجلس معها في مخزن بائع البوظة في وسط سوق الحميدية، ويراقبها وهي تأكل بوظة بالفستق مدقوقة بالمدقة، أو صحن كشك الفقراء في الشتاء. يتأمل معها الراديو الضخم الخشبي في صدر الدكان. في المساء يجلس معها في بيتها وهي

تشرب القهوة مقابل سيفه المثبت على الجدار. في تلك الساعة لا تجرؤ مرجانة أن تفتح الباب أو النافذة. ولا تنهض نفيسة من مكانها إلا في أول العتمة عندما يصلها صوت المؤذن من مئذنة المدرسة الشامية في المغرب. تتساءل أحيانا: هل جننت؟ وتبتسم لنفسها! لم يقل أحد ذلك! لكن لعلها تكتشف مجاهل جديدة في روحها لم يعرف مثلها إلا المحب الذي فقد أحباءه بموت عظيم، وقدر له الاستمرار في الحياة.

نشر للمؤلفة

- ***أحب الشام***. مجموعة قصص. دمشق 1967
- ***في القلب شيء آخر***. مجموعة قصص. وزارة الثقافة 1979
- ***كتاب ومواقف***. دراسات أدبية. اتحاد الكتاب العرب 1983
- ***في سجن عكا***. مجموعة قصص. وزارة الثقافة 1984
- ***الهجرة من الجنة***. عن المدينة العربية. دمشق 1989
- ***لا مكان للغريب***. مجموعة قصص. اتحاد الكتاب العرب 1990
- ***دمشق ذاكرة الإنسان والحجر***. عن المدينة العربية. دمشق 1993
- ***حب في بلاد الشام***. رواية. اتحاد الكتاب العرب 1995
- ***مملكة الصمت***. مجموعة قصص. اتحاد الكتاب العرب 1997
- ***أعاصير في بلاد الشام***. رواية. اتحاد الكتاب العرب 1998

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

شـــــهداء فـــــي بـــــلاد الشـــــام: روايـــــة/ناديـــــة خوســـــت– [دمشق]: اتحاد الكتاب العرب، 2000 – 448 ص؛ 25سم.

1– 813.03 خ و س ش
2–813.009561 خ و س ش
3– العنوان
4– ياسين

ع– 2000/8/1417-
مكتبة الأسد

❑❑